السلسلة البلاغية
للدكتور سعيد جمعه (١)

خصـائص المـعانـي

الأستاذ الدكتور
سعيد جمعة
أستاذ البلاغة وعميد كلية الدراسات الإسلامية والعربية
بمدينة السادات

دار العلم والإيمان للنشر والتوزيع
دار الجديد للنشر والتوزيع

٤١٤
ج . س

جمعه ، سعيد أحمد .

السلسلة البلاغة للدكتور سعيد جمعه(١) / سعيد أحمد جمعه.-ط١.-

دسوق: دار العلم والإيمان للنشر والتوزيع، دار الجديد للنشر والتوزيع.

٣٦٠ ص ؛ ١٧.٥ × ٢٤.٥سم .
تدمك : ٢ - ٧٢٤ – ٣٠٨ – ٩٧٧ – ٩٧٨
١. البلاغة العربية .
أ - العنوان.

رقم الإيداع : ٢٤٧٨ .

الناشر : دار العلم والإيمان للنشر والتوزيع
دسوق - شارع الشركات- ميدان المحطة – بجوار البنك الأهلي المركز
هاتـف- فاكس : ٠٠٢٠٤٧٢٥٥٠٣٤١ محمول : ٠٠٢٠١٢٧٧٥٥٤٧٢٥-٠٠٢٠١٢٨٥٩٣٢٥٥٣
E-mail: elelm_aleman٢٠١٦@hotmail.com & elelm_aleman@yahoo.com
النـــاشـــر : دار الجـــديد للنشـــر والتـــوزيع
تجزءة عزوز عبد الله رقم ٧١ زرالدة الجزائر
هاتف : ٢٤٣٠٨٢٧٨ (٠) ٠٠٢٠١٣
محمول ٦٦١٦٢٣٧٩٧ (٠) ٠٠٢٠١٣ & ٧٧٢١٣٦٣٧٧ (٠) ٠٠٢٠١٣
E-mail: dar_eldjadid@hotmail.com

فهرس الموضوعات

بسم الله الرحمن الرحيم

المقـدمـة

الحمد لله ربّ العالمين ، الكريم المنان ، الذي يجود بالخير ،ويمن بالغفران سبحانه ، بالبر معروف، وبالإحسان موصوف، يغفر ذنوب المذنبين كرماً ويعفو عن المسيئين حلما ،يُحب من عباده أن يمدوا أيديهم إليه ، ويتمسحوا ببابه ويلحُّوا عليه ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد – ﷺ – خير من ربى أمة وأقام دولة ، وتركنا على المحجة البيضاء ، ليلها كنهارها ، لايزيغ عنها إلا هالك وعلى آله وصحبه أجمعين ، **ثم أما بعد** :

فإن الذي لا شك فيه أن البيان عما في النفس فطرة يحتاج إليها الجميع ويلجأ إليها في حِلِّه وترحاله ، وسِلمه وعدوانه ، وتتنوع سبل البيان إلى بيان باللفظ ، وبيان بالخط ، وبيان بالإشارة ، وبيان بالعقد ، وبيان بالحال .

ويقف البيان باللفظ على رأس عناصر البيان الإنساني ، فهو الوسيلة الأولى ، والنعمة الكبرى التي امتن الله بها على الإنسان فقال – سبحانه – :

" الرَّحْمَنُ عَلَّمَ الْقُرْآنَ خَلَقَ الْإِنْسَانَ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ "

(الرحمن ١ – ٤)

ولذلك كانت عناية الإنسان به غير محدودة ، وبخاصة الإنسان العربي حيث ضبط ألفاظه بعلم الصرف، وضبط جُمَلَه بعلم النحو ، وبَيَّنَ طرائق التجويد فيه بعلم البلاغة ، فالبلاغة علم يجعلك تتعرف على الخصوصيات داخل الكلام التي بها يرقي فوق كلام آخر .

ولا تزال اللغة العربية – رغم التربص بها – تدلف إلى القلوب ، وتأخذ طريقها إلى النفوس ضاربة بذلك أروع الأمثلة في الثبات على ألسنة الناس في الوقت الذي تتهاوى فيه لغات ، ولهجات تحت مطارق التطور ، وضربات العولمة ، وليس ذلك إلاَّ تأكيدًا على إعجازها ، المستمد من كتابها المُقدَّس – القرآن الكريم – لذلك وجب على كل مسلم تدبرُ هذا الكتاب ، امتثالا لأمر الله تعالى :﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ﴾ [سورة النساء:٨٢]

واعلم – رعاك الله – أن النظر إلى اللغة العربية ، ودراستها – نحوا أو صرفا ، أو بلاغة – إنما هو دِين ، أو على الأقل خدمة لهذا الدِين ، فاللغة دِين والبحث فيها قربى إلى الله تعالى ، والعكوف على أسرارها ، وخباياها ، يشبه – تماماً – قيام الليل ، والتسبيح والتحميد لله رب العالمين .

وللبلاغة – بأقسامها الثلاثة – المعاني والبيان والبديع – دور كبير في نهضة الأمة ، فهي الطريق إلى تربية الذوق ، وشحذ همته ، وحسن الطلب ورفعة الأداء ، والتلطف في الدعوة ، ومراعاة مقام كل مدعو كما أنها المظهر الحضاري للأمة الإسلامية حين تعبر عن دينها ، وتجلّيه للناس ، وتُبيّن معالمه وتشرح قوائمه ، وهي الوسيلة العظمى في تفنيد الشبهات ، ورد الطعنات ،

ولن تستطيع أن تُرَغِّب الناس في دينك إلا إذا أوتيت شيئا من جمال الأسلوب ، ودقة التعبير ، وحسن اصطفاء الألفاظ ، وعرفت متى تقول ؟، وماذا تقول ؟، وكيف تقول ؟، وتلك مقامات جُعِلَت البلاغةُ خادمة لها .

كما أن البلاغة تحرك طلاب العلم إلى عالم الأدب لدراسته، والنيل من بحوره الفياضة ، والنظر في شعر السابقين ، وكيف علا حتى أبهر أهله – وهم الفصحاء – فكتبوه بماء الذهب ، وتفاخروا به ، وعلقوه على قدس أقداسهم الكعبة المشرفة ؟ والبلاغة توقفك على ميزات هذا الشعر ، وعروق الذهب التي تجري في أعطافه ،ومواطن الدرّ التي تنتشر في أطرافه ، حتى بهرهم ، واستولى على قلوبهم .

وهي من وراء ذلك كله تجعل البليغ قادرا على إنشاء الأسلوب الرائق وتدربه على الجُمل الحِسان، وتأخذ بيده ليرتقي سُلّم البيان ، حتى يضع رجله بين أكابر البلغاء والحكماء .

كما أنها تعطيك مفاتيح البيان، لتفهم ما قال السابقون، وموطن البراعة في كلامهم، وكيف استطاعوا أن يقبضوا على المعاني المنثورة في الفضاء ليقيدوها بالألفاظ ، فتظل حبيسة هناك حتى تطلع عليها في زمانك ؟

ولهذا كله أجد أنه من الواجب على طلاب العلم،– الشرعي منه خاصة – أن يحرصوا على تعلم البلاغة،حتى يصلوا إلى فهم كتاب الله عز وجل،ووجه إعجازه ، وخصائصه التي بها بزَّ كلام العرب في شعرهم ، وحكمتهم وخطبهم .

كما يمكنهم فقه مراد المعصوم ﷺ في جوامع كلمه وكيف ارتقى حديثه ليبلغ قمة الفصاحة البشرية ؟ مما يجعلك ترى كل من يُغمِض في كلامه ، ويتعمد الإبهام في بيانه بعيداً كل البعد عن البلاغة العربية يقول خالد بن صفوان أحد الحكماء:(أبلغ الكلام ما لا يحتاج إلى الكلام) يعني : أنك تفهمه دون استفسار عن دلالاته ، ويقول أيضا : "خَيْرُ الكلام مَا طَرُفَتْ مَعَانيه"، وشَرُفَتْ مَبَانِيه والْتَذَّه آذان سَامِعِيه".وإذا كان الغرض من الكلام هو التعبيرُ عمّا في الفكر والإفصاح عن مشاعر النفس وأحاسيسها بأحسن صورة من اللفظ ، فإن الوضوح ، والظهور ، والإبانة ، هم السياق والإطار الذي ينبغي أن يشمل ذلك كله ، فالبلاغة بيان ، والفصاحة بيان ، بل إن العربية هي لغة البيان ، وكل ما يضاد ذلك بعيد عن العربية وبلاغتها.

وهذا الكتاب الذي بين يديك يحاول أن يسترفد الخطيب القزويني ، ومن قبله عبد القاهر الجرجاني ، ويقدم إلى القارئ وجبة تعتمد على الشرح والبسط لما قد يغمض ، ولا تنسى مستوى الطلاب في زماننا ، كما تستحضر الشاهد بسياقه حتى لا يغيب ما وراء النص من إشارات ، ويعرض هذا الكتاب عن كل ما ورد في الإيضاح من أمور تزاحم البلاغة وليست منها ، فالكتاب لن يذكر ألفاظ الخطيب ثم يشرحها ، كلا كلا ، إنما يقف على الأصول التي هي من صلب البلاغة ، ويحاول أن ييسرها لكل قارئ ، ويضرب صفحا عن الأمور التي تعكر صفو البلاغة، أو تحيد بالقارئ عنها.

وكل ذلك أقدمه إلى فتية وفتيات كرامٍ، أحبوا لغة العرب،لأنها تحمل رسالة السماء إلى الأرض ، ولأنها لسان الحبيب – ﷺ.وسميته خصائص المعاني [1].

١- تلخيص المفتاح والإيضاح كلاهما للخطيب القزويني ، والخطيب القزويني هو (محمد بن عبد الرحمن بن أحمد بن محمد بن عبد الكريم بن الحسن بن علي بن إبراهيم بن علي بن أحمد بن دلف بن أبي دلف العجلي أبو المعالي قاضي القضاة جلال الدين القزويني الدمشقي الشافعي ، ولد بالموصل سنة ٦٦٦ وسكن بلاد الروم، مع والده وأخيه واشتغل بالعلم وتفقه على والده وولي قضاء نيكسار من بلاد الروم ثم قدم دمشق وسمع من العز الفاروثي وطائفة وحدث وتفقه واشتغل في الفنون وأتقن الأصول والعربية والمعاني والبيان، وكان فهما ذكيا مفوهًا ذا ذوق سليم حسن الإيراد والمحاضرة حلو العبارة فصيحًا جميل الهيئة كبير الذهن جوادًا أديبًا حسن الخط، وناب عن أخيه الأكبر إمام الدين قاضي قضاة الشام إلى أن مات أخوه سنة ٦٩٩ ثم ولي خطابة جامع دمشق فأقام بها مادة طويلة ثم طلبه الملك الناصر إلى القاهرة في سنة ٧٢٤ وكان قدومه على البريد يوم الجمعة فاتفق أنه اجتمع بالناصر ساعة وصوله فأمر به أن يخطب بجامع القلعة فخطب مرتجلًا مع ما هو عليه من التعب وأثر السفر فأعجب به السلطان وشكره وسأله عن حاله وكم عليه من الدين فذكر أن عليه ثلاثين ألف فأمر بوفائها عنه فشافهه بقضاء دمشق فباشرها والخطابة جميعًا إلى أن ولاه قضاء الديار المصرية في سنة ٧٢٧ فعم أمره جدًّا وصرف مال الأوقاف على الفقراء والمحتاجين وحج مع السلطان فأعانه بمال وأحسن إلى المصريين والشاميين وكان لهم ذخرًا وملجأ ولم يزل علىحاله إلى أن أعيد إلى قضاء الشام بسبب أحوال أولاده وفرح به أهل الشام فأقام قليلًا وتعلل وأصابه فالج فمات منه في سنة ٧٣٩ عن ٧٣ سنة فأسفوا عليه كثيرًا وشيعه عالم عظيم، وللشعراء فيه مدائح كثيرة ومراث عددة وكان يرغب الناس في الاشتغال بأصول الفقه وفي المعاني والبيان. وتصنيفه المسمى تلخيص المفتاح مشهور ونظمه السيوطي وسماه عقود الجمان.. وله إيضاح التلخيص أيضًا. وكان يعظم الأرجاني الشاعر ويقول أنه لم يكن للعجم نظيره واختصر ديوانه فسماه "السور المرجاني من شعر الأرجاني". وقال الذهبي: عظم شأنه لماولي قضاء الديار المصرية وبلغ من العز ما لا يوصف بحيث لاترد له شفاعة وربما رمي علي يد السلطان نفسه وكان فصيحًا حلو العبارة، مليح الصورة، سمحًا حليمًا كثيرة التحمل وسيرته تحتمل كراريس، وذكر اليوسفي في سيرة الملك الناصر محمد أن القاضي كان محسنًا إلى الناس كثير التصدق والمكارم والبر لأرباب البيوت، قال: أنه لم يوجد لأحد من القضاة منزلة عند سلطان تركي نظير نزله جلال الدين، وكان الناصر يحتمل ما ينقل إليه من سيرة ولده حتى كان يقول لوالي البلد: أكبس فلانًا ثم يرسل إليه يقول: لا تفعل، نبقى في حياء من والده ... فرحمه الله تعالى عليهم وغفرانه.

- وأشهر مؤلفاته تلخيص المفتاح، والإيضاح في المعاني والبيان٢، وكانت وفاته عام ٧٣٩هـ، كمايقول صاحب الدرر الكامنة.

وتدل مؤلفات الخطيب في البلاغة على ثقافة بلاغية وأدبية واسعة وقراءة مستفيضة لأهم المؤلفات في البلاغة وفي مقدمتها: "أسرار البلاغة" و"دلائل الإعجاز" لعبد القاهر، والمفتاح للسكاكي.

ألف الخطيب مختصرًا صغيرًا للمفتاح في البلاغة، أو للقسم الثالث بعبارة أوضوح، وسماه "تلخيص المفتاح١" لخص فيه ذلك السفر القيم وقدم فيه وأخر، وحذف واختصر، وفيه بعض آراء له لم يرتضها جهابذة هذه الفنون، "ومن العجيب أن يسمي كتابه بهذا الاسم، وهو في رأي أحد الباحثين ليس بالتلخيص له وحده، بل أشبه بأن يكون تلخيصًا لكتابي أسرار البلاغة ودلائل الإعجاز لعبد القاهر ولسر الفصاحة لابن سنان الخفاجي.. وروح التلخيص من الكتاب الأخير واضح كل الوضوح في مقدمته"٢ وقد يكون في هذا الرأي لون من المبالغة، فمتن التلخيص ليس تلخيصًا للأسرار ودلائل وسر الفصاحة في قليل ولا كثير، إنما هو تلخيص للقسم الثالث من المفتاح وحده، وما فيه من روح التأثر بعبد القاهر فمرجعه إلى المفتاح نفسه، الذي اعتمد فيه السكاكي على عبد القاهر إلى حد بعيد. وقد يستساغ ذلك في الإيضاح لا في "تلخيص المفتاح".

ولقد انتهجت منهجا أراه أصوب وأقوم قيلا ، يقوم على تمهيد أتتبع فيه مراحل نشأة علم البلاغة حتى استوى على عوده ، ثم أسير على خطى كتاب الخطيب القزويني ليكون مرجعًا ومعتمدا ، يمسك بزمام المؤلف حتى لا تزلَّ قدمُه ، ثم أغوص من خلاله إلى الشواهد ، وأذكرها بتمامها أو بسياقها ، حتى يعتاد الطالب قراءة النص، وأحاول أن أستعيد مقامها ، وأذكر ما يضيء جوانبها ، وأعلق عليها ، واعتمدت في توثيق الأشخاص على كتاب الأعلام للزركلي غالبا ، وكنت أرجع إلى دواوين الشعراء لأرى السياق الكامل للشاهد فالسياق الكامل للشاهد يكشف كثيرا مما يواريه البيت الواحد ، وراجعت كتب الشراح ، والموازنات ، وكتاب خصائص

ثم ألف الخطيب كتابه الإيضاح في البلاغة على ترتيب التلخيص، وبسط القول فيه ليكون كالشرح له، فأوضح مواضعه المشكلة، وفصل معانيه المجملة، واعتمد على المفتاح والأسرار والدلائل وغير هذه المؤلفات في بحوثه ودراساته فيه، كما يشير إليه الخطيب نفسه في مقدمة الإيضاح. والكتاب "فيه أمهات مسائل هذه الفنون بعبارة واضحة فيها روح من أسلوب عبد القاهر الجامع بين التحقيق العلمي والرصانة الأدبية وعلى "تلخيص المفتاح للخطيب" كثير من الشروح والحواشي والتقارير مما يدل على مدى شهرته العلمية عند الباحثين. ولا يزال منهج الخطيب في البلاغة وفي تلخيصه بالذات هو المنهج العلمي في علوم البلاغة إلى عصرنا الراهن.

وكتاب الإيضاح عمل جليل في البلاغة سواء في ترتيبه وتقسيمه وتنظيم بحوثه، أم في استيعابه واستقصائه وتحليله، أم في جمعه واستمداده من شتى المصادر والمراجع، أم في أسلوبه الأدبي وروحه وكثرة تطبيقاته الأدبية، وهو أهم كتاب دراسي في البلاغة في العصر الحاضر.

وكتاب الإيضاح مقسم إلى: مقدمة وثلاثة فنون وخاتمة، فالمقدمة ليست من قبيل مقاصد علم البلاغة وتوابعها، بل هي تمهيد لذلك. والفنون الثلاثة هي من مقاصد البلاغة إلا أن موضوع كل فن منها يختلف عن موضوع الآخر، فموضوع الفن الأول -وهو علم المعاني- الاحتراز عن الخطأ في تأدية المعنى المراد، وموضوع الفن الثاني -علم البيان- الاحتراز عن التعقيد المعنوي، وموضوع الفن الثالث -البديع- ليس الاحتراز عن شيء أصلًا، بل مجرد تحسين اللفظ وتزيينه. والخاتمة تشمل السرقات والكلام علي حسن الابتداء والتخلص وحسن الخاتمة، فهي من الفن الثالث أو متصلة به بصلة كبيرة.

والمقدمة هنا لبيان معنى شيئين: الأول معنى الفصاحة والبلاغة، والثاني انحصار علم البلاغة في علمي المعاني والبيان، وكل ذلك مما يرتبط بالمقصود من الكتاب.. فالمقدمة هنا هي مقدمة كتاب.

وذكر معنى الفصاحة والبلاغة قبل الشروع في مسائل المعاني والبيان والبديع ضروري، لتوقف معرفة معانيها علي معرفة معنى البلاغة والفصاحة.

التراكيب للشيخ أبي موسى واجتهدت حتى أزلل للقارئ القواعد التي جمعها العلماء في كتبهم ، واكتفوا بالإشارة إليها تارة ، والاقتصار على بيت شعر تارة أخرى .

وبعد :

فإن الجهد إذا اختلط بالإخلاص فهو عند الله تعالى مأجور ، أصاب أم أخطأ ، فالله تعالى أسأل أن يجعل ما في هذا الكتاب حسنات بعدد من يقرأه وشفاعة يوم تأتي كل نفس تجادل عن نفسها ، والله حسبي ونعم الوكيل .

الأستاذ الدكتور / سعيد جمعة

عميد كلية الدراسات الإسلامية والعربية
مدينة السادات

الفصل الأول
مقدمات في البلاغة

حول نشأة علم البلاغة

الحديث عن نشأة البلاغة ليس حديثا عن فصاحة اللسان العربي فقط ولكنه حديث عن لفتات الفصحاء للخصوصيات التي تميز كلاما على كلام وكذا حديث عن الهنات التي يقع فيها اللسان لسهوٍ ، أو لغيره ، وهناك فرق كبير بين البلاغة التي ندرسها علما مكتملا ، والبلاغة التي تكونت على مر العصور حتى تأصلت في اللسان العربي ، وحين تقرأ أساليب العرب من شعر أو نثر تلحظ هذه البلاغة شاخصة في أدبهم ، بادية في ألفاظهم ومعانيهم ، فهم سدنة العربية ، الحاملين أختام فصاحتها ، ولذلك بدأت البلاغة بتلك اللفتات الكريمة من الكلام العالي ، **أو دعنا نقول عنها** :

ظاهرة الأساليب البارعة:

والعرب لم يعرفوا أنفس من الكلام العالي ، ولذا رفعوا صاحبه إلى مراتب الملوك ،وكتبوا كلامه بماء الذهب ، وعلقوه على الكعبة المقدسة ، وجعلوا ما يفعله الكلام بالنفس مثل ما يفعله السحر بالجسد ، وقد قال النبي ﷺ :

" إن من البيان لسحراً "[1]وقيل " لحكمة " فقرن البيان بالسحر فصاحة منه ﷺ ، وجعل من الشعر حكماً؛ لأن السحر يُخيِّل للإنسان ما لم يكن ؛ بسبب لطافته وحيلة صاحبه ، وكذلك البيان يتصور فيه الحق بصورة

---

١ ـ المستدرك على الصحيحين حديث رقم ٦٥٦٩.

الباطل، والباطل بصورة الحق؛ لرقة معناه، ولطف موقعه، وأبلغ البيانين عند العلماء الشعراء بلا مدافعة، **وقد قال رؤبة**[1] :

لقد خشيت أن تكون ساحراً ... راوية مراً ومراً شاعراً

فقرن الشعر أيضاً بالسحر لتلك العلة.) (٢)، وما ذلك كله إلاَّ لأن بلاغة الكلام لها سلطان على النفوس ، ولذلك تواصفوا البلاغة بأنها: (لمحة دالة **كقول امرئ القيس**:

أَلَمْ أُخْبِرْكَ أنّ الدّهْرَ غُولٌ ... خَتُورُ العَهْدِ يَلْتَهِمُ الرّجَالا

أزَالَ مِنَ المَصَانِعِ ذا رِيَاشٍ ... وَقَدْ مَلَكَ السّهُولَةَ والجِبالا

هُمَامٌ طَحْطَحَ الآفَاقَ وَحْياً ... وَسَاقَ إلى مَشَارِقِهَا الرِّعَالا

وَسدّ بحيثُ تَرْقى الشمسُ سَدّاً ... لِيَأجُوجٍ وَمَأجُوجٍ الجِبَالا

فإن تَهْلِكْ شَنُوءةُ أوْ تبَدَّلْ ... فسيرِي إنَّ في غَسَّانَ خَالا

بعِزّهِمِ عَزَزْتَ فَإنْ يَذِلّوا ... فَذُلْكُمُ أنَالَكَ مَا أنَالا

والختور هو المخادع ، وذو رياش هو أحد ملوك اليمن والمصانع هي المباني والحصون الضخمة ، وطحطح بمعنى دوَّخ ، والرعال جمع رعيل

١ - رُؤْبَة بن العَجَّاج ت ١٤٥ ه وهو رؤبة بن عبد الله العجاج بن رؤبة التميمي السعدي، أبو الجحّاف أو أبو محمد: راجز، من الفصحاء المشهورين، من مخضرمي الدولتين الأموية والعباسية. كان أكثر مقامه في البصرة، وأخذ عنه أعيان أهل اللغة، وكانوا يحتجون بشعره ويقولون بإمامته في اللغة. مات في البادية وقد أسنّ. وله (ديوان رجز - ط) وفي الوفيات: لما مات رؤبة قال الخليل: دفنا الشعر واللغة والفصاحة

٢ - العمدة في محاسن الشعر وآدابه لابن رشيق ١/ ٢٧.

وهي الجماعة من الإبل ، فبنية هذا الشعر على أن ألفاظه، مع قصرـها، قد أشير بها إلى معان طوال، فمن ذلك قوله: تهلك أو تبدل، ومنـه قولـه: إن في غسان خالا)(١).واستحسن العرب المعاني المبتكرة التي ابتكرهـا الشـعراء وفضوا أختامها **كقول امرئ القيس** :

(وقد أغتدي والطير في وكناتها — بمنجرد قيد الأوابد هيكل)

(مكر مفر مقبل مدبر معا — كجلمود صخر حطه السيل من عل)

(كميت يزل اللبد عن حال متنه — كما زلت الصفواء بالمتنزل)

(على الذبل جياش كأن اهتزامه — إذا جاش فيه حميه غلي مارجل)

(يزل الغلام الخف عن صهواته — ويلوي بأثواب العنيف المثقل)

(درير كخذروف الوليد أمره — تتابع كفيه بخيط موصل)

(له أيطلا ظبي وساقا نعامة — وإرخاء سرحان وتقريب تتفل)

---

١ - نقد الشعر لقدامة بن جعفر ١/ ٥٨.

فإنما أراد أن يصف هذا الفرس بالسرعة وأنه جواد، فلم يتكلم باللفظ بعينه، ولكن بأردافه ولواحقه التابعة له، وذلك أن سرعة إحضار الفرس يتبعها أن تكون الأوابد – وهي الوحوش – كالمقيدة له إذا نحا في طلبها.

والناس يستجيدون لامرئ القيس هذه اللفظة، فيقولون: هو أول من قيد الأوابد، وإنما أراد بها الدلالة على جودة الفرس وسرعة جريه ، فلو قال ذلك بلفظه لم يكن الناس من الاستجادة لقوله مثلهم عند إتيانه بالردف له.(١)فامرؤ القيس أول من قال في وصف الفرس (قيد الأوابد) وأول من قال في المرأة(بيضة خدر) .

ومن الأساليب العالية ما يحرك الهمم ، ويزكي النفس حتى وإن قيل في الجاهلية ، وهل ننكر قول عنترة حين سبه أحدهم وقال : يا أسود ، فكان رده عليه لوحة بلاغية رائعة **يقول فيها**:

فإن أك أسودا فالمسك لوني ... وما لسواد جلدي من دواءِ
ولكن تبعد الفحشاء عني ... كبعد الأرض عن جو السماءِ

هل تستطيع أن تضع هذه اللوحة إلا فوق رؤوس البيان ؟

١ - السابق ١/ ٥٩.

ملاحظات على هنات:

يذكر المؤرخـون للبلاغـة العربيـة أن مـن أوائـل الإشـارات في علـم البلاغة الملاحظات النقدية التي يراها السامع ، وينبه عليها الشاعر وبدأ ذلك منذ العصر الجاهلي ، وكان الأمر لا يتعدى الملاحظات الطارئة التي تلتقطهـا الأذن عند سماع الشعر ، فهذا يرى كلمة غـير مناسـبة ، وذاك يلحـظ صـيغة لاتطابق الحال وثالث يلحظ إعرابا لا يتوافق والقاعدة . إلخ .

لكن الأمر لم يكن يتعـدى ذلـك ، فيصـحح الشـاعر بيتـه أو قصـيدته بنفسه حين ينتبه ، أو يُنبّه ، وينتهي الموقف ، ومما يروي في ذلـك أن المـتلمس (١)شاعر ربيعة في زمانه وخال طرفة بن العبد (٢).

وقف على مجلس لقومـه مـن بنـي قـيس بـن ثعلبـة(٣)فاستنشـدوه ، فأنشدهم شعراً ، وكان طرفة يلعب مع الصبيان ويتسمَّع، **فقال المتلمس:**

وَقَدْ أَتَنَاسَى الهمَّ عِنْدَ احْتِضَارِهِ بِنَاجٍ عَلَيْهِ الصَّيْعَرِيَّةُ مكدم
كُمَيْتٍ كَنَازِ اللَّحْمِ أوْحِمْيَرِيَة مُوَاشِكَة تَنْفِى الحَصَى بِمُلَثَّمِ

---

١ - المُتَلَمِّس (٠٠٠ - نحو ٥٠ ق هـ = ٠٠٠ - نحو ٥٦٩ م) وهو جرير بن عبد العزّي - أو عبد المسيح - من بني ضُبَيعة، من ربيعة: شاعر جاهلي، من أهل البحرين. وهو خال طرفة بن العبد. كان ينادم عمرو بن هند (ملك العراق) ثم هجاه، فأراد عمرو قتله ففر إلى الشام، ولحق بآل جفنة (ملوكها) ومات ببصرى (من أعمال حوران - في سورية) وفي الأمثال (أشأم من صحيفة المتلمس) وهي كتاب حمله من عمرو ابن هند إلى عامله بالبحرين، وفيه الأمر بقتله. ففضه وقرئ له ما فيه، فقذفه في نهر الحيرة، ونجا.له (ديوان شعر - ط) فيه ما بقي من شعره، وقد ترجمة إلى الألمانية المستشرق فولرس راجع الأعلام للزركلي ٢/ ١١٩.

٢ - طَرَفَة بن العَبْد (نحو ٨٦ - ٦٠ ق هـ = نحو ٥٣٨ - ٥٦٤ م) وهو طرفة بن العبد بن سفيان بن سعد البكري الوائلي، أبو عمرو: شاعر، جاهلي، من الطبقة الأولى. ولد في بادية البحرين، وتنقل في بقاع نجد. واتصل بالملك عمرو بن هند فجعله في ندمائه. ثم أرسله بكتاب إلى المكعبر (عامله على البحرين وعمان) يأمره فيه بقتله، لأبيات بلغ الملك أن طرفة هجاه بها، فقتله المكعبر، شابا، في (هجر) قيل: ابن عشرين عاما وقيل: ابن ست وعشرين. أشهر شعره معلقته، ومطلعها: (لخولة أطلال ببرقة ثهمد) وقد شرحها كثيرون من العلماء. وجمع المحفوظ من شعره في (ديوان - ط).

٣ - قيس بن ثعلبة بن عكابة، من بني بكر بن وائل: جدّ جاهلي. بنوه: سعد، وتيم، وعباد، وضبيعة، بطون منها مشاهير .

كأن على أنْسَائِهَا عِذْقَ خَصْبَةٍ تَدَلَّى مِنْ الكَافُورِ غَيْرَ مُكَمَّمِ

فلما سمع طَرَفة البيتَ قَال: (استنوقَ الجمل)، وضحك الناس، قَالوا: فدعاه المتلمس وقَال له: أَخْرِجْ لسانَكَ، فأخرجه فإذا هو أَسْوَد، فَقَال: وَيْلٌ لهذا من هذا. فَكَانَ هَلَاكه بِلِسَانِهِ حيث هجا يوما عَمْرو بن هِنْد ، فَقتله ، وكان ضحكهم بسبب أن غلاما صغيرا استدرك على الشاعر الكبير ، واستدرك عليه شيئا ما كان ينبغي أن يغيب على المتلمس ، ثم إن الجملة التي نطق بها طرفة وهو غلام تثير الضحك ، وهي (استنوق الجمل)، لأن الصيعرية سمة للناقة وليست للجمل ، وذهبت كلمة طرفة مثلا يضربه الناس لكل شيء وضعت فيه سمات الأنثى مكان سمات الذكر، أو تم فيه الخلط بين الجنسين [1]ويروى أن تلك القصة كانت مع عمرو بن كلثوم[2].

لا مع المتلمس [3].

ومن أشهر الأمثلة في الملاحظات النقدية التي بنيت عليها دعائم البلاغة وكانت أساسا لعلم المعاني ملاحظات النابغة الذبياني على سيدنا حسان بن ثابت حيث لاحظ الفروق الدقيقة بين التعبير بجمع المذكر والتعبير بجمع المؤنث وكذا الفروق بين دلالة الكلام على المعاني ، فالآنية

---

١ - المكدم من الفعل (ك د م) كدمه: عضّه بأدنى الفم، وحمارٌ مكدّم: معضّض. ومن المجاز: قولهم للدوابّ إذا لم تستمكن من الحشيش: إنها لتكدم الحشيش. وبقيت من المرعى كدامة: بقيّة، ويقال: " كدمت غير مكدم " أي طلبت غير مطلب.

٢ - عَمْرو بن كُلْثُوم(٠٠٠ - نحو ٤٠ ق هـ = ٠٠٠ - نحو ٥٨٤ م) عمرو بن كلثوم بن مالك بن عتّاب، من بني تغلب، أبو الأسود: شاعر جاهلي، من الطبقة الأولى. ولد في شمالي جزيرة العرب في بلاد ربيعة. وتجوّل فيها وفي الشام والعراق ونجد. وكان من أعز الناس نفسا، وهو من الفتاك الشجعان. ساد قومه (تغلب) وهو فتى، وعمر طويلا. وهو الّذي قتل الملك عمرو بن هند. أشهر شعره معلقته التي مطلعها: " ألا هبّي بصحنك فاصبحينا " يقال: إنها كانت في نحو ألف بيت، وإنما بقي منها ما حفظه الرواة، وفيها من الفخر والحماسة العجب. مات في الجزيرة الفراتية .

٣- جمهرة أشعار العرب ص ٤٠ = ٤١

حين تكون ملأى بالطعام لها ألفاظ خاصة ، وحين تكون فارغة لها ألفاظ أخرى ، والفرق بين دلالة جمع الكثرة ، وجمع القلة ، وخصوصية الألفاظ في الدلالة على المعاني حين ترتبط بالسياق ، ثم علاقة الكلام بسياقه ومقامه ، وعادات الناس ، وهذه كلها من أصول البلاغة التي تسكن هذه اللغة ، ويبحث عنها النقاد بين جنبات الكلام والرواية تقول : إن النابغة كان يضرب له قبة في سوق عكاظ (١)من أُدمٍ ، وكان يحكم فيها بين الشعراء فيجيز هذا ، ولا يجيز هذا ، وحدث أنه استنشده جمع من الشعراء ، منهم

الأعشى ٢ والخنساء ٣وحسان بن ثات ١ ، وكل ذلك قبل الإسلام فأعطى إجازته للأعشى ، واستحسن شعر الخنساء ، وأجازها على سائر

---

١ - الأرض الواسعة الواقعة شرق الطائف -بميل نحو الشمال- خارج سلسلة الجبال المطيفة به، وتبعد تلك الأرض عن الطائف مسافة "٣٥كم" تقريبا كانت سوق عكاظ ميدانا للتجارة، وفداء الأسرى، والمفاوضة في الرأي، وتبادل الأفكار؛ كما كانت ميدانا للمنافرة والمفاخرة وإنشاد القصائد، وكان بها في الجاهلية منابر يقوم عليها الخطباء، فيقف أشراف القبائل مفاخرين بمناقبهم ومآثر قومهم. وكانت معرضا للبلاغة ومدرسة بدوية يلقى فيها الشعر والخطب، وينقد ذلك كله ويهذب، وفيه أنشد ابن كلثوم معلقته، ويقال: إن المعلقات أنشدت فيها، كما أنشد فيها الأعشى مدحته المحبرة في المحلق. وممن ألقى فيها مدائحه حسان، كما كانت الخنساء تلقي فيها مراثيها وتعاظم بمصيبتها. وكان النابغة تضرب له قبة حمراء في سوق عكاظ ويجتمع عليه الشعراء فيتحاكمون إليه. أتاه الأعشى يوما فأنشده، ثم أتاه حسان، فقال: لولا أن أبا بصير أنشدني آنفا لقلت: إنك أشعر الجن والإنس، قال حسان: والله لأنا أشعر منك ومن أبيك وجدك، فقبض النابغة على يده، وقال: يابن أخي، أنت لا تحسن أن تقول: فإنك كالليل الذي هو مدركي ... وإن خلت أن المنتأى منك واسع

٢ - ميمون بن قيس بن جندل، من بني قيس بن ثعلبة الوائلي، أبو بصير، المعروف بأعشى قيس، ويقال له أعشى بكر بن وائل، والأعشى الكبير (ت ٧ ه) : من شعراء الطبقة الأولى في الجاهلية، وأحد أصحاب المعلقات. كان كثير الوفود على الملوك من العرب والفرس، غزير الشعر، يسلك فيه كل مسلك، وليس أحد ممن عرف قبله أكثر شعرا منه. وكان يغنّي بشعره، فسمي (صنّاجة العرب) قال البغدادي: كان يفد على الملوك ولا سيما ملوك فارس،ولذلك كثرت الألفاظ الفارسية في شعره. عاش عمرا طويلا، وأدرك الإسلام ولم يسلم. ولقب بالأعشى لضعف بصره. وعمي في أواخر عمره. مولده ووفاته في قرية (منفوحة) باليمامة قرب مدينة (الرياض) وفيها داره، وبها قبره. أخباره كثيرة، ومطلع معلقته:

(ما بكاء الكبير بالأطلال ... وسؤالي وما ترد سؤالي)

جمع بعض شعره في ديوان سمي (الصبح المنير في شعر أبي بصير - ط) وترجم المستشرق الألماني جاير Geyer بعض شعره إلى الألمانية.

٣ - تُماضر بنت عمرو بن الحارث بن الشريد، الرياحية السُّلَمية، من بني سُليم، من قيس عيلان، من مضر(ت ٢٤ه) أشهر شواعر العرب، وأشرهن على الإطلاق. من أهل نجد، عاشت أكثر عمرها في العهد الجاهلي، وأدركت الإسلام فأسلمت. ووفدت على رسول الله صلّى الله عليه وسلم مع قومها بني سليم، فكان رسول الله يستنشدها ويعجبه شعرها، فكانت تنشد وهو يقول: هيه يا خنساء! أكثر شعرها وأجوده رثاؤها لأخويها (صخر ومعاوية) وكانا قد قتلا في الجاهلية. لها (ديوان شعر) فيه ما

النساء وكانت تبغي إجازتها على الجميع ، لولا أن الأعشى سبقها ، فلما جاء دور حسان بن ثابت ، فضل النابغة عليه الخنساء ، فقال حسان : أنا والله أشعر منك ومنها فقال النابغة : حيث تقول ماذا ؟ **قال حيث أقول** :

مَتَى ما تَزُرْنا مِن مَعَدٍّ بعُصْبَةٍ … وغَسَّانَ نَمْنَعْ حَوْضَنا أَنْ يُهَدَّمَا

بِكُلِّ فَتَى عَارِي الأَشَاجِع لاَحَهُ … قِرَاعُ الكُمَاةِ يَرْشَحُ المِسْكَ والدَّمَا

وَلَدْنا بَنِي العَنْقَاءِ وابْنَ مُحَرِّقٍ … فأَكْرِمْ بِنا خالاً وأَكْرِمْ بِنا ابْنَمَا

يُسَوّدُ ذو المالِ القَليلِ إذا بَدَتْ … مُرُوءتُهُ فِينا وإنْ كانَ مُعْدِمَا

أَلَسْنا نَرُدُّ الكَبْشَ عن طِيَّةِ الهَوَى … ونَقْلِبُ مُرَّانَ الوَشِيجِ مُحَطَّمَا

لنا الجَفَناتُ الغرُّ يَلْمَعْنَ بالضُّحَى … وأَسْيافنا يَقْطُرنَ من نَجْدَةٍ دَمَا

أَبَى فِعْلنا المَعْرُوفَ أَنْ نَنْطِقَ الخَنا … وقائِلنا بالعُرْفِ إلاَّ تَكَلَّمَا

فقال النابغة : إنك لشاعر ، غير أنك – لاحظ :

- قللت جفانك ، ولو قلت : لنا الجفان لكان أولى .
- وقلت : (يلمعن بالضحى) ، ولو قلت : يبرقن بالدجى ، لكان أولى .
- وقللت أسيافك ، ولو قلت : (وسيوفنا) لكان أولى .

بقي محفوظا من شعرها. وكان لها أربعة بنين شهدوا حرب القادسية (سنة ١٦ هـ فجعلت تحرضهم على الثبات حتى قتلوا جميعا فقالت: الحمد لله الّذي شرفني بقتلهم! .

١-(ت ٥٤ هـ) حسان بن ثابت بن المنذر الخزرجي الأنصاري، أبو الوليد: الصحابي، شاعر النبي صلى الله عليه وسلم وأحد المخضرمين الذين أدركوا الجاهلية والإسلام. عاش ستين سنة في الجاهلية، ومثلها في الإسلام. وكان من سكان المدينة. واشتهرت مدائحه في الغسانيين، وملوك الحيرة، قبل الإسلام، وعمي قبيل وفاته. لم يشهد مع النبي صلّى الله عليه وسلم مشهدا، لعلة أصابته. وكانت له ناصية يسدلها بين عينيه. وكان يضرب بلسانه روثة أنفه من طوله، قال أبو عبيدة: فضل حسان الشعراء بثلاثة: كان شاعر الأنصار في الجاهلية، وشاعر النبيّ في النبوّة، وشاعر اليمانيين في الإسلام. وكان شديد الهجاء، فحل الشعر. قال المبرد (في الكامل) : أعرق قوم كانوا في الشعراء آل حسان، فإنّهم يعدون ستة في نسق، كلهم شاعر، وهم: سعيد بن عبد الرَّحمن بن حسَّان بن ثابت بن المنذر ابن حَرام. توفي في المدينة.

- وقلت : (يقطرن) ، ولو قلت : يسلن ، أو يجرين لكان أولى .
- وفخرت بمن ولدت والعرب لا تفخر إلا بالآباء . فقام حسان منكسرا.[1].

وهذه الملحوظات لا تكون إلاَّ من خبير بقواعد البناء البلاغي للشعر والفروق الدقيقة التي توضح خصائص اللفظ ، ودلالات الصيغ ، ودلالة السياق ، ثم علاقة كل ذلك بعادات القوم ، وما ارتضوه من وسائل الفخر .

وهذه الملحوظات على شعر حسان لا تغض الطرف عنه ، فهذا الشعر مما كان يتباهى به الأنصار ، ويعدونهم من مفاخرهم ، فلقد جاء عن إبراهيم بن محمد بن سعد بن أبي وقاص، أنه قال: قدم الفرزدق (٢) المدينة، قال: فإني

---

١ - الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني ٩/ ٣٤٠ والعمدة في محاسن الشعر وآدابه لابن رشيق ١/ ١٢٧ والأمالي للمروقي ١ / ٤٣

٢ - هو همَّام بن غالب بن صعصعة التميمي الدارميّ، أبو فراس، الشهير بالفرزدق (ت ١١٠ ه) : شاعر، من النبلاء، من أهل البصرة، عظيم الأثر في اللغة، كان يقال: لولا شعر الفرزدق لذهب ثلث لغة العرب، ولولا شعره لذهب نصف أخبار الناس. يشبه بزهير بن أبي سلمى. وكلاهما من شعراء الطبقة الأولى، زهير في الجاهليين، والفرزدق في الإسلاميين. وهو صاحب الأخبار مع جرير والأخطل، ومهاجاته لهما أشهر من أن تذكر. كان شريفا في قومه، عزيز الجانب، يحمي من يستجير بقبر أبيه - وكان أبوه من الأجواد الأشراف - وكذلك جده. وفي شرح نهج البلاغة: كان الفرزدق لا ينشد بين يدي الخلفاء والأمراء إلا قاعدا، وأراد سليمان بن عبد الملك أن يقيمه فثارت طائفة من تميم، فأذن له بالجلوس! وقد جمع بعض شعره في " ديوان - ط " ومن أمهات كتب الأدب والأخبار " نقائض جرير والفرزدق - ط " ثلاثة مجلدات كان يكنى في شبابه ب أبي مكية، وهي ابنة له.ولقب بالفرزدق، لجهامة وجهه وغلظه. وتوفي في بادية البصرة، وقد قارب المئة. وأخباره كثيرة. وكان مشتهرا بالنساء، زير غوان، وليس له بيت واحد في النسيب مذكور. وقال المرتضى: كان يحسد على الشعر ويفرط في استحسان الجيّد منه.

والفرزدق وكُثير عزة [1] لجلوس في المسجد نتناشد الأشعار ونتذكر أيام العرب إذ طلع غلام شخت آدم في ثوبين ممصرين، ثمَّ قصد نحونا حتَّى انتهى إلينا، فلم يسلم وقال: أيكم الفرزدق؟

قال إبراهيم: فقلت له مخافة أن يكون من قريش، وهكذا تقول لسيد العرب وشاعرها؟ قال: لو كان كذلك لم أقل له هذا.

قال له الفرزدق: من أنت لا أمّ لك ؟

قال: رجل من الأنصار، ثمَّ من بني النجار، ثمَّ أنا ابن أبي بكر بن حزم. قال: أنا الفرزدق فما حاجتك لا أم لك؟

قال: بلغني أنك تزعم أنك أشعر العرب، وتزعمه مضر، وقد قال صاحبنا حسان بن ثابت شعراً فأردت أن أعرضه عليك، وأؤجلك فيه سنة، فإن قلت مثله فأنت أشعر العرب، وإلا فأنت كذاب متنحل.

قال الفرزدق: هات ويلك .

فأنشده قول حسان السابق ، وقال: إني أجلتك فيها حولاً، ثمَّ انصرف

وقام الفرزدق مغضباً يسحب رداءه لا يدري أين طرفه، حتَّى خرج من المسجد، وأقبل عليَّ كثير عزة فقال: قاتل الله الأنصاري، ما أفصح لهجته وأوضح حجته.

---

١ - كُثَيِّر عَزَّة(٠ت ١٠٥ هـ) وهو كثير بن عبد الرحمن بن الأسود بن عامر الخزاعي، أبو صخر: شاعر، متيم مشهور. من أهل المدينة. أكثر إقامته بمصر. وفد على عبد الملك بن مروان، فازدري منظره، ولما عرف أدبه رفع مجلسه، فاختص به وببني مروان، يعظمونه ويكرمونه. وكان مفرط القصر دميما، في نفسه شمم وترفع. يقال له " ابن أبي جمعة " و " كثير عزة " و " الملحي " نسبة إلى بني مليح، وهم قبيلته، قال المرزباني: كان شاعر أهل الحجاز في الإسلام، لا يقدمون عليه أحدا. وفي المؤرخين من يذكر أنه من غلاة الشيعة، وينسبون إليه القول بالتناسخ، قيل: كان يرى أنه " يونس ابن متى " أخباره مع عزة بنت حميل الضمرية كثيرة. وكان عفيفا في حبه قيل له: هل نلت من عزة شيئا طول مدتك؟ فقال: لا والله، إنما كنت إذا اشتد بي الأمر أخذت يدها فإذا وضعتها على جبيني وجدت لذلك راحة. توفي بالمدينة.

قال: فلم نزل في حديثهما بقية يومنا، حتَّى إذا كان الغد خرجت من منزلي إلى المسجد، فجلست في المجلس الذي كنت فيه بالأمس، وأتاني كثير فجلس معي فإنّا لنتذاكر الفرزدق ونقول: ليت شعري ما فعل الفرزدق، إذ طلع علينا في حلّة أفواف ، له غديرتان حتَّى جلس في مجلسه بالأمس ، ثمَّ قال: ما فعل الأنصاري؟

فنلنا منه وشتمناه، فقال: قاتله الله ، ما رميت بمثله ، ولا سمعت بمثل شعره قط ، فارقتكما ، فأتيت منزلي، وأقبلت أصعِّد وأصوِّب في كل فن من الشعر، فكأني مفحم لم أقل شعراً قط ، حتَّى إذا نادى المؤذن بالفجر، رحلت ناقتي، ثمَّ أخذت بزمامها فقدتها حتَّى أتيت ذباباً، ثمَّ ناديت بأعلى صوتي: أجيبوا أخاكم أبا لبينى – يقصد : شيطان الشعر – فجاش صدري كما يجيش المرجل فعقلت ناقتي، ثمَّ توسدت ذراعها، فما قمت حتَّى قلت مائة وثلاثة عشر بيتاً فبينا الفرزدق ينشد إذ طلع الأنصاري، فأقبل نحونا حتَّى إذا انتهى إلينا سلم ثمَّ قال: أما إني لم آتك لأعجلك عن العجل الذي وقّت لك، ولكني أحببت ألا أراك إلاّ سألتك ما صنعت، فقال له الفرزدق: اجلس لا أم لك، ثمَّ أنشده:

عزفتَ بأعشاشٍ وما كدتَ تعزفُ وأنكرتَ من حدراءَ ما كنتَ تعرفُ

حتى أكمل القصيدة كلها).[1] فصنيع الفرزدق ، واستنجاده بالجن وفرار النوم من عينه ، ووصفه لشعر حسان بأنه ما سمع بمثله ، وأنه أفصح

---

١ - شرح نقائض جرير والفرزدق لأبي عبيدة معمر بن المثنى (برواية اليزيدي عن السكري عن ابن حبيب عنه)تحقيق: محمد إبراهيم حور - وليد محمود خالص ٢/ ٧٠٤.

لهجة وأصدق حجة إلخ كل ذلك دليل على علو كعب شعر سيدنا حسان لكن مع هذا أخذ عليه النابغة ما أخذ .

وتلك القصيدة التي أنشدها الفرزدق ، وقعت فيها هنة منه حيث إنه عطف كلمة مرفوعة على كلمة منصوبة ، **في البيت الذي يقول فيه** :-

وعضُّ زَمَان يا ابن مروان لم يَدَعْ ... من المال إلا مُسْحَتًا أو مُجَلَّفُ(١)

وأنقل لك القصيدة بتمامها حتى تدرب لسانك وعقلك على الكلام العالي يقول فيها :

عَزَفْتَ بِأَعشاشٍ وَمَا كِدْتَ تَعزِفُ ... وَأَنْكَرْتَ مِنْ حدراءَ ما كُنْتَ تَعْرِفُ

وَلجّ بِكَ الهجْرانُ، حتَّى كَأنّما ... تَرَى المَوْتَ في البَيْتِ الذي كُنْتَ تَأْلَفُ

١ - ويروى أن الفرزدق أنشد هذه القصيدة لعبد الله بن إسحاق، فلما بلغ البيت المستشهد به قال له عبد الله: علام رفعت "أو مجلف" فقال الفرزدق: على ما يسوءك وينوءك! علينا أن نقول: وعليكم أن تتأولوا. ولم يدع: أي لم يترك، والمسحت -بضم أوله على زنة اسم المفعول- هو المستأصل الذي فني كله ولم يبقَ منه شيء، والمجلف -بالجيم على زنة المعظم- الذي قد ذهب أكثره وبقي منه شيء يسير. واعلم قبل كل شيء أن أصل الرواية في هذا البيت على ما رواها المؤلف بنصب"مسحتا" ورفع "مجلف" وقد تكلم العلماء في ذلك فأطالوا وقالوا فأكثروا وتعبوا في طلب الحيلة ولم يأتوا بشيء يرتضى هكذا قال ابن قتيبة، وقال الزمخشري كلامًا قريبًا منه، ونحن نذكر لك أربعة تخريجات لهذه الرواية الأصلية: التخريج الأول: أن قوله "مجلف" مبتدأ حذف خبره وتقدير الكلام: أو مجلف كذلك، والثاني: أن "مجلف" فاعل بفعل محذوف دلّ عليه سابق الكلام، والتقدير: أو بقي مجلف؛ لأن قوله "لم يدع إلا مسحتا" معناه بقي مسحت، وهذان التخريجان مثل التخريجين اللذين ذكرناهما في شرح البيت السابق، والتخريج الثالث: أن قوله "مجلف" معطوف على قوله "عض الزمان" في أول البيت وهو مصدر ميمي بمعنى التجليف، وليس اسم مفعول، وتقدير الكلام على هذا: وعض زمان وتجليفه لم يدع من المال إلا مسحتا، وهذا توجيه أبي عليّ الفارسي، والتخريج الرابع: أن قوله "مسحتا" اسم مفعول منصوب على أنه مفعول به لقوله لم يدع، وفيه ضمير مستتر نائب فاعل، وقوله "أو مجلف" معطوف على الضمير المستتر في مسحت، وهذا توجيه الكسائي.

ومن العلماء من ذهب يغير في رواية البيت أو في تفسير كلماته؛ فمن ذلك ما حكاه الفراء من أن بعضهم روى البيت هكذا:

وعض زمان يا ابن مروان ما به ... من المال إلا مسحت أو مجلف

ومن ذلك أن أبا جعفر بن حبيب روى البيت في كتابه النقائض برفع مسحت ومجلف =

لَجَاجَةَ صَرْمٍ، ليسَ بِالوَصْلِ إنَّما ... أَخُو الوَصْلِ مَنْ يَدْنُو ومَن يَتَلَطَّفُ

وَمُسْتَنْفِرَاتٍ لِلْقُلُوبِ كَأَنّها ... مَهاً حَوْلَ مَنْسُوجَاتِهِ تَتَصَرّفُ

تَرَاهُنّ مِن فَرْطِ الحياءِ، كأَنّها ... مراضُ سُلالٍ، أو هوالكُ نُزَّفُ

وَيَبْذُلْنَ بَعْدَ اليأسِ مِن غَيرِ رِيبَةٍ ... أَحاديثَ تَشْفي المُدْنَفِينَ وَتَشْغَفُ

إذا هُنّ ساقطنَ الحديثَ حَسِبْتَهُ ... جَنَى النحل، أو أَبكَارَ كَرْمٍ تُقَطَّفُ

مَوَانِعُ لِلأسْرارِ، إلاّ لأهْلِها، ... وَيُخلِفنَ مَا ظَنَّ الغَيُورُ المُشَفْشِفُ

إذا القُنبُضاتُ السودُ طوّفنَ بالضّحَى ... رَقَدْنَ عليهِنّ الحِجَالُ المسجَّفُ

وإنْ نَبّهَتْهُنّ الولائدُ، بَعْدما ... تَصَعَّدَ يَوْمُ الصّيْفِ، أو كادَ يَنْصُفُ

دعونَ بِقُضْبَانِ الأرَاكِ التي جَنَى ... لها الرَّكْبُ من نَعْمَانَ أيّامَ عَرّفُوا

فَمِحْنَ بِهِ عَذْبَ الثّنَايَا رُضَابُهُ ... رِقاقٌ، وأعلى حَيْثُ رُكّبنَ أَعجفُ

وإنْ نُبِّهتْ حَدراءُ من نَوْمَةِ الضحى ... دَعَتْ وَعليها مِرطُ خَزّ وَمِطْرَفُ

بِأَخْضَرَ مِنْ نَعْمَانَ ثمّ جَلَتْ بِهِ ... عِذابَ الثّنايا طَيّباً يَتَرَشَّفُ

لَبِسْنَ الفَرِيدَ الخُسْرُوَانيّ تَحْتَهُ ... مَشَاعِرُ خَزّيّ العِرَاقِ المُفَوَّفُ

فَكَيْفَ بِمَحْبُوسٍ دَعَاني، وَدُونَهُ ... دُرُوبٌ وَأَبْوَابٌ وَقصرٌ مُشرَّفُ

وَصُهْبٌ لِحَاهُمْ رَاكِزُونَ رِمَاحَهُم، ... لهُمْ دَرَقٌ تَحْتَ العَوَالِي مُضَعَّفُ

وَضَاريةٌ ما مَرّ إلاّ اقْتَسَمْنَهُ، ... عَلَيْهِنّ خَوّاضٌ إلى الطِّبي مُخْشِفُ

يُبَلِّغُنَا عنْهَا، بِغَيْرِ كَلاَمِها، ... إلينا، مِنَ القَصرِ البَنَانُ المُطرَّفُ

دَعَـوْتُ الـذي سَـوّى السـماءَ بِأَيْدِهِ، وَللهُ أَدْنَـى مِـنْ وَرِيـدِي وَأَلْطَـفُ

لِيَشـغَلَ عَنّـي بَعْلَهـا، بِزَمَانَـةٍ، تَدَلُّـهُ عَنّـي، وَعَنْهَـأ، فَتُسْـعِفُ

بِمَا فِي فُؤَدَينا من الشَوْقِ والهَوَى، فَيجْـبُرُ مُنْهَـاضُ الفُـؤادِ المشـقَّفُ

فَأَرْسَـلَ فِي عَيْنَيْـهِ مـاءً عَلاَهُمـا، وَقَـدْ عَلِمـوا أني أَطِـبُّ وَأَعْـرَفُ

فَدَاوَيْتُهُ حَـوْلَينِ، وَهِـي قَرِيبَـةٌ، أَرَاهـا، وَتَـدْنُو لي مِـراراً، فَأَرْشُـفُ

سُـلاَفَةَ دَجْـنٍ خَالَطَتْهَـا تَرِيكَـةٌ عـلى شَـفَتيْها، والـذكيُّ المسـوَّفُ

أَلا لَيْتَنَـــا كُنّـــا لا نُـــرى عـلى مَنْهَـلٍ إلاّ نُشَـلّ، ونُقْـذَفُ

كِلاَنَـا بِـهِ عَـرٌّ يُخَـافُ قِرافُـه على النـاسِ مطـليُّ المَسَـاعِرِ أَخْشَـفُ

بِـأَرْضِ خَـلاءٍ وَحْـدَنَا، وَثِيابُنـا مِنَ الـرَّيْطِ والـديباجِ دِرعٌ وَمِلْحَـفُ

وَلاَ زَادَ إلاّ فَضْـلَتَانِ: سُـلافَةٌ وَأَبْـيَضُ مِـنْ مـاءِ الْغَمَامَـةِ قَرْقَـفُ

وَأَشْـلاَءُ لَحْـمٍ مِـنْ حُبـارى يَصِيدُها إذا نَحْـنُ شِـئْنا صَـاحِبٌ مُتَـأَلِّفُ

لَنَا ما تَمَنّيْنا منَ العيشِ، مـا دَعَـا هَـدِيلاً حَمَامَـاتٌ بِـنَعْمَانَ وُقّـفُ

إليكَ، أَميرَ المؤمِنينَ، رَمَـتْ بنـا هُمُـومُ المُنَـى، وَالهَوْجَـلُ المُتَعَسِّـفُ

وَعَضُّ زَمَانٍ، يا ابنَ مروانَ، لم يدع مِـنَ المـالِ إلا مُسـحَتاً أَو مُجَلَّـفُ

وَمَائِرَةُ الأعضادِ صُهْبٌ، كَأَنَّهـا عليهـا مِـنَ الأيْـنِ الجِسَـادُ المـدوَّفُ

نَهَضْـنَ بِنَـا مِـنْ سِـيفِ رَمْـلِ كُهَيْلَةٍ، وَفِيهَـا بَقَايـا مـن مِـراحٍ، وَعَجْـرَفُ
فَمَا وَصَلَتْ حَتّى تَوَاكَلَ نَهْزُهَـا، وَبَـادَتْ ذُرَاهـا، والمناسِـمُ رُعَّـفُ
وَحَتّى مَشَى الحَادِي البَطِيءُ يَسُوقُها لَهَـا نَحَـضٌ دَامٍ وَدَأيٌ مُجَنَّـفُ
وَحَتى قَتَلْنَا الجَهْلَ عَنْهَا، وَغُـودِرَتْ، إذا مـا أُنِيخَـتْ، والمـدامع ذُرَّفُ
إذا ما أُنِيخَتْ قَاتَلَتْ عن ظُهُورِهـا، حَـرَاجِيجُ أَمْثـالُ الأسِـنّةِ شُسَّـفُ
وَحتى بَعَثْنَاها، وَمَـا في يَـدٍ لهـا، إذا حُـلّ عَنْهَـا رِمّـةُ القيـد، مَرْسَـفُ
إذَا مـا رَأَيْنَاهـا الأزمّـةَ أَقْبَلَـتْ إلَيْهَـا بِحُـرّاتِ الوُجـوهِ، تَصَرَّـفُ
ذَرَعْنَ بِنَا مَا بَيْنَ يَبرينَ عَرْضَـه، إلى الشّامِ يَلْقاها رِعـانٌ، وَصَفْصَـفُ
فَأَفْنَى مِرَاحَ الذّاعِرِيّـة خَوْضُـها بِنَـا اللّيْـلَ، إذ نـامَ الـدَّثُورُ المُلَفَّـفُ
إذَا احْمَرَ آفَاقُ السّماءِ، وَهَتَّكَـتْ كُسُورَ بُيوتِ الحَـيّ نَكْبَـاءُ حَرْجَـفُ
وَجَاءَ قَريعُ الشَّوْلِ قَبْـلَ إفالِهـا، يَزِفّ، وَجاءَتْ خَلْفَـه، وَهِـيَ زُفَّـفُ
وَهَتّكَتِ الأطْنَـابَ كـلُّ ذِفِـرّةٍ، لَهـا تَامِـكٌ مِـنْ عَـاتِقِ النَّـيِّ أَعْـرَفُ
وَبَـاشَرَ رَاعِيهَـا الصَّـلَى بلَبَانِـهِ، وَكَفّيـه، حَـرَّ النَّـارِ مـا يَتَحَـرَّفُ
وَقَاتَلَ كَلْبُ القَوْمِ عَنْ نَارِ أَهْلِهِ، لِـيَرْبِضَ فيهـا، والصَّـلى مُتَكَنَّـفُ
تَصْـبَحَ مُبْـيَضٌّ الصَّـقِيعِ، كأنّـهُ عـلى سَرَواتِ النِّيـبِ قُطـنٌ مُنَـدَّفُ
وَأَوْقَدَتِ الشِّعرى، مع اللل، نارَهـا، وَأَمْسَـتْ مُحُـولاً جَلْـدُها يَتَوَسّـفُ
لَنَا العِزّةُ القَعْسَاءُ، وَالعَدَدُ الذي عَلَيْـهِ، إذا عُـدّ الحصى، يُتَحَلّـفُ

وَلَــوْ تَشْرَــبُ الكلبَــى المِــراضُ دِماءنا، شَــفَتْها، وذَوُ الــدّاءِ هُــوَ أَدْنَــفُ

لَنَا، حَيْثُ آفـاقُ البرِيّـةِ تَلْتَقـي، عَدِيدُ الحَصَى وَالقَسْـوَريُّ المُخَنْـدِفُ

وَمِنّا الذي لا يَنْطِقُ النّاسُ عِنْدَهُ، وَلَكِــنْ هُــوَ المُسْــتَأْذَنُ المُتَنَصَّــفُ

تَرَاهُمْ قُعُـوداً حَوْلَـهُ، وَعُيـونُهم مُكَسّرَــةٌ أَبْصَــارُهَا، مــا تَصَرَّــفُ

وَبَيْتَانِ: بَيْـتُ اللهَّ نَحْـنُ وُلاَتُـهُ، وَبَيْــتٌ، بِــأَعْلى إيليــاءَ، مُشرَّــفُ

تَرَى النّاسَ ما سِرْنا يَسِيرُونَ خَلْفَنَا، وَإنْ نَحْـنُ أَوْمَأنـا إلى النّـاسِ وَقّفُـوا

أُلُوفُ أُلُـوفٍ مـن رجـالٍ وَمِـنْ قَناً، وَخَيْـلٌ كَرَيْعَـانِ الجَـراد، وَحَرْشَـفُ

وَلاَ عِــزّ إلاّ عِزُّنَــا قَــاهِرٌ لَــهُ، وَيَسْــأَلُنا النَّصْـفَ الـذّلِيلُ فَنُنْصِـفُ

وَإنْ فَتَنُوا يَوْماً ضَرَبْنَا رُؤوسَهُم، عَــلى الــدِّينِ حتــى يُقْبِـلَ المُتَــأَلِّفُ

إذا ما احْتبَتْ لي دَارِمٌ عِنْدَ غَايَةٍ، جَرَيْـتُ إليهـا جَـرْيَ مَـنْ يَتَغَطْـرَفُ

كِلاَنَـا لَـهُ قَـوْمٌ، فَهُـم يَجْلِبُونَـهُ بِأَحْسَـابِهِمْ حَتّـى يُـرى مَـنْ يُخَلَّـفُ

إلى أَمَـدٍ، حتــى يُفَــرِّقَ بَيْنَنَــا، وَيُرْجِعُ مِنّا النحسَ مَـن هُـوَ مُقْـرِفُ

فَإنّكَ، إنْ تَسْعَى لِتَدركَ دارمـاً، لأنْــتَ المُعنّــى، يــا جريــرُ، المُكَلَّــفُ

أَتَطْلُبُ مَنْ عِنْدَ النُّجُومِ وَفَوْقَها بِرِبْــقٍ وَعَــيرٍ ظَهْــرُهُ يَتَقَــرَّفُ

وَشَيْخَيْنِ قَدْ نَاكَـا ثَمانـينَ حَجَّـةً أَتَــانَيهما هــذا كبــيرٌ وَأَعْجَــفُ

عَطَفْتُ عَلَيْكَ الحَرْبَ، إنّي إذا وَنَى أخو الحَرْبِ كَرّارٌ على القِرْنِ مِعْطَفُ

أَبَـى لِجُرَيـرٍ رَهْـطُ سُـوءٍ أذِلّـةٍ، وَعِـرضٌ لَئـيمٌ للمَخَـازي موقَّـفُ

وَجَدْتُ الثرى فينا، إِذِ التُّمسَ الثرى، وَمَــنْ هُــوَ يرجــو فضْــلَهُ المُتَضَــيِّفُ
وَيُمْنَعُ مَوْلانَــا، وَإِنْ كــان نَائِيــاً بِنَـــا دَارُه، مِمّـــا يَخـــافُ، وَيـــأْنَفُ
تَرَى جارَنَا فينا يُجِيرُ، وَإِنْ جَنَى، وَلاَ هُــوَ مِمّــا يُنْظِــفُ الجـارَ يُنْظَــفُ
وَكُنّــا إذا نَامَــتْ كُلَيــبٌ عــن القِرى، إلى الضّيْفِ نَمْشي مُسْرِعينَ وَنُلْحِـفُ

وَقَـدْ عَلِـمَ الجِـيرانُ أَنْ قُـدورَنَا ضَــوَامِنُ لــلأَرْزَاقِ وَالـرّيحُ زَفْـزَفُ
تُفَـرَّغُ فِي شِـيزى كـأَنّ جِفَانَهَـا حَيَـاضُ جِبـىً مِنْهَـا مِـلاءٌ وَنُصَّـفُ
تَـرَى حَـوْلَهُنّ المُعْتَفِـينَ، كَـأَنّهُمْ عــلى صَـنَمٍ في الجاهِليّـةِ عُكَّـفُ
قُعُوداً وَحَوْلَ القاعِدينَ سطورُهم جُنــوحٌ وأَيــديهم جُمــوسٌ وَنُظَّـفُ
وَمَا حلّ، من جهلٍ، حُبَى حُلمائنا، وَلاَ قَائِــلُ المَعْــرُوفِ فِينَــا يُعَنَّــفُ
وَمَــا قَــامَ مِنّــا قَــائِمٌ في نَـدِيّنا، فَينطِــقُ إلاّ بــالتي هـــيَ أَعْــرَفُ
وإنّا لَمِنْ قَوْمٍ بِهِمْ يُتّقَـى الـرّدى، ورأْبُ الّأى، والجانبُ
وَأَضْيَافِ ليلٍ قد نَقَلْنـا قِـراهُم، إلَــيْهِمْ، فَأَتْلفنـــا المَنايـــا وَأَتْلفـــوا
قَريناهُمُ المـأثورَةَ البِـيضَ قَبْلَهـا يُـــثِجّ العُـــرُوقَ الأزأنيُّ المُثَقَّـــفُ
ومسروحةٍ مِثْل الجَـرَاد يسـوُقُها مُمَـــرٌّ قُـــوَاهُ والسَّـــراءُ المعطَّـــفُ
فَأَصْبح في حيث التَقَيْنا شريدُهم قَتِيلٌ، ومكتُـوفُ اليَـدَيْنِ، وَمُزْعَـفُ

وَكُنّــا إذا مــا اسْــتكرَه الضّــيْفُ بالقِرى | أَتَتْــهُ العَــوالي وهــيَ بالسُّــمّ رُعَّــفُ
وَلاَ تَستجِمُّ الخَيْلُ حتى نُجِمّها، | فَيَعْرِفَهــا أَعْــدَاؤنا، وهــي عُطَّــفُ
لِذَلِكَ كَانَــتْ خَيْلُنــا مــرّةً تُــرَى | حِســاناً، وَأَحْيَانــاً تُقــادُ، فَتعجَــفُ
عَلَيهِنّ مِنّا النــاقِمونَ ذُحُــولُهُمْ، | فَهُـــنّ بِأَعْبَـــاءِ المَنِيّـــةِ كُتَّـــفُ
وَقِدرس فَثَأْنَا غَلَيَها، بَعْدَما غَلَتْ، | وَأُخــرى حَشَشــنا بــالعوالي تؤنَّــفُ
وكُلَّ قِرَى الأَضْيَافِ نقري من القنا، | ومُعْتَــبَطٌ مِنْــهُ السّــنامُ المُسَــدَّفُ
وجدنا أعزّ النّاسِ أَكْثَرَهُم حَصىً، | وأَكْــرَمَهُمْ مَــنْ بالمكــارِمِ يُعْــرَفُ
وكلتاهما فينَا، لنــا حــينَ تلتقــي | عصــائبُ لاقــى بيــنهُنّ المُعَــرَّفُ
مَنَازِيلُ عَنْ ظَهْرِ الكَثِيرِ قليلُنــا، | إذا مــا دَعــا ذو الثّــؤرَةِ المُــتَرَدِّفُ
قلفنــا الحصىَ ـ عَنْــهُ الــذي فَــوْقَ ظَهْرِهِ، | بــأَحْلاَمِ جُهّــالٍ، إذا مــا تغضّــفوا
وجهلٍ بحِلمٍ قد دَفعنا جُنُونَــهُ، | ومــا كــادَ لــولا عزّنــا يتزحْلَــفُ
رَجَحنا بهم حتى استَبانوا حَلومَهم، | بِنَــا بَعْــدَما كــادَ القَنَــا يَتَقَصّــفُ
وَمَدّتْ بِأَيديها النّساءُ، فلم يكُنْ | لــذي حَسَــبٍ عَــن قَوْمِــهِ مُتَخلَّــفُ
فَمَا أَحَدٌ فِي النّــاسِ يَعْــدِلُ دارِمــاً | بِعِــزّ، ولا عــزٌّ لَــهُ حــين يُخنِــفُ
تَثَاقَــلَ أَرْكَــانٌ عليــه ثقيلــةٌ، | كَأَرْكَانِ سـلْمى، أَوْ أَعــزُّ، وَأَكْثَـفُ
وَأُمٍ أَفَــرّتْ عَــنْ عَطِيّــةِ رَحْمِهَــا | بِأَلأمِ مــا كانَــتْ لَــهُ الــرّحمُ تنشــفُ

إذا وَضَعَتْ عَنْها أَمامَـةُ دَرْعَهَـا
وَأَعْجَبَهـا رابٍ إلى الـبَطنِ مهـدفُ

قصيرٌ كَأَنّ التّرْكَ فيه وُجُوهُهُمْ،
خَنُوفٌ كَأَعْنَـاقِ الحـرادينِ أَكْشَـفُ

تَقُولُ وَصَكّتْ حُرّ وَجْهِ مغيظَـةٍ
على الـزّوْجِ حَـرّى مـا تـزالُ تَلَهَّـفُ

أَمـا مِـنْ كليبـيّ إذا لم يَكُـنْ لَـهُ
أَتَانــانِ يَسْـــتَغني وَلاَ يَتَعَفّـــفُ

إذا ذَهَبَتْ مِنّـي بِزَوْجـي حِمـارَةٌ
فَلَـيْسَ عـلى رِيـحِ الكليبـيّ مَـأْلَفُ

عَلى رِيحِ عَبْدٍ ما أَتَى مِثْلَ ما أَتَى
مصلٍّ وَلاَ مـن أَهْـلِ مَيْسَـانَ أَقْلَـفُ

تَبْكّي على سعدٍ، وسـعدٌ مقيمـةٌ
بيــبرين، قَـدْ كَـادَتْ عـلى النـاس تَضْعَفُ

وَلَوْ أَنَّ سَعْداً أَقْبَلَتْ من بِلاَدِهَـا
لجــاءت بيــبرينَ اللّيــالي تَزَحَّــفُ

وَسَعْدٌ كَأَهْل الرّدم لو فُضّ عَنْهُمُ،
لَمَـاجوا كـما مـاجَ الجَـرَادُ، وَطَوّفُـوا

هُمُ يعدلون الأرْضَ، لولاهمُ التقـت
على النّاسِ، أَوْ كادت تَميلُ وَتُنْسَـفُ

****

يقول ابن قتيبة معلقا على هذه الهنة : (رفع آخر البيت ضرورة، وأتعب أهل الإعراب فى طلب العلّة ، فقالوا وأكثروا، ولم يأتوا فيـه بشـىء يـرضى ، ومن ذا يخفى عليه من أهل النظر أنّ كلّ ما أتوا به من العلل احتيال وتمويه؟! وقد سأل بعضهم الفرزدق عن رفعه إيّاه فشتمه وقال: عليّ أن أقول وعليكم أن تحتجّوا!

ومن الملاحظات أيضا ما روته كتب الأدب مثل الأغاني ، والموشح وغيرهما أنه اجتمع ذو الرمة [1] والكميت [2] ونصيب [3]، وكلهم شعراء ، اجتمعوا ليتناشدوا الشعر ، **فأنشد الكميت :**

أم هل ظعائن بالعلياء رابعة   وإن تكامل منها الدَّلُّ والشنَبُ

---

١ - ذُو الرُّمَّة(٧٧ - ١١٧ هـ) وهو غيلان بن عقبة بن نهيس بن مسعود العدوي، من مضر، أبو الحارث، ذو الرمة: شاعر، من فحول الطبقة الثانية في عصره. قال أبو عَمْرو بن العلاء: فتح الشعر بامرئ القيس وختم بذي الرمة. وكان شديد القصر، دميما، يضرب لونه إلى السواد. أكثر شعره تشبيب وبكاء أطلال، يذهب في ذلك مذهب الجاهليين. وكان مقيما بالبادية، يحضر إلى اليمامة والبصرة كثيرا.

وامتاز بإجادة التشبيه. قال جرير: لو خرس ذو الرمة بعد قصيدته: " ما بال عينك منها الماء ينسكب " لكان أشعر الناس. وقال الأصمعي: لو أدركت ذا الرمة لأشرت عليه أن يدع كثيرا من شعره، فكان ذلك خيرا له. وعشق " مية " المنقرية واشتهر بها. توفي بأصبهان وقيل بالبادية

٢ - الكُمَيْت الأَسَدي (٦٠ - ١٢٦ هـ) الكميت بن زيد بن خنس الأسدي، أبو المستهلّ: شاعر الهاشميين. من أهل الكوفة. اشتهر في العصر الأموي. وكان عالما بآداب العرب ولغاتها وأخبارها وأنسابها، ثقة في علمه، منحازا إلى بني هاشم، كثير المدح لهم، متعصبا للمضرية على القحطانية. وهو من أصحاب الملحمات.

أشهر شعره " الهاشميات - ط " وهي عدة قصائد في مدح الهاشميين، ترجمت إلى الألمانية.

ويقال: إن شعره أكثر من خمسة آلاف بيت، قال أبو عبيدة: لو لم يكن لبني أسد منقبة غير الكميت، لكفاهم. وقال أبو عكرمة الضبي: لولا شعر الكميت لم يكن للغة ترجمان. اجتمعت فيه خصال لم تجتمع في شاعر: كان خطيب بني أسد، وفقيه الشيعة، وكان فارسا شجاعا، سخيا، راميا لم يكن في قومه أرمى منه. وقال الميداني: الكميت ثلاثة: الكميت ابن ثعلبة، ثم الكميت بن معروف، ثم الكميت بن زيد، وكلهم من بني أسد.

٣ - نُصَيْب(ت ١٠٨ هـ) وهو نصيب بن رباح، أبو محجن، مولى عبد العزيز بن مروان: شاعر فحل، مقدم في النسيب والمدائح. كان عبدا أسود لراشد بن عبد العزّى من كنانة، من سكان البادية. وأنشد أبياتا بين يدي عبد العزيز بن مروان، فاشتراه وأعتقه. وكان يتغزل بأم بكر " زينب بنت صفوان " وهي كنانية، وفي بعض الروايات " زنجية " ومن شعره فيها قصيدة مطلعها:

" بزينب ألمم، قبل أن يدخل الركب ... وقل: إن تملينا فما ملّك القلب

" له شهرة ذائعة، وأخبار مع عبد العزيز ابن مروان وسليمان بن عبد الملك والفرزدق وغيرهم.

وكان يعد مع جرير وكثير عزة. وسئل عنه جرير، فقال: أشعر أهل جلدته. وتنسك في أواخر عمره. وكان له بنات، من لونه، امتنع عن تزويجهن للموالي ولم يتزوجهن العرب، فقيل له: ما حال بناتك؟ فقال: صببت عليهنّ من جلدي (بكسر الجيم) فكسدن عليّ! قال الثعالبي: وصرن مثلا للبنت يضن بها أبوها فلا يرضى من يخطبها ولا يرغب فيها من يرضاه لها. وعناهنّ " أبو تمام " بقوله:

" أما القوافي، فقد حصنت عذرتها ... فما يصاب دم منها ولا سلب "

إلى أن يقول:

" كانت " بنات نصيب " حين ضنّ بها ... عن الموالي ولم تحفل بها العرب "

قال التبريزي (في شرح ديوان أبي تمام) : وينشد في هذا المعنى بيت لم أجده منسوبا إلى نصيب، وهو: " كسدن من الفقر في بيتهن ... وقد زادهن سوادي كسودا "

فعقد نصيب واحدة، فقال له الكميت: ماذا تحصي؟ فقال: خطأك؛ فإنك تباعدت في القول، فأين الدل من الشنب؟! **ألا قلت كما قال ذو الرمة:**

لَميَاءُ في شفتيها حُوة لَعَسٌ وفي اللثاة وفي أنيابها شنبُ

ولقد انسحبت هذه الملاحظات عل النثر ، فأثمرت كما أثمرت في الشعر ومما يروى في ذلك ملاحظة سيدنا أبي بكر في شأن موضع الفصل والوصل حيث مر به رجل معه ثوب ، فقال له أبو بكر : أتبيع الثوب ؟

فقال الرجل : لا . عافاك الله .

فقال أبو بكر رضي الله تعالى عنه : لقد علمتم – لو كنتم تعلمون – قل : لا . وعافاك الله . [1]

فموضع الواو هنا لا يقاس بثمن ، لأنها لدفع إيهام خلاف المقصود ولذلك ذكر الراغب الأصفهاني [2] في " محاضرات الأدباء" أن رجلا تكلم عند الصاحب فسأله عن شيء فقال: لا أطال الله بقاءك ، فقال: قل لا ، وأطال الله بقاءك ، فقال: بعضهم ما رأينا واوا أحسن موقعا من واوك.

وقال رجل من بني مجاشع: جاء الحسنُ في دمٍ كان فينا، فخطب فأجابه رجل فقال: قد تركت ذلك لله ولوجوهكم. فقال الحسن: لا تقل هكذا، بل قل: (لله ، ثم لوجوهكم. وآجرك الله) فـ(ثم) ليست (كالواو) لأن (الواو) للتشريك ، و (ثم) للتراخي في الرتبة ، ومن عمل شيئا فليعمله لله تعالى ، حتى يرضى .

---

١ - البيان والتبيين للجاحظ ١ / ١٤٢

٢ - الرَّاغِب الأَصْفَهَاني (٥٠٢ هـ) الحسين بن محمد بن المفضل، أبو القاسم الأصفهاني (أو الأصبهاني) المعروف بالراغب: أديب، من الحكماء العلماء. من أهل (أصبهان) سكن بغداد، واشتهر، حتى كان يقرن بالإمام الغزالي.

ومعرفة هـذه الفـروق الدقيقـة بـين دلالات الألفـاظ ظلـت حبيسـة السليقة زمنا طويلا وظلت البلاغـة عـلى هـذا المنـوال ملاحظـات يلتقطهـا السامعون ويوجهون المتكلمين إلى الصواب ، ولم يُكتب بهذا خط ولا كتاب.

مصطلحات وتعليقات

من أطوار نشأة البلاغة تلـك التعليقـات التـي أرسـى بهـا الفصـحاء أصول العلم ، لكنها متفرقة ، متناثرة بـين جنبـات الكتـب ، ولـو جمعـت في كتاب واحد وضم بعضها إلى بعض ، لوجدت علم الجـاحظ وعبـد القـاهر معا ، فهذان الرجلان لم يصنعا إلا أنهما جمعا هـذه الملاحظـات ، فكتـب عبـد القاهر– بعد أن هضم هذه الملاحظات ، وأسبغ عليها من عقلـه النحـوي – كتابيه الأسرار والدلائل ، **ومن هذه التعليقات** :

أنه قيل للأصمعي: من أشعر الناس؟ فقال: من يأتي بالمعنى الخسـيس فيجعله بلفظه كبيراً ، أو الكبير فيجعله بلفظه خسيسًا، أو ينقضي كلامـه قبـل القافية، فإذا احتاج إليها، أفاد بها معنى، قال: قلت: نحو من؟ قـال نحـو ذي الرمة **حيث يقول:**

قف العيس في أطلال ميّة فاسألِ ... رسـوماً كـأخلاق الـرداء المسلسـل

فتم كلامه بالرداء، ثم قال: "المسلسل"، فزاد شيئاً بقوله: المسلسل.

ويقول المبرد [1] في "الكامل": "من كلام العرب: الاختصار المفهم

---

١ - المِبْرَد(٢١٠ - ٢٨٦) محمد بن يزيد بن عبد الأكبر الثمالي الأزدي، أبو العباس، المعروف بـالمبرد: إمام العربية ببغداد في زمنه، وأحد أئمة الأدب والأخبار. مولده بالبصرة ووفاته ببغداد. من كتبه (الكامل - ط) و (المذكر والمؤنث - خ) و (المقتضب - ط) و (التعازي والمراثي - خ) قال الزبيدي في شرح خطبة القاموس: المبرّد بفتح الراء المشددة عند الأكثر وبعضهم يكسر .

والإطناب المفحم، وقد يقع الإيماء إلى الشيء، فيغني عند ذوي الألباب عن كشفه".

فالعرب سواء في الجاهلية أو الإسلام كانوا يدركون وجوه الحسن في الكلام ، ويهتزون لسماع الحكمة ،أو البيت البليغ ، ويرتاحون ويعجبون لكل لسان فصيح ، ويرفعون صاحبه إلى مراتب الشرف والكرامة ، بل كانوا يدركون الصنعة التي بها ارتفع كلام على كلام ، وزادت بها قصيدة على قصيدة ، كما يعرفون المواطن التي انحدرت بصاحبها إلى درجة أقل ، كما رأيت في صنيع النابغة مع حسان بن ثابت .

ولقد وصل الشعراء في العصر الجاهلي إلى مرحلة تعلم الشعر ، وكأنه حرفة أو صناعة ، فأوس بن حجر [١] كان يعلم زهير بن أبي سلمى الشعر وعلم زهير ابنه كعب بن زهير الشعر[٢] ، وكذا علم الحطيئة[٣]، وعلم

---

١ - أوس بن حُجْر (٩٨ - نحو ٢ ق هـ) هو أوس بن حجر بن مالك التميمي، أبو شريح: شاعر تميم في الجاهلية، أو من كبار شعرائها. في نسبه اختلاف بعد أبيه حجر. وهو زوج أمّ زهير بن أبي سلمى. كان كثير الأسفار، وأكثر إقامته عند عمرو بن هند، في الحيرة. عمّر طويلا، ولم يدرك الإسلام. في شعره حكمة ورقة، وكانت تميم تقدمه على سائر شعراء العرب. وكان غزلا مغرما بالنساء. قال الأصمعي: أوس أشعر من زهير، إلا أن النابغة طأطأ منه. وهو صاحب الأبيات المشهورة التي أولها: (أيتها النفس أجملي جزعا)

٢ - زهير بن أبي سُلْمى(- ١٣ ق ه م) زهير بن أبي سلمى ربيعة بن رياح المزني، من مضر: حكيم الشعراء في الجاهلية. وفي أئمة الأدب من يفضله على شعراء العرب كافة. قال ابن الأعرابي: كان لزهير في الشعر ما لم يكن لغيره، كان أبوه شاعرا، وخاله شاعرا، وأخته سلمى شاعرة، وابناه كعب وبجير شاعرين، وأخته الخنساء شاعرة. ولد في بلاد (مُزَينة) بنواحي المدينة، وكان يقيم في الحاجر (من ديار نجد) واستمر بنوه فيه بعد الإسلام. قيل: كان ينظم القصيدة في شهر وينقحها ويهذبها في سنة فكانت قصائده تسمى (الحوليّات) أشهر شعره معلقته التي مطلعها: (أمن أم أوفى دمنة لم تكلم) ويقال: إن أبياته التي في آخر هذه القصيدة تشبه كلام الأنبياء. له (ديوان - ط) ترجم كثير منه إلى الألمانية.

٣ - الحُطَيْئَة(ت٤٥ هـ) جرول بن أوس بن مالك العبسيّ، أبو ملكية: شاعر مخضرم، أدرك الجاهلية والإسلام. كان هجاءاً عنيفا، لم يكد يسلم من لسان أحد. وهجا أمه وأباه ونفسه. وأكثر من هجاء الزبرقان ابن بدر، فشكاه إلى عمر بن الخطاب، فسجنه عمر بالمدينة، فاستعطفه بأبيات، فأخرجه ونهاه عن هجاء الناس، فقال: إذا تموت عيالي جوعا!.

الحطيئة كثيرًا من الشعراء ، فالشعر في نهاية العصر الجاهلي صار صناعة وحرفة يتعلمها لاحق عن سابق ، وفي هذا التعليم لا شك أن المعلم يقول لتلميذه متى يَحسُن الكلام ؟ ومتى يقبُح ؟ وكيف تبدأ وكيف تختم ؟ وحين تمدح ماذا تقول وكيف تقول ؟ وحين تهجو ماذا تقول وكيف تقول ؟ وكل ذلك من بديع الكلام وبيانه ، وانتشرت بين أهل الفصاحة ألفاظ (مصطلحات اليوم) مازالت حتى الآن هي أبواب البلاغة وفنونها مثل : الإيجاز ، والبديع ، والمجاز وإن كانت دلالاتها مغايره لما عليه اليوم ، فلفظ البديع كان يطلق على محاسن الكلام وكل جديد من الفن ، ولفظ المجاز كان يطلق على المعنى والغرض وليس ما يضاد الحقيقة فتراه يقول مثلا : مجاز هذا اللفظ هو كذا ، أي غرضه ومعناه ، وهذا واضح جدا في كتاب أبي عبيدة معمر بن المثنى [1]: مجاز القرآن حيث استعمل كلمة المجاز في تفسير ألفاظ القرآن الكريم وليس كما يستعمل اليوم فتراه يقول مثلا : (الرحمن) : مجازه ذو الرحمة ، و(الرحيم) مجازه الراحم **وفي قوله تعالى** :

﴿.....**وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ** .....﴾ [سورة المائدة:٢]

مجازه: ولا يحملنكم، ومجاز {شَنَآنُ قَوْمٍ} أي: بغضاء قوم، وكما قال في قوله تعالى: ﴿.......وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ........﴾ [سورة البقرة:١٧٣]، أي: ما

---

١ - مَعْمَر بن المُثَنَّى
(١١٠ - ٢٠٩ هـ = ٧٢٨ - ٨٢٤ م) من أئمة العلم بالأدب واللغة. مولده ووفاته في البصرة. استقدمه هارون الرشيد إلى بغداد سنة ١٨٨ هـ وقرأ عليه أشياء من كتبه. قال الجاحظ: لم يكن في الأرض أعلم بجميع العلوم منه. وكان إباضيا، شعوبيا، من حفاظ الحديث. قال ابن قتيبة: كان يبغض العرب وصنف في مثالبهم كتبا. ولما مات لم يحضر جنازته أحد، لشدة نقده معاصريه. وكان، مع سعة علمه، ربما أنشد البيت فلم يقم وزنه، ويخطئ إذا قرأ القرآن نظرا.

أريد به، وله مجاز آخر، أي: ما ذكر عليه من أسماء آلهتهم.) (١)

وكثير من أهل الكلام كانوا فصحاء لا يشق لهم غبار مثل بشر بن المعتمر(٢) صاحب الصحيفة الأولى في البلاغة العربية ، والجاحظ (٣)الذي بنيت البلاغة على فكره وكتبه .

لكنني قبل هؤلاء جميعا أحب أن أشير إلى أن علم البلاغة فتحت له الأبواب من عهد الصحابة رضوان الله عليهم ، وحمل التاريخ إلينا إشاراتهم في فنون القول ، والاحتراز من الزلل في البيان ، فبعد الإشارات والتلميحات والوقفات العابرة عند الجاهليين ، ثم تصحيح اللفظ ورد المتكلم عند أبي بكر رضي الله عنه نجد الإمام عليًا رضوان الله عليه يقول : " إياكم أن تجعلوا الفصل وصلاً ؛ فإنه أشد وأعيب من اللحن" .

وهذا بلال بن أبي بردة ٤ يضع كلمة في النقد حين أنشده ذو الرمة :

رأيتُ الناسَ يَنْتجِعون غيثاً فقلت لصيدح انتجعي بلالاً

---

١ - مجاز القرآن لأبي عبيدة ١ / ٦٤.

٢ - بِشْر بن المُعْتَمِر(ت ٢١٠ ه) هو الهلالي البغدادي، أبو سهل: فقيه معتزلي مناظر، من أهل الكوفة. قال الشريف المرتضى: (يقال: إن جميع معتزلة بغداد كانوا من مستجيبيه) . تنسب إليه الطائفة (البشرية) منهم.له مصنفات في (الاعتزال) منها قصيدة في أربعين ألف بيت ردّ فيها على جميع المخالفين.ومات ببغداد .

٣ - الجاحِظ (١٦٣ - ٢٥٥ هـ = ٧٨٠ - ٨٦٩ م) عمرو بن بحر بن محبوب الكناني بالولاء، الليثي، أبو عثمان، الشهير بالجاحظ: كبير أئمة الأدب، ورئيس الفرقة الجاحظية من المعتزلة. مولده ووفاته في البصرة. فلج في آخر عمره. وكان مشوه الخلقة. ومات والكتاب على صدره. قتلته مجلدات من الكتب وقعت عليه. له تصانيف كثيرة، منها " الحيوان - ط " أربعة مجلدات، و " البيان والتبيين - ط " و " سحر البيان - خ " و " التاج - ط " ويسمى أخلاق الملوك، و " البخلاء - ط " و " المحاسن والأضداد - ط " و " التبصر بالتجارة - ط " رسالة نشرت في مجلة المجمع العلمي العربيّ، و " مجموع رسائل - ط " اشتمل على أربع، هي: المعاد والمعاش، وكتمان السر وحفظ اللسان، والجد والهزل، والحسد والعداوة.

٤ - بلال بن أبي بردة عامر بن عبد الله أبي موسى بن قيس (٢) أبو عمرو يقال أبو عبد الله الأشعري البصري (٣) ولي إمرة البصرة وحدث عن أبيه أبي بردة بن أبي موسى وقيل إنه روى عن أنس بن مالك وعن عمه أبي بكر.

فقال بلال: يا غلام! اعلفها قتاً ونوى.

وهذه الكلمة تبين أنه كان يُعرِّض بالشاعر ، لأنه جعل الناقة محل الطلب وليس الممدوح ، فما كان من بلال إلا أن علفها ، ووضع لها ما يكفيها ، والشاعر ما أراد هذا ، لكنه أخطأ في بناء الكلام ، وانتبه إلى ذلك أحَدُهم فقال لذي الرمة بعد أن انصرف : هلّا قلت له : إنما عنيتُ بانتجاع الناقة صاحبَها، كما **قال الله -عَزَّ وَجَلَّ-**:

﴿.. وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا ......﴾ [سورة يوسف:٨٢]

يريد: أهلها، وهلاّ **أنشدته قول الحارثي:**

وقفت على الديار فكلمتني ... فما ملكت مدامعها القلوص

يريد: صاحبها. وهذا يسميه البيانيون: مجاز الحذف.[١]

إن علم البلاغة بدأ منذ عرف اللسان العربي فضل كلام على كلام ، وقد ذكر أبو هلال [٢] بعضا من هذه القواعد التي جاءت على ألسنة القدماء

١ - موسوعة الأعمال الكاملة للإمام محمد الخضر حسين تحت عنوان : كيف نشأ علم البيان ١/ ٧٠

٢ - أبُو هِلَال العَسْكَري(٣٩٥ هـ) الحسن بن عبد الله بن سهل بن سعيد ابن يحيى بن مهران العَسْكَري، أبو هلال: عالم بالأدب، له شعر. وهو ابن أخت أبي أحمد (الحسن بن عبد الله بن سعيد العسكري) وتلميذه قال ياقوت: أما وفاته فلم يبلغني فيها شئ غير أني وجدت في آخر كتاب (الأوائل) من تصنيفه: (وفرغنا من إملاء هذا الكتاب يوم الأربعاء لعشر خلت من شعبان سنة خمس وتسعين وثلاثمائة) ومن مستطرف الأسجاع ما كتبه عنه الباخرزي في (دمية القصر) قال: (بلغني أن هذا الفاضل كان يحضر السوق، ويحمل إليها الوسوق ويحلب دَرّ الرزق ويمتري، بأن يبيع الأمتعة ويشتري، فانظر كيف يحدو الكلام ويسوق، وتأمّل هل غضّ من فضله السوق، وكان له في سوقة الفضلاء أسوة، أو كأنه استعار منهم لأشعاره كسوة وهم: نصر بن أحمد الخبزرزي، وأبو الفرج الوأواء الشامي، والسريّ الرفّاء الموصلي. أما نصر فكان يدحو لرفاقه الأرْزِيّة ويشكو في أشعاره تلك الرزية، وأما أبو الفرج فكان يسعى بالفواكه رائحا وغاديا، ويتغنى عليها مناديا، وأما السريّ فكان يطري الخَلَق، ويرفو الخِرَق، ويصف تلك العبرة، ويزعم أنه يسترزق .بالإبرة. وكيف كان فهذه حرفة لا تنجو من حُرفه، وصنعة لا تنجو من صنعة، وبضاعة لاتسلم من إضاعة، ومتاع ليس لأهله استمتاع .

قبل أن تقف البلاغة على رِجلين ، يقول أبو هلال : (قال المأمون لبعضهم: من أبلغ الناس؟

فقال: من قرّب الأمر البعيد المتناول، والصّعب الدرك بالألفاظ اليسيرة قال: ما عدل سهمك عن الغرض. ولكن البليغ من كان كلامه فى مقدار حاجته ولا يجيل الفكرة فى اختلاس ما صعب عليه من الألفاظ، ولا يكره المعانى على إنزالها فى غير منازلها، ولا يتعمّد الغريب الوحشىّ، ولا الساقط السّوقىّ؛ فإن البلاغة إذا اعتزلتها المعرفة بمواضع الفصل والوصل كانت كاللآلىء بلا نظام.)(١)

وهذا النص بدأ بسؤال الفارسي ، وهذا غريب ، لكنك حين تتدبر المغزى منه تعلم أن علماء العربية يبحثون خلف مميزات كل لغة ، وبلاغة كل لسان فالحكمة ضالة المؤمن ، كما تلحظ سؤال الأمراء والخلفاء عن صفات أبلغ الناس ، فهذا أمر يشغل العقل العربي منذ قديم ، وكانت الإجابة توازن بين المعاني والألفاظ ، وكيف يستطيع اللفظ السهل الرقيق أن يحيط بالمعنى البعيد الصعب ، ثم ترى الخليفة يضيف درجة أخرى هي درجة الإيجاز ، فالبلاغة أن تجعل الكلام على مقدار الحاجة ، وتطابق بين الكلام والأحوال ، وهذا هو معنى إنزال المعاني في منازلها ، ثم يشير إلى فصاحة اللفظ وحسن اختياره فيأتي بالسهل القريب ويبتعد عن الغريب الوحشي ، ثم يختم بالعلاقات بين الجمل وهي معرفة مواضع الفصل والوصل .

---

١ ـ الصناعتين لبي هلال العسكري ص ٤٣

إن هذا النص يحمل من القواعد الكثير التي بنت عليها البلاغة بنيانها فعلم البلاغة جمع شتات هذه الأقوال .

وأزيدك من الخير زادا يتعلق بالقواعد التي بنيت عليها البلاغة ، قال أبو العباس السفاح (١)لكاتبه :

(قف عند مقاطع الكلام وحدوده ؛ وإيّاك أن تخلط المرعىّ بالهمل)

وأول ما يلفت هنا أن في الكلام حدودًا ومقاطع ، ينبغي الوقوف عندها لأن خلط الكلام بعضه ببعض يفسده ، وهناك من الكلام ما ينبغي أن يرعى وآخر ينبغي إهماله ، ولا يجوز من البليغ خلط هذا بذاك .

فالعلماء منذ القديم عرفوا الأصول ، وعرفوا مع الأصول الرجال الذين يؤخذ منهم تلك القواعد ، قال الأحنف بن قيس(٢): ما رأيت رجلا

---

١ - أَبُو العَبَّاس السَّفَّاح (١٠٤ - ١٣٦ هـ = ٧٢٢ - ٧٥٤ م) عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس بن عبد المطلب، أبو العباس: أول خلفاء الدولة العباسية، وأحد الجبارين الدهاة من ملوك العرب. ويقال له " المرتضى " و " القائم ". ولد ونشأ بالشراة (بين الشام والمدينة) وقام بدعوته أبو مسلم الخراساني مقوّض عرش الدولة الأموية، فبويع له بالخلافة جهرا في الكفة سنة ١٣٢ هـ وصفا له الملك بعد مقتل مروان بن محمد (آخر ملوك الأمويين في الشام) وكافأ أبا مسلم بأن ولاه خراسان. وكان شديد العقوبة، عظيم الانتقام، تتبع بقايا الأمويين بالقتل والصلب والإحراق حتى لم يبق منهم غير الأطفال والجالين إلى الأندلس. ولقب بالسفاح لكثرة ما سفح من دمائهم. وكانت إقامته بالأنبار، حيث بني مدينة سماها " الهاشمية " وجعلها مقر خلافته. وهو أول من أحدث الوزارة في الإسلام، وكان الأمويون يتخذون رجالا من الخاصة يستشيرونهم في بعض شؤونهم. وكان سخيا جدا، وهو أول من وصل بمليوني درهم من خلفاء الإسلام. وكان يلبس خاتمه باليمين (١) ويوصف بالفصاحة والعلم والأدب، وله كلمات مأثورة. كانت في أيامه ثورات قمعتها القوة وفتوة الملك. ومرض بالجدري فتوفي شابا بالأنبار. ومما كتب في سيرته " أخبار السفاح " للمدائني، و " أخبار أبي العباس " للخزاز

٢ - الأحنف بن قيس(٣ ق هـ - ٧٢ هـ = ٦١٩ - ٦٩١ م) الأحنف بن قيس بن معاوية بن حصين المرّي السعدي المنقري التميمي، أبو بحر: سيد تميم، وأحد العظماء الدهاة الفصحاء الشجعان الفاتحين. يضرب له المثل في الحلم. ولد في البصرة وأدرك النبي صلى الله عليه وسلم. ولم يره. ووفد على عمر، حين آلت الخلافة إليه، في المدينة، فاستبقاه عمر، فمكث عاما، وأذن له فعاد إلى البصرة، فكتب عمر إلى أبي موسى الأشعري: أما بعد فأدن الأحنف وشاوره واسمع منه إلخ. وشهد الفتوح في خراسان واعتزل الفتنة يوم الجمل، ثم شهد صفين مع عليّ. ولما انتظم الأمر لمعاوية عاتبه، فأغلظ له الأحنف في الجواب، فسئل معاوية عن صبره عليه، فقال: هذا الّذي إذا غضب غضب له مئة ألف لا يدرون فيم غضب. وولي خراسان. وكان صديقا لمصعب بن الزبير (امير العراق) فوفد عليه بالكوفة فتوفي فيها وهو عنده. أخبار كثيرة جدا، وخطبه وكلماته متفرقة في كتب التاريخ والأدب والبلدان، حرية بالجمع. قال رجل ليحيى البرمكي: أنت والله أحلم من الأحنف .

تكلّم فأحسن الوقوف عند مقاطع الكلام، ولا عرف حدوده إلا عمرو بن العاص رضي الله عنه (١)، كان إذا تكلم تفقد مقاطع الكلام، وأعطى حقّ المقام، وغاص

فى استخراج المعنى بألطف مخرج؛ حتى كان يقف عند المقطع وقوفا يحول بينه وبين تبعيته من الألفاظ، **وكان كثيرًا ما ينشد:**

إذا ما بدا فوق المنابر قائلا　　　أصاب بها يومى إليه المقاتلا (٢)

وكان شبيب ابن شبّة (٣) يوما قاعدا بباب المهدى، فأقبل عبد الصمد بن الفضل الرّقاشىّ(٤)، فلما رآه قال: أتاكم والله كليم الناس. فلما جلس قال شبيب: تكلم يا أبا العباس. فقال: أمعك يا أبا معمر وأنت خطيبنا وسيدنا؟

قال: نعم، فو الله ما رأيت قلبا أقرب من لسان، من قلبك من لسانك.

---

١ - عمرو بن العاص(٥٠ ق هـ - ٤٣ هـ = ٥٧٤ - ٦٦٤ م) عمرو بن العاص بن وائل السهمي القرشي، أبو عبد الله: فاتح مصر، وأحد عظماء العرب ودهاتهم وأولي الرأي والحزم والمكيدة فيهم. كان في الجاهلية من الأشداء على الإسلام، وأسلم في هدنة الحديبيّة. وولاه النبي صلى الله عليه وسلم إمرة جيش " ذات السلاسل " وأمده ب أبي بكر وعمر. ثم استعمله على عُمان. ثم كان من أمراء الجيوش في الجهاد بالشام في زمن عمر.
وهو الّذي افتتح قنسرين، وصالح أهل حلب ومنبج وأنطاكية. وولاه عمر فلسطين، ثم مصر فافتتحها. وعزله عثمان. ولما كانت الفتنة بين علي ومعاوية كان عمرو مع معاوية، فولاه معاوية على مصر سنة ٣٨ هـ وأطلق له خراجها ست سنين فجمع أموالا طائلة. وتوفي بالقاهرة. وكان عمر بن الخطاب إذا رأى الرجل يتلجلج في كلامه قال: خالق هذا وخالق عمرو بن العاص واحد!

٢ - الصناعتين لبي هلال ص ٤٢٨

٣ - صاحب خالد بن صفوان الذي تقدمت ترجمته في حرف الخاء [١] ، ولهما أخبار ومواقف مشهورة عند الخلفاء والأمراء.وكان بين شبيب وأبي نخيلة الراجز الشاعر صحبة ومودة. حدّث الأصمعي قال: رأى أبو نخيلة على شبيب حلّة فأعجبته فسأله إياها فوعده فقال فيه:
يا قوم لا تسوّدوا شبيبا ... الخائن ابن الخائن الكذوبا
هل تلد الذئبة إلا ذيب

٤ - ابوه هو الفَضْل الرَّقَاشي (ت ٢٠٠ هـ = ٠٠٠ - نحو ٨١٥ م) الفضل بن عبد الصمد بن الفضل الرقاشيّ البصري، أبو العباس: شاعر مجيد، من أهل البصرة. فارسي الأصل. انتقل إلى بغداد، ومدح الخلفاء. وكانت بينه وبين أبي نواس مهاجاة ومباسطة. وانقطع إلى البرامكة، ورثاهم بعد نكبتهم. وكان متهتكا خليعا، قال المبرد: " كان الفضل يظهر الغنى وهو فقير، ويظهر العز وهو ذليل، ويتكثر وهو قليل، فكانت الشعراء تهجوه .

قال: فى أى شىء تحب أن أتكلم؟

قال: وإذا شيخ معه عصا يتوكأ عليها، فقال: صف لنا هذه العصا.

فحمد الله عز وجل وأثنى عليه، ثم ذكر السماء، فقال: رفعها الله بغير عمد، وجعل فيها نجوم رجم ونجوم اقتداء، وأدار فيها سراجا وقمرا منيرا ؛ لتعلموا عدد السنين والحساب، وأنزل منها ماء مباركا، أحيا به الزرع والضّرع وأدرّ به الأقوات ، وحفظ به الأرواح ، وأنبت به أنواعا مختلفة، يصرّفها من حال إلى حال؛ تكون حبّة، ثم يجعلها عرقا، ثم يقيمها على ساق، فبينا تراها خضراء ترف إذ صارت يابسة تتقصّف، لينتفع بها العباد، ويعمر بها البلاد، وجعل من يبسها هذه العصا.

ثم أقبل على الشيخ ، فقال: وكان هذا نطفة فى صلب أبيه، ثم صار علقة حين خرج منه ، ثم مضغة ثم لحما وعظما، فصار جنينا أوجده الله بعد عدم وأنشأه مريدا، ووفقه مكتهلا، ونقصه شيخا، حتى صار إلى هذه الحال، من الكبر، فاحتاج فى آخر حالاته إلى هذه العصا ؛ فتبارك المدبّر للعباد ...

قال شبيب: فما سمعت كلاما على بديهة أحسن منه.) [1]

والذي أريد أن أؤكد عليه هنا أن البلاغة فضيلة وقع اسلافنا على أصولها، فحفظوها ، وعرفوا رجالها فأنزلوهم منازلهم حتى قال معاوية : يا أشدق ؛ قم عند قروم العرب وجحاجحها، فسلّ لسانك، وجل فى ميادين

---

١ - الصناعتين ص ٤٣٨.

البلاغة، وليكن التفقّد لمقاطع الكلام منك على بال، فإنى شهدت رسول الله ﷺ أملى على علىّ بن أبى طالب رضي الله عنه كتابا، وكان يتفقّد مقاطع الكلام كتفقد المصرم صريمته).(١)

ولما أقام أبو جعفر صالحا خطيبا بحضرة شبيب بن شبة وأشراف قريش فتكلم ، أقبل شبيب. فقال: يا أمير المؤمنين؛ ما رأيت كاليوم أبين بيانا، ولا أربط جنانا، ولا أفصح لسانا، ولا أبلّ ريقا، ولا أغمض عروقا، ولا أحسن طريقا إلا أن الجواد عسير لم يرض ؛ فحملته القوة على تعسّف الإكام وخبطها، وترك الطريق اللاحب، وايم الله لو عرف فى خطبته مقاطع الكلام لكان أفصح من نطق بلسان.

لقد عرفوا الإيجاز والإطناب كما قال المأمون: ما أعجب بكلام أحد كاعجابى بكتاب القاسم بن عيسى (٢)، فإنه يوجز فى غير عجز، ويصيب مفاصل الكلام ولا تدعوه المقدرة إلى الإطناب، ولا تميل به الغزارة إلى الإسهاب، يجلى عن مراده فى كتبه، ويصيب المغزى فى ألفاظه.

---

١ - المصرم هُوَ الَّذِي لَهُ صرمة والصرمة الْجَمَاعَة القليلة من الْإِبِل ثمَّ كثر ذَلِك حَتَّى سمي كل قَلِيل الْحَال مصرما وَإِن لم تكن لَهُ صرمة.

٢ - أَبُو دُلَف العِجْلي (٠٠٠ - ٢٢٦ هـ = ٠٠٠ - ٨٤٠ م) القاسم بن عيسى بن إدريس بن معقل، من بني عجل بن لجيم: أمير الكرخ، وسيد قومه، وأحد الأمراء الأجواد الشجعان الشعراء. قلده الرشيد العباسي أعمال " الجبل " ثم كان من قادة جيش المأمون. وأخبار أدبه وشجاعته كثيرة. وللشعراء فيه أماديح. وله مؤلفات، منها " سياسة الملوك " و " البزاة والصيد ". وهو من العلماء بصناعة الغناء، يقول الشعر ويلحّنه. توفي ببغداد.

ورقات وكتابات

تعد الكتابات التي سطرها العلماء في القرون الأولى من أصول البيان التي قام صرح البلاغة العربية عليها ، ومن أول ما كتب في البيان ما سطره أكثم بن صيفى (١)، لأنه كان يكاتب الملوك **وكان يقول لمن يكتب كلامه** :

(افصلوا بين كل معنى منقضٍ، وصلوا إذا كان الكلام معجونا بعضه ببعض.)

وراجع هذه العبارة لتتعرف على ركائز باب الفصل والوصل الأولى فالمعاني إما أن تكون كالدرر المستقلة ، أو كالعقد المنظوم الذي ينسل بعضه من بعض ، والمعنى المستقل يشبه الحكمة القائمة بذاتها مثل (كل امرئ بما كسب رهين) أو (إنما الأعمال بالنيات) أو (الحق ابلج) أما المعاني المنسولة بعضها من بعض فمثل قولك (مثل الذين كفروا بربهم أعمالهم كسراب بقيعة ..... إلخ) فلن يتم المعنى إلا مع آخر كلمة في الصورة .

وكان الاحرث بن أبى شمر الغسّانى(٢)، يقول لكاتبه المرقش(٣)(إذا نزع بك الكلام إلى الابتداء بمعنى غير ما أنت فيه فافصل بينه وبين تبيعته

---

١ - أَكْثَم بن صَيْفي (ت ٩ هـ =) أكثم بن صيفي بن رياح بن الحارث ابن مخاشن بن معاوية التميمي: حكيم العرب في الجاهلية، وأحد المعمرين. عاش زمنا طويلا، وأدرك الإسلام، وقصد المدينة في مئة من قومه يريدون

٢ - ابن أَبي شَمِر(٨ هـ = ٦٣٠ م) الحارث بن أبي شمر الغساني: من أمراء غسان في أطراف الشام. كانت إقامته بغوطة دمشق. وأدرك الإسلام، فأرسل

٣ - المُرَقِّش الأَكْبَر(ت ٧٥ ق ه) عوف (أو عمرو) بن سعد بن مالك ابن ضبيعة من بني بكر بن وائل: شاعر جاهلي، من المتيمين الشجعان. عشق ابنة عم له اسمها " أسماء " وقال فيها شعرا كثيرا. وكان يحسن الكتابة. وشعره من الطبقة الأولى، ضاع أكثره. ولد باليمن، ونشأ بالعراق. واتصل مدة بالحارث أبي شمر الغساني ونادمه ومدحه. واتخذه الحارث كاتبا له. وتزوجت عشيقته أسماء برجل من بني مراد، فمرض المرقش زمنا، ثم قصدها فمات في حيها. وهو عمّ المرقش الأصغر، وهذا عم طرفة بن العبد .

من الألفاظ، فإنك إن مذقت ألفاظك بغير ما يحسن أن تمذق به نفّـرت القلوب عن وعيها، وملّته الأسماع، واستثقلته الرواة)([1]).

ولم يقف الأمر عند هذا ، ففي صدر الدولة العباسية نجد الأمر يأخـذ منحى آخر وهو الإشارة إلى المصطلح وتعريفه ، ومن ذلك أن المفضل الضبي ([2])سأل أعرابياً عن البلاغة ، فقال: "الإيجاز في غير عجز، والإطناب في غير خطل". قال ابن الأعرابي راوي هذا الأثر: **فقلت للمفضل:**

ما الإيجاز عندك؟ قال: حذف الفضول، وتقريب البعيد.

ومن أهم معالم نشأة البلاغة العربية ما حملته لنا يد التاريخ من كتابـات وورقات كانت أول الغيث ، وعلى رأسها ما كتبه بشر بن المعتمر ([3])، حيـث ألف ورقة، فيها قواعد لبلاغـة الكـلام ،وحسـن الأداء ، عرفـت فـيما بعـد: بصحيفة بشر بن المعتمر، ويحكي عنها الجاحظ ، يقول: (مر بشر بن المعتمـر بإبرهيم بن جبلة بن مخرمة السكوني الخطيب – وهو يُعلِّم فتيـانهم الخطابـة – فوقف بشر ، فظن ابرهيم أنه إنما وقف ليستفيد ، أو ليكون رجلا من النظارة

١ - الصناعتين لأبي هلال العسكري ص ٢٤٣

٢ - المفضَّل بن محمد بن يعلى بن عامر الضبي، أبو العباس: راوية، علامة بالشعر والأدب وأيام العرب. من أهل الكوفة. قال عبد الواحد اللغوي: هو أوثق من روى الشعر من الكوفيين. ت ١٦٨ه ومن كتبه : الأمثال و معاني الشعر ، والألفاظ

٣(- بشر بن المعتمر الهلالي البغدادي ت ٢١٠ه ، أبو سهل: فقيه معتزلي مناظر، من أهل الكوفة. قال الشريف المرتضى: (يقال: إن جميع معتزلة بغداد كانوا من مستجيبيه) . تنسب إليه الطائفة (البشرية) منهم.

له مصنفات في (الاعتزال) منها قصيدة في أربعين ألف بيت ردّ فيها على جميع المخالفين. ومات ببغداد .

فقال بشر : أضربوا عما قال صفحا ، واطووا عنه كشحا ، ثم دفع اليهم صحيفة من تحبيره وتنميقه ، وكان أول ما فيها " خذ من نفسك ساعة نشاطك ، وفراغ بالك ، وإجابتها إياك ، فإن قليل تلك الساعة أكرم جوهرا وأشرف حسبا ، واحسن في الاسماع ، وأحلى في الصدور ، وأسلم من فاحش الخطأ ، وأجلب لكل عين من لفظ شريف ومعنى بديع .

وقال : ينبغي للمتكلم ان يعرف اقدار المعاني ، ويوازن بينها وبين اقدار المستمعين ، وبين اقدار الحالات ، فيجعل لكل طبقة من ذلك كلاما ، ولكل حالة من ذلك مقاما ، حتى يقسم اقدار الكلام على اقدار المعاني وقال : إياك والتوعر ، فإن التوعر يسلمك الى التعقيد ، والتعقيد هو الذي يستهلك معانيك ، ويشين ألفاظك .

ومن أراد معنى كريما فليلتمس له لفظا كريما ، فإن حق المعنى الشريف اللفظ الشريف وقال : ليكن لفظك رشيقا عذبا ، وفخما سهلا ، وليكن معناك ظاهرا مكشوفا وقريبا معروفا ، إما عند الخاصة ، ان كنت للخاصة قصدت ، وإما عند العامة ان كنت للعامة أردت .

والمعنى ليس يشرف بأن يكون من معاني الخاصة ، وكذلك ليس يتضع بأن يكون من معاني العامة ، وإنما مدار الشرف على الصواب ، وإحراز المنفعة مع موافقة الحال ، وما يجب لكل مقام من المقال .

وكذلك اللفظ العامي والخاصي ، فإن امكنك أن تبلغ من بيان لسانك وبلاغة قلمك ، ولطف مداخلك واقتدارك على نفسك على ان تُفهم العامة

معاني الخاصة ، وتكسوها الألفاظ الواسطة التي لا تلطف عن الدهماء ولا تجفو عن الاكفاء فانت البليغ التام ، قال بشر : فلما قرأت على ابراهيم قال لي : أنا احوج الى هذا من هؤلاء الفتيان) (١).

وكلام بشر – رحمه الله – يرتكن في البداية على نشاط النفس، فهي مصنع البيان ، ولا يصلح اللفظ المنطوق ولا يستقيم في الأسماع إلا بصلاحه أولا في النفس .

ثم إنه جعل عالم البيان كعالم النسب ، منه الشريف ، ومنه الوضيع وأشار إلى المطابقة بين الكلام وأحوال السامعين ، فلكل مقام مقال ، ونهى عن التوعر والتقعيد .... إلخ.

وهذه أصول البلاغة ، وأركانها التي لا تقوم إلا بها ، ولو أنك رجعت إلى أي باب من أبواب البلاغة الحالية لرأيته متفرعا عن كلام بشر بن المعتمر وناشئا منه .

وتعجب حين تعلم أن هذه الصحيفة هي أول ما وصل إلينا من كلام السابقين مكتوبا في بلاغة الكلام .

* وفي هذا الوقت الذي كتبت فيه هذه الصحيفة ، كان هناك عالمٌ آخر يرسي للبلاغة قواعد مستنبطة من كلام الله تعالى ، حين كان يوضح مسألة من مسائل التشبيه وهو: أبو عبيدة معمر بن المثنى (٢)(ت ٢١١هـ) في كتابه

---

١ - البيان والتبيين للجاحظ تحت باب : كلام بشر بن المعتمر ١ / ٨٦ .

٢ - من أئمة العلم بالأدب واللغة. مولده ووفاته في البصرة. استقدمه هارون الرشيد إلى بغداد سنة ١٨٨ هـ وقرأ عليه أشياء من كتبه. قال الجاحظ: لم يكن في الأرض أعلم بجميع العلوم منه. وكان إباضيا، شعوبيا، من حفاظ الحديث. قال ابن قتيبة: كان يبغض العرب وصنف في مثالبهم كتبا. ولما مات لم يحضر جنازته أحد، لشدة نقده معاصريه.

(مجاز القرآن) ، واسمعه يقول : (كنت في حضرة أحد الولاة ، فدخل رجل ، فى زى الكُتَّاب له هيئة ، فأقعده إلى جانبى ، وقال له : أتعرف هذا ؟

قال : لاقال : هذا علَّامة أهل البصرة ، أبو عبيدة ، أقدمناه لنستفيد منه ومن علمه ، فدعا له الرجل ، وقرَّظه لفعله هذا ، وقال لى : والله إنى كنت مشتاقا إليك ، وقد سُئلت عن مسألة ، أفتأذن لى أن أعرِّفك إياها ؟ قلت : هات قال : **قال الله عز و جل**:﴿ طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٦٥﴾ ﴾ [سورة **الصافات:٦٥**]

وإنما يقع الوعد والإيعاد بما عُرف ،وهذا لم يُعرف ،فقلت: إنما كلمهم الله تعالى بما يعرفون، **أما سمعت قول أمرى القيس :**

(أيقتلنى والمشرفى مضاجعى ومسنونة زرق كأنياب أغوال)

وهم لم يروا الغول ، ولكن لما كان أمر الغول يهولهم أوعدوا به فاستحسن الفضل ذلك ، واستحسنه السائل، فعزمت منذ ذلك الوقت أن أضع كتابا لمثل هذا وأشباهه فلما رجعت إلى البصرة عملت كتابى الذى سميته كتاب " المجاز ")(١).

ولعلك تلحظ أن الكتاب في بيان معاني ألفاظ القرآن الكريم ، والمراد منها وليس في بلاغته ، ولا بلاغة العربية ، إنما أراد أبو عبيدة أن يفسر دلالات بعض الألفاظ ، بأن يقول مجاز هذا اللفظ كذا ، أي : معناه كذا .

---

١ - انظر البيان والتبيين للجاحظ والكامل في اللغة والأدب للمبرد، أبو العباس (المتوفى : ٢٨٥هـ) ت محمد أبو الفضل إبراهيم - دار الفكر العربي – القاهرة.

وممن كتبوا في البلاغة جعفر بن يحيى البرمكي ، لكن كتاباته لم تصل ، أما الذي ملأ الدنيا بعلمه وأدبه وكتبه فهو الجاحظ ، وكتبه أظهر من أن تذكر.

كتب وعلماء قامت عليهم البلاغة

لم تقتصر صناعة البلاغة على علماء البلاغة ، بل كان لعلماء النحو واللغة والتفسير والإعجاز وغيرهم مشاركات رفدت علم البلاغة بالماء الجاري حتى تشب ، وتقف على قدمين، فلا يخلو كتاب من كتبهم من إشارات لقواعد بلاغية، **ومن أوائل هؤلاء (علماء اللغة) وعلى رأسهم** :

- **أبو عمرو بن العلاء**[1]: ت ١٥٤هـ

حيث يقول وهو يشرح أبياتا من الشعر :

أقامت به حتى ذوى العود والتوى وساق الثريا في ملاءته الفجر

والمعنى : يعني أن هذه المرأة أقامت بهذه الدار، زمن الربيع للرعي، فلما كان وقت طلوع الثريا وجفوف الثرى، وانقطاع المرعى، رحلت عنها ورجعت إلى مكانها. وكذلك كانت العرب تنتجع المراعي في الربيع، وتقيم بالأماكن الخصيبة، فإذا أقبل الحر وصوح النبت رجع كل قوم إلى مكانها، واجتمعوا على مياهم. قال أبو عمرو معلقا : " ألا ترى كيف جعل للفجر ملاءة، ولا ملاءة له؟ ".

---

١ - أبو عَمْرو ابن العَلاء(٧٠ - ١٥٤ هـ = ٦٩٠ - ٧٧١ م) زَبَّان بن عَمَّار التميمي المازني البصري، أبو عمرو، ويلقب أبوه بالعلاء: من أئمة اللغة والأدب، وأحد القراء السبعة. ولد بمكة، ونشأ بالبصرة، ومات بالكوفة. قال الفرزدق: (ما زلت أغلق أبوابا وأفتحها حتى أتيت أبا عمرو ابن عمار) قال أبو عبيدة: كان أعلم الناس بالأدب والعربية والقرآن والشعر، وكانت عامة أخباره عن أعراب أدركوا الجاهلية. له أخبار وكلمات مأثورة.

وهذا التعليق يشير به إلى معرفته للاستعارة التخييلية . ونجده أيضا يذكر كلمة "قيد الأوابد" **من قول امرئ القيس:**

وَقد أغتدي وَالطير فِي وكناتها بمنجرد قيد الأوابد هيكل

ويقول: إنه أحسن في هذه اللفظة، وإنه اتبع فيها فلم يُلحق. مما يعني أن عبارة (قيد الأوابد) من انفرادات امرئ القيس ، وكل من جاء بعده مستعملا هذا التركيب تابع لامرئ القيس ، وآخذ منه ، فهو أول من قيد الأوابد .

- **الخليل بن أحمد :[1]**

تحدث الخليل بن أحمد (ت١٧٥) عن الجناس والمطابقة، وعن الاستعمال المجازي، قال سيبويه: "وسألت الخليل ابن أحمد عن قول العرب: ما أُميلحه!

فقال: حقّروا هذا اللفظ، وإنما يعنون الذي تصفه بالملح، كأنك مُليّح شبهوه بالشيء الذي تلفظ به وأنت تعني شيئاً آخر، نحو قولهم: يطؤهم

١ - الخَلِيل بن أحمد(١٠٠ - ١٧٠ هـ = ٧١٨ - ٧٨٦ م) الخليل بن أحمد بن عمرو بن تميم الفراهيدي الأزدي اليحمدي، أبو عبد الرحمن: من أئمة اللغة والأدب، وواضع علم العروض، أخذه من الموسيقى وكان عارفا بها. وهو أستاذ سيبويه النحويّ. ولد ومات في البصرة، وعاش فقيرا صابرا. كان شعث الرأس، شاحب اللون، قشف الهيئة، متمزق الثياب، متقطع القدمين، مغمورا في الناس لايعرف. قال النَّضْر بن شُمَيْل: ما رأى الرأوون مثل الخليل ولا رأى الخليل مثل نفسه. له كتاب (العين - خ) في اللغة و (معاني الحروف - خ) و (جملة آلات العرب -) و (تفسير حروف اللغة -) وكتاب (العروض) و (النقط والشكل) و (النغم) وفكر في ابتكار طريقة في الحساب تسهله على العامة، فدخل المسجد وهو يعمل فكره، فصدمته سارية وهو غافل، فكانت سبب موته. والفراهيدي نسبة إلى بطن من الأزد، وكذلك اليحمديّ.

وفي طبقات النحويين - خ - للزبيدي: كان يونس يقول الفرهودي (بضم الفاء) نسبة إلى حيّ من الأزد، ولم يسمّ أحد بأحمد بعد رسول الله صلّى الله عليه وسلم قبل والد الخليل. وقال اللغويّ، في مراتب النحويين: أبدع الخليل بدائع لم يُسبق إليها، فمن ذلك تأليفه كلام العرب على الحروف في الكتاب المسمى بكتاب (العين) فإنه هو الّذي رتب أبوابه، وتوفي قبل أن يحشوه. وقال ثعلب: إنما وقع الغلط في كتاب العين لأن الخليل رسمه ولم يحشه، وهو الّذي اخترع العروض وأحدث أنواعا من الشعر ليست من أوزان العرب .

الطريق: أي : أهل الطريق، وصيد عليه يومان: أي : صيد عليه الصيد يومين، فحذف الصيد، وأقام اليومين مقامه".) وهذه كلها استعمالات مجازية من قبيل المجاز المرسل

- سيبويه(١)

المتصفح لكتاب سيبويه يجد كلاما صريحا في أبواب البلاغة ، وقد اعتمد عليه بعد ذلك البلاغيون ، مثل قوله في باب الفاعل :"إنما يقدمون الذي بيانه أهم لهم، وهم ببيانه أعنى، وإن كانا جميعاً يهمانهم ويعنيانهم".كما تحدث عن الحذف ودواعيه ، وهو الاستغناء عن المحذوف بعلم المخاطب، وبما يرى من شواهد الأحوال، وأقام له الشاهد من القرآن الكريم والحديث الشريف ، وقول قيس بن الخطيم (٢):

نحن بما عندنا وأنت بما عندك راض والرأي مختلف

١ - سِيبوَيْه(١٤٨ - ١٨٠ هـ = ٧٦٥ - ٧٩٦ م) عمرو بن عثمان بن قنبر الحارثي بالولاء، أبو بشر، الملقب سيبويه: إمام النحاة، وأول من بسط علم النحو. ولد في إحدى قرى شيراز، وقدم البصرة، فلزم الخليل بن أحمد ففاقه. وصنف كتابه المسمى " كتاب سيبويه - ط " في النحو، لم يصنع قبله ولا بعده مثله. ورحل إلى بغداد، فناظر الكسائي. وأجازه الرشيد بعشرة آلاف درهم. وعاد إلى الأهواز فتوفي بها، وقيل: وفاته وقبره بشيراز. وكانت في لسانه حبسة. و " سيبويه " بالفارسية رائحة التفاح. وكان أنيقا جميلا، توفي شابا. وفي مكان وفاته والسنة التي مات بها خلاف.

٢ - قَيْس بن الخَطِيم (٠٠٠ - نحو ٢ ق هـ = ٠٠٠ - نحو ٦٢٠ م) قيس بن الخطيم بن عدي الأوسي أبو يزيد: شاعر الأوس، وأحد صناديدها، في الجاهلية. أول ما اشتهر به تتبعه قاتلي أبيه وجده حتى قتلهما، وقال في ذلك شعرا. وله في وقعة " بعاث " التي كانت بين الأوس والخزرج، قبل الهجرة، أشعار كثيرة. أدرك الإسلام وتريث في قبوله، فقتل قبل أن يدخل فيه. شعره جيد، وفي الأدباء من يفضله على شعرحسان .

وقول ضابئ البرجمي (١):

فمن يك أمسى بالمدينة رحله فإني وقيّارٌ بها لغريبُ

وكان يسمي المجاز (سعة الكلام) **وذكر منه قول الخنساء:**

ترتع ما رتعت حتى إذا ادَّكرت فإنما هي إقبال وإدبار

ثم قال: "فجعلها الإقبال والإدبار مجاز على سعة الكلام؛ كقولك: "نهارك صائم، وليلك قائم"، **ومثل ذلك قول الشاعر متمم بن نويرة** (٢):

لعمري ما دهري بتأبين هالك ولا جزع مما أصاب فأوجعا

وتحدث سيبويه عن مجاز الحذف إذ قال في قولهم: "هذه تميم، وهذه سلول": إنما تريد: هذه بنو تميم، وهذه بنو سلول، غير أنك حذفت المضاف تخفيفًا، **كما قال -عَزَّ وَجَلَّ:-**

﴿ **وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا**....... ﴾ [سورة يوسف:٨٢]

وقولهم: "ويطؤهم الطريق"، وإنما تريد: أهل القرية، وأهل الطريق وهذا في كلام العرب كثير".

---

١ - ضابئ البُرْجُمي(٠٠٠ - نحو ٣٠ هـ = ٠٠٠ - نحو ٦٥٠ م)ضابئ بن الحارث بن أرطاة التميمي البرجمي: شاعر، خبيث اللسان، كثير الشر. عرف في الجاهلية. وأدرك الإسلام، فعاش بالمدينة إلى أيام عثمان. وكان مولعا بالصيد، وله خيل.ومن شعره أحد أبيات الشواهد:(فمن يك أمسى بالمدينة رحله ... فإنّي، وقيّار بها، لغريب) وكان ضعيف البصر: سجنه عثمان بن عفان لقتله صبيا بدابته، ولم ينفعه الاعتذار بضعف بصره. ولما انطلق هجا قوما من بني نهشل، فأعيد إلى السجن. وعرض السجناء يوما فإذا هو قد أعدّ سكينا في نعله يريد أن يغتال بها عثمان، فلم يزل في السجن إلى أن مات.

٢ - متمم بن نويرة (٠٠٠ - نحو ٣٠ هـ = ٠٠٠ - نحو ٦٥٠ م) متمم بن نويرة بن جمرة بن شداد اليربوعي التميمي، أبو نهشل: شاعر فحل، صحابي، من أشراف قومه، اشتهر في الجاهلية والإسلام. وكان قصيرا أعور، أشهر شعره رثاؤه لأخيه " مالك ومنه قوله: " وكنا كندماني جذمية حقبة من الدهر، حتى قيل: لن يتصدعا " وندمانا جذيمة: (مالك وعقيل " تقدم ذكرهما في ترجمة " مالك بن فارج " ولنشوان الحميري رأي آخر فيهما (يأتي ذكره في هامش هذه الترجمة) وسكن متمم المدينة، في أيام عمر، وتزوج بها امرأة لم ترض أخلاقه لشدة حزنه عل أخيه.

كما تحدث عن التشبيه، وفرَّق بين ما اقترن بالأداة، وما لم يكن مقروناً بها فقال: "تقول: مررت برجل أسد أبوه، إذا كنت تريد أن تجعله شديداً، ومررت برجل مثل الأسد أبوه، إذا كنت تشبِّهه".

وهذه اللفتات البلاغية تعني أن البلاغة لا تنفصل عن عقل العربي الأصيل فضلا عن عقل علماء اللغة .

- **الفراء[١](ت ٢٠٧هـ)**

وللفراء تفسير يسمى (معاني القرآن) يتعرض فيه إلى فنون البيان، مثل المجاز العقلي في **قوله تعالى:**

﴿ ....فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ ....﴾[سورة البقرة:١٦]

حين قال: "ربما قال قائل: كيف تربح التجارة، وإنما يربح الرجل التاجر وذلك من كلام العرب: ربح بيعك، وحسن بيعك، وحسن القول بذلك؛ لأن الربح والخسران إنما يكونان في التجارة، فعلم معناه، ومثله من كلام العرب: هذا ليل نائم".

١- الفرَّاء(١٤٤ - ٢٠٧ هـ = ٧٦١ - ٨٢٢ م)يحيى بن زياد بن عبد الله بن منظور الديلميّ، مولى بني أسد (أو بني منقر) أبوزكرياء، المعروف بالفراء: إمام الكوفيين، وأعلمهم بالنحو واللغة وفنون الأدب. كان يقال: الفراء أمير المؤمنين في النحو. ومن كلام ثعلب: لولا الفراء ما كانت اللغة. ولد بالكوفة، وانتقل إلى بغداد، وعهد إليه المأمون بتربية ابنيه، فكان أكثر مقامه بها، فإذا جاء آخر السنة انصرف إلى الكوفة فأقام أربعين يوما في أهله يوزع عليهم ما جمعه ويبرهم. وتوفي في طريق مكة. وكان مع تقدمه في اللغة فقيها متكلما، عالما بأيام العرب وأخبارها،عارفا بالنجوم والطب، يميل إلى الاعتزال. من كتبه " المقصور والممدود - خ " و " المعاني " ويسمى " معاني القرآن - ط " أملاه في مجالس عامة كان في جملة من يحضرها نحو ثمانين قاضيا، و " المذكر والمؤنث - ط " وكتاب " اللغات " و " الفاخر - خ " في الأمثال، و " ما تلحن فيه العامة " و " آلة الكتاب " و " الأيام والليالي - خ " و " البهي " ألفه لعبد الله بن طاهر، و " اختلاف أهل الكوفة والبصرة والشام في المصاحف " و " الجمع والتثنية في القرآن " و " الحدود " ألفه بأمر المأمون، و " مشكل اللغة ". وكان يتفلسف في تصانيفه. واشتهر بالفرّاء، ولم يعمل في صناعة الفراء، فقيل: لأنه كان يفري الكلام. ولما مات وجد " كتاب سيبويه " تحت رأسه، فقيل: إنه كان يتتبع خطأه ويتعمد مخالفته. وعُرف أبوه " زياد " بالأقطع، لأن يده قطعت في معركة " فخ " سنة ١٦٩ وقد شهدها مع الحسين بن علي بن الحسن، في خلافة موسى الهادي .

ونبّه على بعض أنواع المجاز المرسل، كما نبه على إطلاق المحل وإرادة الحالّ **في قوله تعالى:**

﴿ **فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ ﴿١٧﴾** ﴾ **[سورة العلق:١٧]**

وقال: العرب يجعلون النادي والمجلس والمشهد والشاهد: القوم.)(١)

وهذه كلها من باب المجاز المرسل .

- **أبو عبيدة معمر بن المثنى (ت ٢٠٩)**

وله تفسير "مجاز القرآن" نبه فيه على معاني الكلام ومقاصده ، كما حوى بعض فنون البيان، مثل الالتفات **في قوله تعالى:**

﴿ ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ يَتَمَطَّىٰٓ ﴿٣٣﴾ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ﴿٣٤﴾ ﴾ [سورة القيامة:٣٤]

وفي قوله تعالى:

﴿ ...**حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ** .. ﴾

[سورة يونس:٢٢]

ونبّه على بعض أنواع المجاز المرسل؛ كاستعمال المصدر في اسم الفاعل أو اسم المفعول، **في قوله تعالى:**

﴿ ..وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ ...... ﴾ [سورة البقرة:١٧٧]

وقوله :

﴿ ..**أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا** ...... ﴾ [سورة الأنبياء:٣٠]

ونبهَ على ما يسمونه: القلب في قوله تعالى:

١ - موسوعة الأعمال الكاملة لمحمد الخضر حسين ١٧٤/٧.

﴿....لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُوْلِي ٱلْقُوَّةِ ....﴾ [سورة القصص:٧٦]

- **الأصمعي : (١)**

تحدث الأصمعي عن الالتفات ومما روى محمد بن يحيى الصولي (٢): أن الأصمعي قال له: أتعرف التفاتات جرير (٣)؟ فقال: لا، ما هي؟ **قال:**

أتنسى إذ تودعنا سليمى   بعود بشامة سُقي البشام

ألا تراه مقبلاً على شعره، ثم التفت إلى البشام، فدعا له؟.

وتحدث عن التغليب، فقال: إذا كان أخوان أو صاحبان، وكان أحدهما أشهر من الآخر، سمِّيا باسم الأشهر، من هذا الباب: الأسودان: التمر والماء والأبيضان: الخبز والماء.

ولاشك أن الالتفات باب من أبواب البلاغة ، وكأن العلماء تحدثوا عن كل أبواب البلاغة في كتبهم قبل أن يجمعها البلاغيون .

١ - الأَصْمَعي (١٢٢ - ٢١٦ هـ = ٧٤٠ - ٨٣١ م) عبد الملك بن قريب بن علي بن أصمع الباهلي، أبو سعيد الأصمعي: راوية العرب، وأحد أئمة العلم باللغة والشعر والبلدان. نسبته إلى جده أصمع. ومولده ووفاته في البصرة. كان كثير التطواف في البوادي، يقتبس علومها ويتلقى أخبارها، ويتحف بها الخلفاء، فيكافأ عليها بالعطايا الوافرة. أخباره كثيرة جدا. وكان الرشيد يسميه " شيطان الشعر ". قال الأخفش: ما رأينا أحدا أعلم بالشعر من الأصمعي. وقال أبو الطيب اللغوي: كان أتقن القوم للغة، وأعلمهم بالشعر، وأحضرهم حفظا. وكان الأصمعي يقول: أحفظ عشرة آلاف أرحوزة. وتصانيفه كثيرة، منها " الإبل - ط " و " الأضداد - ط " مشكوك في أنه من تأليفه و " خلق الإنسان - ط " و " المترادف - " الفرق - ط " أي الفرق بين أسماء الأعضاء من الإنسان والحيوان.

٢ - أَبُو بَكْر الصُّولي(٠٠٠ - ٣٣٥ هـ = ٠٠٠ - ٩٤٦ م) محمد بن يحيى بن عبد الله، أبو بكر الصولي، وقد يعرف بالشطرنجي: نديم، من أكابر علماء الأدب. نادم ثلاثة من خلفاء بني العباس، هم: الراضي والمكتفي والمقتدر. وله تصانيف، منها (الأوراق) في أخبار آل العباس وأشعارهم، طبع منه (أشعار أولاد الخلفاء) و (أخبار الراضي والمتقي) و (أخبار الشعراء المحدثين) . وله (أدب الكتاب - ط) و (أخبار القرامطة) و (الغرر) و (أخبار ابن هرمة) و (أخبار إبراهيم ابن المَهْدِي - خ) و (أخبار الحلاج - خ)

٣ - جَرير(٢٨ - ١١٠ هـ = ٦٤٠ - ٧٢٨ م) جرير بن عطية بن حذيفة الخَطَفي بن بدر الكلبيّ اليربوعي، من تميم: أشعر أهل عصره. ولد ومات في اليمامة. وعاش عمره كله يناضل شعراء زمنه ويساجلهم - وكان هجاءاً مرّا - فلم يثبت أمامه غير الفرزدق والأخطل. وكان عفيفا، وهو من أغزل الناس شعرا.

- **الجاحظ (ت ٢٥٥ه)**

وهو وإن كان ابن بحر ، فهو أيضا البحر الذي لا شاطئ له ، رائد العلوم البلاغية ، والشيخ الذي تعلم من كتبه عبد القاهر الجرجاني ، وبرع في أكثر من علم ، وله من الكتب ما تسعد به المكتبة العربية على اختلاف علومها ، ومن أشهر كتبه كتاب "البيان والتبيين" عرف فيه البلاغة ، ووضع شروطا لفصاحة الكلمة ، ووضع أصولا لعلم البيان ، ولم ينس الإشارة إلى ألوان من البديع وله أيضا كتاب (الحيوان) و(رسائل الجاحظ) يقول أبو هلال " إن إبانته عن حدود البلاغة وأقسام البيان والفصاحة مبثوثة في تضاعيفه، ومتنثرة في أثنائه، فهي ضالة بين الأمثلة، لا توجد إلا بالتأمل الطويل، والتصفح الكثير".

- **ابن قتيبة (ت ٢٦٧ه)(١)**

كان ابن قتيبة معاصرا للجاحظ ، وله كتاب اسمه (أدب الكاتب) نبه فيه على المجاز حين قال: " والعرب تسمي الشيء باسم الشيء إذا كان مجاوراً ل٠ه وكان منه بسبب ما بينت لك في باب تسمية الشيء باسم غيره ". وحكى عنه صاحب "العمدة" بحثاً في باب المجاز، وأنه رد على من أنكر أن يكون في لغة العرب مجاز، وقال: لو كان المجاز كذباً، لكان أكثر كلامنا باطلاً.

١ - ابن قُتَيْبَة(٠٠٠ - ٣٢٢ هـ = ٠٠٠ - ٩٣٤ م) أحمد بن عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينَوَريّ، أبو جعفر: قاض، من أهل بغداد، له اشتغال بالأدب والكتابة. كان يحفظ كتب أبيه وهي ٢١ كتابا في غريب القرآن والحديث والأدب والأخبار. ولي القضاء بمصر سنة ٣٢١ هـ فجاءها، وعرف فضله فيها فأقبل عليه طلاب العلوم والآداب. ويرجح (الكندي) أنه عزل بعد ثلاثة أشهر من ولايته. ويقول أكثر مؤرخيه أنه مات وهو على القضاء. وكانت وفاته بمصر.

- **المبرد (ت ٢٨٢هـ)**

وكان أيضا معاصرا للجاحظ وابن قتيبة وله كتاب (الكامل) نبه فيه على نوع من أنواع المجاز المرسل، وهو استعمال الكلمة في ضد معناها الأصلي إذ قال: والسليم: الملسوع، وقيل له: سليم على جهة التفاؤل ، كما يقال للمهلكة: مفازة، والمبرّد أول من نظر في سر التأكيد، **وفرَّق بين قولهم:**

"عبد الله القائم"، و"إنّ عبد الله قائم"، و"إن عبد الله لقائم"، فنبه على أن الأول إخبار عن قيامه، والثاني جواب عن سؤال، والثالث جواب عن إنكار منكر لقيامه، وصار كلام المبرد هذا أصلاً من أصول علم المعاني تتفرع منه مباحث دقيقة.

- **ابن دريد صاحب الجمهرة (٣١١هـ) (١)**

ذكر في كتابه هذا (باب الاستعارات)، وذكر فيه كثيرا من شواهد التشبيه ليدلل على أن الاستعارة قائمة على التشبيه ، وساق أمثلة وشواهد أخرى ترجع إلى المجاز المرسل، كما قال: (والغيث : المطر)، ثم صار ما نبت بالغيث: غيثاً وقال: الوغى: اختلاط الأصوات في الحرب، ثم كثرت

---

١ - ابن دُرَيْد(٢٢٣ - ٣٢١ هـ = ٨٣٨ - ٩٣٣ م)محمد بن الحسن بن دريد الأزدي، من أزد عمان من قحطان، أبو بكر: من أئمة اللغة والأدب. كانوا يقولون: ابن دريد أشعر العلماء وأعلم الشعراء. وهو صاحب (المقصورة الدريدية - ط) . ولد في البصرة، وانتقل إلى عمان فأقام اثني عشر عاما، وعاد الى البصرة. ثم رحل إلى نواحي فارس، فقلده (آل ميكال) ديوان فارس، ومدحهم بقصيدته (المقصورة) ثم رجع إلى بغداد، واتصل بالمقتدر العباسي فأجرى عليه في كل شهر خمسين دينارا، فأقام إلى أن توفي. ومن كتبه (الاشتقاق - ط) في الأنساب، منه مخطوطة نفيسة في الخزانة العامة بالرباط، بخط ابن مكتوم القيسي، و (المقصور والممدود - ط) و (شرحه - خ) و (الجمهرة - ط) في اللغة، ثلاثة مجلدات، أضاف إليها المستشرق كرنكو مجلدا رابعا للفهارس، و (ذخائر الحكمة - خ) رسالة، و (المجتنى - ط) و (صفة السرج واللجام - ط) و (الملاحن - ط) و (السحاب والغيث - ط) و (تقويم اللسان) و (أدب الكاتب) و (الأمالي - خ) السابع منه رأيته في خزانة الرباط، وهو صغير، كتب في دمشق سنة ٦٤١ بخط (علي بن أبي طالب الحسيني) .

وصارت الحرب وغى وقال: الظعينة: المرأة في الهودج، ثم صار البعير والهودج ظعينة.) (١). وهكذا .

- **ابن المعتز (ت ٢٩٦هـ)(٢)**

ظهر بعد ابن قتيبة والمبرد عبد الله بن المعتز المتوفى سنة ٢٩٦هـ ، وهو أول من ألف كتابا كاملا في البلاغة وهو كتاب "البديع" وقد نبّه فيه على أنه أول من كتب في هذا الفن مستقلاً، فقال في ديباجة هذا التأليف: "وما جمع قبلي فنون الأدب أحد، ولا سبقني إلى تأليفها مؤلف".

أورد ابن المعتز في هذا الكتاب سبعة عشر نوعاً من فنون البيان والبديع وهي: التشبيه، والاستعارة، والتجنيس، والطباق، ورد العجز على الصدر والمذهب الكلامي، والالتفات، والتمام، والاستطراد، وتأكيد المدح بما يشبه الذم، وتجاهل العارف، وحسن التضمين، والإفراط في الصفة، وعتاب المرء نفسه، وحسن الابتداء، والهزل الذي يراد به الجد.

والذي أريدك أن تنتبه له أن ابن المعتز وكتابه البديع هو الكتاب الأول الكامل في علوم البلاغة ، ومن بعده صارت البلاغة علما ولها كتب خاصة ، فابن المعتز فتح الباب لكل العلماء ليؤلفوا في البلاغة وفنونها .

---

١ موسوعة أعمال محمد الخضر حسين بتصرف.

٢ - ابن المُعْتَزّ(٢٤٧ - ٢٩٦ هـ = ٨٦١ - ٩٠٩ م) عبد الله بن محمد المعتز بالله بن المتوكل ابن المعتصم ابن الرشيد العباسي، أبو العباس: الشاعر المبدع، خليفة يوم وليلة. ولد في بغداد، وأولع بالأدب، فكان يقصد فصحاء الأعراب ويأخذ عنهم. وصنف كتبا، منها " الزهر والرياض " و " البديع - ط " و " الآداب " و " الجامع في الغناء " و " الجوارح والصيد " و " فصول التماثيل - ط " و " حلى الأخبار " و " أشعار الملوك " و " طبقات الشعراء - ط " وجاءته النكبة من حيث يسعد الناس: آلت الخلافة في أيامه إلى المقتدر العباسي، واستصغره القواد فخلعوه، وأقبلوا على صاحب الترجمة، فلقبوه " المرتضى بالله " وبايعوه بالخلافة، فأقام يوما وليلة، ووثب عليه غلمان المقتدر فخلعوه. وعاد المقتدر، فقبض عليه وسلمه إلى خادم له اسمه مؤنس، فخنقه. وللشعراء مراث كثيرة فيه.

- **قدامة بن جعفر (ت ٣٣٧هـ)**[١]

يقول ابن الجوزي في "تاريخه" وكان قد أدرك زمن ثعلب، والمبرد، وابن قتيبة، فقرأ مجتهداً حتى برع في صناعة البلاغة، وصنف كتابه المعروف بـ "نقد الشعر" سنة ٣٠٢هـ ، وهو الكتاب الشائع اسمه، الحاضر لدينا بشخصه، وصنف كتاب "نقد النثر"، ولا نعرف لهذا الكتاب اليوم طريقاً ولا أثراً.

وقد بحث قدامة في نقد الشعر عن عشرين نوعاً من أنواع البديع، اشترك مع ابن المعتز في سبعة أنواع، وانفرد عنه بثلاثة عشر نوعاً .

وفي كتاب نقدالشعر ذكر قدامة أجزاءه ، ونعوته ، ومحاسنه وعيوبه ويعد أول من نقل النقد من عالم النقد الذاتي ، إلى عالم النقد الموضوعي ، ويذكر قدامة في أول كتابه سبب تأليفه لهذا الكتاب فيقول : (العلم بالشعر ينقسم أقساماً، فقسم ينسب إلى علم عروضه ووزنه، وقسم ينسب إلى علم قوافيه ومقاطعه، وقسم ينسب إلى علم غريبه ولغته، وقسم ينسب إلى علم معانيه والمقصد به، وقسم ينسب إلى علم جيده ورديئه ،ثم يقول : ولم أجد أحداً وضع في نقد الشعر وتخليص جيده من رديئه كتاباً، وكان الكلام عندي في هذا القسم أولى بالشعر من سائر الأقسام المعدودة)[٢].

---

١ - قدامة بن جَعْفَر(٠٠٠ - ٣٣٧ هـ = ٠٠٠ - ٩٤٨ م) قدامة بن جعفر بن قدامة بن زياد البغدادي أبو الفرج: كاتب، من البلغاء الفصحاء المتقدمين في علم المنطق والفلسفة. كان في أيام المكتفي بالله العباسي، وأسلم على يده، وتوفي ببغداد. يضرب به المثل في البلاغة. له كتب، منها " الخراج - ط " قسم منه، و " نقد الشعر - ط " و " جواهر الألفاظ - ط " و " السياسة " و " البلدان " و " زهر الربيع " في الأخبار والتاريخ، و " نزهة القلوب " و " الرد على ابن المعتز فيما عاب به أبا تمام.

٢ - نقد الشعر لقدامة بن جعفر ص ١.

وكل ما مضى من أقوال البلغاء ، ومباحث علماء العربية ثروة ، وأساس قام عليه صرح علم البلاغة .

ثم تبع ذلك مؤلفات تهتم بالموازنة بين الشعراء ، والحكم لهم أو عليهم

ومن أبرز هذه الكتب التي تعد علامة بارزة في طريق البلاغة :

●الآمدي ت ٣٧١ه :(١)

في كتابه الموازنة بين أبي تمام والبحتري لأبي القاسم الحسن بن بشر الآمدي ، وهذه المؤلفات رسمت للناس قواعد التفضيل ، وأصول الحكم ووسائل النقد ، كما أنها أظهرت تنوع الطبائع ، وتعدد المشارب ، يقول مثلا الآمدي مخاطبا القارئ : (فإن كنت – أدام الله سلامتك – ممن يفضل سهل الكلام وقريبه، ويؤثر صحة السبك وحسن العبارة وحلو اللفظ وكثرة الماء والرونق فالبحتري أشعر عندك ضرورةً.

وإن كنت تميل إلى الصنعة، والمعاني الغامضة التي تستخرج بالغوص والفكرة، ولا تلوى على غير ذلك فأبو تمام عندك أشعر لا محالة.

فأما أنا فلست أفصح بتفضيل أحدهما على الآخر، ولكني أوازن بين قصيدتين من شعرهما إذا اتفقتا في الوزن والقافية وإعراب القافية، وبين معنى ومعنى، فأقول: أيهما أشعر في تلك القصيدة، وفي ذلك المعنى، ثم

---

١ - الآمِدي(٠٠٠ - ٣٧٠ هـ = ٠٠٠ - ٩٨٠ م) الحسن بن بشر بن يحيى الآمدي، أبو القاسم: عالم بالأدب، راوية، من الكتاب، له شعر. أصله من آمد ومولده ووفاته بالبصرة. من كتبه (المؤتلف والمختلف - ط) في أسماء الشعراء وكناهم وألقابهم وأنسابهم، و (الموازنة بين البحتري وأبي تمام - ط) و (معاني شعر البحتري) و (الخاص والمشترك) في معاني الشعر و (نثر المنظوم) و (تبيين غلط قدامة بن جعفر في كتاب نقد الشعر) و (تفضيل شعر امرئ القيس على الجاهليين) و (كتاب فعلت وأفعلت) .

احكم أنت حينئذ على جملة ما لكل واحد منهما إذا أحطت علماً بالجيد والردئ.

- **القاضي الجرجاني ت٣٩٢ه[١]**

وهناك مجال آخر أمد البلاغة بكل جديد ، وهو مجال الدفاع عن الشعراء وتبرير المآخذ التي أخذها النقاد عليهم ، ومن أعلى الكتب في هذا كتاب الوساطة بين المتنبي وخصومه للقاضي علي بن عبد العزيز الجرجاني ،ومع أن هذا النوع من الكتب صرف اهتمامه إلى الشعر ،والشعراء ،لكنه كان يتغيى الموازنة بينهم ، أو الوساطة بينهم من خلال البلاغة ، فهي عمدته وأصوله التي يحتكم إليها .

يقول القاضي الجرجاني : (وما زلتُ أرى أهل الأدب – منذ ألحقتني الرغبةُ بجملتهم، ووصلَت العنايةُ بيني وبينهم – في أبي الطيب أحمد بنِ الحسين المتنبي فئتين: من مُطنب في تقريظه، منقطع إليه بجملته، منحطّ في هواه بلسانه وقلبه، يلتقي مناقِبَه إذا ذُكِرت بالتعظيم، ويُشيع محاسنه إذا حُكيت بالتفخيم ويُعجَب ويعيد ويكرر، ويميل على من عابه بالزِّراية والتقصير، ويتناول من ينقصُه بالاستحقار والتجهيل؛ فإن عثَر على بيت

---

١ - أَبُو الحَسَن الْجُرْجَاني (٠٠٠ - ٣٩٢ هـ = ٠٠٠ - ١٠٠٢ م) علي بن عبد العزيز بن الحسن الجرجاني أبو الحسن: قاض من العلماء بالأدب. كثير الرحلات، له شعر حسن. ولد بجرجان وولي قضاءها، ثم قضاء الريّ، فقضاء القضاة. وتوفي بنيسابور، وهو دون السبعين، فحمل تابوته إلى جرجان.
من كتبه " الوساطة بين المتنبي وخصومه - ط " و " تفسير القرآن " و " تهذيب التاريخ " و " ديوان شعر " و " رسائل " مدونة. وكان خطه يشبه بخط ابن مقلة. وهو صاحب الأبيات التي أولها:
" يقولون لي فيك انقباض، ... وإنما رأوا رجلا عن موقف الذل أحجما "

مختلّ النظام، أو نبَه على لفظ ناقص عن التمام التزم من نُصرة خطئه، وتحسين زللهَ ما يُزيله عن موقف المعتذر ويتجاوز به مقام المنتصر. وعائبٍ يروم إزالتَه عن رُتبته، فلم يسلّم له فضله ويحاول حطّه عن منزلةٍ بوّأه إياها أدبُه؛ فهو يجتهدُ في إخفاء فضائله، وإظهار مَعايبه، وتتبع سقطاتِه، وإذاعة غَفلاته.

وكلا الفريقين إما ظالمٌ له أو للأدب فيه؛ وكما أن الانتصار جانبٌ من العدْل لا يسدّه الاعتذار؛ فكذلك الاعتذار جانب هو أولى به من الانتصار، ومَن لم يفرِّق بينهما وقفت به المَلامةُ بين تفريط المقصّر، وإسراف المفرِط؛ وقد جعل الله لكل شيء قدْراً، وأقام بين كل حديث فصْلاً؛ وليس يطالَب البَشر بما ليس في طبع البشر، ولا يُلتَمس عند الآدميّ إلا ما كان من طبيعة ولدِ آدم؛ وإذا كانت الخلقة مبنيةً على السهو وممزوجة بالنسيان؛ فاستسقاط من عزّ حالُه حيْف والتحامُل على من وُجِّه إليه ظلم.

وللفضل آثارٌ ظاهرة، وللتقدم شواهدُ صادقة، فمتى وجِدتْ تلك الآثار وشوهدت هذه الشواهد فصاحبُها فاضل متقدم؛ فإن عُثِر له من بعدُ على زلّة ووحدت له بعَقِب الإحسان هفْوة انتُحِل له عذرٌ صادق، أو رُخصة سائِغة؛ فإن أعوز قيل: زلّة عالم، وقلّ من خَلا منها، وأيُّ الرجال المهذب! ولولا هذه الحكومة لبطل التفضيل، ولزال الجَرْح ولم يكن لقولنا فاضل معنى يوجد أبداً ولم نسِمْ به إذا أردنا حقيقة أحداً، وأي عالم سمعت به ولم يزلّ ويغلط! أو شاعر انتهى إليك ذكره لم يهْفُ ولم يسقط!) [1].

١ - الوساطة بين المتنبي وخصومه للقاضي الجرجاني ص ٢ .

- **أبو هلال العسكري (١)**

وفي هذا العصر جاء أبو هلال الحسن بن عبد الله العسكري (ت٣٩٥هـ) وألف كتابا سماه "الصناعتين" يعني : صناعتي النثر والنظم وجمع فيه خمسة وثلاثين نوعا من البديع، وبحث فيه عدة مسائل أخرى كالفصاحة والبلاغة، والايجاز ، والإطناب ، والحشو ، والتطويل ويعتبر هذا الكتاب أول مصنف أشير فيه إلى مسائل علوم البيان الثلاثة: "المعاني والبيان والبديع")(٢).

بل هو من أوائل الكتب التي ذكرت فيها البلاغة على أنها علم ، له غاية يتغياها ، وهي بيان إعجاز القرآن الكريم ، يقول أبو هلال : (أنّ أحقّ العلوم بالتعّلم، وأولاها بالتحفّظ بعد المعرفة بعد المعرفة بالله جلّ ثناؤه علم

---

١ -أبُو هِلَال العَسْكَري(٠٠٠ - بعد ٣٩٥ هـ = ٠٠٠ - بعد ١٠٠٥ م) الحسن بن عبد الله بن سهل بن سعيد ابن يحيى بن مهران العَسْكَري، أبو هلال: عالم بالأدب، له شعر. نسبته الى (عسكر مُكرَم) من كور الأهواز. من كتبه (التلخيص) في اللغة، و (معجم - خ) في اللغة، و (جمهرة الأمثال - ط) و (الحث على طلب العلم - خ) رسالة، و (كتاب الصناعيتن: النظم والنثر - ط) و (شرح الحماسة) و (الأوائل - خ) رسالة (١) و (الفرق بين المعاني) و (العمدة) و (ما تلحن فيه الخاصة) و (المحاسن) في تفسير القرآن، خمس مجلدات، و (كتاب من احتكم من الخلفاء إلى القضاة) و (التبصرة) و (أسماء بقايا الأشياء - ط) و (فضل العطاء على العسر - ط) رسالة، و (الدرهم والدينار) و (ديوان شعره) و (الفروق - ط) في اللغة، و (ديوان المعاني - ط) جزآن. وهو ابن أخت أبي أحمد (الحسن بن عبد الله بن سعيد العسكري) وتلميذه (٢) قال ياقوت: أما وفاته فلم يبلغني فيها شئ غير أني وجدت في آخر كتاب (الأوائل) من تصنيفه: (وفرغنا من إملاء هذا الكتاب يوم الأربعاء لعشر خلت من شعبان سنة خمس وتسعين وثلاثمائة) ومن مستطرف الأسجاع ما كتبه عنه الباخرزي في (دمية القصر) قال: (بلغني أن هذا الفاضل كان يحضر السوق، ويحمل إليها الوسوق، ويحلب دَرّ الرزق ويمتري، بأن يبيع الأمتعة ويشتري، فانظر كيف يحدو الكلام ويسوق، وتأمّل هل غضّ من فضله السوق، وكان له في سوقة الفضلاء أسوة، أو كأنه استعار منهم لأشعاره كسوة وهم: نصر بن أحمد الخبزرزي، وأبو الفرج الوأواء الشامي، والسريّ الرفّاء الموصلي. أما نصر فكان يدحو لرفاقه الأرْزِيّة، ويشكو في أشعاره تلك الرزية، وأما أبو الفرج فكان يسعى بالفواكه رائحا وغاديا، ويتغنى عليها مناديا، وأما السريّ فكان يطري الخَلَق، ويرفو الخِرَق، ويصف تلك العبرة، ويزعم أنه يسترزق بالإبرة. وكيف كان فهذه حرفة لا تنجو من حُرفه، وصنعة لا تنجو من صنعة، وبضاعة لاتسلم من إضاعة، ومتاع ليس لأهله استمتاع .

٢ - الإيضاح في علوم البلاغة ٢ / ٢٠٥.

البلاغة ومعرفة الفصاحة، الذي به يعزف إعجاز كتاب الله تعالى، الناطق بالحق، الهادي إلى سبيل الرّشد، المدلول به على صدق الرسالة وصحّة النبوة، التي رفعت أعلام الحقّ، وأقامت منار الدّين، وأزالت شبه الكفر ببراهينها، وهتكت حجب الشّك بيقينها.

وقد علمنا أنّ الإنسان إذا أغفل علم البلاغة، وأخلّ بمعرفة الفصاحة لم يقع علمه بإعجاز القرآن من جهة ما خصّه الله به من حسن التأليف، وبراعة التركيب، وما شحنه به من الإيجاز البديع، والاختصار اللطيف، وضمّنه من الحلاوة، وجلّله من رونق الطّلاوة، مع سهولة كلمه وجزالتها، وعذوبتها وسلاستها، إلى غير ذلك من محاسنه التي عجز الخلق عنها، وتحيّرت عقولهم فيها.) (١)

كتب الإعجاز

ولا يغيب هنا دراسات اهتمت بالإعجاز القرآني وجعلت الإعجاز هو محورها الأول والأخير ، ومقصدها الذي تدور حوله ، مثل كتاب " النكت في إعجاز القرآن " لعلي بن عيسى الرماني (٢)، وكتاب : " إعجاز

---

١ - الصناعتين لأبي هلال ص١.

٢- أَبُو الحَسَن الرُّمَّاني(٢٩٦ - ٣٨٤ هـ = ٩٠٨ - ٩٩٤ م)علي بن عيسى بن علي بن عبد الله، أبو الحسن الرماني: باحث معتزلي مفسر. من كبار النحاة. أصله من سامراء، ومولده ووفاته ببغداد. له نحو مئة مصنف، منها الأكوان " و " المعلوم والمجهول " و " الأسماء والصفات " و " صنفة الاستدلال " في الاعتزال، سبعة مجملدات، كتاب " التفسير " و " شرح أصول ابن السراج " و " شرح سيبويه " و " معاني الحروف - خ " رسالة صغيرة، لعلها المسماة " منازل الحروف - ط " و " النكت في إعجاز القرآن.

القرآن لأبي بكر محمد بن الطيب الباقلاني[1] وكتاب : المغني في أبواب التوحيد والعدل " للقاضي عبد الجبار[2]

- **عبد القاهر الجرجاني[3]**

إمام البلاغيين ، وأستاذهم ، الذي جمع ما تفرق من هذه الفنون في كتابين اثنين، هما عمدة الكتب البلاغية ، وقطب الرحى الذي تلتف حوله كتب العلم وهما (أسرار البلاغة ، دلائل الإعجاز) ، فشرح ، وفصل ، وجاء بالأمثلة والنماذج والأدلة، مع سلاسة في العرض ، وعذوبة في البيان ، وقدرة على إيصال الفكرة ، ومن كلامه استمد العلماء أسس علم المعاني ، وعلم البيان واستقرت نظرية النظم التي بني عليها فهم الإعجاز القرآني الكريم .

١ - القاضي الباقِلَّانِي(٣٣٨ - ٤٠٣ هـ = ٩٥٠ - ١٠١٣ م) محمد بن الطيب بن محمد بن جعفر، أبو بكر: قاض، من كبار علماء الكلام. انتهت اليه الرياسه في مذهب الأشاعرة. ولد في البصرة، وسكن بغداد فتوفي فيها. كان جيد الاستنباط، سريع الجواب. وجّهه عضد الدولة سفيرا عنه إلى ملك الروم، فجرت له في القسطنطينية مناظرات مع علماء النصرانية بين يدي ملكها. من كتبه (إعجاز القرآن

٢ - قاضِي القُضَاة(٠٠٠ - ٤١٥ هـ = ٠٠٠ - ١٠٢٥ م)عبد الجبار بن أحمد بن عبد الجبار الهمذاني الاسد ابادي، أبو الحسين: قاض، أصولي. كان شيخ المعتزلة في عصره. وهم يلقبونه قاضي القضاة، ولا يطلقون هذا اللقب على غيره. ولي القضاء بالريّ، ومات فيها. له تصانيف كثيرة، منها: (تنزيه القرآن عن المطاعن - ط) و (الأمالي) و (المجموع في المحيط بالتكليف - ط) الأول منه، و (شرح الأصول الخمسة - ط) و (المغني في أبواب التوحيد والعدل - ط) أحد عشر جزءا.

٣ - عَبْد القَاهِر الجُرْجَاني (٠٠٠ - ٤٧١ هـ = ٠٠٠ - ١٠٧٨ م) عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الجرجاني، أبو بكر: واضع أصول البلاغة. كان من أئمة اللغة. من أهل جرجان (بين طبرسات وخراسان) له شعر رقيق. من كتبه " أسرار البلاغة - ط " و " دلائل الإعجاز - ط " و " الجمل - خ " في النحو و " التتمة - خ " نحو، و " المغني " في شرح الإيضاح، ثلاثون جزءا، اختصره في شرح آخر سماه " المقتصد-خ" في الظاهرية، و"إعجاز القرآن - ط "و"العمدة في تصريف الأفعال،و"العوامل المئة.

- **جار الله الزمخشري :**[1]

الذي طبق نظرية النظم على كلام الله تعالى ، فأخرج للبشرية تفسيرا يظل حتى الآن التفسير البلاغي الأوحد للقرآن الكريم ،حيث شرح وجه إعجازه وأظهر جمال أسلوبه ، وخصائصه التي تحدى بها البشر .

ثم تحولت العقلية العربية إلى مرحلة التقعيد ، والتنظيم ، والترتيب ،وتغيرت جهة التأليف والإبداع إلى اتجاه آخر ، وأول من يلقانا هنا :

- **فخر الدين الرازي** [2]

وكتابه : " نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز " حيث نظَّم ، وبوَّب ،ورتب وقعَّد ما قاله الإمام عبد القاهر في كتابه (نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز) .

١ - الزَّمَخْشَرِي (٤٦٧ - ٥٣٨ هـ = ١٠٧٥ - ١١٤٤ م) محمود بن عمر بن محمد بن أحمد الخوارزمي الزمخشريّ، جار الله، أبو القاسم: من أئمة العلم بالدين والتفسير واللغة والآداب. ولد في زمخشر (من قرى خوارزم) وسافر إلى مكة فجاور بها زمنا فلقب بجار الله. وتنقل في البلدان، ثم عاد إلى الجرجانية (من قرى خوارزم) فتوفي فيها. أشهر كتبه (الكشاف - ط) في تفسير القرآن، و (أساس البلاغة - ط) و(المفصل - ط) ومن كتبه (المقامات - ط) و (الجبال والأمكنة والمياه - ط) و (المقدمة - ط) معجم عربي فارسي مجلدان، و (مقدمة الأدب - خ) في اللغة، و (الفائق - ط) في غريب الحديث، و(المستقصى - ط) في الأمثال، مجلدان، و (رؤوس المسائل - خ) في شستربتي (٣٦٠٠) و (نوابغ الكلم - ط) رسالة، و (ربيع الأبرار - ط) الجزء الأول منه، و (المنتقى من شرح شعر المتنبي، للواحدي - خ) منه نسخة في مكتبة شيخ الإسلام، بالمدينة، رقم ٧٩٥ كتبت سنة ٦٣٣ في ١٣٦ ورقة (كما في مذكرات الميمني) و(القسطاس - خ) في العروض، و (نكت الأعراب في غريب الإعراب - خ) رسالة، و (الأنموذج - ط) اقتضبه من المفصل، و (أطواق الذهب - ط) و (أعجب العجب في شرح لامية العرب - ط) وله (ديوان شعر - خ) .
وكان معتزلي المذهب، مجاهرا، شديد الإنكار على المتصوفة، أكثر من التشنيع عليهم في الكشاف وغيره .

٢ -- الفَخْر الرَّازِي (٥٤٤ - ٦٠٦ هـ = ١١٥٠ - ١٢١٠ م) محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي البكري، أبو عبد الله، فخر الدين الرازيّ: الإمام المفسر. أوحد زمانه في المعقول والمنقول وعلوم الأوائل. وهو قرشي النسب. أصله من طبرستان، ومولده في الري وإليها نسبته، ويقال له (ابن خطيب الريّ) رحل إلى خوارزم وما وراء النهر وخراسان، وتوفي في هراة. أقبل الناس على كتبه في حياته يتدارسونها.
وكان يحسن الفارسية. من تصانيفه (مفاتيح الغيب - ط) ثماني مجلدات في تفسير القرآن الكريم، و (لوامع البينات في شرح أسماء الله تعالى والصفات - ط) و (معالم أصول الدين - ط) و (محصل أفكار المتقدمين والمتأخرين من العلماء والحكماء والمتكلمين.

- **أبو يعقوب يوسف السكاكي([1])**

والذي ألف كتابه "مفتاح العلوم" وقسمه ثلاثة أقسام :

الأول منه في علم الصرف وحقيقته ، وكيفية الوصول إليه .

والثاني في علم النحو وبيان ما هو؟ وأشهر أبوابه .

وأماالثالث فخصه بعلم المعاني والبيان ، فوضع لذلك ضوابط ، وحدود ورتَّب وقعَّد ، ثم اختصر مؤلفه هذا في كتاب آخر سماه "التبيان" .

- **الخطيب القزويني :([2])**

صاحب التلخيص والإيضاح وقد بنى الكتابين على ضوء ما كتبه السكاكي في الجزء الثالث من المفتاح ، فالتلخيص للمفتاح ، أو بالأحرى للجزء الثالث منه الخاص بعلوم البلاغة المعاني والبيان والبديع ، والإيضاح شرح له وتوضيح ولما كان أسلوب السكاكي فيه من الغموض ما فيه ، لأن العجمة كانت غالبة على أسلوبه، وكانت عنايته بالتقعيد هي المسيطرة عليه حاول الخطيب أن يلخص ما قاله ليسر على طلاب العلم تحصيل هذه القواعد ، ثم شرح ما لخصه في الإيضاح ، وفي كتاب التلخيص كان أسلوب

---

١ - السَّكَّاكي (٥٥٥ - ٦٢٦ هـ = ١١٦٠ - ١٢٢٩ م) يوسف بن أبي بكر بن محمد بن علي السكاكي الخوارزمي الحنفي أبو يعقوب، سراج الدين: عالم بالعربية والأدب. مولده ووفاته بخوارزم. من كتبه " مفتاح العلوم و " رسالة في علم المناظرة .

٢ -القَزْوِيني(٦٦٦ - ٧٣٩ هـ = ١٢٦٨ - ١٣٣٨ م) محمد بن عبد الرحمن بن عمر، أبو المعالي، جلال الدين القزويني الشافعيّ، المعروف بخطيب دمشق. من أحفاد أبي دلف العجليّ: قاض، من أدباء الفقهاء. أصله من قزوين، ومولده بالموصل.ولي القضاء في ناحية بالروم، ثم قضاء دمشق سنة ٧٢٤ هـ فقضاء القضاة بمصر (سنة ٧٢٧) ونفاه السلطان الملك الناصر إلى دمشق سنة ٧٣٨ ثم ولاه القضاء بها، فاستمر الى أن توفي.

من كتبه (تلخيص المفتاح - ط) في المعاني والبيان، و (الإيضاح - ط) في شرح التلخيص، و (السور المرجاني من شعر الأرجاني) . وكان حلو العبارة، أديبا بالعربية والتركية والفارسية، سمحا، كثير الفضائل

الخطيب كما يقول الشيخ الصعيدي (أوضح من أسلوب السكاكي، ولكنه جعله أسلوبا تقريريا لا يُعْنَى إلا بجمع القواعد في أوجز لفظ؛ حتى أسرف في الإيجاز إسراف عبد القاهر في الإطناب، وجعل من تلخيصه متنا يحتاج إلى شروح وحواشٍ وتقارير، ولكن عيبه هذا كان موضع تقدير المتأخرين وإعجابهم.

فلما فرغ من تلخيصه شعر هو أيضا بحاجته إلى شرح، فوضع كتابه "الإيضاح" كشرح له، يجري على ترتيبه في إطناب يختصره أحيانا من كتابَيْ عبد القاهر، وأحيانا من كتاب السكاكي مع شيء من التهذيب فيه، ومع كثير من النقد الذي يفصِّله أحيانا، ويرمز إليه أحيانا بقوله: "وفيه نظر".

وبهذا جاء "الإيضاح" وسطا بين إيجاز التلخيص، وإسهاب عبد القاهر. وكان بهذا هو الكتاب الممتاز على غيره من كتب البلاغة القديمة. ولكنه على هذا لم يُرزَق من الحظوة عند المتأخرين ما رُزِق التلخيص؛ لأنهم شُغِفوا بالمتون حفظا وشرحا.)([1]).

وقد فتح كتاب الإيضاح بابا لايمكن إغلاقه حتى اليوم ، حيث تتابع العلماء بعده في شرح التلخيص ،ووضع الحواشي ومن هذه الشروح والحواشي :

١ - بغية الإيضاح للشيخ عبد المتعال الصعيدي (مقدمة الكتاب) ص ٣.

شرح سعد الدين التفتازاني (ت ٧٩١هـ)[١].

وشروح السيد الجرجاني (ت ٨١٦هـ)[٢]

وشروح التلخيص لسعد الدين التفتازاني .

وحاشية الدسوقي على شرح السعد .[٣]

وشرح بهاء الدين السبكي على التلخيص .[٤]

وشرح أبي يعقوب المغربي على التلخيص .

كل ذلك يلفتك إلى تحول الفكر العربي من حالة الإبداع والتجديد إلى حالة اجترار الماضي ، والنظر فيه .وإن كان البعض يرى أنها مرحلة حفظت البلاغة من الضياع ، وصانتها حتى تبقى كما بقي النحو والصرف .وظلت الأمور على حالها حتى عصرنا الحاضر ، شروح ، وتعليقات ، وتقارير وحواشي على ما سبق .

١ - السَّعْد التَّفْتَازاني(٧١٢ - ٧٩٣ هـ = ١٣١٢ - ١٣٩٠ م) مسعود بن عمر بن عبد الله التفتازاني، سعد الدين: من أئمة العربية والبيان والمنطق. ولد بتفتازان (من بلاد خراسان) وأقام بسرخس، وأبعده تيمورلنك إلى سمرقند، فتوفي فيها، ودفن في سرخس. كانت في لسانه لكنة. من كتبه (تهذيب المنطق - ط) و (المطول - ط) في البلاغة، و (المختصر - ط) اختصر به شرح تلخيص المفتاح.

٢ - الْجُرْجَاني(٧٤٠ - ٨١٦ هـ = ١٣٤٠ - ١٤١٣ م) علي بن محمد بن علي، المعروف بالشريف الجرجاني: فيلسوف. من كبار العلماء بالعربية. ولد في تاكو (قرب استراباد) ودرس في شيراز. ولما دخلها تيمور سنة ٧٨٩هـ فرَّ الجرجاني إلى سمرقند. ثم عاد إلى شيراز بعد موت تيمور، فأقام إلى أن توفي. له نحو خمسين مصنفا، منها " التعريفات " الحواشي على المطول للتفتازاني .

٣ - الدُّسُوقي(٠٠٠ - ١٢٣٠ هـ = ٠٠٠ - ١٨١٥ م) محمد بن أحمد بن عرفة الدسوقي المالكي: من علماء العربية. من أهل دسوق (بمصر) تعلم وأقام وتوفي بالقاهرة. وكان من المدرسين في الأزهر. له كتب، منها (الحدود الفقهية - ط) في فقه الإمام مالك، و (حاشية على مغني اللبيب - ط) مجلدان، و (حاشية على السعد التفتازاني - ط) مجلدان، و (حاشية على الشرح الكبير على مختصر خليل - ط) فقه، و (حاشية على شرح السنوسي لمقدمته أم البراهين.

٤ - لسُّبْكي(٧١٩ - ٧٦٣ هـ = ١٣١٩ - ١٣٦٢ م) أحمد بن علي بن عبد الكافي، أبو حامد، بهاء الدين السبكي: فاضل، له (عروس الأفراح، شرح تلخيص المفتاح - ط) ولي قضاء الشام (سنة ٧٦٢ هـ فأقام عاما، ثم ولي قضاء العسكر، وكثرت رحلاته، ومات مجاورا بمكة.

وهذا لا يمنع من وجود محاولات أرادت أن تفض هذه الأختام ، وأن تنفض الغبار عن الفكر البلاغي ، كما فعل الرافعي ، والطاهر بن عاشور ومحاولات الشيخ الجليل أبي موسى ، وأستاذي محمود توفيق ، ولكنها تبقى محاولات لا تغير من البلاغة القديمة شيئا ، وإن حركت شيئا من الماء الراكد .

وهذا الكتاب لا يخالف هذه السيرة ، لكنه يحاول أن يتفلت من عباءتها بعض الشيء، فيثير حول القاعدة من القضايا البلاغية ما يحرك لها النفوس ويقتطف من الشواهد ما يقرب المادة العلمية إلى الأفئدة ، فالكتاب موضوع لجماعة الطلاب ، والطالبات الذين فرض عليهم من المنهج ما لا محيد عنه .

أهداف دراسة علم البلاغة

دراسة البلاغة تعطي أول ما تعطي قدرة على ترجمة المشاعر والأحاسيس وسهولة في توصيل هذه المشاعر إلى المتلقين ، كما أنها تنمي القدرة على فهم النصوص الأدبية ، وتذوق جمالها ، وتحديد خصائصها الفنية ، والوقوف على أسرارها الجماليه ، زد على ذلك أن دراسة البلاغة تؤهل الدارس للاستمتاع بألوان الأدب المتنوعة ، بل وتسلح الدارس بالأدوات والمعايير التي تعينه إلى الإبداع في شتى فنون القول مادامت الملكة متوفرة .

وتوفر الدراسة البلاغية القواعد التي تمكن الدارس من معرفة درجات الكلام، وفضل كلام على كلام ، والقدرة على النقد العلمي الرصين

وقبل كل هذا وبعد كل هذا فإن الدراسة البلاغية تكشف عـن أوجـه الإعجـاز، ومـن أهمهـا الإعجـاز البلاغـي في القـرآن الكـريم، كـما توضـح الخصائص التي جعلت كلام رسول الله ﷺ أفصـح كـلام نطـق بـه البشر ـ وألخص لك هذه الأهداف في عدة نقاط ، **ومنها** :

١ - **هدفٌ دينيٌّ** : وهو الوقوف على بلاغة القرآن الكريم ووجه إعجـازه العظيم ، وكذا الوقوف على البلاغة النبوية ، وعلو شأنها .

٢ - **هدفٌ نقديٌّ** : وهو القـدرة عـلى التمييـز بـين جيـد الكـلام ورديئـه وبخاصة في الكلام العالي من شعر وحكمة ، وخطابة ، والقـدرة عـلى فهم شعر العربية ، وخصائصه التي جـاء القـرآن ليتحـداها ، وتحليـل عناصر البلاغـة في القصـيدة أو غيرهـا مـن ألـوان الأدب ، والحكـم بالجودة أو الرداءة لأي عمل أدبي ، مع التعليل .

٣ - **هدفٌ أدبيٌّ** : وهو تدريب كل دارس للبلاغة على إنشـاء كـلام بليـغ وتذوق إبداعات العرب من الشعر ، والحكمة ، والمثل ، والخطبة .

أقسامُ علمِ البلاغةِ

استقرت البلاغة العربية أخيرا في ثلاثة أقسام ، وهي كما يأتي :-

١ - قسم يضيء خصوصيات اللفظ والجملة ، **ويسأل** :

❖ لم هذا وليس غيره ؟

❖ ولم هنا وليس هناك؟

ويسمى علم المعاني ، وهو علم يعرَفُ به أحوال اللفظ العربيِّ التي بها يطابقُ مقتضَى الحال.، وهذا العلم هو أصل البلاغة ومعدنها ، لأنه يفتح لك

الباب لترى المعنى ومعنى المعنى ،وترى مقصود المتكلم ، والحالة التي دعته إلى هذا الكلام ، وبه تدرك الدقائق التي لا يدركها إلاَّ المتعمقون في فن البلاغة مثل دلالة التنكير والتعريف ، والتقديم والتأخير ، والحذف والإضمار والفروق بين الصيغ ، إلخ

٢ – قسم يوضح أثر الصورة وجمالياتها ، ويسمى علم البيان ، وهو علمٌ يعرَف به إيراد المعنى الواحد بطرق مختلفةٍ في وضوحِ الدلالة عليه . وهو العلم الذي لولاه لم تر لسانا يحوك الوشي، ويصوغ الحلي، ويلفظ الدّرّ، وينفث السّحر، ويقري الشّهد ، ويريك بدائع من الزّهر، ويجنيك الحلو اليانع من الثّمر، والذي لولا تحفّيه بالعلوم، وعنايته بها، وتصويره إيّاها، لبقيت كامنة مستورة، ولما استبنت لها يد الدهر صورة، ولاستمرّ السّرار بأهلّتها، واستولى الخفاء على جملتها، إلى فوائد لا يدركها الإحصاء ومحاسن لا يحصرها الاستقصاء..(١)

٣ – قسم يهدف إلى إبراز الزينة التي يقدم من خلالها اللفظ الفصيح وهو علم البديع ، ويعرف بأنه : علمٌ يُعرَف به وجوه تحسين الكلام، بعد رعايةِ تطبيقه على مقتضَى الحال ووضوحِ الدلالة .

معنى الفصاحة والبلاغة

ذكر العلماء هذين المصطلحين (الفصاحة والبلاغة) منفردا كل منهما عن الآخر ، مما يشي بتغاير بينهما ، وأول من أشار إليهما كذا : الإمام عبد

١ - دلائل الإعجاز ت هنداوي ص ٥ .

القاهر الجرجاني حيث قال : (فصل في تحقيق القول على البلاغة والفصاحة ، والبيان والبراعة ، وكل ماشاكل ذلك مما يُعبِّر عن فضل بعض القائلين على بعض من حيث نطقوا وتكلموا ، وأخبرو االسامعين عن الأغراض والمقاصد) .

فكأن كل هذه الألفاظ تدور في فلك واحد ، وهو دلالتها على فضل بعض القائلين على بعض في الكلام ، ومميزات كل متكلم حين يعرض غرضه في أسلوب خاص ، فالأغراض والمقاصد يعبر عنها الناس بأساليب متنوعة فإذا وجدت اثنين من الناس يعبران عن غرض واحد بأسلوبين مختلفين فاعلم أن فضل أحدهما على الآخر هو من صميم عمل البلاغة.

وأوضح لك ذلك : (ذكر الأصمعي أن عَلْقَمَة بن عَبدة نزل عِنْد امرئ القيس ضيفاً وتذاكرا الشّعْر فَقَالَ امْرُؤ الْقَيْس: أَنا أشعر مِنْك ، وَقَالَ عَلْقَمَة: أَنا أشعر مِنْك فاحتكما إِلَى زوجة امرئ القيس ، أم جُنْدُب فَقَالَت: قولا شعرًا تصفان فِيهِ الْخَيل على رُوِيَ وَاحِد. **فَقَالَ امْرُؤ الْقَيْس:**

خَليلَيَّ مُرّا بي على أُم جُنْدَبِ ... نُقَضِّ لُبَانَاتِ الفُؤادِ الُمعذَّبِ
فَإنّكُما إنْ تَنْظُرَانيَ سَاعَةً ... من الدهرِ تَنفعْني لَدى أُمِّ جُندَبِ
ألمْ تَرَيَاني كُلَّمَا جئتُ طارِقاً ... وَوَجَدْتُ بهَا طِيباً، وَإنْ لم تَطيَّبِ
عَقيلَةُ أتْرَابٍ لِها، لا دَميمَة ... وَلا ذَاتُ خَلقٍ، إنْ تأمّلتَ جَأنّبِ
ألا ليتَ شِعرِي، كيفَ حادثُ وَصْلِها؟ ... **وكيْفَ تُرَاعي وُصْلَةَ الُمتَغَيِّبِ؟**
أَقَامَتْ على مَا بَيْنَنَا، مِنْ مَوَدّةٍ ... أُمَيمَةُ أَمْ صَارَتْ لقَولِ الُمخَبِّبِ؟

فَإِنْ تَنْأَ عَنْهَا، حِقْبَةً، لا تُلاقِهِا   فإنّكَ مِمّا أحْدَثَتْ، بالمُجَرِّبِ

وَقالَتْ: مَتى يُبْخَلْ عَلَيكَ وَيُعتلِلْ   يسوكَ، وَإن يُكشَفْ غرَامُكَ تدرَبِ

تَبَصّرْ خَليلي هلْ تَرَى مِنْ ظَعائنٍ؟   سَوَالِكَ نَقْباً بينَ حزْمَيْ شَعَبْعَبِ

عَلَوْنَ بأَنْطاكيّة فَوْقَ عِقْمِةٍ   كجِرْمةِ نَخْلٍ، أوْ كجَنّةِ يَثْرِبِ

وَلله، عَيْنَا، مَنْ رَأى مِنْ تَفَرُّقٍ   أَشَتّ، وَأنأى من فِرَاقِ المُحَصَّبِ

فِريقانِ: مِنْهُمْ جازعٌ بَطنَ نَخْلَةٍ   وآخَرُ منهُم قاطعٌ نَجْدَ كَبْكَبِ

فَعَيْنَاكَ غَرْباً جَدْوَلٍ في مُفَاضَة   كمَرِّ الخَليجِ في صَفيحٍ مُصَوَّبِ (١)

وَإنّكَ لمْ يَفْخَرْ عَليكَ كَفَاخِرٍ   ضَعيفٍ وَلمْ يَغْلِبْكَ مثْلُ مُغَلَّبِ

وَإنّكَ لمْ تَقْطَعْ لُبَانَةَ عَاشِقٍ   بمِثْلِ غُدُوّ أوْ رَوَاحٍ مُؤَوَّبِ

بأَدْماءَ حُرْجُوجٍ كَأَنّ قُتُودَها   على أبْلَقِ الكَشحَينِ ليسَ بمُغرِبِ

يُغرّدُ بالأسحارِ في كُلّ سُدْفَةٍ   تَغَرُّدَ مَيّاحِ النّدَامى المُطَرِّبِ

أَقَبَّ رَباعٍ مِن حَميرِ عَمايَةٍ   يَمُجُّ لِعاعَ البَقلِ في كُلِّ مَشرَبِ

بمَحْنيّةٍ قَدْ آزَرَ الضّالُ نَبْتَهَا   مَجَرَّ جُيُوشٍ غَانِمِينَ وَخُيَّبِ

وقَد أغتَدي وَالطّيرُ في وُكُنَاتِهَا   وَماءُ الندى يجرِي على كلّ مِذْنَبِ

بمنجردٍ قيدِ الأوَابدِ لاحَهُ   طِرَادُ الهَوَادِي كُلَّ شَاوٍ مُغرِّبِ

عَلى الأينِ جَيّاشٍ كَأنّ سَرَاتَهُ   على الضَّمرِ وَالتّعداءِ سَرْحةُ مَرْقَبِ

يُبارِي الخَنوفَ المُسْتَقلَّ زِماعُهُ   ترَى شَخصَه كأنّهُ عودُ مِشْحَبِ

لَـهُ أيْطَـلَا ظَبْـيٍ وَسَـاقَا نَعَامَـةٍ   وَصَـهْوَةُ عَـيرٍ قـائمٍ فَـوْقَ مَرْقَـبِ
وَيَخْطُو على صُمٍّ صِـلابٍ كَأَنّهَـا   حِجَـارَةُ غَيْـلٍ وَارِسَـاتٌ بطُحْلَـبِ
لَهُ كَفَلٌ كالدِّعصِ لَبّـدهُ النّـدى   إلى حـارِكٍ مِثْـلِ الغَبِـيطِ المُـذَأّبِ
وَعَينٌ كمِـرْآةِ الصَّـنَاعِ تُـدِيرُها   لمَحْجَرِهَـا مِـنَ النّصـيفِ المُنَقَّـبِ
لَـهُ أُذُنَـانِ تَعْـرِفُ العِتْـقَ فـيهِمَا   كَسـامعَتَيْ مَـذعورَةٍ وَسْـطَ رَبْـرَبِ
وَمُسْتَفْلِكُ الذِّفْرَى كَـأنّ عِنَانَـهُ   ومَثْناتَـهُ في رأسِ جِـذْعٍ مُشَـذَّبِ
وَأسْـحَمُ رَيّـانُ العَسـيبِ كَأَنّـهُ   عَثاكيلُ قِنْوٍ مـن سُـميحة مُرْطِـبِ
إذا ما جَرَى شَأْوَينِ وَابْتَلّ عِطْفُهُ   تَقـولُ: هزِيـزُ الـرّيحِ مَـرّتْ بأثْـأبِ
وَيَخْضِـدُ في الآرِيّ، حتـى كأنّـهُ   بـهِ عُـرّةٌ مـن طـائفٍ، غَـيرَ مُعْقِـبِ
يُدِيرُ قَطَـاةً كَالمَحَالَـةِ أشْرَفَـتْ   إلى سَـنَدٍ مِثْـلِ الغَبِـيطِ المُـذَأّبِ
فَيَوماً عَـلى سِربٍ نَقِـيٍّ جُلـودُهُ   وَيَومـاً عَـلى بَيدانَـةٍ أُمِّ تولَـبِ
فَبَيْنَـا نِعَـاجٌ يَـرْتَعِينَ خَمِيلَـةً   كمَشْيِ العَـذارَى في المُـلاءِ المُهَـدَّبِ
فَطَـالَ تَنَادِينَـا وَعَقْـدُ عِـذَارِهِ   وَقَالَ صِحَابي قـد شَـأَوْنَكَ فاطْلُـبِ
فَلأيـاً بـلأيٍ مَـا حَمَلْنَـا غُلامَنـا   عـلى ظَهْـرِ مَحْبـوكِ السّرَاةِ مُحَنَّـبِ
وَوَلّى كشُـؤبوبِ الغشيّ بوَابِـلٍ   وَيَخْـرُجْنَ مـن جَعـدٍ ثـرَاهُ مُنَصَّـبِ
فَلِلسـاقِ أُلهـوبٌ وَلِلسَـوطِ دِرَّةٌ   وَلِلزَجـرِ مِنـهُ وَقـعُ أَهـوَجَ مِنعَـبِ
فَـأَدْرَكَ لمْ يَجْهَـدْ وَلمْ يَـثنِ شَـأوَهُ   يَمُـرّ كخُـذرُوفِ الوَلِيـدِ المُثَقَّـبِ

تَرَى الفَأرَ في مُستَنقعِ القَاعِ لاحِباً ... على جَدَدِ الصّحرَاءِ من شدِّ مُلهِبِ
خفَاهُنَّ مِنْ أنْفَاقِهِنّ كَأنّما ... خَفاهُنّ وَدْقٌ من عَشيّ مُجَلِّبِ
فَعادى عِداءً بَينَ ثَوْرٍ وَنَعجَةٍ ... وَبينَ شَبوبٍ كَالقَضِيمَة قَرْهَبِ
وظَلَّ لثيرانِ الصّريم غَماغِمُ ... يُداعِسُهَا بالسَّمْهَرِيِّ المُعَلَّبِ
فَكابٍ على حُرّ الجبينِ وَمُتّقٍ ... بمَدْرِيَة كَأنّهَا ذَلْقُ مِشْعَبِ
وقُلْنَا لفِتْيَانٍ كِرَامٍ ألا انْزِلُوا ... فَعَالُوا عَلَيْنَا فضْلَ ثوْبٍ مُطنَّبِ
وَأَوتادُهُ ماذِيَّةٌ وَعِمادُهُ ... رُدَيْنِيَّةٌ بِها أَسِنَّةُ قُعضُبِ
وَأَطْنَابُهُ أشطَانُ خوصٍ نَجائِبٍ ... وَصَهوتَهُ من أتْحَميٍّ مُشَرْعَبِ
فَلَمّا دَخَلْنَاهُ أصَفْنَا ظُهُورَنَا ... إلى كُلّ حارِيٍّ جَديدٍ مُشَطَّبِ
كأنّ عُيونَ الوَحشِ حَوْلَ خِبائِنَا ... وَأرْحُلِنَا الجَزْعُ الذي لمْ يُثَقَّبِ
نَمُشُّ بأعْرَافِ الجِيَادِ أكُفّنَا ... إذا نحنُ قُمْنَا عنْ شِوَاءٍ مُضَهَّبِ
وَرُحْنَا كَأنَّا من جُؤاثَى عَشِيّةً ... نُعالي النّعاجَ بينَ عِدلٍ وَمُحْقَبِ
وَرَاحَ كَتَيسِ الرّبلِ يَنْفُضُ رَأْسَهُ ... أذاةً بهِ مِنْ صَائِكٍ مُتَحَلِّبِ
حَبيبٌ إلى الأصْحَابِ غَيْرُ مُلَعّنٍ ... يُفَدّونَهُ بالأمّهَاتِ وبالأبِ
فَيّوْماً على بقعٍ دقاق صُدورُهُ ... ويوماً على سَفْعِ المَدامعَ رَبْرَبِ
كَأنَّ دِمَاءَ الهَادِيَاتِ بنَحْرِهِ ... عُصَارَة حِنّاءٍ بشَيْبٍ مُخَضَّبِ
وَأنتَ إذا استَدبرتَه سَدّ فَرْجَهُ ... بضَافٍ فُوَيقَ الأرض ليس بأصْهَبِ

وَقَالَ عَلْقَمَةُ:

ذهبت من الهجران في كل مذهب ... ولم يك حقا كل هذا التجنب

ليالي لا تبلى نصيحة بيننا ... ليالي حلوا بالستار فعرب

مبتلة كأن أنضاء حليها ... على شادن من صاحة متربب

محال كأجواز الجراد ولؤلؤ ... من القلعي والكبيس الملوب

إذا ألحم الواشون بالشر بيننا ... تبلغ راسي الحب غير المكذب

وما أنت أم ما ذكرها ربعية ... تحل بإير أو بأكناف شربب

أطعلت الوشاة والمشاة بصرمها ... فقد أنهجت حبالها للتقضب

وقد وعدتك موعدًا لو وفت به ... كموعود عرقوب أخاه بيثرب

وقالت متى يبخل عليك ويعتلل ... تشك وإن يكشف غرامك تدرب

فقلت لها فيئي فما تستفزني ... ذوات العيون والبنان المخضب

ففاءت كما فاءت من الأدم مغزل ... ببيشة ترعى في أراك وحلب

فعشنا بها من الشباب ملاوة ... فأنجح آيات الرسول المحبب

فإنك لم تقطع لبانة عاشق ... بمثل بكور أو رواح مؤوب

بمجفرة الجنبين حرف شملة ... كهمك مرقال على الأين ذعلب

إذا ما ضربت الدف أو صلت صولة ... ترقب مني غير أدنى ترقب

بعين كمرآة الصناع تديرها ... لمحجرها من النصيف المثقب

كـأن بحاذيهـا إذا مـا تشـذرت عثاكيـل قنـو مـن سـميحة مرطـب
تـذب بـه طـورًا وطـورًا تمـره كــذب البشــير بــالرداء المهــدب
وقد أغتدي والطـير في وكناتهـا وماء الندى يجري عـلى كـل مـذنب
بمنجـرد قيـد الأوابـد لاحـه طـراد الهـوادي كـل شـأو مغـرب
بعــوج لبانــه يــتم بريمــه على نفت راق خشـية العـين مجلـب
كميت كلون الأرجوان نشرـته لبيــع الــرواء في الصــوان المكعــب
ممــر كعقــد الأنــدري يزينــه مع العتق خلـق مفعـم غـير جانـب
له حرتـان تعـرف العتـق فـيهما كسـامعتي مـذعورة وسـط ربـرب
وجوف هواء تحـت مـتن كأنـه من الهضبة الخلقاء زحلـوق ملعـب
قطاة ككردوس المحالة أشرفت إلى كاهــل مثــل الغبــيط المــذأب
وغلب كأعناق الضباع مضيفها سلام الشظى يغشى بها كل مركـب
وسـمر يفلقـن الظـراب كأنهـا حجـارة غيـل وارسـات بطحلـب
إذا مـا اقتنصـنا لم نخاتـل بجنـة ولكن نـنـادي مـن بعيـد ألا اركـب
أخذ ثقة لا يلعن الحي شخصـه صـبورًا عـلى العـلات غـير مسـبب
إذا أنفــدوا زادًا فــإن عنانــه وأكرعــه مســتعملًا خــير مكســب
رأينــا شــياهًا يــرتعين خميلــة كمشي ـ العـذارى في المـلاء المهـدب
فبينــا تمارينــا وعقــد عــذاره حثيــث كغيــث الــرايح المتحلــب
ترى الفأر عن مسترغب القدر لائحًا على جدد الصحراء من شـد ملهـب

خفـا الفـأر مـن أنفاقـه فكـأنما **تجللـه شـؤبوب غيـث مثقـب**

فظـل لثـيران الصرـيم غماغـم **يداعسـهن بالنضيـ المعلـب**

فهـاو عـلى حـر الجبـين ومتـق **بمدراتـه كأنهـا ذلـق مشـعب**

فَقَالَت لامرىء الْقَيْس: عَلْقَمَة أشعر مِنْك .

قَالَ: وَكَيف ذَلِك ؟

قَالَت: لِأَنَّك قلت:

(فللساق ألهـوب وللسـوط درّة **وللزجـر مِنْـهُ وَقـع أهـوج منعـب)**

فجهدت فرسك بسوطك ومريته بساقك **وَقَالَ عَلْقَمَة:**

فبينـا تمارينـا وعقـد عـذاره **حثيـث كغيـث الـرايح المتحلـب**

فَأَدْرك طريدته وَهُوَ ثَان مـن عنـان فرسـه لم يضْربهُ وَلَا مـراه بسـاق وَلَا زَجره ، قَالَ: مَا هُوَ بأشعر مني وَلَكِنَّك لَهُ وامـق فطلّقهـا فخلـف عَلَيْهَا عَلْقَمَة فسمّي بذلك الْفَحْل)[1].

فإدراك الفروق التي أدركتها أم جندب بـين أسـلوب زوجهـا امـرئ القيس، وأسلوب علقمة الفحل هـو الفصـاحة والبلاغـة والبيـان والبراعـة وهاتين القصيدتين تحتاجان إلى مراجعـة نقديـة حتـى يتبـين منزلـة كـل مـن الشاعرين في ميزان البلاغة ، والنظر في حكم أم جندب ، ومـدى توفيقهـا في تفضيل علقمة على امرئ القيس .

---

١ - خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب لعبد القادر بن عمر البغدادي (المتوفى: ١٠٩٣هـ) ٢/ ٢٨٤.

والحق أن كلمة (البلاغة) تغاير قديما وحديثا كلمة الفصاحة ، فكلمة البلاغة شاعت على ألسنة أهل البيان تصف كثيرا من الأمور ، بحيث تراها مختلفة الدلالة بحسب السائل والمسؤول ، وقد كثر على ألسنة الفصحاء هذا السؤال : ما البلاغة ؟

وتعددت الإجابات ، وتنوعت الرؤى ، ووصل الأمر بالسائلين إلى سؤال غير العرب عن حقيقة البلاغة في لسانهم ، وأنا هنا سأعرض لك بعض الإجابات التي أجيب بها لتوضيح المقصود بالبلاغة :

وأول ما ينبغي أن تعرفه هنا أن هذا اللفظ اشتهر على ألسنة كل الناس بأن المقصود به هو (الإيجاز) ، فلا تكاد تسمع هذا اللفظ إلا وتذكر الإيجاز قال بذلك أكثم ابن صيفي([1])، وروى الجاحظ عن ابن الأعرابي مثل ذلك فقال : (قال لي المفضل بن محمد الضبي : قلت لأعرابي منا: ما البلاغة ؟

قال لي: الإيجاز في غير عجز، والإطناب في غير خطل.

قال ابن الأعرابي: فقلت للمفضل: ما الإيجاز عندك؟

قال: حذف الفضول، وتقريب البعيد.

قال ابن الأعرابي، قيل لعبد الله بن عمر: لو دعوت الله لنا بدعوات.

فقال: اللهم ارحمنا وعافنا وارزقنا !

١ - أكثم بن صيفي بن رياح بن الحارث ابن مخاشن بن معاوية التميمي: حكيم العرب في الجاهلية، وأحد المعمرين. عاش زمنا طويلا، وأدرك الإسلام، وقصد المدينة في مئة من قومه يريدون الإسلام، فمات في الطريق، ولم ير النبي صلّى الله عليه وسلّم وأسلم من بلغ المدينة من أصحابه.
وهو المعنيّ بالآية الكريمة (ومن يخرج من بيته مهاجرا إلى الله ورسوله، ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله) أخباره كثيرة. ولعبد العزيز بن يحيى الجلودي كتاب (أخبار أكثم) .
من كلامه: (من فسدت بطانته كان كمن غص بالماء) . (من لم يعتبر فقد خسر).(المزاح يورث الضغائن) (من سلك الجدد أمن العثار) .(من مأمنه يؤتى الحذر). (ويل للشجيّ من الخليّ).

فقال له رجل: لو زدتنا يا أبا عبد الرحمن. فقال: نعوذ بالله من الإسهاب.)([1])

وكأن العدول عن الإيجاز ذنب يستعاذ منه ، وقيل:

"البلاغة: تصوير الحق في صورة الباطل، وتصوير الباطل في صورة الحق"، ونقل الجاحظ عن أهل الأرض تعريفات للبلاغة فقال في البيان والتبيين :

(قيل للفارسي: ما البلاغة؟ قال: معرفة الفصل من الوصل.

وقيل لليوناني: ما البلاغة؟ قال: تصحيح الأقسام، واختيار الكلام.

وقيل للرومي: ما البلاغة؟ قال: حسن الاقتضاب عند البداهة، والغزارة يوم الإطالة.

وقيل للهندي: ما البلاغة؟ قال: وضوح الدلالة، وانتهاز الفرصة وحسن الإشارة) ([2]).

(قيل لعمرو بن عبيد [3]: ما البلاغة؟

قال: ما بلغ بك الجنة، وعدل بك عن النار، وما بصرك مواقع رشدك وعواقب غيك. قال السائل: ليس هذا أريد.)

---

١ - البيان والتبيين ١/ ٩٩

٢ - البيان والتبيين للجاحظ ١/ ٩٩

٣ - عمرو بن عبيد التيمي بالولاء، أبو عثمان البصري (٨٠ – ١٤٤ه): شيخ المعتزلة في عصره ومفتيها، وأحد الزهاد المشهورين. كان جده من سبي فارس، وأبوه نساجا ثم شرطيا للحجاج في البصرة.

واشتهر عمرو بعلمه وزهده وأخباره مع المنصور العباسي وغيره.

وفيه قال المنصور: " كلكم طالب صيد، غير عمرو بن عبيد ". له رسائل وخطب وكتب، منها " التفسير " و " الرد على القدرية ". توفي بمران (بقرب مكة) ورثاه المنصور، ولم يسمع بخليفة رثى من دونه، سواه. وفي العلماء من يراه مبتدعا، قال يحيى بن معين: كان من الدهرية الذين يقولون إنما الناس مثل الزرع. ولعليّ بن عمر الدّارقطنيّ " أخبار عمرو بن عبيد - ط " جزء منه.

قال: من لم يحسن أن يسكت لم يحسن أن يستمع، ومن لم يحسن الاستماع لم يحسن القول. قال: ليس هذا أريد.

قال: قال النبي ﷺ: «أنا معشر الأنبياء بكاء» أي قليلو الكلام. ومنه قيل رجل بكيء. وكانوا يكرهون أن يزيد منطق الرجل على عقله. قال: قال السائل: ليس هذا أريد.

قال: كانوا يخافون من فتنة القول، ومن سقطات الكلام، ما لا يخافون من فتنة السكوت ومن سقطات الصمت. قال السائل: ليس هذا أريد.

قال عمرو: فكأنك إنما تريد تخير اللفظ، في حسن الإفهام، قال: نعم.

وقيل : لم يفسر البلاغة تفسير ابن المقفع احد قط. سئل ما البلاغة؟

قال: البلاغة اسم جامع لمعان تجري في وجوه كثيرة. فمنها ما يكون في السكوت، ومنها ما يكون في الاستماع، ومنها ما يكون في الإشارة، ومنها ما يكون في الاحتجاج، ومنها ما يكون جوابا، ومنها ما يكون ابتداء، ومنها ما يكون شعرا، ومنها ما يكون سجعا وخطبا، ومنها ما يكون رسائل. فعامة ما يكون من هذه الأبواب الوحي فيها، والإشارة إلى المعنى، والإيجاز هو البلاغة، وقيل لبعضهم: ما البلاغة؟ قال ألّا يؤتى القائل من سوء فهم السامع، ولا يؤتى السامع من سوء بيان القائل.) [1]

وحين تراجع كل ما سبق تجد روحا تسري بين جنباته ، إنها روح الإيجاز)[2].

١ - البيان والتبيين ١/ ١١٤.
٢ - السابق ١/ ١١٤.

هل لا حظت كيف رجعت بعد هذا الشرح إلى حقيقة البلاغة ؟

فهي أولا وأخيرا : الإيجاز.

بلاغة المتكلّم

البلاغة وصف للكلام ، كما سبق شرحه ، وهي أيضا وصف للمتكلم وتعني كل شيء يتحلى به المتكلم ليقوى على الكلام البليغ ، ولذلك (قَالَ أَبُو الْأَشْعَث : سَأَلت بهلة الْهِنْدِيّ مَا البلاغة فِيكُم؟ فَأخْرج إِلَيّ صحيفَة كَانَت ترجمتها: " أول البلاغة اجْتِمَاع آلَة البلاغة، وَذَلِكَ أَن يكون الْخَطِيب رابط الجأش، سَاكن الْجَوَارِح، قَلِيل اللحظ، متخيّر اللَّفْظ، لَا يكلم سيّد الْأمة بِكَلَام الرّعية، وَلَا الْمُلُوك بِكَلَام السوقة، وَأَن يكون فِي قواه فضل للتَّصَرُّف فِي كل طبقَة، وَلَا يدّقق الْمَعَانِي كل التدقيق، وَلَا ينقّح الْأَلْفَاظ كل التَّنْقِيح، وَلَا يصفّيها كل التصفية، وَلَا يهذبها غَايَة التَّهْذِيب. وَلَا يفعل ذَلِك حَتَّى يُصَادف حكيماً أَو فيلسوفاً عليماً، وَمن قد تعوّد حذف فضول الْكَلَام، وَإِسْقَاط مشتركات الْأَلْفَاظ. قَالَ بعض حكمائهم لِابْنِهِ: يَا بنيّ، عَلَيْك بالحكمة وَالْأَدب، فلَأن يُذم الزَّمَانُ فِيك خير من أَن يعاب بك) [1].

وذكر ابن رشيق أنه:

(قيل لبعضهم: ما البلاغة؟ فقال: إبلاغ المتكلم حاجته بحسن إفهام السامع، ولذلك سميت بلاغة) [2] ، فانظر كيف يكون الكلام نقلا من المرسل أو المتكلم للحاجات ، وفي الوقت نفسه يراعى حالة المستقبل ، وهو

---

١ - البيان والتبيين ١/ ٤٤.
٢ - العمدة ١/ ٢٤٤.

المستمع بحيث يحسن إفهامه ، ولا يكون البليغ بليغا إلا إذا راعى إفهام السامع ، حتى جاء التعليل بأن اللفظة اسمها بلاغة من هذا الباب .

فالبليغ من أغناك عن المفسِّر ، قال الجاحظ : (قلت للعتابيّ: ما البلاغة؟ قال: كل من أفهمك حاجته من غير إعادة ولا حبسة ولا استعانة فهو بليغ،...)

وما سمي البليغ بليغا إلا لأنه يبلغ حاجته بأهون سعيه ، دون أن يتتعتع أو يتعثر ، وهو الذي يأتي بكلام مطابق للحال ، فلايسيء ، ولا يتجاوز .

وقد ذكروا أن رجلا أحب فتاة يقال لها : " بوزع " **فقال فيها** :

وتقول " بوزع " قد دببت على العصا **هلا هزئتِ بغيرنا يا بوزع**

فقيل له : قد أفسدت بيتك بهذه الـ " البوزع " نعم : لقد أساء الرجل حين وضع هذا الاسم في بيت الشعر ، حتى ولو كان اسم محبوبته ، فالاسم كما ترى منفر ، وهو أشبه بأسماء الشياطين .

كما أن البليغ لا يخاطب الناس بما يتطيرون منه ، وحين واجه أحدهم عبد الملك بن مروان **بقوله**:-

أتصحو أم فؤادك غير صاح **عشية هم صحبك بالرواح**

فقال له عبد الملك : بل فؤادك أنت .

ونعى النقاد على البحترى قوله في بداية شعره للخليفة قوله :

لك الويل من ليل تطاول آخره .

فعاجله الخليفة بقوله : الويل لـك ولأبيـك ، وذلـك لأنـه لـيس مـن الحكمة ولا من الأدب أن يواجه المخاطب بعبارة :(لك الويل) ، فـما بالـك إذا كان المخاطب خليفة المسلمين ! !.

ولقد سئل جرير عن أشعر الناس ؟ فقال لسـائله : اتبعنـي ، سـأريك وسار به في الصحراء حتى وصل إلى خيمة مـن شـعر ، فنـادى : ياعطيـة ! – وعطية هذا أبوه – فخرج رجل رث الهيئة ، يحمل معزى ، وقد التقم ضرعها وهو يشرب من لبنها ، واللبن يسيل على لحيته ، فقال جرير : أشعر الناس من يفاخر بهذا الأب مائة من الشعراء فيُخملهم ويُسقطهم .

إن البليغ لا بد له من أن يفكر في المعاني التـي في نفسـه قبـل أن يـتكلم وينظر في صدقها ، وشدة انفعاله بها ، وقيمتها ، ثم يرتبها في نفسه ، وساعتها سيراها تنسال على لسانه مؤلفةً أحسن تأليف ، مرتبة كما هـي في نفسـه ، ولا مانع من أن يراجع الألفاظ التي صورت معانيه ، فيضع لفظة مكان أخـرى ، ويعيد ترتيب ألفاظ مكان ترتيب آخر.

ومطابقة الكلام لمقتضى الحـال يتسـع حتـى يشـمل حـال المخاطـب، والزمان والمكان، والغرض ، وليس الحال مقتصرا على حال المتكلم ، فكل ما يمكن ملاحظته أثناء الكلام هو حال يشارك في صنع العبارة والغرض .

وعلى هـذا فالبلاغـة وصـف للكـلام ، بحيـث يقـال : كـلام بليـغ ، ووصف للمتكلم ، بحيث يقال : (متكلم بليغ) ، ولا يقع مصطلح البلاغة وصفا للكلمة المفردة فلا يقال : (كلمة بليغة) وهذا هو الفرق بين الفصاحة والبلاغة عند الخطيب، فالفصاحة عنده صفة للمفرد والكلام والمتكلم،

والبلاغة صفة للكلام والمتكلم فقط. ولاشك أن من يرى أن البلاغة والفصاحة مترادفان يجيز أن يقال : (كلمة بليغة) كما يقال : (كلمة فصيحة) والذي لا يجيز هذا ولا ذاك هو الإمام عبد القاهر الجرجاني ، لأن الفصاحة والبلاغة عنده مترادفان فلا تقل كلمة بليغة ولا كلمة فصيحة .

الفصاحة

المصطلح الثاني الذي ملأ كتب أهل العلم هو الفصاحة ، وهي كلمة تطلق في لغة العرب على نزع الرغوة من اللبن ، يقال : سقاهم لبنا فصيحا ، أي منزوع الرغوة ، ويقولون : فصح الصبح وأفصح ، أي بدا ضوؤه ، والنهار الفصيح : الذي لاغيم فيه ، وفصح الرجل فصاحة ، فهو فصيح ، إذا كان قادرا على أن يبين مراده ، والفصاحة : طلاقة الكلام وانسيابه على اللسان .

وكذلك تطلق الفصاحة على الإعراب، والبيان ، وفي لسان العرب : رجل معرب أي مفصح بالحق لا يتوقاهم. وقال الجوهري: معرب مفصح بالتفصيل .... والإعراب الذي هو النحو، إنما هو الإبانة عن المعاني بالألفاظ.

والفصاحة تعني طلاقة بعد عجمى ، ولذلك قالوا : فصُح الأعجمي بالضم فصاحة: تكلم بالعربية وفهم عنه، وقيل: جادت لغته حتى لا يلحن وأفصح كلامه إفصاحا. وأفصح: تكلم بالفصاحة؛ وكذلك الصبي؛ يقال: أفصح الصبي في منطقه إفصاحا إذا فهمت ما يقول في أول ما يتكلم. وفصح الرجل وتفصح إذا كان عربي اللسان فازداد فصاحة؛ وقيل تفصح في كلامه.

وتفاصح: تكلف الفصاحة. يقال: ما كان فصيحا ولقد فصح فصاحة وهو البين في اللسان والبلاغة. والتفصح: استعمال الفصاحة، وقيل: التشبه بالفصحاء، وهذا نحو قولهم: التحلم الذي هو إظهار الحلم. وقيل: جميع الحيوان ضربان: أعجم وفصيح، فالفصيح كل ناطق، والأعجم كل ما لا ينطق وقالوا : غفر له بعدد كل فصيح وأعجم ؛ أراد بالفصيح بني آدم، وبالأعجم البهائم. والفصيح في اللغة: المنطلق اللسان في القول الذي يعرف جيد الكلام من رديئه، وقد أفصح الكلام وأفصح به وأفصح عن الأمر. ويقال: أفصح لي يا فلان ولا تجمجم؛ قال: والفصيح في كلام العامة المعرب. ويوم مفصح: لا غيم فيه ولا قر.

قال ابن شميل: هذا يوم فصح كما ترى إذا لم يكن فيه قر. والفصح: الصحو من القر، ، وأفصح اللبن: ذهب اللبأ عنه؛ والمفصح من اللبن كذلك. وفصح اللبن إذا أخذت عنه الرغوة؛ **قال نضلة السلمي**:

رأوه فازدروه، وهو خرق، وينفع أهله الرجل القبيح

فلم يخشوا مصالته عليهم، وتحت الرغوة، اللبن الفصيح

ويروى: اللبن الصريح. قال ابن بري: والرغوة، بالضم والفتح والكسر. وأفصحت الشاة والناقة: خلص لبنهما؛ وقال اللحياني: أفصحت الشاة إذا انقطع لبؤها وجاء اللبن بعد والفصح، وربما سمي اللبن فصحا وفصيحا. وأفصح البول: كأنه صفا، حكاه ابن الأعرابي، قال: وقال رجل من غني مرض: قد أفصح بولي اليوم وكان أمس مثل الحناء، ولم يفسره) (١).

١ ـ لسان العرب مادة فصح.

ومن كل ما سبق تلحظ أن لفظ الفصاحة تشتمل على معنى الخلـوص والنقاء ، والظهور، والبيان ، والطلاقة بعد حبسة ، وهـذه أوصـاف لاتكـون إلا لموجود ، أي اللفظ ، أو أنها وصـف للسـان الـذي ينـتج اللفـظ الفخـم الجزل .

وفي اصطلاح البلاغيين تجـد للفصـاحة ثلاثـة تعريفـات بحسـب مـا يوصف بها . فللمفرد تعريف ، وللكلام تعريف ، وللمتكلم تعريف ، وأقف بك أولا مع فصاحة المفرد .

فصاحة الكلمة

ذكر أهل العلم أن فصاحة الكلمة المفردة تعني : خلوصها من العيوب المخلة **مثل** : (تنافر الحروف ، والغرابة ، ومخالفة القياس)

١ - تنافر الحروف :

صفةٌ في الكلمة تجعلها ثقيلة على اللِّسان، بحيـث يصـعُبُ النُّطْـقُ بهـا ونسب بعضهم السبب إلى قرب مخارج الحروف ، أو طول الكلمات ، والحـق أن قرب المخارج قد يؤثر على اللسان ، لكنه ليس في كل الكلمات يكون ذلك فهناك من الكلمات ما تقاربت مخارجها ، وكانت يسيرة على اللسان في النطـق كالفم والشجر، وكذا ليس طول الكلمات سببًا رئيسًا في ذلك ، وراجع قـول الله تعالى:

﴿....**فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ** ....﴾ [سورة البقرة:١٣٧]

لتتأكد من ذلك ، إنما الأمر في تنافر الحروف وثقلها على اللسان يرجـع إلى الذوق والاستعمال . **وهذا التنافُرُ نوعان** :

نوع ثقيل غاية الثقل ، مثل كلمة - الهعخع (١)، والصهصلق (٢) والإطرغشاش(٣)، والإبرغشاش (٤)، والطساسيج (٥)، والنقاخ(٦) والعشنزر(٧)، والخنشليل(٨) ، والعيطموس(٩)، والعقنقس(١٠)، والعلطبيس(١١)إلخ - من الكلمات التي لا تراها إلا عند التندر بالصعوبة

---

١ - وتعني : النبت الأسود ، وقيل إنها كلمة مصنوعة ، وقَالَ الْخَلِيل: سمعنَا كلمة شنعاء: الهعخع، فأنكرنا تأليفها؛ وَسُئِلَ أَعْرَابِي عَن نَاقَته فَقَالَ: تركتهَا ترعى الهعخع، فسألنا الثِّقَات من عُلَمَائهمْ فأنكروا ذَلِك وَقَالُوا: نَعْرِف الخعخع، فَهَذَا أقرب إِلَى التَّأْلِيف.

٢ - تعني : الشديدة الصوت ، وقيل : العجوز الصخابة ، يقال: امرأة صهصلق: صخابة. وهذا منحوت من كلمتين: من صهل وصلق ومنه قول الشاعر:

أم حوار ضنؤها غير أمر، ... صهصلق الصوت بعينيها الصبر
سائلة أصداغها لا تختمر، ... تعدو على الذئب بعود منكسر
تبادر الذئب بعدو مشفتر، ... يفر من قاتلها، ولا تفر
لو نحرت في بيتها عشر جزر، ... لأصبحت من لحمهن تعتذر

قال: وكذلك الصهصليق؛ وأنشد للعليكم الكندي:
نأآجة العدوة شمشليقها، ... شديدة الصيحة صهصليقها، تسامر الضفدع في نقيقها

٣ - يقولون : إطرغش : أي برئ من مرضه ، فالإطرغشاش هو البرء من المرض

٤ - يقولون : ابْرغَشَّ الرّجُلُ مِنْ مَرَضِهِ، إِذا بَرَأَ وانْدَمَلَ، وقَامَ ومَشَى

٥ - نوع من المثاقيل ، فالمثقال ستة دوانق والدانق أربع طسوجات والطسوج حبّتان والحبّة شعيرتان، فالمثقال شعيرة وتسعة عشر قيراطا، فالتفاوت بين القولين أربع شعيرات، كذا في جامع الرموز في كتاب الزكاة. وفي البرجندي أنّ الدينار وهو المثقال مائة شعيرة عند أهل الشرع وهو المتعارف في وزن أهل هراة «٣» في هذا الزمان، وإلى هذا الاصطلاح ذهب من قال إنّ المثقال عشرون قيراطا والقيراط خمس شعيرات، وكلّ عشرة دراهم سبعة مثاقيل ويسمّى هذا وزن سبعة. فكلّ درهم نصف مثقال وخمسة، وهو سبعون شعيرة وستة وتسعون شعيرة عند الحساب، وعليه أهل سمرقند. والشعيرة ست خردلات، والخردلة اثنا عشر فلسا، والفلس ست فتيلات، والفتيلة ست نقيرات، والنقيرة ثمانية قطميرات، والقطمير اثنا عشر ذرّة انتهى. قيل وقد يقسم الطسوج إلى ثلاثة أقسام يسمّى كلّ قسم حبّة. وبعضهم يقسم الدينار إلى ستين قسما يسمّى كلّ قسم حبّة، فالحبّة على هذا سدس العشر. وفي بحر الجواهر المثقال بحساب الدراهم درهم وثلاثة أسباع درهم، وبحساب الطساسيج أربعة وعشرون طسوجا، وبحساب الشعيرة ستة وتسعون شعيرة .

٦ - النقاح هو الشراب العذب (وَأَحْمَقُ مِمّنْ يَلْعَقُ الْماءَ قَالَ لِي ... دَعِ الْخَمرَ واشْرَبْ مِنْ نُقَاخٍ مُبَرَّدِ) وَقَالَ أَبُو العبَّاس: النُّقَاخُ: النّوم فِي الْعَافِيَة والأَمْن. والنُّقَاخُ: الضَّرْب على الرَّأْس بِشَيْءٍ صُلْب. والنُّقَاخُ: اسْتِخْرَاج المُخِّ.
شَمِر: قَالَ ابْن شُمَيلٍ: النُّقَاخُ الماءُ الكثيرُ يُنْبِطُه الرجل فِي الْموضع الَّذِي لَا مَاء فِيهِ. وَقَالَ الفَرَّاءُ: يُقَال: هَذَا نُقَاخُ الْعَربيَّةِ أَي: خالصها.

٧ - العشنزر يعني : الشديد من كل شيء ، وقيل الخشن الغليظ .

٨ - هو المسن البازل من الإبل ، وقيل هو الرجل الماض في أموره ،

٩ - المرأة التّارَّة، ذات قَوامٍ وألواح. ويقال لها ذلك في كلّ حال إذا كانت عاقراً. ويقال: عُطْمُوسٌ.وقيل : العيطموس من النِّساء: الحسنةُ الخلقِ الطَّويلة، وكذلك من الإبل.

١٠ - هو العسر الأخلاق . وقيل هو العفنقس بفاء ونون ثم قاف وسين .

١١ - العلطبيس: الاملس البراق. قال الراجز:
لما رأى شيب قذالى عيسا * وهامتي كالطست علطبيسا * لا يجد القمل بها تعريسا.

والثقل في النطق .

لغـــة تنفـــر الأســـماع منهـــا **حـــين تـــروى وتشـــمئز النفـــوس**
وقبـــيح أن يـــذكر الوحشي ـــ **منهـــــا ويـــــترك المـــــأنوس**
أيـــن قـــولي : كثيـــب قـــديم **ومقـــالي : عقنقـــل قـــدموس**
إنـــما هـــذه القلـــوب حديـــد **ولذيـــذ الألفـــاظ مغنـــاطيس**

وهناك نـوع آخـر دون ذلـك في الثقـل ، مثـل كلمـة "مُسْتَشْـزِرَاتَ" والتي جاءت في شعر امرئ القيس يصف بيضة الخدر **وفيها يقول** :

وَفَرْعٍ يَزِينُ الْمَتْنَ أَسْوَدَ فَاحِمٍ **أَثِيثٍ كَقِنْوِ النَّخْلَةِ الْمُتَعَثْكِلِ**
غَدَائِرُهُ مُسْتَشْزِرَاتٌ إِلَى الْعُلاَ **تَضِلُّ الْمَدَارِي فِي مُثَنًّى وَمُرْسَلِ**

فالثقل هنا متحمل ، ومرجع الثقل: قـرب مخـارج الحـروف ، أونفـور الذوق منها ، أوقلة استعمالها ، وأيا كان السبب فإن الذي ينبغي التذكير به هنا : أن اللغة العربية لغة فصيحة ، مبينة ، واضحة ، وكل شيء يبعدها عن ذلـك يعد عيبا وليس العيب في ذات اللفظ ، وإنما في وضعه في مكـان يقـوم غـيره بمهمته ، ثم تجد للمستعمل ثقلا لا تراه في اللفظ الآخر .

وفرق بين الثقل على اللسان ، والثقل على النفس . فالثقل على اللسـان تعثره عند النطق ، أما الثقل على النفس فيعنى كراهية اللفظ على السمع

والقلب مثل قول أبي تمام[1]:

يادهر قوِّم مـن أَخْـدَعَيْك فقـد   أضججت هذا الأنام من خرقك [2]

وهذا شيء تحسه ، وتتعنى منه ، وكأنك سمعت صوتا نشـازا في كـلام متناغم ، وهذا عكس الثقل على اللسان ، فهناك ثقل على اللسان وهناك ثقـل على النفس ، والفرق كبير ، فالشاعر يخاطب الدهر بعد أن أثبت له أخـدعا – بأن يعدل ، ولا يظلم ، وهذا بسـبب أن هنـاك في لسـان الشـعراء مـن يسـند الجور إلى الدهر ، ويزعم أنه يميل إلى قوم دون قوم .

ولو راجعت مثلا قول الأعرابي حين سـئل عـن ناقتـه فقـال: تركتهـا ترعى الهعخع ، وجدتك تتهرب من نطق هذه الكلمة (الهعخع) لأنها أشـبه بمن يريد التقيؤ ، وهذا شيء تنفر النفس منه ، والمعـول عليـه في الحكـم عـلى اللفظ بالتنافر هو الذوق الصحيح ، فما يعده الفصحاء ثقيلا عسر النطق فهـو المتنافر .

٢ – "الغـرابـة"

---

١ - أَبو تَمَّام(١٨٨ - ٢٣١ هـ = ٨٠٤ - ٨٤٦ م)جبيب بن أوس بن الحارث الطائي، أبو تمام: الشاعر الأديب. أحد أمراء البيان. ولد في جاسم (من قرى حوران بسورية) ورحل إلى مصر، واستقدمه المعتصم إلى بغداد، فأجازه وقدمه على شعراء وقته فأقام في العراق. ثم ولي بريد الموصل، فلم يتم سنتين حتى توفي بها. كان أسمر طويلا. فصيحا، حلو الكلام، فيه تمتمة يسيرة، يحفظ أربعة عشر ألف أرجوزة من أراجيز العرب غير القصائد والمقاطيع. في شعره قوة وجزالة. واختلف في التفضيل بينه وبين المتنبي والبحتري. له تصانيف منها (فحول الشعراء - خ) و (ديوان الحماسة - ط) و (مختار أشعار القبائل).

٢ - يقول ابن سنان في سر الفصاحة : (فإنما يريد أعدل ولا تجر وانصف ولا تحف لكنه لما رآهم قد استجازوا أن ينسبوا إليه الجور والميل وأن يقذفوه بالعسف والظلم وبالخرق والعنف وقالوا قد اعرض عنا وأقبل على فلان وقد جفانا وواصل غيرنا. وكان الميل والأعراض إنما يكون بانحراف الأخدع وازورار المنكب واستحسن أن يجعل له اخدعاً وأن يأمره بتقويمه وهذه أمور متى حملت على التحقيق وطلب منها محض التقويم أخرجت عن طريقة الشعر ومتى اتبع فيها الرخص وأجريت على المسامحة أدت إلى فساد اللغة واختلاط الكلام وإنما القصد فيها التوسط والاجتزاء بما قرب وعرف والاقتصار على ما ظهر ووضح) ص ١٢٩.

وتعني : عدم ظهور المعنى ، لقلة استعمال الكلمة ، وبعدها عن اللسان وتواريها خلف ستائر النسيان ، بسبب نُدْرة الاستعمال مما يحوج إلى التنقيب عنها في المعاجم العربية (١) فالكلمة الوحشية غير ظاهرة المعنى ، ولا مأنوسة الاستعمال عند العرب الخلص. وهذا يعني : أن الأعاجم ، أو العرب المولدين الذين دخلوا في الإسلام ، ولم يتطبعوا بلغته ، وتفشى فيهم اللحن ، لا يعول عليهم في الحكم على الكلمة بالغرابة .

وغرابة الكلمة تعني أننا نحتاج إلى الكشف عنها في المعاجم ، و كتب اللغة ، ومن ذلك كلمة "مُشْمَخِرّ" بمعنى "العالي" ، وكلمة " تكأكأتم " فيما جاء (أن عيسى بن عمر النحوي سقط عن حماره ، فاجتمع عليه الناس ، فقال : ما لكم تكأكأتم علي تكأكؤكم على ذي جنة ، افرنقعوا عني . فإن تكأكأتم بمعنى : اجتمعتم ، وافرنقعوا بمعنى : تفرقوا ، ولا يكاد يطلع أحد على معناهما من غير بحث)(٢).

---

١ - يقول الشيخ الصعيدي : (عدم ظهور المعنى ينشأ عن وحشية الكلمة. ومعنى وحشيتها: كونها غير مأنوسة الاستعمال عند العرب الخلص؛ فلا يعول في ذلك على غيرهم من المحدَثين الذين ظهروا بعد فساد اللغة، ولا يرد على هذا متشابه القرآن ومجمله؛ لأن المراد عدم ظهور المعنى الموضوع له، والمعنى الوضعي في المتشابه والمجمل ظاهر لا خفاء فيه، وإنما الخفاء في مراد الله تعالى منهما.

ومن المتشابه في القرآن قوله تعالى: {يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ} [الفتح: ١٠] ، ومنه في الحديث قوله صلى الله عليه وسلم: "ينزل ربنا كل ليلة إلى سماء الدنيا". ومنه في الشعر قول أبي تمام "من الكامل":

ولهت فأظلم كل شيء دونها ... وأضاء منها كل شيء مظلم.

فالوَله والظلمة والإضاءة ألفاظ ظاهرة المعنى، ولكن البيت بجملته يحتاج فهمه إلى استنباط، ومراده: أنها ولهت فأظلم ما بينه وبينها من جزعه لولهها، وظهر له ما خفي عنه من حبها له.

وإني أرى – والكلام للشيخ الصعيدي - أن الغرابة وحدها لا تخل بفصاحة الكلمة، وقد بينت هذا في كتابي "البلاغة العالية"، وكذلك أرى أن ابتذالها لا يعيبها ما دامت معاني الكلام جيدة، وهو اما اختاره ابن شرف القيرواني، وعليه بعض نقاد الإنجليز الذين يرون أن الابتذال يكون في الفكرة لا في الكلمة.

٢ - عروس الأفراح – ضمن شروح التلخيص – ١/ ٨٧.

وليس معنى غرابة اللفظ على طَلَبَةِ العلم أن اللفظ غير فصيح لأن الحكم في ذلك هو الذوق المدرب الفصيح ، الخبير باللغة وألفاظها ولذلك تجد ألفاظا تحمل معنيين ، فإذا كان في الكلام قرينة تشير إلى أحدهما فالكلمة فصيحة ، وإن خلا الكلام من قرينة تشير إلى المقصود دخلت الكلمة في دائرة العيوب ، **ومن ذلك قول العجاج** :

أيام أبدت واضحا مفلجا   أغر براقا ، وطرفا أبرجا

ومقلة وحاجبا مزججا   وفاحما ومرسنا مسرجا

فالشاعر يصف حبيبته (أسنانها – وعينها – وحاجبها – وشعرها وأنفها) والكلمة الأخيرة هي محل التعليق حيث جاءت بعد لفظة المرسن والمرسن : اسم لمحل الرسن ، وهو أنف البعير ، ثم استعمل في الأنف مطلقا ثم وصف هذا الرسن ، أو هذا الأنف بأنه : " مسرج " فماذا يقصد ؟ هل يقصد أنه أنف مستو حاد كالسيف السريجي – نسبة إلى (حداد) اسمه : سريج . أم أنه يقصد أنه أنف لامع ، يبرق كالسراج ؟

لا شك أن اللفظ يحتمل المعنيين فكانت الغرابة ناشئة من احتمال المعنيين دون بيان ، ومرجع الغرابة الذوق السليم ، هذا الذوق الذي يطرب لصوت البلبل ، والعصفور ، وينفر من صوت الحمار ، والبوم ، والغربان ، فالجمال في النفوس المخلوقة يرجع إلى أصل واحد .

فالقلوب تهفو إلى الحسن من الألفاظ، أما الألفاظ الباردة، الغامضة ، فإن القلوب تنفر منها ، كما تتنافر الشحنات .

ومن الكلمات الغريبة قول المتنبي :

مبــارك الاســم أغــر اللقــب   كــريم الجرشــى شريـف النسـب[١]

أي كـريم الـنفس ، يقـول القلقشـندى في صـبح الأعشـى :(فلفـظ الجرشّى مما يكرهه السمع، وينبـو عنـه اللسـان، والجرشّـى بمعنـى الـنّفس، فجعل اسمه مباركا، ولقبه أغرّ، ونفسه كريمة، ونسبه شريفا، وذلك أنه كـان يسمّى عليّا وهو اسم مبارك لموافقة أسم امير المـؤمنين عـليّ كـرم الله وجهـه، ويلقب سيف الدولة وهو لقب أعرابي مشهور، وأغرّ أخذا من غـرّة الفـرس لأنها أشهر ما فيها ووصفه بكرم النفس إما باعتبار الحسـب والعراقـة، وإمـا باعتبار بذل المال وكثرة العطاء، وأشار إلى شرف نسبه باعتبار عراقته في بيـت الملك وعراقة حسبه) (٢).

ومما جمع من العيوب الكثير ما كتبه أحد الأعراب على سـارية المسـجد في خرقة ، وفيها : "صِينَ امْرُؤٌ وَرُعِي، دَعَا لِإمْرَأةٍ إنْقَحْلَةٍ مُقْسَئِنَّةٍ، فَقَدْ مُنِيَتْ بِأَكْـلِ الطُّرْمُـوخِ، فَأَصَـابَهَا مِـنْ أجْلِـهِ الاسْتِمْصَـالُ، أَنْ يَمُـنَّ اللهُ عَلَيْهَـا بِالاطْرغْشَاشِ والابْرِغْشاشِ"(٣).

---

١ - من قصيدة يمدح بها المتنبي سيف الدولة.. الأغر من الخيل: الأبيض الجبهة، ثم استعير لكل واضح. الجرشي: النفس. والمعنى أن اسم سيف الدولة علي وهو اسم جميل ميمون ولقبه لقب واضح مشهور، وهو كر يم النفس عظيم الحسب، شريف النسب.. والشاهد الجرشي فإنها لفظ غير فصيح، لكراهته في السمع كما يقول هذا القائل، أو لغرابته على رأي من عداه من البلاغيين.

٢ - صبح الأعشى في صناعة الإنشا للقلقشندي ٢/ ٢٣٨

٣ - إنْقَحْلَة: أي: مُسِنَّةٌ هَرِمَةٌ يَبِسَ جِلْدُهَا وسَاءَ حَالُها ، ومُقْسَئِنَّة: أي: كبيرة السّنّ، ليس لها قدرة على الحركة والطُّرْمُوق: الْطين ، والاسْتِمْصَال: إسهالُ الطبيعة ، الاطرغْشَاش الصحة ، والابرغْشاش العافية .ومن عجائب الغرابة أيضا أنني وسمعت يوما في المسجد من يقول في ورده الذي يتعبد به لله رب العـــــالمين
(أحون ، قاف ، أدُمّ- حَمّ ، هاءٌ – آمين) فقلت له : ما معنى هذا ؟ فقال :لا أدري إنما ورد الوظيفة التي أقولها كل يوم بحسب الطريقة الجعفرية!!
فقلت : وكيف تقول كلاما في المسجد تتعبد به لله ولا تعرف معناه ؟ !!!

(ورُوي أنَّ أُمَّ الهيْثَمِ الأَعْرَابيَّةَ قَالت لأَبِي عُبَيْدة الرَّاوِية، حِينَ عَادَهَا فِي علَّةٍ أصابَتْها: "كُنْتُ وَحْمَى سَدِكَةً، وَشَهِدْتُ مَأْدُبَةً، فَأَكَلْتُ جُبْجُبَةً مِنْ صَفِيفِ هِلَّعَةٍ، فَاعْتَرَتْنِي زُلَّخَةٌ" ، فَقِيلَ لَهَا: أيَّ شَيْءٍ تُقُولِينَ؟ فقالَتْ: أَوَ لِلنَّاسِ كَلاَمَانِ، والله مَا كَلَّمْتُكُمْ إلاَّ بالْعَرَبِيِّ الْفَصِيح. !!!

فهذا كله من غريب القول المعيب عند أهل الفصاحة .)(١)

٣ – "مخالفة القياس" معلوم أن للغة قواعد في ضبط الكلمات مثل الإدغام للحرف المضعف ، والتخلص من التقاء الساكنين ، وغير ذلك ، فإذا جاءت كلمة تخالف القاعدة الصرفية دون سبب يدعو إلى ذلك صارت غير فصيحة ، **ومن ذلك قول أبي النّجم بن قُدامة :**

الْحَمْدُ للهِ الْعَلِيِّ الأَجْلَلِ   الواحد الفرد القديم الأول

فلفظة" الأجلل " قياسها الأجلّ ، فلما فك الإدغام دون داع عيبت اللفظة .

ومن ذلك أيضا جمع كلمة (ناكس) على (نواكس) ، بمعنى خافضي الرءوس **في قول الفرزدق:**

وإذا الرجال رأوا يزيد رأيتهم   خضع الرقاب نواكس الأبصار

فصيغة (فواعل) تكون للمؤنث العاقل، والحديث في البيت عن الرجال.

---

١ - كُنْتُ وَحْمَى سَدِكةً: وَحِمَتِ الْحُبْلَى، إذا اشْتَهَتْ شيئاً عَلَى حَبَلِهَا ، و سَدِكَةً: أي: مُولَعَةً بِنَوْعِ طَعَام لِوَحَمِهَا. والمَأدُبَةُ: الطَّعَامُ الَّذِي يُصْنَعُ لِدَعْوَةٍ. والْجُبْجُبَةُ: الكَرشُ يُجْعَلُ فيها اللّحم المقطَّعُ، ويُغْلَى ثُمَّ يُقَدَّدُ. و الصّفِيفُ: رقائقُ اللَّحْم تُشْوَى ، والْهِلَّعَةُ: الأنْثَى مِنْ أولاد المعز والغنم الزُّلْخَةُ: داءٌ يأخُذُ فِي الظَّهْرِ والج ، وانظر المزهر في علوم اللغة لجلال الدين السيوطي ٢ / ٢٥٢.

وقد تخالف الكلمة استعمال الخاصة لها ، فللشعراء لغة راقية ، تخالف لغة غيرهم من الناس ، ولقد استهجنوا بعض الألفاظ ، وقالوا إنها تخالف لغة الشعر وموسيقاه ، مثل كلمة" أيضا " واعتبروها لفظة تصلح مع العلماء ولا تصلح مع الشعراء ، لكنك حين تراها جاءت في موضع لا يقوم مقامها لفظ آخر تستحسنها ، ولا تجدها نابية عن لغة الشعراء ، **ومن ذلك قول أحدهم :**

رب ورقاء هتوف في الضحى — ذات شجو صدحت في فنن
ذكرت إلفا ودهرا سالفا — فبكت حزنا فهاجت حزَني
فبكائي ربما أرقها — وبكاها ربما أرقني
ولقد تشكو فما أفهمها — ولقد أشكو فما تفهمني
غير أني بالجوى أعرفها — وهي أيضا بالجوى تعرفني

وحاول أن تراجع في نفسك الكلمة التي عيبت ، أعني كلمة (أيضا) في سياق آخر، ستجد أنها هنا حسنة مستقرة ، يعلوها من بهاء الشعر ما لامزيد عليه .

ومما ينسب إلى مخالفة القياس قول الإمام نافع بن أبي نعيم، وهو من أكابر القراء السبعة قدرا وأفخمهم شأنا، في كلمة (معايش)(معائش) والكلمة من العيش، والياء فيها أصلية وليست منقلبة ، مما دعا المازني أن يقول: إن نافعا لم يدر ما العربية.؟!

وأضاف الخطيب إلى هذه العيوب عيبا آخر أشار إليه ابن سنان الخفاجي وابن الأثير وهو : الكراهة في السمع ، ففصاحة المفرد يشترط فيها خلوصه من التنافر والغرابة ومخالفة القياس ، والكراهة في السمع ، وهذه الكراهة تجذبنا إلى عالم الأصوات ، فاللفظ المفرد مجموعة من الأصوات ، إذا تناغمت حسنت وإذا تنافرت قبحت ، فهناك لكل صوت نغمة ،منها ما تستعذبه الأذن ومنها ما .

ولكي لا تتوه منك الخيوط استمع إلى العلماء وهم يضعون العلامة البارزة على فصاحة الكلمة ، **ويقولون : فصاحة الكلمة تعرف بأحد أمرين:**

- ❖ أن تكون هذه الكلمة كثيرة الاستعمال عند العرب الموثوق بعربيتهم: إذا لم يكن لها مرادف.
- ❖ أو أن تكون هذه الكلمة أكثر استعمالًا عندهم من الكلمات الأخرى المرادفة لها المشتركة معها في المعنى وهذا فيما إذا كان للكلمة مرادف.

فصاحة الكلام

الكلام هو : التعبير المفيد ، الذي تستطيع الوقوف عليه ؛ لأنه يحمل معنى تاماً ، والذي يشترط في الكلمة حتى تصير فصيحة يشترط مثله في الكلام فالكلام الفصيح هو السهل اللفظ ، الواضح المعنى ، المتناغم الكلمات ، الذي لا يخالف قواعد النحو ، وفصاحته تعني : سلامته بعد فصاحة مفُرداته ممَّا يُبهم معناه ويحول دون المراد منه ، **وتتحقَّق هذه الفصاحة بخلُوه من ستة عيوب :**

(١) تنافر الكلمات مجتمعة

(٢) ضعف التأليف

(٣) التعقيد اللفظي

(٤) التعقيد المعنوي

(٥) كثرة التكرار

(٦) تتابُع الإضافات.

أولاً : تنافر الكلمات مجتمعة :

وهو وصف يجعل الكلام ثقيلاً ، حتى وإن كانت كلماته حين انفرادها سهلة النطق ، والحكم في ذلك أيضا هم أصحابُ الذوق السليم في نُطْق الكلام العربي .ومن علامات التنافر في الكلام أن يَصْعُب على معظم ألسنة الناطقين العربية تكرار النُّطقُ به ، **ومن ذلك قول الشاعر** :

وَقَبْرُ حَرْبٍ بِمَكَانٍ قَفْرُ وَلَيْسَ قُرْبَ قَبْرِ حَرْبٍ قَبْرُ[١]

وقد جاء الثقل من تكرار الراء والباء في البيت.، وقد ذكروا أن قائل هذا البيت واحد من الجن ، صاح على حرب بن أمية فمات ، قال المسعودي والدليل على أنه من شعر الجن أمران ، الأول الرواية ، والآخر أنه لايقوله أحد ثلاث مرات إلا تعتع لسانه ، فتكرار الباء التي تشبه السلسلة الممسكة بزمام الكلام جعل منه مثالا للثقل .

وقد تكون الألفاظ سهلة جدا لكنها لاتتآلف ، ولا يطيق بعضها بعضا فإذا حاولت نطقها حاولت صعبا ، ومن ذلك قولهم يتندرون : (

١- رُفع لفظ "قَفْر" مع أنه نعتٌ للفظ "مكانٍ" لضرورة الشعر، وخرّجوه على أنّه من قبيل الصفة المقطوعة عن موصوفها.

خيط حرير على حيط خليل) أو قولهم : (خليل الكركشندي ذبح كبشا ، وعمل على كرش الكبش كشك ، ما أحلى كشك كرش كبش خليل الكركشندي) فلو أنك أجهدت لسانك في نطقها مرة تعثرت في الثانية . **ومن ذلك قول الشاعر** :

أَحْلُ وامْرُرْ وضُرَّ وانْفَعْ وَلِنْ وَأَبْرِرْ ثُمَّ انْتَدِبْ لِلْمَعَالِي وَاخْشَنْ

فالبيت كله أفعال أمر ، مما يعني أن تكرار لفظ واحد ، أو صيغة واحدة أو نمط واحد من الألفاظ يؤدي إلى تنافر الكلمات ، **وذلك مثل** :

دَانٍ بَعيدٍ مُحِبٍّ مُبْغِضٍ بَهِجٍ أَغَرَّ حُلْوٍ مُمِرٍّ لَيِّنٍ شَرِسِ

تدبر،وتابع لسانك تشعر بأنك تحاول الوصول إلى نهاية البيت ، فلا تكاد .

ولأهل العلم مذاهب ثلاثة في تفسير (تنافر الكلمات) :

فالمذهب الأول :

أنه كل كلام ثقل على اللسان، وعَسُر النطق به ، ويدخل تحت هذا المذهب **قول أبي تمام** :

كريم متى أمدحه أمدحه والورى معي، وإذا مالمته، لمته وحدي

لأن فيه بعض الثقل ، الناتج من تقارب الحاء والهاء في كلمة (أمدحه) وقد كررت الكلمة ، فأجهد اللسان في النطق ، وتنافر اللفظان في السمع بالإضافة إلى مافي المعني من ثقل حيث واجه الممدوح باللوم مرتين (لمته لمته)

المذهب الثاني :

ما كان الثقل فيه شديدا ، مما يجعل اللسان يتعثر ولا يكاد يبين ، وقد سبق مثاله في بيت (وقبر حرب) وغيره ، وكذلك يجري الحكم في كل ما تكرر فيه حرف أو حرفان مثل **قول الحريري في مقاماته** :

وازورّ من كان له زائرا　　　وعاف عافي العرف عرفانه

وقول كشاجم (١):

والزّهر والقطر في رباها　　　ما بين نظم وبين نثر

حدائق، كفّ كلّ ريح　　　حلّ بها خيط كلّ قطر

وقول الآخر:

مللت مطال مولود مفدّى　　　مليح مانع منّي مرادي

وقول المتنبي:

كيف ترثي التي ترى كلّ جفن　　　زاءها غير جفنها غير راقي

فكل شاهد من هذه الشواهد كرر في كلماته حرف أو حرفان ، وهذا الأمر جعل العرب تعدل عن الحروف المكررة ، وتصطنع الإدغام هروبا من هذا الثقل الناتج عن تكرار الحروف في الكلمات (فقالوا في جعل لك:

---

١ - كُشَاجِم (٠٠٠ - ٣٦٠ هـ = ٠٠٠ - ٩٧٠ م) محمود بن الحسين (أو ابن محمد بن الحسين) ابن السندي بن شاهك، أبو الفتح الرمليّ، المعروف بكشاجم: شاعر متفنن، أديب، من كتاب الإنشاء. من أهل (الرملة) بفلسطين. فارسي الأصل، كان أسلافه الأقربون في العراق. تنقل بين القدس ودمشق وحلب وبغداد، وزار مصر أكثر من مرة. واستقر بحلب، فكان من شعراء أبي الهيجاء عبد الله (والد سيف الدولة) بن حمدان، ثم ابنه سيف الدولة. له (ديوان شعر - ط) و (أدب النديم - ط) و (المصايد والمطارد - ط) و (الرسائل) و (خصائص الطرب) و (الطبيخ) ومن أجل كتابه الأخير، قيل: كان - في أوليته - طباخا لسيف الدولة. ولفظ (كشاجم) منحوت، فيما يقال، من علوم كان يتقنها: الكاف للكتابة، والشين للشعر، والألف للإنشاء، والجيم للجدل، والميم للمنطق، وقيل: لأنه كان كاتبا شاعرا أديبا جميلا مغنيا، وتعلم الطب فزيد في لقبه طاء، فقيل (طكشاجم) ولم يشتهر به.

جعلّك وفي تضربونني تضربونّي، وكذلك قالوا: استعدّ فلان للأمر إذا تأهب له والأصل فيه استعدد، واستتبّ الأمر إذا تهيأ والأصل فيه استتبب، وأشباه هذا كثير في كلامهم حتّى إنهم لشدّة كراهتهم لتكرير الحروف أبدلوا الحرفين المكررين حرفا آخر غيره، فقالوا: أمليت الكتاب، والأصل فيه أمللت، فأبدلوا اللام ياء طلبا للخفة وفرارا من الثقل، وإذا كانوا قد فعلوا ذلك في اللفظة الواحدة فما ظنك بالألفاظ الكثيرة التي يتبع بعضها بعضا)([1]).

المذهب الثاني : المراد بتنافر الكلمات عدم تلاؤم الكلام ، وعدم توافق المعاني وضربوا لذلك مثالا بقول السموأل ([2]):

فنحن كماء المزن ما في نصابنا كهام ولا فينا يعدّ بخيل

فكونهم كماء المزن طهرا ، أو جودا لا يتناسب مع قوله : (ما في نصابنا كهام) لأن الكهام هو الكَلّ الذي لارجاء فيه ولا فائدة منه ، وهذا لا يتناسب مع قوله (نحن كماء المزن) تماما كما تقول (زيد شاعر والبناء طويل) ، لا صلة بين هذا وذاك فهو من اللغو ، أو على الأقل من تنافر الكلمات ، ولو قال نحن أهل النجدة وما فينا كهام لحسن الكلام .

---

١ - راجع في كل ذلك صبح الأعشى في صناعة الإنشا للقلقشندي ٢/ ٢٩١

٢ - السَّمَوْأَل(٠٠٠ - نحو ٦٥ ق هـ = ٠٠٠ - نحو ٥٦٠ م)السموأل بن غريض بن عادياء الأزدي: شاعر جاهلي حكيم. من سكان خيبر (في شمالي المدينة) كان يتنقل بينها وبين حصن له سماه (الأبلق) . أشهر شعره لاميته التي مطلعها:

(إذا المرء لم يدنس من اللؤم عرضه ... فكلُّ رداء يرتديه جميل)

وهي من أجود الشعر. وفي علماء الأدب من ينسبها لعبد الملك بن عبد الرحيم الحارثي. وله (ديوان - ط) صغير. وهو الّذي تنسب إليه قصة الوفاء مع امرئ القيس الشاعر .

فأدواء الكلام كثيرة ، ومن أخطرها عدم المناسبة بين صدر الكلام وعجزه ، **ومن هذا النوع قول أمرىء القيس:**

كأنّي لم أركب جوادا للذّة، ولم أتبطّن كاعبا ذات خلخال

ولم أسبإ الزّقّ الرّويّ ولم أقل لخيلي كرّي كرّة بعد إجفال

فلو وضع مصراع كل بيت من هذين البيتين في موضع الآخر لأحسن كأن يقول :

كأني لم أركب جوادا ولم أقل لخيلي كرّي كرة بعد إجفال

ولم أسبإ الزق الرويّ للذة ولم أتبطّن كاعبا ذات خلخال

فركوب الجواد وكر الخيل متناسبان ، وشرب الخمر وذكر الحسان متناسبان ، وذكر الأشياء غير المتناسبة يعد من تنافر الكلمات .

المذهب الثالث : عدم تناسب الكلمات بعضها مع بعض ، **مثل قول الشاعر**

مهلا أعاذل قد جرّبت من أني أجود لأقوام وإن ضننوا خلقي

فالشاعر فك الإدغام ، دون حاجة ، **وعلى شاكلته جاء بيت المتنبي** :

فلا يبرم الأمر الذي هو حالل ولا يحلل الأمر الذي هو يبرم

وقد يأتي التنافر من زيادة حرف لا وجه لزيادته **مثل قول الشاعر** :

شفيعك فاشكر في الحوائج إنّه يصونك عن مكروهها وهو يخلق

فالفاء في قوله (فاشكر) لا وجه لها ، قال ابن الأثير ،أنشدني بعض الأدباء هذا البيت **فقلت له:** عجز هذا البيت حسن، وأما صدره فقبيح لأن سبكه قلق نافر، والفاء في قوله فاشكر كأنها ركبة البعير، وهي في زيادتها

كزيادة الكرش فقال: لهذه الفاء في كتاب الله تعالى أشباه **كقوله تعالى:**

﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ (١) قُمْ فَأَنْذِرْ (٢) وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ (٣) وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ (٤)﴾ [سورة المدّثر:١-٤]

فقلت له: بين هذه الفاء وتلك فرق ظاهر يدرك بالعلم أوّلا وبالذوق ثانيا، أما العلم **فإن الفاء في قوله تعالى:**

﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ (٣) وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ (٤)﴾ [سورة المدّثر:٢-٤]

فهي الفاء العاطفة إذ وردت بعد قوله : (قُمْ فَأَنْذِرْ) وهي مثل قولك: امش فأسرع، وقل فأبلغ، وليست الفاء التي في قول دعبل: شفيعك فاشكر من هذا القبيل، بل هي زائدة ولا موضع لها، وإنما نسبتها أن يقال: ربك أو ثيابك فطهر من غير تقدّم معطوف عليه) (١)، وقد يأتي التنافر من وصل همزة القطع أو قطع همزة الوصل ، ففي كل ذلك صدمة لغوية تلجم اللسان ، وتعركل حركته ، وتعقد انبساطه في النطق ، وحاول معي أن تنطق هذه الأبيات لتعرف ما أقول ، **يقول أبو تمام** :

قراني اللها والودّ حتّى كأنّما ... أفاد الغني من نائلي وفوائدي

فأصبح يلقاني الزّمان من اجله ... بإعظام مولود ورأفة والد

فكلمة (أجله) همزتها همزة قطع لكن الشاعر وصلها ، فشرد منه الكلام ونفر .

وقد يكون العكس ، أعني قطع همزة الوصل ، **مثل قول جميل** :

ألا لا أرى إثنين أجمل شيمة ... على حدثان الدّهر منّي ومن جمل

---

١ - السابق ٢/ ٢٣٠.

وقوله أيضا:

إذا جــاوز الإثنـــين سرّ فإنّـــه بنشرـــ وتكثـــير الوشـــاة قمـــين

فقطع ألف الوصل يشعرك بوجود حجر ، تتعثر فيه أثناء السـير، وكـما أن الرِّجْل تتعثر في الحجارة، يتعثر اللسان كثيرًا في هذه الكلمات الخارجة عن السمت الفصيح.

ثانيا : ضعفُ التأليف :

وهو الخروج عن النمط والقواعد التي اتفق عليها أهـل اللغـة ، مثـل عوْدُ الضمير علَى مُتأخِّرٍ لفظاً ورُتبةً، بينَما الأَصْلُ أن يعودَ الضميرُ علَى مُتَقَدِّمٍ في اللفظ أو الرتبة ، أو استعمال الضمير المنفصل مع إمكان استعمال الضـمير المتّصل، واستعمال الضمير المتصّل في حالِ وُجوبِ استعمال الضمير المنفصل أو نصْبُ الفعل المضارع أو جزمُهُ بدون ناصبٍ أو جازمٍ ، أو غـير ذلـك مـن القواعد ، التي اصطلح عليها أهل اللغة .

فكل مخالفة للقواعد،وخروج عن الـنمط الـذي اصـطلح عليـه أهـل اللغة يعد من قبيل ضعف التأليف ، إلا إذا كان الخروج لعلة يرتضيها الجميع ، فهذا أمر آخر . والخطيب حين ذكر هذا الضـابط قـال:(فالضـعف: كـما في قولنا: "ضرب غلامُه زيدًا" ؛ فإن رجوع الضـمير إلى المفعـول المتـأخر لفظـا ممتنع عند الجمهور)

فأتى بمثال مصنوع أولا ؛ ليوضح المراد ، ثم حـدد العيـب بأنـه ممتنـع عند الجمهور ، ولم يقل عند الجميع وتلك لفتة بارعة منه لأن مخالفة الشائع

جائزة مع حملها على الشذوذ ، لكن مخالفة المجمع عليه لا يعد من قبيل ضعف التأليف بل من قبيل الخطأ الذي يرد على صاحبه . وجاء بالشاهد الشعري وحاول تخريجه ،**وشاهده هو:**

جزى ربُّهُ عني عديَّ بن حاتم   جزاء الكلاب العاويات، وقد فعل

والمعنى جزى الله تعالى عدي بن حاتم بالرجم ؛ لأن جزاء الكلاب العاويات هو الرجم بالحجارة ، فهو من قبيل الدعاء عليه ، وعلل الخطيب هذا فقال : (وأجيب عنه بأن الضمير لمصدر "جزى" أي: رب الجزاء ؛ كما في قوله تعالى: {اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى } أي: العدل.

وأعرض عليك الآن نماذج من هذا الضعف الذي عابه العلماء ، **يقول الشاعر**

وَلَوْ أَنَّ مَجْداً أَخْلَدَ الدَّهْرَ وَاحِداً   مِنَ النَّاسِ أَبْقَى مَجْدُهُ الدَّهْرَ مُطْعِماً

حيث أعاد الضمير في كلمة (مجده) على متأخر لفظا ورتبة ،لأن(مطعما) مفعول به ، ومكانه التأخير كما جاء ، فكيف أضع ضميرا موصولا بالفعل يعود على المفعول به ؟!

والمعنى : لو خلَّد المجدُ أهلَه ، لخلَّد مطعمَ بنَ عدي ، فهذا سهو من الشاعر ، أفسد عليه عبارته . **ومن نظائر ذلك :**

لما عصى أصحابه مصعبا   أدّى إليه الكيل صاعا بصاع

فأعاد الضمير في (أصحابه) على (مصعبا) ولو رفع (مصعبا) وجعلها فاعلا لصحت العبارة، لكنه أراد أن الأصحاب هم الذين عصوا مصعبا ، فأفسد وخالف قوانين النحاة . **وكذلك جاء الأمر في قول الشاعر :**

جزى بنوه أبا الغيلان عن كبر وحسن فعل كما يجزى سنّمار

أراد أن يقول إن الأبناء أساءوا إلى أبيهم ، وردوا إحسان تربيته لهم بالسوء فجازوه جزاء سنمار[١]، ووضع في الفاعل ضميرا يعود على المفعول ،ولفظ المفعول ورتبته تكونبعد الفاعل ، فعاد الضمير على متأخر لفظا ورتبة ، فخالف القاعدة ، وضعُف التأليف ، **ومنه قول الشاعر** :

ألا ليت شعري، هل يلومنّ قومه زهيرا على ما جرّ من كلّ جانب

فلفظة (قومه) فاعل للفعل (يلومن)، وبها ضمير يعود على المفعول به (زهيرا) وليس هناك في كل ذلك من غرض بلاغي يخفف من وطأة هذه المخالفة على المعنى ، والمعروف أن هذا العود الخاطئ للضمير يربك النفس التي استقر فيها الكلام وقواعده ، واعتادت الصحة في تركيب الجمل ، وألفت الصواب في نظم الكلام .

وقد يكون ضعف التأليف ناشئا من وصل ضمير الغيبة بضمير الخطاب وتقديم الغيبة على الخطاب ، ومعروف أن ضمير الغيبة أوغل في الغموض من الخطاب ، وهذا يستوجب الفصل بين الضميرين ، **لكن اسمع إلى قول المتنبي**:

خَلتِ البلادُ من الغزالةِ ليلَها فأعاضهَاكَ اللهُ كي لا تحزنا

---

١ - جزاء سنمار مثل يضرب لكل من يصنع الخير ويجازى بالشر ، وحقيقته تدور حول : قَصْرٌ بَنَاهُ النّعْمَانُ الْأَكْبَرُ مَلِكُ الْحِيرَةِ لِسَابُورَ، لِيَكُونَ وَلَدُهُ فِيهِ عِنْدَهُ، وَبَنَاهُ بُنْيَانًا عَجَمِيّا لَمْ تَرَ الْعَرَبُ مِثْلَهُ، وَاسْمُ الّذِي بَنَاهُ لَهُ: سِنِمّارُ، وَهُوَ الّذِي رُدّيَ مِنْ أَعْلَاهُ، حَتّى قَالَتْ الْعَرَبُ: جَزَانِي جَزَاءَ سِنِمّارٍ، وَذَلِكَ أَنّهُ لَمَا تَمّ الْخَوَرْنَقُ: وَعَجِبَ النّاسُ مِنْ حُسْنِهِ، قَالَ سِنِمّارُ: أَمَا وَاَللهِ لَوْ شِئْت حِينَ بَنَيْته جَعَلْته يَدُورُ مَعَ الشّمْسِ، حَيْثُ دَارَتْ، فَقَالَ لَهُ الْمَلِكُ: أَإِنّك لَتُحْسِنُ أَنْ تَبْنِيَ أَجْمَلَ مِنْ هَذَا؟ وَغَارَتْ نَفْسُهُ أَنْ يُبْتَنَى لِغَيْرِهِ مِثْلُهُ، وَأَمَرَ بِهِ فَطُرِحَ مِنْ أَعْلَاهُ، وَكَانَ بَنَاهُ فِي عِشْرِينَ سَنَةً .

وراجع هذه الكلمة (فأعاضهاك) وكان أولى به أن يقول : فأعاضها إياك لتخف على اللسان ، ويحسن وضع التأليف فيها ، لأن ضعف التأليف ليس مخالفة القاعدة وفقط ، ولكن مخالفة القاعدة الذي يترتب عليه لبس وثقل ونفور .

وقد يكون ضعف التأليف ناشئا من نصب الفعل في غيبة الحرف الناصب مثل **قول الشاعر** :

انْظُرَا قَبْلَ تَلُومَانِي إِلَى طَلَلٍ بَيْنَ النَّقَا والْمُنْحَنَى

وقول آخر :

ألا أيهذا الزاجري أَحْضَرَ الوغى وأَنْ أشهدَ اللذات هل أنت مخلدي؟!

حيث حَذَفَ "أن" النّاصبة للفعل "تَلُومَاني" والفعل (أحضر) وأبْقَى النّصْبَ في الفعل ، والقصد : انظرا قبل أن تلوماني . و أيها الزاجر لي أن أحضر الوغى ،ومن ضعف التأليف أيضا وقوع ضمير الوصل بعد "إلا" في **قول الشاعر** :

وما علينا إذا ما كنت جارتنا ألا يجاورنا إلاك ديار

ولم يعتد العرف سماع ضمير الوصل المخاطب بعد إلا .

وخلاصة ذلك أن ضعف التأليف عيب مادام الكلام جاريًا على خلاف المشهور من قواعد النحاة ، أو جمهور النحاة، ويعد الكلام خارجا عن الفصاحة، وإن كان صحيحًا عند بعض النحويين .

ثالثا : التعقيد اللفظي :

والتعقيد يحجز المعنى عن الوصول إلى ذهن المتلقي لأسباب لفظية أو معنوية ، ومن الأسباب اللفظية ترتيب الكلام على غير الترتيب الذي يقتضيه المنطق العربي ، فيقدم مثلا الصفة على الموصوف ، أو الصلة على الموصول ، وقد يحجز المعنى عن الوصول إلى ذهن المتلقي فرط النظام المعهود بين أجزاء الكلام مما يؤدي إلى التشويش على الذهن ، أو إدخال معان غير مرادة . يقول أهل اللغة: ("إن الألفاظُ أَجْسَادٌ، والمُعَانِي أرواح، وإِنّما نَراها بَعَيْنِ القُلُوب، فَإِذا قَدَّمْتَ مِنْهَا مُؤَخَّراً، أَوْ أَخَّرْتَ مِنْهَا مُقَدَّماً، أَفْسَدْتَ الصُّورَةَ، وغَيَّرْتَ المُعْنَى، كَما لَوْ حُوِّلَ رَأْسٌ إلى مَوْضِعِ يَدٍ، أَوْ يَدٌ إِلَى مَوْضِعِ رِجْلٍ، فإِنَّ الخِلْقَةَ تَتَحَوَّلُ، والحِلْيَةَ تَتَغَيَّرُ".

انظر مثلا إلى قول الفرزدق :

وَمَا مِثْلُهُ فِي النَّاسِ إلاَّ مُمَلَّكاً ... أَبُو أُمِّهِ حَيٌّ أَبُوهُ يُقَارِبُهُ(١)

والمعنى : (ليس له شبيه إلا ابن اخته) ، وهذا هو المعنى الذي تعقَّد حتى صار طلسما بسبب الخلل في ترتيب الكلام ، ويعود هذا الخلل إلى عدة أسباب ، **منها** :

١ – الفصل بين المبتدأ (أبو أمه)وخبره (أبوه) بأجنبي ، هو كلمة " حي " .

٢ – الفصل بين لفظة " حي " والنعت ، وهي جملة " يقاربه " بكلمة : " أبوه " .

---

١ - راجع : البديع في نقد الشعر لأسامة بن منقذ ١ / ٧١ ، وتحرير التحبير لابن أبي الأصبع ١ / ٨٦ وصبح الأعشى ٢ /٢٨١ .

٣ – تقديم المستثنى " مملكا " على المستثنى منه " حي " وهذا كله على انفراده قد يجوز ، لكن اجتماع الكل في نموذج واحد أصاب المعنى بالغموض .

ومن التعقيد اللفظي قول أبي تمام:

ولقد ثنى الأحشاء من برحائها　　أن صار بابك جار ما زيار
ثانيه في كبد السماء، ولم يكن　　كاثنين ثان إذ هما في الغار
سودُ اللباسِ كأنما نسجتْ لهمْ　　أيدِي السمومِ مدارعاً من قارِ (١)

ولا أدري ما قيمة أن يكون بابك جارا لمازيار ، ثم ما علاقة هذا بالاثنين إذ هما في الغار ؟ كلام تداخل حتى تآكل . **ويقول المتنبي:**

أنى يكون أبا البرايا آدم　　وأبوك والثقلان أنت محمد

وتركيب البيت الصحيح: أنى يكون آدم أبا البرايا وأبوك محمد وأنت الثقلان ، و"البرايا" جمع برية، وهي الناس عامة و"الثقلان": الإنس والجن وقيل المقصود من البيت : كيف يكون آدم أبا البرايا وأنت وأبوك محمد الثقلان أو كيف تعقل أبوة آدم لكافة الناس، في حين أن هذا العالم إنسه وجنه

---

١ - يقول الآمدي في الموازنة : (معنى هذا البيت أن بابك صار جاراً في الصلب لمازيار، وهو ثانية في كبد السماء، ولم يكن ثانياً لاثنين إذ هما في الغار: أي هو ثاني اثنين في الصلب لمازيار الذي هو رذيلة، وليس هو ثانياً في الغار؛ لأن هذه فضيلة؛ فكان يجب أن يقول في البيت " ولم يكن لاثنين ثانياً "؛ لأنه خبر يكن واسمها هو اسم بابك مضمر فيها؛ فليس إلى غير النصب سبيل في البيت، وإلا بطل المعنى وفسد، وفساده أنك إذا أخليت " يكن " من ضمير بابك وجعلت قوله " ثاني " اسمها كان ذلك خطأ ظاهراً قبيحاً؛ لأنك إذا قلت: كان زيد وعمرو اثنين ولم يكن لهما ثان، كنت مخطئاً؛ لأن كل اثنين أحدهما ثانٍ للآخر، وكذلك إذا قلت: كانوا ثلاثةً ولم يكن لهم ثالث، كنت مخطئاً؛ لأن أحد الثلاثة هو ثالثهم، وإنما تكون مصيباً إذا قلت: كانا اثنين ولم يكن لهما ثالث، وثلاثةً ولم يكن لهم رابع، وأيضاً فإنه لو أراد هذا المعنى لم يكن في البيت فائدة البتة؛ لأنه كان يكون المعنى حينئذٍ أن بابك ثاني مازيار، فأي فائدة في هذا مع ما فيه من الخطأ الفاحش؟ وأي تعلق لهذا المعنى بما قبله في البيت؟

هو أنت وأبوك محمد!. وهذا كلام ركيك ، ومعنى سطحي لاتعود من ورائه بشيء غير القبح والشناعة ، وضرب الكف على الكف عجبا من شغل الذهن بهذا الذي لا قيمة له ، ولكن معرفة الصواب يلزمها معرفة الخطأ ، فبضدها تتمايز الأشياء، **واسمع إلى قول الفرزدق:**

إلى ملك ما أمه من "محارب" أبوه ولا كانت "كليب" تصاهره

أي: إلى ملك أبوه ما أمه من محارب ، ولا كانت تصاهره كليب.

وهو يريد: ما أم أبيه من محارب، يمدحه بذلك ذمّا لمحارب ، وهذا كما ترى أقبح من الأول واكثر اختلالاً ، لأن قبيلة محارب حين يقال عنها أن هذا الملك ليست جدته منكم ، فلن يغني هذا المعنى شيئا .

المهم أن التعقيد اللفظي غالبا يكون في ترتيب الألفاظ، وحين يختل الترتيب المتعارف عليه يفسد المعنى؛ لفساد نظام الكلام ، وتأليفه ،فلا يجوز تقديم الصفة على الموصوف ، ولا الصلة على الموصول .

التعقيد المعنوي:

وأكثر ما يكون التعقيد المعنوي في الصور البيانية ، مثل الكناية والمجاز فمن شروط فصاحة الكناية والمجاز قرب المعنى من الفهم ، ووضوح القرينة وقلة الوسائط بين المعنى الحقيقي والمعني المجازي ، أما إذا كانت الوسائط كثيرة ، والقرائن خفية خفىَ المعنى وصعب التوصل إلى مراد المتكلم ، **ومن أمثلة ذلك قول الشاعر :**

سَــأَطْلُبُ بُعْــدَ الــدَّارِ عَــنْكُمْ لِتَقْرُبُوا   وَتَسْــكُبُ عَيْنَــايَ الــدُّمُوعَ لِتَجْمُــدا

يريد أنه سيفارقهم ليشتاقوا إليه ، ويبكـي لتجـف الـدموع في عينـه ، وهنا التعقيد ، لأن جفاف العين من الدموع في عـرف العـرب يعنـي الحـزن الذي لا مزيد عليه ، وليس معناه السعادة ، **يقول الخطيب القزويني** :

إنه أراد أن يكني عما يوجبه دوام التلاقي من السـرور بالجمود ؛ لظنـه أن الجمود خلو العين من البكاء مطلقا مـن غـير اعتبـار شيء آخـر ، وأخطـأ لأن الجمود خلو العين من البكاء في حال إرادة البكاء منها فلا يكـون كنايـة عن المسرة وإنما يكون كناية عن البخل **كما قال الشاعر**:

ألا إن عينًا لم تجد يوم "واسط"   عليــك بجــاري دمعهــا لجمــود

ولو كان الجمود يراد به عدم البكاء في حال المسرة لجـاز أن يـدعى بـه للرجل، فيقال: لا زالت عينك جامدة، كما يقال: لا أبكى الله عينك. وذلـك مما لا يشك في بطلانه ، وعلى ذلك قول أهل اللغة: سنة "جماد" لا مطر فيهـا، وناقة جماد: لا لبن لها، فكما لا تجعل السنة والناقة جمادًا إلا على معنى أن السنة بخيلة بالقطر، والناقة لا تسخو بالدر، لا تجعل العين جمودًا.) (١)

ومن التعقيد المعنوي قول أبي تمام ":

من الهيف لو أن الخلاخل صُيِّرت   لها وُشُــحا جالــت عليهــا الخلاخــل

---

١ ـ الإيضاح للخطيب القزويني ١/ ١٠ دار إحياء التراث العربي- بيروت .

وهذا عجيب ، ومن منا يتصور الخلاخل أوشحة ، ثم هل رأيت تلك الخلاخل تجول وتتسع على الجسد من الكشح إلى العاتق ؟ لقد أراد الشاعر وصف خصرها بالدقة فرمى بالمعنى إلى هوة سحيقة ، أفضت إلى الذم ، وليس إلى المدح .

ومن ذلك أيضا قول الشاعر :

أنزلني الدهر على حكمه — من شامخ عالٍ إلى خفض

أبكاني الدهر ويا ربما — أضحكني الدهر بما يرضي

فجعل الإبكاء والإضحاك كناية عما أصابه من مصائب، وفضائل وألخص لك الأمر وأقول : إن الكلام الخالي من التعقيد المعنوي هو ما كان الانتقال فيه من معناه الأول إلى المراد به ظاهرًا حتى يُخَيَّل إلى السامع أنه فهمه من ظاهر اللفظ.

ويضاف إلى ما سبق شروطا أخرى ليكون الكلام فصيحا، ومن هذه الشروط :

خلوص الكلام من التكرار وتتابع الإضافات:

وليس التكرار أو تتابع الإضافات في نفسه عيبا، بل ثقله على النفس هو الذي يورث العيب، وإلا فإن هناك من التكرار ، والإضافات المتتابعة ، ما لا عيب فيه **مثل قوله تعالى:**

﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾﴾ [سورة الشمس:٧-٨]

فتكرار الضمائر هنا غير معيب ، **وفي قوله تعالى:**

﴿ مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ ﴾ [سورة غافر:٣١] وقوله: ﴿ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ ﴾ [سورة مريم:٢] من تتابع الإضافات الكثير وهو غير معيب **وفي قول المتنبي** :

وتسعدني في غمرة بعد غمرة سبوح لها منها عليها شواهد

راجع هذه الضمائر وما خلفته في النفس من اضطراب لتعرف كيف أثرت على الكلام ، وجعلته يبعد عن الفصاحة ، يقول صاحب الصناعتين : (إن الكلام يحسن بسلاسته وسهولته ونصاعته، وتخيّر لفظه، وإصابة معناه وجودة مطالعه، ولين معاطفه، واستواء تقاسيمه وتعادل أطرافه وتشبّه أعجازه بهواديه، وموافقة أواخره لمباديه، مع قلّة ضروراته بل عدمها أصلا، حتّى لا يكون لها في الألفاظ أثر، فتجد المنظوم مثل المنثور في سهولة مطلعه، وجودة مقطعه، وحسن رصفه وتأليفه، وكمال صوغه وتركيبه؛ فإذا كان الكلام قد جمع العذوبة والجزالة والسّهولة والرّصانة مع السّلاسة والنّصاعة، واشتمل على الرّونق والطّلاوة، وسلم من ضعف التأليف، وبعد من سماجة التركيب ، صار بالقبول حقيقا، وبالتحفّظ خليقا؛ فإذا ورد على السمع المصيب استوعبه ولم يمجّه، والنفس تقبل اللطيف، وتنبو عن الغليظ، وتقلق عن البشع؛ وجميع جوارح البدن وحواسّه تسكن إلى ما يوافقه وتنفر عما يضادّه ويخالفه ؛ والعين تألف الحسن، وتقذى بالقبيح؛ والأنف يرتاح للطّيب ويعاف المنتن؛ والفم يلتذّ بالحلو، ويمجّ المرّ؛ والسمع يتشوّق للصوت الرائع، وينزوي عن الجهير الهائل؛ واليد تنعم باللّين، وتتأذّى بالخشن؛ والفهم يأنس من الكلام بالمعروف،ويسكن إلى المألوف، ويصغى

إلى الصواب، ويهرب من المحال، وينقبض عن الوخم ويتأخّر عن الجافي الغليظ، ولا يقبل الكلام المضطرب إلا الفهم المضطرب والرويّة الفاسدة.)(١) **يقول ابن بابك** :(٢)

حمامة جرعا حومة الجندل اسجعي "فأنت بمرأى من سعاد ومسمع"

فأضاف كلمات الشطر الأول بعضها إلى بعض (حمامة إلى جرعى وجرعى إلى حومة، وحومة إلى الجندل) والجرعى : الأرض التي لا تنبت والحومة: معظم الشيء. الجندل: أرض ذات حجارة.

السجع: هدير الحمام فهو يوصي الحمامة التي تعشش في هذا المكان أن تغرد وتسجع لمحبوبته ، لأنها قريبة منها تراها ، وتسمعها . فالإضافة ، تخف إن أضفت كلمة إلى أخرى ، أما أن تضيف كلمة إلى كلمة ، ثم تضيف الثانية إلى الثالثة ، فإنه يتكون عندك ثلاث كلمات هن كالكلمة الواحدة ، أو اللفظ الواحد وهذا ثقيل ، لأن المضاف والمضاف إليه كالكلمة الواحدة ، وحين تتكون الكلمة الواحدة من ثلاثة ألفاظ فالأمر شاق ، **ومن ذلك قول أبي العتاهية** :

كتب الفناء على الْبَرِيَّة رَبُّهَا وَالنَّاس بَين مُقدّمٍ ومُخَلّفِ
سُبْحَانَ ذِي الملكوت أَيَّة لَيْلَة مخضت بِوَجْه صباحِ يَوْمِ الْموقفِ

١ - أبو هلال العسكري ص ٣٤ .
٢ - عَبْد الصَّمَد بن منصور بن الحسن بن بابك، أبو القاسم: شاعر مجيد مكثر. من أهل بغداد. له " ديوان شعر - خ ". طاف البلاد، ولقي الرؤساء، ومدحهم، وأجزلوا جائزته. ووفد على الصاحب ابن عباد فقال له: أنت ابن بابك؟ فقال: بل أنا ابن بابك! توفي ببغداد ٢٤٠.

ولكن مراجعة هذه اللفتة تبين لنا أن تتابع الإضافات ، لا يمثل ثقلا في ذاته ، ولا ينبغي عده من العيوب ، فالنبي ﷺ ذكر من الإضافات ما يفوق هذا ولم يشعر القارئ بثقل ولا تلعثم ، وذلك في قوله : "الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم. يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم" فالأمر ليس على إطلاقه .

فصاحة المتكلم

ما سبق كان متعلقا بالكلمة والكلام ، لكن المتكلم وقدرته على قول كلام فصيح شيء آخر ، لأن الحديث عن المتكلم هو حديث عن الموهبة ، والقدرة على إنشاء كلام فصيح ، ولن يكون المتكلم هكذا إلا إذا كان مع الموهبة - التي يتحلى بها - إلمام باللغة وطرقها ، وقواعدها ، وخصوصياتها ، في شعرها وحكمتها وخطابتها ، وإلمام بوسائل التعبير المتنوعة مثل المجاز والكناية. يقول الهاشمي في جواهر البلاغة : (المدار على الاقتدار المذكور سواء وجد التعبير أو لم يوجد وأن من قدر على تأليف كلام فصيح في نوع واحد من تلك المعاني لم يكن فصيحاً وانه لايكون فصيحاً إلا إذا كان ذا صفة من العلم راسخة فيه وهي المسماة «بالملكة»، ولذلك لم يقل (صفة) لأن المقصود أن الفصاحة شيء راسخ في المتكلم ، فإذا كان التعبير الفصيح ناتجا عن تعلم ، أو خبط عشواء فلا يطلق على صاحبه فصيحا

يقتدر بها على أن يعبر عن أي معنى قصده بكلام فصيح أي خال عن الخلل في مادته «وذلك بعدم تنافر كلماته » وعن الخلل في تأليفه وذلك بعدم

ضعف تأليفه وعن الخلل في دلالته على المعنى التركيبي وهذه الملكة موهبة تصقلها القراءة ، وحفظ القرآن ، والتدرب على التعبير عن الأفكار والعواطف تعبيرًا جيدًا ، يرتفع عن مستوى الكلام العادي ، ويرقى إلى مكانة رفيعة وحينئذ يصبح هذا الأسلوب عادة له ، وطبيعة عنده ،لا يتخلف في حال من الأحوال، ولا يتأبى عليه غرض من الأغراض، فيكون آنذاك جديرًا بهذا الوصف، فيقال: إنه متكلم فصيح .(١)

إذا هناك شروط لا بد من توافرها ليكون المتكلم فصيحا ، وهي :

١- الموهبة أو الملكة التي يُعطاها من رب العالمين .

٢- الإلمام باللغة العربية ، والتبحر في قواعدها ، وكثرة الاطلاع على ألفاظها ومعانيها من خلال أدبها الواسع .

٣- حفظ الكثير من عيون الحكمة العربية شعرا ونثرا .

٤- محاولة التطبيق العملي بقول كلام بليغ والتدريب المستمر على ذلك . بحيث تكون لديه القدرة على قول كلام فصيح حتى وإن لم ينطق وساعتها يوصف بأنه متكلم فصيح .

الفرق بين الجزالة والفصاحة

إذا كانت الفصاحة تدور حول الظهور والوضوح ، وتحلِّي اللفظ بالتلاؤم وموافقة القياس ، وكثرة الاستعمال ، فإن الجزالة شابها شيء من الغموض، لعدم تحديد معناها بدقة ، **وفي ذلك يقول الإمام عبد القاهر :**

١- البلاغة العربية لعبدالرحمن بن حسن حَبَنَّكَة الميداني الدمشقي .

(لم نَرَ العقلاءَ قد رَضُوا من أنفسهم في شيءٍ مـن العلـوم ، أن يحفظـوا كلاماً للأوَّلين ، ويتدارسوه ، ويكلِّمُ به بعضهم بعضاً ، من غير أن يعرِفوا لـه معنى ويقفوا منه على غَرَضٍ صحيحٍ ، ويكونَ عنـدهم – إن يسـألوا عنـه – بيان له وتفسيرٌ ، إلاّ علمَ الفصاحة ، فإنك ترى طبقاتٍ من الناس يتـداولون فيما بينهم ألفاظاً للقدماء وعباراتٍ ، من غير أن يعرفوا لهـا معنًـى أصـلاً ، أو يستطيعوا إن سُئِلوا عنها أن يذكروا لها تفسيراً يصحُّ .

فمن أقربِ ذلك أنك تراهُم يقولون إذا هم تكلَّموا في مزيَةِ كلامٍ عـلى كلامٍ : إنَّ ذلك يكون بجزالةِ اللفظ .

وإذا تكلموا في زيادةِ نظمٍ عـلى نظـم : إنَّ ذلـك يكـونُ لوقوعـه عـلى طريقةٍ مخصوصةٍ ، وعلى وجْهٍ دونَ وجه ثم لا تجدُهم يفسِّرون الجزالةَ بشيء) [1].

وحتى لا تتفلـت منـك الخيـوط اعلـم أن مصـطلح الجزالـة ، متعلـق بالأسلوب ، وقدرته على حمل المعنى ، وكلما كانت ملامح القوة باديـة كانـت الجزالة حاضرة ، فالجزالة تعنـي القـوة ، وإبـراز المعـاني الشريفة ، فالجزالـة والفخامة ضد العذوبة والسهولة ، ، ومما ذكره الزركشي في أسـلوب القـرآن الكريم أنه (جمع بين صفتى الجزالة والعذوبة وهما كالمتضـادين ، لا يجتمعـان غالبا فى كلام البشر ، لأن الجزلة من الألفاظ : التى لا توجـد إلا بـما يشـوبها من القوة وبعض الوعورة .

---

١ - دلائل الإعجاز ص ٣٣١.

والعذبة منها : ما يضادها من السلاسة والسهولة ، فمن نحا نحو الصورة الأولى ، فإنما يقصد الفخامة والروعة فى الأسماع ، مثل الفصحاء من الأعراب وفحول الشعراء منهم ، ومن نحا نحو الثانية قصد كون الكلام فى السماع أعذب وأشهى وألذ مثل أشعار المخضرمين ومن داناهم من المولدين المتأخرين،وترى ألفاظ القرآن الكريم قد جَمَعَت فى نظمه كلتا الصفتين ،وذلك من أعظم وجوه البلاغة والإعجاز)(١).

كما أن عبد القاهر يؤكد على أن الجزالة كامنة في الصياغة والسبك والنظم والحبك ، وهذا يجعلنا نقول إن الفصاحة أقرب إلى الألفاظ ، والجزالة أقرب إلى الصياغة ، **يقول الزوزني في شرح معلقة لبيد بن ربيعة عند قوله** :

وَاحْبُ المُجَامِلَ بالجُزيلِ وَصَرْمُهُ ... باقٍ إذَا ظَلَعَتْ وَزَاغَ قِوَامُها

حبوته أحبوه : إذا أعطيته إياه. المجامل: المصانع، ويروى: المحامل، أي: الذي يتحمل أذاك كما تتحمل أذاه. بالجزيل أي الود الجزيل. الجزالة: الكمال والتمام، وأصله الضخم والغلظ، والفعل جزل يجزل، والنعت جزل وجزيل ومنه خطب جزل ، يقول: واحب من جاملك وصانعك وداراك بود كامل وافر ثم قال: وقطيعته باقية إن ظلعت خلّته ومال قوامها، أي إن ضعفت أسبابها ودعائمها، أي إن حال المجامل عن كرم العهد فأنت قادر على صرمه وقطيعته)(٢).

---

١ - البرهان في لوم القرآن للزركشي ٢ / ١٠٧.
٢ - شرح المعلقا للزوزني ١٨٠/١.

أنواع الأساليب

الأسلوب هو المعنى المصوغ في ألفاظ مؤلفة على صورة تكون أقرب إلى الغرض المسوق له الكلام .

والأساليب ثلاثة أنواع :

(أسلوب علمي ، وأسلوب أدبي ، وأسلوب خطابي)

الأسلوب العلمي :

يقوم هذا الأسلوب على ساقين:

الأولى : هي الأفكار والمعاني التي يتم عرضها .

والثانية : هي الجمل والتراكيب ، وقليلا ما يضاف إلى هذين العنصرين عنصرا ثالثا ، لذلك لا تجد نفسك منفعلا ، ولا عاطفتك مثارة ، فقط خطاب عقلي ، يشرح لك أمرا ، أو يخبرك بخبر ، أو ينقل لك علما ، أو نحو ذلك ، وأنقل لك نصا من وصف الأهرام ، استخدمه الشايب في كتابه الأسلوب جاء فيه ما يأتي : ("كان القصد من بناء الأهرام إيجاد مكان حصين خفي يوضع فيه تابوت الملك بعد مماته؛ ولذلك شيدو الهرم الأكبر وجعلوا فيه أسرابًا خفية زَلِقَة صعبة الولوج لضيقها، وانخفاض سقفها وإملاسها حتى لا يتسنى لأحد الوصول إلى المخدع الذي به التابوت، ومن أجل ذلك أيضًا سُدَّ مدخل الهرم بحجر هائل متحرك ، ولا يَعرف سر تحريكه إلا الكهنة والحراس، ووُضِعَت أمثالُ هذا الحجر على مسافات متتابعة في الأسراب المذكورة. وبهذه الطريقة بقي المدخل ومنافذ تلك الأسراب مجهولة

أجيالا من الزمان. ويُعد الهرم الأكبر من عجائب الدنيا. قرر المهندسون والمؤرخون أن بناءه يشمل ٢.٣٠٠.٠٠٠ حجر، متوسط وزن الحجر منها طنان ونصف طن، وكان يشتغل في بناء الهرم مائة ألف رجل يستبدل بهم غيرهم كل ثلاثة أشهر، وقد استغرق بناؤه عشرين عاما. وجميع هذا الهرم شيد من الحجر الجيري الصب ما عدا المخدع الأكبر فإنه من الصخر المحبب وكَان الهرم مغطى بطبقة من الجرانيت فوقها أخرى من الحجر الجيري المصقول ووضع الملاط بين الأحجار في غاية الدقة حتى كان الناظر إلى الهرم يكاد يظنه صخرة واحدة").

هل ترى في هذا النص إلا الفكرة والعبارة ؟ وهكذا يكون الأسلوب العلمي ، حقائق ، وعبارات ترسم هذه الحقائق فهو أسلوب يشرح العلوم وحقائقها ، وأقسامها ، وعلاقاتها بغيرها ، وهذا الأسلوب منضبط بالقواعد محكوم بالمنطق ، يخاطب العقل ، ويبتعد عن المشاعر والأحاسيس ، ترى ألفاظه واضحة لا غموض فيها ، سهلة لا وعورة فيها ، وراجع في ذلك كتب العلم كلها تجدها تسير على هذا النحو، مثل كتب التاريخ والفقه والنحو إلخ.

الأسلوب الأدبي :

وهو الأسلوب القائم على الجمال، والخيال ،والتصوير، وإلباس المعاني ثوب المحسوسات ، وعناصره تتراوح بين الفكرة ، والصورة ، والعبارة ، ثم التأثير الذي يتركه على المتلقي ، **وراجع كلام المتنبي – مثلا – عن الحمى التي أصابته :**

وزايـــرتي كـــأن بهـــا حيـــاءً	فلـــيس تـــزور إلا في الظـــلام
بـذلتُ لهـا المطـارفَ والحشـايا	فعافتهـــا وباتـــت في عظـــامي
يضيق الجلْدُ عـن نفسيَ وعنهـا	فتُوســـعهُ بـــأنواع السَّـــقام
إذا مـــا فـــارقتْني غسَّـــلْتني	كأنـــا عاكفـــان عـــلى حـــرام
كـأن الصـبح يطردهـا فتجـري	مـــدامعها بأربعـــة ســـجام
أراقـب وقتهـا مـن غـير شـوق	مراقَبـــة المِشُـــوق المســـتهام
ويَصدق وعـدُها والصـدق شرٌّ	إذا ألقـــاك في الكُـــربَ العظـــام
أبنْتَ الـدهر عنـدي كـل بنـتٍ	فكيف خَلَصْـت أنـتِ مـن الزحـام
جرحـــتِ مُجَرَّحـــا لم يبـــق فيـــه	مكـــانٌ للسـيوف ولا السـهام (١)

فالمتنبي – غفر الله له – لا يرى الحمى كما يراها الناس ، إنها ضيف ثقيل لايحل إلا ومعه الشر والسوء ، وتراه وهو يثير عاطفتك نحوه ، ويأخذ بمجامع شعورك لترى ما يراه وتحس بما يحس ، حتى تتألم كما يتألم ، فالفكرة مرتبة بالعاطفة ، والمعنى قائم على الصورة المجازية ، وتحمل الكلمات الموسيقى والإيقاع اللذان يتفاعلان لرسم مشهد المعذب من هذا الضيف الثقيل .

١ ـ الوساطة بين المتنبي وخصومه للقاضي الجرجاني ١ / ٣٥.

الأسلوب الخطابي :

وهو أسلوب يتسم بالقوة ، ويصحبه انفعال الخطيب بما يؤمن به ويعتقده وترى في هذا الانفعال من السجع والموسيقى ما يزيد من أثر الكلام في المتلقي فالأسلوب الخطابي يجعل التأثير أولى أولوياته **يقول زياد بن أبيه في مطلع خطبته:**

"أما بعد فإن الجهالة الجهلاء والضلالة العمياء. والغي الموفى بأهله على النار. ما فيه سفهاؤكم. ويشتمل عليه حلماؤكم من الأمور العظام، ينبت فيها الصغير، ولا يتحاشى عنها الكبير" وراجع هذه الأوصاف التي يتبعها كل لفظلؤثر بها على السامع تعلم أنه لا يريد إصال المعلومة بقدر ما يريد التأثير على المتلقي .

ثم إنك تلحظ في الأسلوب الخطابي صفات أخرى مهمة مثل : التكرار وكثرة الأدلة ، فلا يذكر شيء إلا ومعه الدليل ، كما أنك تجد الخطيب يكثر من ضرب الأمثال ، واختيار الكلمات الجزلة الرنانة ، وتنوع الكلام حتى لا يمل المخاطب .(١)

طرفا البلاغة

للبلاغة البشرية طرفان ، طرف أعلى يحاوله كل متكلم ، فيقترب منه حينا ويبتعد عنه أحيانا ، ويقف على قمة هذا البيان : كلام المعصوم ﷺ، الذي أوتي جوامع الكلم ، واختصر له الكلام اختصارا .

١- مبادئ في نظرية الشعر والجمال ، لابي عبد الرحمن بن عقيل الظاهري.

أما الطرف الأدنى ، فهو الطرف الذي لاترى فيه وضوحا ، ولا جمالا بل لاتكاد ترى فيه عقلا .

وبين الطرفين مسافات، يتصاعد فيها المتكلمون ، وكلما وجدت الكلام مطابقا للأحوال ، واضحا في الأفهام، آخذا بمشاعر المستمعين ، موصلا للمعاني إلى القلوب في يسر وسهولة كان صاحبه أعلى قدما ، وأرسخ منزلة في سلم أهل البلاغة.

أما كلام الله تعالى فلا مجال للحديث عنه هنا في طرفي البلاغة فهو الكلام المعجز الذي لا يرقى إليه طامح ، و لايقترب منه بليغ ، فالفرق بين كلام الله تعالى وكلام البشر كالفرق بين الله تعالى والبشر ، فكلام الله تعالى فيه كل كمال ، ومنزه عن كل نقص ، وكلام البشر مهما علا ، ففيه صفات البشر وهذه المنزلة ، لا يقاس عليها ، ولا يصح في الأذهان أن نتكلم عن مراتب البلاغة ، ثم نضع البيان الإلهي في منزلة ، وبيان البشر تحته ، لأن في ذلك خلطا بين الإعجاز والبلاغة ،ولا يمكن لبشر أن يقترب من شأن الإعجاز ، لأنه يدرك ولا يتوصل إليه ، فمشكاته في السماء ، ولا يمكن وصفها .

" أبواب علم المعاني"

- أولها: أحوال الإسناد الخبري.
- وثانيها: أحوال المسند إليه.
- وثالثها: أحوال المسند.
- ورابعها: أحوال متعلقات الفعل.
- وخامسها: القصر.
- وسادسها: الإنشاء
- وسابعها: الفصل والوصل.
- وثامنها: الإيجاز والإطناب والمساواة.

الفصـل الثـاني
أحـوال الإسنـاد الخبري

١ـ أغراض الخبر

٢ـ أضرب الخبر

٣ـ التجوز في الإسناد

تـوطئة :

من المعروف أن علم النحو يعمـل في مجـال صـحة الجملـة وخطئهـا ، فمهمته إصدار الحكم بصحة الجملة إن وافقت القواعد المقررة ، أو بخطئهـا إن خالفت تلك القواعد .

وعلم الصرف يعمل في مجال بناء الكلمة ، وضوابط هذا البنـاء ، مـن صيغ وجمع وتثنية ، ومصادر وموازين ... إلـخ يقـول السـكاكي عـن علـم الصرف : (هو المرجوع إليه في المفرد أو فيما هو في حكم المفرد) (١).

أمّا علم المعاني فيوجّه اهتمامَه إلى مطابقة كل ذلك لأحوال السـامعين ويستخرج الدلالات التي يَدُلُّ عليها الـذّكْرُ والحـذف ، والتقـديم والتـأخير والإظهار والإِضمار، واختيار نوع دون غيره من أنواع الكلام، وانتقاء مفردة دون غيرها ، وصيغة دون غيرها ، وموقع إعرابي دون غيره .هو علـم يجيـب عن كل سؤال أداته لِمَ ؟

وهذا كله يسمى علم المعاني ، وهو أحد أقسـام البلاغـة الثلاثـة التـي تعنى بالتركيب ، وبناء العبارة على هيئة تطابق مقتضى الحال .

---

١ - مفتاح العلوم ص٨ .

تعريف علم المعاني :

هو علْمٌ يعرف به أحوال اللفظ العربيّ التي بها يطابق مقتضى الحال.

والمراد (**بأحوال اللفظ**) الأمور العارضة له من التقديم والتأخير والذكر والحذف ، والفصل والوصل ... وغير ذلك ، فهو علم يبحث في أحوال كلّ عنصر من عناصر الجملة في اللّسان العربيّ ومتى تكون في الكلام ، ومتى لا تكون ؟ .

ومقتضى الحال : وصف يستدعي مجيء الكلام على هيئة خاصة ، فإذا وافقها كان الكلام مطابقا لمقتضى الحال ، وكان المتكلم بليغا ، وإذا خالفها عيب الكلام وخرج عن طوق البلاغة ، والسكاكي –رحمه الله – **يشرح ذلك فيقول** :

(لا يخفى عليك أن مقامات الكلام متفاوتة فمقام الشكر يباين مقام الشكاية ، ومقام التهنئة يباين مقام التعزية ، ومقام المدح يباين مقام الذم ، ومقام الترغيب يباين مقام الترهيب ، ومقام الجد في جميع ذلك يباين مقام الهزل ، وكذا مقام الكلام ابتداء يغاير مقام الكلام بناء على الاستخبار أو الإنكار ، ومقام البناء على السؤال يغاير مقام البناء على الإنكار جميع ذلك معلوم لكل لبيب ، وكذا مقام الكلام مع الذكي يغاير مقام الكلام مع الغبي، ولكل من ذلك مقتضى غير مقتضى الآخر.

ثم إذا شرعت في الكلام فلكل كلمة مع صاحبتها مقام ، ولكل حد ينتهي إليه الكلام مقام ، وارتفاع شأن الكلام في باب الحسن والقبول وانحطاطه في ذلك بحسب مصادفة الكلام لما يليق به ، وهو الذي نسميه

مقتضى الحال، فإن كان مقتضى الحال إطلاق الحكم فحسن الكلام : تجريده من مؤكدات الحكم. وإن كان مقتضى الحال بخلاف ذلك فحسن الكلام تحليه بشيء من ذلك بحسب المقتضى ضعفا وقوة، وإن كان مقتضى الحال طي ذكر المسند إليه فحسن الكلام تركه ، وإن كان المقتضى إثباته على وجه من الوجوه المذكورة فحسن الكلام وروده على الاعتبار المناسب. وكذا إن كان المقتضى ترك المسند فحسن الكلام وروده عاريا عن ذكره .

وإن كان المقتضى اثباته مخصصاً بشئ من التخصيصات فحسن الكلام نظمه على الوجوه المناسبة من الاعتبارات المقدم ذكرها .

وكذا إن كان المقتضى عند انتظام الجملة مع أخرى فصلها أو وصلها والإيجاز معها أو الإطناب ، فحسن الكلام تأليفه مطابقا لذلك) (١).

فالمقتضى حاكم ومجئ الكلام موافقا له هو المطابقة ، وهو البلاغة وهو الحسن ، وهو علم المعاني .ولذلك قال السكاكي في تعريف علم المعاني :

(هو تتبع خواص تراكيب الكلام في الإفادة وما يتصل بها من الاستحسان وغيره، ليحترز بالوقوف عليها عن الخطأ في تطبيق الكلام على ما تقتضي الحال ذكره)

١ - مفتاح العلوم ص ١١٦٨.

مكونات الجملة

أقلُّ ما يفيد معنى يحسن السكوت عليه في لغة العرب يسمى (الجملة) والجملة المفيدة : هي كل كلام تام يَدُلُّ على معنىً يحسن السكوت عليه ، وأقلُّ الجمل جملة تحمل نسبةُ شيءٍ إلى شَيْءٍ في حالة الإثبات ، أو حالة النفي ، وأقلُّ مَا تتألف منه الجملة عنصران هما المسند والمسند إليه ، فالمُسْنَدُ هو : المحكوم به أو الحكم ، والمُسْنَدُ إليه هو : المحكوم عليه ، وبينهما شيءٌ ثالثٌ هو : الإِسنادُ وهو : الرابط المعنويُّ بينهما .

تلك هي الأصول التي تبنى عليها الجملة العربية ، ويُلْحَقُ بالجملة المفيدة متعلقات مثل : المفاعيل، والظروف ، والتوابع إلخ.

والأصل في الجملة الاسمية أن يتقدم المبتدأ ، ويتبعه الخبر ، أما الجملة الفعلية فالأصل فيها أن يتقدم الفعل ويتبعه الفاعل فالمفعول .

ولقد حصر أرباب العلم أبواب علم المعاني في ثمانية أقسام؛ لأن الكلام – كل كلام – إما خبر ، أو إنشاء [1]، (ثم الخبر لا بد له من إسناد ومسند إليه ومسند **وأحوال هذه الثلاثة هي الأقسام الثلاثة الأولى، يعني :**

١ - أحوال الإسناد .

٢- أحوال المسند إليه .

٣- أحوال المسند .

---

١ - دون دخول في تفصيل يزيد من غموض المعنى فكل كلام إما خبر ، أو إنشاء ، وما تحدث عنه العلماء من أنه إما أن يكون لنسبته خارج تطابقه، أو لا تطابقه. أو لا يكون لها خارج ، كلام يغطي وجه الشمس ويستر صفحة القمر ، ويكفي أن تقول الكلام إما خبر أو إنشاء ، وكل منهما معلوم واضح لكل ذي عينين .

ثم المسند قد يكون له متعلقات إذا كان فعلًا أو متصلًا بـه أو في معنـاه كاسم الفاعل ونحوه ، وهذا هو القسم الرابع ، **يعني** :

٤ - أحوال متعلقات الفعل .

ثم الإسناد والتعلق كل واحد منهما يكون إما بقصر أو بغير قصر، وهذا هو القسم الخامس.

٥- باب القصر .

٦- والإنشاء هو القسم السادس.

ثم الجملة إذا قرنت بأخرى فتكون الثانية إما معطوفة على الأولى أو غير معطوفة، وهذا هو القسم السابع، **يعني** :

٧ - باب الفصل والوصل

ولفظ الكلام البليغ إما زائد على أصل المراد لفائدة ، أو غير زائد عليه **وهذا هو القسم الثامن يعني** :

٨- باب الإيجاز والإطناب)(١).

وهذه الأقسام الثمانية موزعة على مرحلتين تعليميتين ، في المرحلة الأولى : أربعة أقسام ، وفي المرحلة الثانية أربعة أقسام .

بين المعنى ومعنى المعنى

وقبل الحديث عن القسم الأول أبين لك الفرق بين المعنى ومعنى المعنى وكلاهما تجده في كتب أهل العلم ، فتارة تجد المعنى ومعنى المعنى ، وتارة تجد المعنى الأول ، والمعاني الثواني ، والمعنى الأول هو أصل المراد ،

١ - الإيضاح ١/ ١٢٣.

المفهوم من صريح الجملة ، أما المعنى الثاني فهو الخصوصيات وما وراء المعنى الأول من مقاصد . فالتعريف والتنكير ، والذكر والحذف من مكونات المعنى الأول لكن الأغراض والمقاصد التي استدعت هذه الخصوصيات والتي يقصدها المتكلم ، ويبني الكلام على ما جاء عليه من أجلها هي المعنى الثاني .

وقيل إن أصل المراد هو المعنى الأول ، ومقاصد المتكلم من خصوصيات الكلام هي المعنى الثاني ، وحتى لا تدور في هذه الدائرة أختصر لك الأمر وأقول لك لايكن همك صريح العبارة ، فصريح العبارة قد يكون غير مقصود ولكن اجعل همك هو المقصود من العبارة ، فالكلام بمقاصده ، ودرب نفسك على جملة واحدة ، كأن تقول مثلا : (حضر ـ محمد) وانظر في دلالتها المباشرة وما قد تحمله من دلالات أخر يغزيها السياق والمقام لتعرف الفرق بين المعنى ومعنى المعنى .

الخبر بين (الصادق والكاذب)

ذكر الخطيب قبل الحديث عن أحوال الإسناد الخبري تنبيهين، ذكر في الأول قضية الخبر الصادق والخبر الكاذب، وأن البلاغيين قالوا إن الخبر إما صادق وإما كاذب، ثم بينوا متى يكون الخبر صادقا ؟ ومتى يكون كاذبا ؟

وزعم الدكتور خفاجي أن هذه القضية قضية عقلية لا علاقة لها بالبلاغة فقال :(هذا بحث عقلي لا صلة له بمباحث البلاغة إلا من ناحية أنه كالتفسير والشرح لتعريف الخبر والإنشاء) وليس الأمر كما قال ، لأن

هذه القضية متصلة اتصالا وثيقا بالباب الأول من علم المعاني ، وهو أحوال الإسناد الخبري وقد جاء ذكره بعد هذين التنبيهين ، فحين تقول : شفى الطبيب المريض إن كنت مسلما معتقدا أن الشفاء بيد الله فأنت تستعمل أسلوب المجاز وإن كنت غير مسلم فأنت تستخدم أسلوب الحقيقة ، لأنك تعتقد أن الشافي هو الطبيب ، ولكل واحد من الاثنين أحوال من حيث الصدق والكذب فالتنبيه داخل في صميم الحديث عن أحوال الإسناد ، لكن الذي وقف عنده الخطيب هو مالمقصود بصدق الخبر وكذبه ؟ وذكر أن أكثر أهل العلم على أن الخبر الصادق هو ما طابق الواقع ، سواء اعتقد المتكلم ذلك أم لا .

وقال آخرون : صدق الخبر ما طابق اعتقاد المخبر سواء طابق الواقع أم لا .

وهذا الكلام كله داخل في قضية المجاز والحقيقة، فقضية المجاز متعلقة أساسا بمقصود المتكلم .

فمثلا : إذا اعتقد أحد الناس أن السماء تحتنا ، ثم قال : (السماء تحتنا) ، هل يعد قوله هذا حقيقة أم مجاز ، أو بمعنى آخر :هل يعد كلامه هذا صدقا أم كذبا ؟

لاشك أن الأمر سيختلف بحسب توصيف الخبر الصادق والخبر الكاذب ، فمن يرى صدق الخبر بمطابقة الواقع ، سيكون حكمه على هذا الخبر أنه كاذب ، أو أن صاحبه متجوّز فيه ، ومن قال إن صدق الخبر هو ما وافق اعتقاد المتكلم فالخبر عنده صادق ، ولا تجوّز فيه ، وهذه القضية ظهرت

بوادرها في علم الكلام ، وبخاصة فيما يتعلق بمسألة (خلق القرآن) فالمعتزلة قالوا إن القرآن الكريم ثلاثة أنواع من الكلام(أمر ونهى وخبر) ثم قال زعيمهم (النظام) إنّ صدق الخبر هو مطابقة حكمه لاعتقاد المخبر صوابا كان أو خطأ وكذبه عدم مطابقة حكمه له.

واحتج لرأيه بأمرين:

الأول : أن من اعتقد أمرًا فأخبر به ثم ظهر خبره بخلاف الواقع يقال: ما كذب ولكنه أخطأ، كما رُوى عن السيدة عائشة رضي الله عنها أنها قالت فيمن شأنه كذلك: ما كذب ولكنه وهم.

الثاني: قوله تعالى:

﴿.......وَٱللَّهُ يَشۡهَدُ إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ۝١﴾ [سورة المنافقون:١]

كذبهم في قولهم "إنك لرسول الله" وإن كان مطابقًا للواقع؛ لأنهم لم يعتقدوه.

وعليه أريد أن أبين هنا فقط أن فريقا من أهل العلم يقول :

صدق الخبر ما طابق الاعتقاد ، وكذب الخبر ما خالف الاعتقاد .

وفريق آخر يقول : صدق الخبر ما طابق الواقع ، وكذب الخبر ما خالف الواقع .

ولن أدخل في ردود كل فريق على الآخر ، وإن كان لكل منهما وجه والجاحظ رحمه الله – نزع القضية من عالم البلاغة وأدخلها في عالم المنطق وأضاف شيئا كثرت به الأقسام ، وهو الخبر غير الصادق ولا الكاذب ، وهذا الصنف الثالث يعتمد على التوافق بن المطابقة والاعتقاد،أو عدم التوافق

فالصدق عنده مطابقة الحكم للواقع مع اعتقاده -والكذب عدم مطابقته مع عدم اعتقاده.فنتج عن ذلك أقسام كثيرة (١)، وهذا أبعد الفكرة عن عالم البلاغة وأدخلها إلى علم المنطق والقياس .

دور الذوق في علم البلاغة

الذوق مرجع من مراجع التعليل لتفضيل كلام على كلام ، وليس كل كلام تفضله ، وتستحسنه تجد له قاعدة ، وترجع فيه إلى قياس ، بل تجد للكلام حسنا وقبولا ، ثم لا تعرف من أن أين يأتيه هذا الحسن غير أن لك ذائقه تستحسنه ، وفطرة تستعذبه ، وأريحية تجدها عند سماعه ، وبشاشة في النفس تستشعرها عن معاودته ، والذوق السليم حكمٌ لا يُرد ، وما دام صاحب الذوق السليم يستعذب الكلام ، ويهش له ويبش ويجد عند سماعة أريحية ، فالبحث لا يزال قائما في أسباب هذا الحسن .

يقول السكاكي في ذلك : (وقبل أن نمنح هذه الفنون حقها في الذكر ننبهك على أصل لتكون على ذكر منه وهو: أن ليس من الواجب في صناعة - وإن كان المرجع في أصولها وتفاريعها على مجرد العقل - أن يكون الدخيل فيها كالناشئ عليها في استفادة الذوق منها ، فكيف إذا كانت الصناعة مستندة على تحكمات وضعية واعتبارات إلفية فلا على الدخيل في صناعةعلم

---

١ - لأن الحكم إما مطابق للواقع مع اعتقاد المخبر له أو عدمه، وإما غير مطابق مع الاعتقاد أو عدمه فالأول -أي المطابق مع الاعتقاد- هو الصادق ، والثالث -أي غير المطابق مع الاعتقاد- هو الكاذب والثاني والرابع -أي المطابق مع عدم الاعتقاد، وغير المطابق مع عدم الاعتقاد ، كل منهما ليس بصادق ولا كاذب.مما يعني أن فالذي ليس بصادق ولا كاذب أربعة: ١ المطابقة مع اعتقاد عدم المطابقة. ٢ المطابقة بدون الاعتقاد أصلًا. ٣ عدم المطابقة مع اعتقاد المطابقة. ٤ عدم المطابقة بدون الاعتقاد أصلًا.

المعاني أن يقلد صاحبها في بعض فتاواه إن فاته الـذوق هنـاك عـلى أن يتكامل له على مهل موجبات ذلـك الـذوق وكـان شـيخنا الحـاتمي- ذلـك الإمام الذي لن تسمح بمثله الأدوار ما دار الفلك الدوار تغمده الله برضوانه - يحيلنا بحسن كثير من مستحسنات الكلام إذا راجعنـاه فيهـا عـلى الـذوق ونحن حينئذ ممن نبغ في عدة شعب من علم الأدب وصبغ بها يده وعانى فيها وكده وكده)(١).

وذكر الخطيب القزويني أن الإمام عبد القاهر كـان كثـيرًا مـا يشـير في دلائل الإعجاز إلى هذا، كما ذكر في موضـع مـا تلخيصـه هـذا: اعلـم أنـه لا يصادف القول في هذا الباب موقعًا من السامع، ولا يجـد لديـه قبـولًا، حتـى يكون من أهل الذوق والمعرفة، ومن تحدثه نفسه بأنه لما تومئ إليه من الحسن أصلًا. فيختلف الحال عليه عند تأمل الكلام، فيجد الأريحيـة تـارة، ويعـرى منها آخرى، وإذا عجبته تعجب، وإذا نبهته لموضـوع المزيـة انتبـه، فأمـا مـن كانت الحالات عنده على سواء وكـان لا يتفقـد مـن أمـر الـنظم إلا الصـحة المطلقة، وإلا إعرابًا ظاهرًا، فليكن عندك بمنزلة من عدم الطبع الـذي يـدرك به وزن الشعر، ويميز بـه مزاحفـة مـن سـالمه في أنـك لا تتصـدى لتعريفـه، لعلمك أنه قد عدم الأداة التي بها يعرف)(٢).

ونحن إذ ننبه أن للذوق هذا الدور وتلك المكانة ، لكننا نعـود ونقـول إن الأصول التي يعتمد عليها ستظل هي الأصول ، ولا يرد الأمر إلى الذوق

١ - مفتاح العلوم للسكاكي ص ١٦٨.
٢ - الإيضاح ١/ ٦٣.

إلا إذا غابت العلة ، وظهر الحسن عند البليغ كما فعل الحاتمي مع طلابه وكان فيهم السكاكي ، فالمقام هو الحكم ، وحسن الكلام يكون إذا وافق المقام ، أو ما يطلق عليه مقتضى الحال ، ولذلك يعود السكاكي ويقرر تلك الحقيقة ، **فيقول** :

(لا يخفى عليك أن مقامات الكلام متفاوتة ، فمقام الشكر يباين مقام الشكاية ، ومقام التهنئة يباين مقام التعزية ، ومقام المدح يباين مقام الذم ، ومقام الترغيب يباين مقام الترهيب ، ومقام الجد في جميع ذلك يباين مقام الهزل، وكذا مقام الكلام ابتداء يغاير مقام الكلام بناء على الاستخبار أو الإنكار، ومقام البناء على السؤال يغاير مقام البناء على الإنكار جميع ذلك معلوم لكل لبيب وكذا مقام الكلام مع الذكي يغاير مقام الكلام مع الغبي، ولكل من ذلك مقتضى غير مقتضى الآخر.

ثم إذا شرعت في الكلام فلكل كلمة مع صاحبتها مقام ولكل حد ينتهي إليه الكلام مقام وارتفاع شأن الكلام في باب الحسن والقبول وانحطاطه في ذلك بحسب مصادفة الكلام لما يليق به ، وهو الذي نسميه مقتضى الحال، فإن كان مقتضى الحال وإطلاق الحكم فحسن الكلام تجريده عن مؤكدات الحكم وإن كان مقتضى الحال بخلاف ذلك فحسن الكلام تحليه بشيء من ذلك بحسب المقتضى ضعفا وقوة وإن كان مقتضى الحال طي ذكر المسند إليه فحسن الكلام تركه، وإن كان المقتضى إثباته على وجه من الوجوه المذكورة فحسن الكلام وروده على الاعتبار المناسب، وكذا إن كان المقتضى ترك المسند فحسن الكلام وروده عاريا عن ذكره وإن كان المقتضى

اثباته مخصصاً بشيء من التخصيصات فحسن الكلام نظمه على الوجوه المناسبة من الاعتبارات المقدم ذكرها ، وكذا إن كان المقتضى عند انتظام الجملة مع أخرى فصلها أو وصلها والإيجاز معها أو الإطناب أعني طي جملة عن البيان ولا طيها فحسن الكلام تأليفه مطابقا لذلك)(١).

فمعرفة العلة هي أساس المزية ، وحسن الكلام عند التحقيق راجع إلى وجود العلة وظهورها للقارئ ، حتى لا ترد الأمور إلى المجهول ، وحين تعرف علة الحسن في بعض الأمور أمكنك رد الباقي عليها ، وقياس ما لم تعرف على ما عرفت ، أما التعليل بالذوق فقط ، فإنه ليس مقبولا من كلا أحد ، حتى لا تعتاد النفس على الكسل والهوينى ، وهذا الذي أوقع كثيرا في دائرة : لم يدع الأول للآخر شيئا .

أغراض الخبر

يتناول أهل العلم في هذا الباب ثلاث مسائل ، وهي :

- أغراض الخبر .
- وأضرب الخبر .
- والتجوز في الإسناد .

و معلوم أنه لا يتكلم متكلم إلا وله من وراء كلامه غرض ، ولاشك أن الأغراض كلها تنشأ في النفس ، وتجيش بها الصدور ، فتقذفها على الألسنة لتصورها للمتلقي ، ولا بد في هذا الكلام من أن يتصل بعضه ببعض ، اتصالا يجعل من كل لفظ حلقة موصولة بما حوله ، وكأنها روح

١ - مفتاح العلوم ص ١٦٨.

تربط الكلمات ، هذه الروح هي الإسناد ، والبلاغة كلها ساكنة في هذه الروابط ، وفضل شاعر على شاعر، أو متكلم على متكلم يكمن في اصطفاء هذه الروابط ، لأنها هي المعاني وهي الأغراض ، ومفهوم الإسناد في أبسط صوره يعني : إسناد الشيء إلى الشيء أو نفيه عنه . والإسناد هو الركن الثالث من أركان الجملة ، فجملة الخبر لها ثلاثة أركان: المسند إليه، والمسند، والإسناد ، وما زاد على ذلك فهو قيود.

وقيود الجملة هي: أدوات الشرط، وأدوات النفي، والمفاعيل الخمسة والحال، والتمييز، والأفعال الناسخة، والتوابع الأربعة: النعت، والعطف والتوكيد، والبدل.

والمتكلم لا يحيد عن طريق من طريقين وقت أن يتكلم :

الطريق الأول : أن يخبرك بشيء تجهله كقول النبي ﷺ :

" البر حسن الخلق " " الأعمال بالنيات " " مطل الغني ظلم " " الإيمان يماني والحكمة يمانية " ... إلخ ، وراجع معي هذا الخبر الذي جاء في كتب التاريخ عن معاوية بن أبي سفيان: «أسلم معاوية مع أبيه عام الفتح، واستكتبه النبيّ ﷺ ، واستعمله عمر على الشام أربع سنين من خلافته وأقرّه عثمان مدة خلافته نحو اثنتي عشرة سنة، وتغلّب على الشام محاربا لعليّ أربع سنين، فكان أميرا وملكا على الشام نحو أربعين سنة. وكان حليما ، حازما داهية و عالما بسياسة الملك، وكان حلمه قاهرا لغضبه ، وجوده غالبا على منعه يصل ولا يقطع .... إلخ) .

هل تلحظ خلف كل جملة إلاَّ خبرا كان غائبا عنك وقت سماعه ؟

فكل هذه أخبار لم يكن المخاطب يعرفها من قبل النطق، أو كانت في طور النسيان وقت النطق بها وتسمى جميعا : فائدة الخبر .

الطريق الثاني : أن يخبرك بخبر تعلمه ، كأن يقول لك :

" الصلاة مفروضة " .

" الحج إلى بيت الله الحرام ".

" الصيام المفروض في شهر رمضان ".

وهذه الجمل كلها أنت لا تجهلها ، إنما أراد أن ينقل لك معنى آخر غير المعنى المنطوق ، وهذا يسمى : لازم الفائدة ، وأكثر الكلام العربي البليغ يدور في فلك (لازم الفائدة) وهذا كثير في القرآن الكريم ، وله من وراء كل خبر غاية بلاغية ، وغرض يقتضيه المقام ، ولذلك يجب هنا التعرض لهذه الأغراض البلاغية .

الأغراض البلاغية للخبر

عند التحقيق في فائدة الخبر، ولازم الفائدة ، تجد المتكلم يريد توصيل شيء إلى المخاطب ، إما الخبر الذي لا يعرفه ، وإما علمه بالخبر، وكلاهما فيه إعلام المخاطب شيئا لا يعرفه ، ولا يمكن أن يكون كل خبر دائرا في واحد من هذين الاثنين ، فهناك أغراض أخرى كثيرة يحملها السياق والمقام والأحوال . **ومن هذه الأغراض :**

١ - إظهار الضعف :

كما في قول الله تعالى يحكي عن سيدنا زكريا :

﴿ **قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّي وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا......** ﴾ [سورة مريم:٤]

حيث بدأت القصة بذكر الرحمة :

﴿ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ ﴾ [سورة مريم:٢] ، ثم الدعاء ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ﴿٣﴾﴾ [سورة مريم:٣]، قال: ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّي وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴿٤﴾ وَإِنِّي خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِيَ مِن وَرَآءِى وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ﴿٥﴾ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ ۖ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴿٦﴾﴾ [سورة مريم:٤-٦]

إنه يناجي ربه بعيدًا عن عيون الناس، بعيدًا عن أسماعهم. في عزلة يخلص فيها لربه، ويكشف له عما يثقل كاهله ويكرب صدره ويناديه في قرب واتصال: «رب..» بلا واسطة ، ولا حرف النداء. وإن ربه ليسمع ويرى من غير دعاء ولا نداء ولكن المكروب يستريح عند البث، ويحتاج إلى الشكوى. والله الرحيم بعباده يعرف ذلك من فطرة البشر، فيستحب لهم أن يدعوه وأن يبثوه ما تضيق به صدورهم.

﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ [سورة غافر:٦٠]

ليريحوا أعصابهم من العبء المرهق، ولتطمئن قلوبهم إلى أنهم قد عهدوا بأعبائهم إلى من هو أقوى وأقدر وليستشعروا صلتهم بالجناب الذي لا يضام من يلجأ إليه، ولا يخيب من يتوكل عليه.

وزكريا يشكو إلى ربه وهن العظيم ، وحين يهن العظم يكون الجسم كله قد وهن. فالعظم هو أصلب ما فيه، وهو قوامه الذي يقوم به ويتجمع عليه).(١) فإظهار الضعف هو الغرض من الخبر ، وهو غرض بلاغي ، وفي الشعر ما يحمل

الغرض نفسه ، وذلك في قول عوف بن ملحم الخزاعي (٢) :

يا بن الَّذِي دان لَهُ المشرقان   طرا وقد دان لَهُ المغربان

إن الثمانين وبلغتها   قد أحوجت سمعي إِلَى ترجمان

وبدلتني بالشطاط الانحنا   وكنت كالصعدة تحت السنان

وبدلتنى من زماع الفتى   وهمتى هُم الجبان الهدان

وقاربت منى خطا لم تكن   مقارباتٍ وثنت من عنان

١ - الظلال ٤/ ٢٣٠٢

٢ - عوف بن ملحم الخزاعي أبو المنهال هو أحد العلماء الأدباء الرواة الفهماء الندماء الظرفاء الشعراء الفصحاء وكان صاحب نوادر وأخبار ومعرفة بأيام الناس واختصه طاهر بن الحسين بن مصعب لمنادمته ومسامرته فلا يسافر إلا وهو معه فيكون زميله وعديله ويعجب به وقال محمد بن داود إن سبب اتصاله بطاهر أنه نادى على الجسر بهذه الأبيات أيام الفتنة ببغداد وطاهر منصرف في حراقة له بدجلة فأدخله معه وأنشده إياها وهي:

(عجبت لحراقة ابن الحسين كيف تعوم ولا تغرق ...)

(وبحران من تحتها واحد ... وآخر من فوقها مطبق)

(وأعجب من ذاك عيدانها ... وقد مسها كيف لا تورق) // المتقارب //

وأصله من حران وبقي مع طاهر ثلاثين سنة لا يفارقه وكلما استأذنه في الانصراف إلى أهله ووطنه لا يأذن له فلما مات ظن أنه تخلص وأنه يلحق بأهله فقر به عبد الله بن طاهر وأنزله منزلته من أبيه وأفضل عليه حتى كثر ماله وحسنت حاله وتلطف بجهده أن يأذن له في العود إلى أهله فاتفق أنه خرج عبد الله من بغداد إلى خراسان فجعل عوفا عديله فلما شارف الري سمع صوت عندليب يغرد أحسن تغريد فأعجب ذلك عبد الله والتفت إلى عوف وقال يا ابن ملحم هل سمعت بأشجى من هذا فقال لا والله فقال عبد الله قاتل الله أبا كبير حيث يقول

(ألا يا حمام الأيك إلفك حاضر ... وغصنك مياد ففيم تنوح).

وأنشـأت بينـى وبـين الـورى عنانــة مــن غــير نســج العنــان

فبلوغ الثمانين لا يقصد من ورائه إلاَّ إظهار الضعف ، وكذلك المعـاني التي حولها مثل :(أحوجت سمعي إلى ترجمان،والانحناء ،وتقارب الخطـى، وتجا في الناس عنه).

كل ذلك إظهار للضعف ، وشكوى تبدل الحال .

٢- الاستعطاف :

مثل قول المناوي يناجي ربه :

ما زلت أعـرف بالإسـاءة دائـما ويظــل منــك الصــفح والغفــران

لم تنتقصــني إنأسـأت وزدتنـي حتـــى كـــأن إســـاءتي إحســـان

منك التفضل والتكرم والرضـا أنـــت الإلـــه المـــنعم المنـــان

لاحظ قوله : (وزدتني ، منك التفضل والتكرم) وكأنـه يطلـب مـع اعترافه بالذنب العطف والعطاء .. وهذه المعاني تزهو ، وتبرق حـين توضـع في موضعها فيُــناجى بها رب العزة سبحانه ، مثل القول السابق ، لكنهـا – وهي هي – تخفو ، وتخفت ، وتقل وتضؤل حين توجه إلى المخلوق ، **ولذلك راجع معي قول ابراهيم بن المهدي مخاطبا المأمون:**

أتيـــــت جرمـــــا شـــــنيعا وأنـــــــت للعفـــــــو أهـــــــل

فـــــإن عفـــــوت فمـــــنّ وإن قتلـــــــــــت فعـــــــــــدل

وذلك لأن النفوس تعرف للمعاني مواضعها اللائقة بها

وراجع أيضا قول المتنبي وهو في محبسه مستعطفا السلطان:

أمالــك رقــيّ وَمَــنْ شــأْنُه ... هبـات اللُّجَـيْن وعتـقُ العبيـدِ (١)

دعوتُــك عنـد انقطـاع الرجـا ... ء والمـوت مني كحبـل الوريـد

دعوتــك لمــا بــراني الـبلى ... وأوهــن رجـليّ ثِقْـلُ الحديـد

وقـد كـان مشـيهُما في النعـالُ ... فقـد صـار مشـيهُما في القيـود

وكنـت مـن النـاس في مَحْفـل ... فهـا أنـا في محفـل مـن قـرود (٢)

تعجـل فيّ وجـوبَ الحـدود ... وحِدّي قبل وجـوب السـجودِ (٣)

تجد هذه المعاني التي يستعطف بها الشعراء بعض النـاس ، مـن أمـراء وغيرهم يخفت ضوؤها ، ويقل بريقها .

٣- التحسر:

وهو لوعة في النفس على فقد عزيز ، ومن نماذج هذا التحسر ما تناقلته كتب الأدب أن المتنبي كان يـأنس في مصر بـأبي شـجاع فاتـك الأخشـيدي المعروف بالمجنون ، فلما مات رثاه بقصيدة أنقل لك منها بعضها ، **يقول** :

الحـزن يقلـق والتجمـل يـردع ... والـدمع بيـنهما عصيـ طيـع

إني لأجـبن مـن فـراق أحبتـي ... وتحـس نفسيـ بـالحمام فأشـجع

---

١ - يقول يا من يملك عبوديتي ويا من شأنه أن يهب الفضة ويعتق العبيد ووضع العتق موضع الإعتاق له إذا أعتق حصل العتق فعتق عبيده بإعتاقه وروى ابن جنى ومن شأنه وقال إني أدعوكم ومن شأنك أن تفعل كذا

٢ - المحفل الجماعة يجتمعون في موضع وعني بالقرود المحبوسين معه من اللصوص واصحاب الجنايات يقول كنت أجالس الناس في محافلهم وقد سرت في الحبس أجالس قوما لئاما كالقرود

٣ - يريد أتعجل بالاستفهام وحذفه ومعنى تعجل الشيء مجيئه قبل وقته أي إنما تجب الحدود على البالغ وأنا صبيٌّ لم يجب على الصلوة فكيف أحد وليس يريد أنه في الحقيقة صبحي غير بالغ وإنما يصغر أمر نفسه عند الوالي ألا ترى أن من كان صبيا لا يظن به اجتماع الناس إليه للشقاق والخلاف هذا كلام ابن جنى قال ابن فورجة ما أراد أبو الطيب إلا الذي منع أبو الفتح يريد أنى صبيٌّ لم أبلغ الحلم فيجب على السجود فكيف يجب على الحدود والقول ما قاله أبو الفتح ويروي وجوب منصوبا والتعجل على هذا مجاز كقوله، ولا تعجلتها جنبا ولا فرقا، ويكون المعنى أيعجل الأمير وجوب الحدود.

تصفو الحياة لجاهل أو غافل | عما مضى منها وما يتوقع
أين الذي الهرمان من بنيانه | ما قومه ما يومه ما المصرع
تتخلف الآثار عن أصحابها | حيناً ويدركها الفناء فتتبع
برّد حشاي إن استطعت بلفظة | فلقد تضر إذا تشاء وتنفع
يا من يبدل كل يوم حلة | أنى رضيت بحلة لا تنزع
ما زلت تخلعها على من شاءها | حتى لبست اليوم ما لا تخلع
ما زلت تدفع كل أمر فادح | حتى أتى الأمر الذي لا يدفع
فظللت تنظر لا رماحك شرع | فيما عراك ولا سيوفك قطع
وصلت إليك يد سواء عندها | بازي الأشيهب والغراب الأبقع
ال
قد كان أسرع فارس في طعنة | فرساً ولكن المنية أسرع
لا قلبت أيدي الفوارس بعده | رمحاً ولا حملت جواداً أربع

وانظر إلى هذه النفس الحيرى التي يتنازعاها الحزن فتريد البكاء ، فيردعه الصبر والتجمل ، وتظل تتحسر بسبب ما ترى من صفو الجاهل والغافل وإصابة أصحاب المروءات بالبلايا ، ولكنه يتسرى بأن الحال لا يدوم ، فالذي بنى الأهرام ولى وما يذكره أحد ، ويتحسر الشاعر على هذا الكريم الذي مات وأسرعت إليه يد المنايا ، ثم يختم بدعاء أن تصيب يد الفوارس جميعا وأرجلهم الشلل ، وهذا ناتج عن الحسرة التي ملأت عليه جوانحه .

٤-المدح .

ومن أجمل ما قيل في المدح قَوْلُ امريء القَيْسِ:

وتَعْـرفُ فِيـهِ مِـنَ أبيـهِ شَـمَائلاً ... ومِنْ خَالِـهِ ومِـنَ يَزِيـدَ ومـنْ حُجُـرْ

سَـمَاحةَ ذَا، وَبِـرَّ ذَا، وَوَفَـاء ذَا ... ونَائـلَ ذَا؛ إِذا صَحَا وَإِذا سَكِرْ

فالبيتين يقطران شُهدا من المعاني ، وليس هناك من مدح إلا ويسترفدهما .

وراجع مثل ذلك في قول القائل :

يَـا أَيُهَـا المُتَمنِّـي أَن تَكـونَ فَتـىً ... مِثلَ ابنِ زَيدٍ لَقَـدْ خَـلَّى لـكَ السُّبُلا

أَعْدُدْ نَظَائِرَ أخـلاقٍ عُـدِدْنَ لَـهُ ... هَلْ سَبَّ من أحدٍ أَو سُبَّ أَو بَخِلاَ

وقولِ الآخر:

يَا مَن يؤَمِّـل أنْ تكـونَ خِصَـالُهُ ... كخِصَالِ عبد الله: أنصِتْ واسْمَعِ

فَلَا نَصَحْتُكَ فِي المَشُورةِ وَالَّـذِي ... حَـجَّ الحَجِـيجُ إِلَيْـهِ فاقْبَـلْ أودَعِ

اصدُقْ وعِفَّ وبرَّوا صْبِرِ واحتَمِلْ ... واحلمْ وكُفَّ ودَارِ واسْمحْ واشْجَعِ

وقول المتنبي :

أرى كل ذي ملك إليك مصيره ... كأنـك بحـر والملـوك جـداول

إذا مطرت منهم ومنك سحائب ... فـوابلهم طـلّ وطلـك وابـل

٥- الفخر :

ومن أجمل ما قيل فيه قول الفرزدق:

ترى الناس ما سرنا يسيرون خلفنا ... وإن نحـن أومأنـا إلى النـاس وقّفـوا

وقول جرير:

إذا غضبت عليك بنو تميم ... رأيت الناس كلهم غضابا (١)

ولآخر في الفخر بكثرة العدد:

---

١ - ذكر عوانة بن الحكم: أن عبد الملك بن مروان صنع طعاماً، فأكثر، وأطاب ودعا الناس، فأكلوا، فقال بعضهم: ما أطيب هذا الطعام وما أكثره، وما أظن أحداً أكل أطيب منه. فقال أعرابي من ناحية القوم: أما أكثر، فلا! وأما أطيب فقد أكلت أطيب منه. فطفقوا يضحكون، فأشار إليه عبد الملك، فدنا منه، فقال: ما أنت لما تقول بحقيق. قال: بلى، يا أمير المؤمنين؛ بينا أنا بهجر في ترابٍ أحمر في أقصاها حجراً إذ توفي أبي وترك كلا وعيالاً ونساء ونخلاً، وفي النخل نخلةٌ لم ير الناظرون مثلها، كأخفاف الرباع ولم ير تمرٌ قط أغلظ لحماً ولا أصغر نوىً، ولا أحلى حلاوةً منها. وكانت أتانٌ وحشيةٌ قد ألفت تلك النخلة، فتثبت برجليها، وترفع يديها وتعطو بفيها، وكادت تنفذ ما فيها، فانطلقت بقوسي وكنانتي وأسهمي وزندي، وأنا أظنني أرجع من ساعتي، فمكثت يوماً وليلة، حتى إذا كان السحر، أقبلت فرميتها فأصبتها، ثم عمدت إلى سرتها، فأبرزتها، ثم عمدت إلى حطبٍ جزلٍ فجمعته، وإلى رضفٍ فوضعته، وإلى زندي فأوريته، ثم ألقيت سرتها في ذلك الحطب ثم أدركني النوم فنمت، فلم يوقظني إلا حر الشمس، فانطلقت فكشفتها وألقيت عليها من رطب تلك النخلة من مجزعه ومنقطه فسمعت لها أطيطاً كتداعي قطاً وغطيطا، ثم أقبلت أتناول الشحمة واللحمة والتمرة، فقال عبد الملك: لقد أكلت طيباً، فمن أنت؟ قال: أنا رجل جانبتني صأصأة اليمن، وعنعنة تميم وأسد، وكشكشة ربيعة، وتأنيث كنانة.

العنعنة: إبدال العين من الهمزة في مثل قول ذي الرمة: البسيط

أَعِنْ تَوَسّمت من خَرقاءَ منزلَةً، ... ماءُ الصّبابةِ مِنْ عَينَيك مَسْجُومُ

والكشكشة: إبدال الشين المعجمة من الكاف نحو: عليش وبش في موضع عليك وبك.

قال عبد الملك: فمن أنت؟ قال: أنا رجلٌ من أخوالك بني عذرة، قال عبد الملك: أولئك من أفصح العرب، فهل لك من معرفةٍ بالشعر؟ قال: سل عما بدا لك يا أمير المؤمنين، قال: أي بيتٍ قالت العرب أمدح؟ قال: قول الشاعر: الوافر

أَلَسْتُمْ خَيْرَ مَنْ رَكِبَ المَطايا، ... وَأَنْدَى العالَمِيْنَ بطونَ راحِ؟

قال: وكان جرير في القوم، فتحرك ورفع رأسه. قال عبد الملك: فأي بيتٍ قالت العرب أفخر؟ قال قوله: الوافر

إذا غضِبْتْ عليْكَ بَنو تَميمِ ... وَجَدْتَ النّاسَ كلَّهُمُ غِضَابَا

فتحرك جرير وتطاول. ثم قال عبد الملك: فأي بيتٍ قالت العرب أهجى؟ قال قوله: الوافر

فَغُضَّ الطَّرْفَ إنَّكَ مِنْ نُميرٍ ... فلا كَعباً بَلَغْتَ وَلاَ كِلاَبَا

فتحرك جرير. قال عبد الملك: فأي بيتٍ قالت العرب أحسن تشبيهاً؟ قال قوله: الطويل

سَرَى لَهُمُ لَيلٌ كأَنَّ نجُومَهُ ... قَناديلُ فيهنّ الذُّبالُ المُفَتَّلُ

قال: فقال جرير: أصلح الله شأن أمير المؤمنين، جائزتي لأخي عذرة؛ قال عبد الملك: ومثلها معها. قال: وكانت جائزة جرير عند الخلفاء

أَلَسْتُمْ خَيْرَ مَنْ رَكِبَ المَطايا، ... وَأَنْدَى العالَمِيْنَ بطونَ راحِ؟

قال: وكان جرير في القوم، فتحرك ورفع رأسه. قال عبد الملك: فأي بيتٍ قالت العرب أفخر؟ قال قوله: الوافر

إذا غضِبْتْ عليْكَ بَنو تَميمِ ... وَجَدْتَ النّاسَ كلَّهُمُ غِضَابَا

فتحرك جرير وتطاول. ثم قال عبد الملك: فأي بيتٍ قالت العرب أهجى؟ قال قوله: الوافر

فَغُضَّ الطَّرْفَ إنَّكَ مِنْ نُميرٍ ... فلا كَعباً بَلَغْتَ وَلاَ كِلاَبَا

فتحرك جرير. قال عبد الملك: فأي بيتٍ قالت العرب أحسن تشبيهاً؟ قال قوله: الطويل

سَرَى لَهُمُ لَيلٌ كأَنَّ نجُومَهُ ... قَناديلُ فيهنّ الذُّبالُ المُفَتَّلُ

قال: فقال جرير: أصلح الله شأن أمير المؤمنين، جائزتي لأخي عذرة؛ قال عبد الملك: ومثلها معها. قال: وكانت جائزة جرير عند الخلفاء

أربعة آلافٍ وما يتبعها من كسوةٍ. فخرج الأعرابي وفي يده اليمنى ثمانية آلافٍ وفي يده اليسرى رزمة ثياب.

ما تطلع الشمس إلّا عند أوّلنا ولا تغيّب إلّا عند آخرنا

ولو حاولت استقصاء أغراض الخبر ، حاولت المستحيل ، لأن لكل سياق كلاما ، ولكل كلام غرض بلاغي ، فالأغراض لا تنقضي ، بل إنك قد تقول الخبر وتقصد معنى آخر غير معناه ، ولذلك قيل : يكون اللفظ خبرا والمعنى دعاء وطلب، نحو: إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ، معناه فأعنا على عبادتك. ويقول القائل: أستغفر الله، والمعنى «اللهم اغفر" وقد أورد ابن فارس من المعاني التي يحتملها لفظ الخبر أحد عشر معنى، ولعل ذلك على سبيل التمثيل ، أو أنها أهم المعاني ، ويكثر دورانها ، لكن الحصر غير معقول.

أضرب الخبر

يقصد بأضرب الخبر توكيده وعدم توكيده ، فالمخاطب يختلف نوعه من حيث خلو ذهنه مما يقصده الخبر ، أو علمه به ،فلو كان المخاطب خالي الذهن استغنى المتكلم عن المؤكدات، لأن الخبر سيتمكن منه دون مساعدة ،على حد **قول الشاعر**:

أَتَانِي هَوَاهَا قَبْلَ أَنْ أَعْرِفَ الْهَوَى فَصَادَفَ قَلبي خَالِيًا فَتَمَكَّنَا (١)

فالمحل الخالي إذا دخله شيء تمكن منه ، أما المخاطب المتردد في مقصود الخبر ، فإنه يحسن التوكيد له بمؤكد مناسب ، فالنفس المترددة لا يزول ما بها إلا بشيء من التوثيق .

١ - اختلفت المصادرُ النّاقلة له في تحديد قائله، حيث ورد عند الجاحظ منسوبًا إلى مجنون ليلى ، وعند ابن قتيبة نسب إلى عمر بن أبي ربيعة ، كذا نسب إلى يزيد بن الطثرية .

أما المخاطب المنكر فإن الأمـر معـه يسـتلزم إزالـة مـا علـق في نفسـه بالمؤكدات المتتابعة ، لأن مقصود الخبر ووظيفته تثبيت المعنى في هذه الـنفس المنكرة له لذلك يضع المتكلم من المؤكدات ما يضمن ثبوت المعنـى في نفسـه بعد إزالة هذه العوالق المنكرة ، فيؤتى له بمؤكدين أو ثلاثة ، أو أكثر بحسب حالته .

ويسمى النوع الأول: الخبر الابتدائي ، لأننا نبتدأ به المعنى في النفس .

ويسمى الثاني:الخبر الطلبي ، لأن صاحبه يسأل ويتشكك في صحة الخبر .

ويسمى الثالث : الخبر الإنكاري ، لأن صاحبه ينكر الخبر من أصله .

ومن أشهر الشواهد التي توضح حالة الإنكار آيات سورة يـس ، **قـال تعالى**:

﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ ﴿١٣﴾ إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ﴿١٤﴾ قَالُوا مَا أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَا أَنزَلَ الرَّحْمَٰنُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴿١٥﴾ قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴿١٦﴾﴾

[سورة يس:١٣-١٦]

فأصحاب القرية من البداية منكـرون للرسـل وللرسـالة ، لأنـه حـين أرسل إليهم الرسولين كذبوهما ، لأنهم بشر مثلهم ، وفي زعمهـم أن الرسـل لاتكون بشرا ، وعلى هذا الزعم فالرسل كاذبون ، لـذلك قـالوا : (مـا أنـزل الرحمن من شيء إن أنتم إلا تكذبون) فكان الرد عليهم بهذا الحشد الهائل من المؤكدات {رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ} حيث اجتمع (القَسَم ، وإن ،

وتقديم الجار والمجرور ، والـلام المؤكـدة ، واسـمية الجملـة)، خمسـة مؤكدات على جملة (نحن مرسـلون) لأن هنـاك عنـادا ، وصـلفا ، ورفضـا للاستماع للحجج ، حتى أنهم لم يتبينوا الأمـر ، ولم ينظـروا في الرسـالة ، بـل نظروا إلى الرسل ، وبنوا هذا العناد على جزئية عجيبة (أنهم بشر) هكذا فقط . يقول أستاذنا أبوموسـى : (وهكـذا عقليـة الجاهليـة في كـل زمـان تعتقـد مسلمات، وتحـاول ترسـيخها في عقـول الجماعـات مـن غـير أن تـأذن لنـور البصيرة، والحجة بمناقشتها وتمحيصـها، ثـم تجعـل هـذه المسـلمات أسـاس حوارها في بث الجاهلية، وتضليل الجماعات، ثم تأمل كيف جـرى التنـاقض على ألسنتهم من حيث لا يشعرون؟ فهم يقولـون: {وَمَـا أَنْـزَلَ الـرَّحْمَنُ مِـنْ شَيْءٍ} ، فذكورا أن الله لم ينزل شيئا بهذا العموم وهذا الإطلاق، ثم ذكـروا ذا الجلال بصفة الرحمة وهي صفة تقتضي إرسـال الرسـل علـيهم السـلام؛ لأن رسالتهم رحمة، فكيف يمسـك الـرحمن عـن هدايـة خلقـه، ثـم تأمـل كيـف يتركـون بقيـة الخـبر، ويهـاجمون شـخص المخـبر؟ ويقولـون: {إِنْ أَنْـتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ} ، وكم يشيع الجبابرة، والطغاة قالة السوء عن دعاة الخـير والحـق؟ ثم تأمل الجانب الآخر في الحوار تجد دعاة الحق لم يتأثروا بتلـك الانحرافـات في أسلوب تعاملهم مع الجاهلية الرافضـة لعـدل الله في الأرض، وإنـما ظلـوا محافظين على طريق الصـواب، فكـرروا القضـية التـي هـي أسـاس الحـوار، وواجهوهم بما يهربون منه، فقالوا في تصميم وإيمان: {رَبُّنَـا يَعْلَـمُ إِنَّـا إِلَـيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ} .

أقول: إن هذا ومثله مما يجب على دارس بلاغة القرآن، وآداب اللغة أن يطيل النظر فيه، وما أعظم هذا المثل وما أروع دلالته على ما نحن فيه، راجع وتأمل، وانظر حولك، واقرأ الواقع الحي كما تقرأ الكتاب) (١).

وتوكيد الخبر، أو عدم توكيده يعود إلى حالة النفس المخاطبة ، هل تخلو من الخبر؟ ، أم تشك ؟ أم تنكر ؟ والبليغ يضع من المؤكدات ما يناسب كل حالة مثل الطبيب الذي يصف لكل داء ما يناسبه من الدواء بعد أن يتعرف على طبيعة المرض وحجمه ، ولذلك جاء في سورة النجم مجموعة من الآيات تنوع فيها التوكيد كثرة وقلة ، بل وتركا بحسب حالة النفس البشرية المخاطبة ، **يقول الله تعالى** :

﴿ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضۡحَكَ وَأَبۡكَىٰ ﴿٤٣﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحۡيَا ﴿٤٤﴾ وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوۡجَيۡنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰ ﴿٤٥﴾ مِن نُّطۡفَةٍ إِذَا تُمۡنَىٰ ﴿٤٦﴾ وَأَنَّ عَلَيۡهِ ٱلنَّشۡأَةَ ٱلۡأُخۡرَىٰ ﴿٤٧﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَغۡنَىٰ وَأَقۡنَىٰ ﴿٤٨﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعۡرَىٰ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّهُۥٓ أَهۡلَكَ عَادًا ٱلۡأُولَىٰ ﴿٥٠﴾ ﴾ [سورة النجم:٤٣-٥٠]

وراجع هذه البدايات ، فتارة يقول (وأنه هو) وتارة يقول (وأنه) وثالثة يقول (وأنّ) مما يعني أن كل جملة موجهة إلى نفس لها مع هذا المعنى حال ولو تلفت حولك لوجدت أكثر الخلق يعتقد أن الإسعاد والإشقاء بيد الناس مما جعل التوكيد وكثرته هنا ملحا لنزع هذا الاعتقاد فقيل (وأنه هو) لمواجهة هذه المعتقدات الخاطئة ، وكذا الحال في الإحياء والإماتة المقصود بهما الشقاء والسعادة و لأنه لا يدعي أحد أنه يميت ويحيي بالمعنى الحقيقي ،

١ - خصائص التراكيب ص ٢٣١ .

أو أنه يحيي بعد أن يميت ، لأن الإحياء بعد الإماتة مما ينكره الكافرون فأكد أيضا بـ (أنه هو) وفي الإغناء والفقر جاء أيضا بـ (أنه هو) لأن ظواهر الدنيا توضح أن المال في يد الناس يعطون أو يمنعون ، مما يستدعي الإبلاغ في التوكيد لاقتلاع هذا المعتقد ثم جاء أيضا التوكيد المبالغ فيه في شأن ربوبيته لنجم (الشعرى) وهو نجم كانت تعبده قبيلة خزاعة فجاء التوكيد بـ (أنه هو) لمواجهة هذا المعتقد وإبطاله.

أما خلق الزوجين الذكر والأنثى، و إهلاك عاد وثمود وقوم نوح، فكل ذلك لم يدعيه أحد لذلك خلا من كثرة المؤكدات. فالتوكيد متصل بالنفس وأحوالها ، وكلما كان الأمر عالقا بها بدرجةٍ ما كان التوكيد مناسبا لهذه الدرجة فالبلاغة العربية حديث إلى النفس ، وتعبير عن النفس ، ولا أتحرج حين أقول إن دارس البلاغة العربية في مسيس الحاجة إلى دراسة علم النفس ، فأحوال النفوس هي الصورة الحقيقية لأحوال الكلام ، وما جعل الكلام إلا تعبيرا عن هذه النفس ،فدراستها هي في الحقيقة دراسة للأسباب والمقتضيات التي جعلت الكلام يأتي على ما جاء عليه .

وقد كان جواب المبرد للفيلسوف الكندي قائما على مراعاة حال النفس لأنها إما أن تنكر الخبر ، أو تتردد فيه ، أو تخلو منه . (حكى الإمام عبد القادر الجرجانيّ قال: «ركب الكنديّ المتفلسف إلى أبي العبّاس وقال له: إني أجد في كلام العرب حشوا- فقال له أبو العباس في أي موضع؟

- قال: وجدت العرب تقول عبد الله قائم ثم يقولون إن عبد الله قـائم ثم يقولون إن عبد الله لقائم فالألفاظ متكررة والمعنى واحـد- **فقـال لـه أبـو العباس:**

لا، بل المعاني مختلفة لاختلاف الألفاظ، فقولهم عبد الله قائم إخبار عن قيامه، وقولهم إن عبد الله قائم جواب عن سؤال سـائل، وقـولهم إن عبـد الله لقائم جواب على إنكار منكر قيامه، فما أحار المتفلسف جوابا)[1].

وما سبق كله من حديث عن الحـذف والتكـرار ، والتقـديم والتـأخير والتعريف والتنكير ،هو مقتضى الظاهر من أحوال المسند إليه بحسب الغالب وقد يخرج المسند إليه على خلافه فيوضع المضمر موضـع المظهـر ليـتمكن في ذهن السامع ،لأن الله تعالى جبل النفوس على حب معرفة المبهمات .

الحقيقة العقلية والمجاز العقلي

المبحث الثالث من مباحث أحوال الإسناد الخـبري : الحقيقـة العقليـة والمجاز العقلي ، لأن الإسناد منه ما هو حقيقة ، مثل قولك : أنبت الله البقـل وشفى الله المريض ، وبنى العمال القصر ، حيـث أسـند كـل فعـل إلى فاعلـه الحقيقي ومنه ما هو مجاز **مثل قوله تعالى** :

﴿وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ﴿٢﴾﴾ [سورة الزلزلة:٢]

فالأرض لا تخرج ، إنما يخرج القادر سبحانه منهـا، أو يخـرج الإنسـان منها **ومثل قوله تعالى** :

﴿ وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ ... ﴾ [سورة الأعراف:١٥٤]

---

١ - صبح الأعشى ١ظ/ ٢٢٣ .

ويعرف الخطيب الحقيقة العقلية فيقول :

(إسناد الفعل أو معناه إلى ما هو له عند المتكلم في الظاهر) (١)

❖ **الإسـناد :**

يعني الضم فهو ضم المسند إلى المسند إليه لإفادة معنى تام ، وهذا الإسناد حدث بقصد من المتكلم ، وراجع إلى تصرفه وإرادته ، ولذلك إن جاء على الحقيقة سمي حقيقة عقلية ، من أجل هذا التصرف وتلك الإرادة ، وإن جاء على خلاف الحقيقة سمي مجاز عقلي ، لأنه لا دخل للغة في هذا التجوز ، بل هو فعل المتكلم وتصرفه في العبارة ، **والإسناد الحقيقي يعني** : إسناد الفعل إلى من يقوم به حقيقة ، مثل "ضرب زيد" فقد أسندت الضرب إلى الفاعل الحقيقي ، وقام محمد ، وقعد علي ، ورفع خالد الكتاب ... فكل ذلك إسناد حقيقي ، لأن الفعل المبني للفاعل من حقه أن يسند إلى فاعله الحقيقي ، والمبني للمجهول من حقه أن يسند إلى نائب فاعل .

والأفعال تنقسم إلى عدة أقسام :

١- أفعال لا تنسب إلا إلى رب العالمين ، مثل : (خلق ، ورزق ، وأحيا وأمات) ولا يصح إسنادها إلى غيره سبحانه ، فإن أسندت إلى غيره كانت مجازا .

---

١ - بخلاف "نهاره صائم" فإن الصوم ليس ثابتًا للنهار بل للشخص، فلذا كان الإسناد فيه مجازًا، لكونه لغير من هو له. ولا يدخل هنا المبتدأ عند المصنف، نحو إنما هي إقبال؛ لأن الإسناد إليه عنده وساطة بين الحقيقة والمجاز، أما عند عبد القاهر والسكاكي.

٢- أفعال تنسب إلى العباد مثل (أكل وشرب وقام وقعد) ولا يصح إسنادها إلى غير الثقلين فإن أسندت إلى غيرهم من المخلوقات كانت مجازا .

٣-أفعال يجوز إسنادها إلى الله تعالى ، وإلى غيره حقيقة ، مثل : (أضحك وأبكى) فهذه أفعال تسند حقيقة إلى الله تعالى ، وإلى المخلوقين ، فالفاعل في الإسناد الحقيقي هو مَن وقع منه الفعل حقيقة، أو حكمًا، أو اتصف به ولقد تحرج كثير من أهل العلم عند دراسة المجاز العقلي ، وبخاصة عند التعرض لأفعال الله تعالى ، **يقول الشيخ أبو موسى** : (ولما كانت مسألة خلق الأفعال من المسائل التي شغلت المسلمين نبه أهل هذه الصناعة إلى أننا، وإن كنا نعتقد معتقد أهل السنة، وأن الأفعال كلها عند التحليل الباحث عن مصدرها، مخلوقة لله إلا أننا نقول: إن زيدا هو الفاعل الحقيقي في قولنا (رمي زيد)؛ لأن الرمي معنى قائم بزيد، ووصف له وله فيه كسب وتحصيل، وهذا يكفي ليكون الإسناد حقيقيًّا، فقولنا: إن خالق الأفعال كلها هو الله، وأنه سبحانه هو الفاعل الحقيقي لكل شيء لا يعني أن تكون كل الصور التي تستند فيها الأفعال لغيره سبحانه صورا مجازية، وهذا لو قلناه لكان ضربا من الهذيان، ولقادنا إلى كبيرة حين نسند أفعال القيام، والقعود والأكل والشرب وغيرهما مما يتنزه عنه جلاله.

وقد نبه العلامة ابن السبكي إلى أننا نقول: فاعل حقيقي ولا نريد به أنه هو الذي أثر وفعل حقيقة، وإنما نريد ما تعارف عليه القوم في أوضاعهم اللغوية، فإنهم لم يلاحظوا في قيام زيد غير نسبة القيام إليه، "وإن كان الله تعالى خالقه، ومن الأفعال التي خلقها الله ما لا يصح شرعًا أن تنسب إليه سبحانه كالأفعال المحرمة، وحاصل وجوه الإسناد الذي يوصف بأنه حقيقي تتلخص في إسناد الفعل لمن يقع منه الفعل الحقيقي، ويؤثر في وجوده، وذلك لا يكون إلا لفاعل واحد هو الله، وأفعاله مثل : (خلق و زرق) وفي إسناد الفعل لمن يقع منه حكما مثل قام زيد، وفي إسناد الفعل إلى ما يتصف به مثل مرض زيد، وبرد الماء، وأمطرت السماء".)[1] ومادام القائل يعتقد ظاهر الأمر فالإسناد حقيقي أما إذا كان لا يعتقد ظاهر الأمر فالإسناد مجازي .

فحين تقول (ليله قائم) فأنت أسندت القيام إلى الليل ، ولا تعتقد هذا بل تعتقد أن الذي قام هو زيد ،وليس الليل ، لذلك سمي الإسناد إسنادا مجازيا فالحقيقة حكمها عند المتكلم موافقة لحكمها عند المخاطب ، والقرائن هي التي ترشدنا إلى اعتقاده لما يقول أو عدم اعتقاده ، ونعود بعد ذلك إلى باقي تعريف الخطيب حيث قال إسناد الفعل أو معناه ، **فقوله** .

- **أو معناه** : يعني كل ما فيه دلالة الحدث مثل : اسم الفاعل، واسم المفعول واسم الزمان، واسم المكان واسم التفضيل .

١ - خصائص التراكيب ص ١٠٢.

- **إلى ما هو له** : أي إلى الفاعل الذي قام به حقيقة ، مثل :(نجح خالد وحضر محمود) لأن النجاح والحضور مسندان حقيقة إلى خالد ومحمود .
- **عند المتكلم في الظاهر**: فلا اعتبار لما عند غيره ، إنما العبرة لما يعتقده المتكلم ، ويتضح ذلك من أحواله ، فإذا قال الملحد : (شفى الطبيب المريض) ، فكلامه على الحقيقة ، لأنه يعتقد ذلك ، لكن المسلم إذا قال العبارة نفسها فكلامه مجاز ، لأن عقيدته أن الشفاء بيد الله تعالى والطبيب سبب في الشفاء ، فالفعل أسند إلى سببه ، وليس إلى فاعله الحقيقي .

ولذلك قال السكاكي في معنى الحقيقة العقلية :(الكلام المفاد به ما عند المتكلم من الحكم فيه) .

وقال الإمام عبد القاهر حين تحدث عن الحقيقة قال : " كل جملة وضعتها على أن الحكم المفاد به على ما هو عليه في العقل وواقع موقعه فهي حقيقة .(١)

وهذه التعريفات (تعريف السكاكي ، وتعريف الخطيب ، وتعريف عبد القاهر) تتناولن أربعة أقسام:

١- ما يطابق الواقع والاعتقاد ، كقولك (القرآن الكريم كلام الله تعالى).

١ - مفتاح العلوم ص ٣٩٩.

٢- وما لا يطابق شيئًا منهما. كقول رجل يعلم أنه يكذب:(الكعبة بمصر).

٣- وما طابق الواقع دون الاعتقاد ، كقول ابن سلول : (الرسول حق).

٤- وما طابق الاعتقاد دون الواقع ، كقول المشرك : (الله لا إله إلاهو).

المجاز العقلي([١])

غاية هذا العنوان أن يتعرف القارئ إلى هذا النوع من الأساليب ، وأن يدرك علاقاته ، واكتساب مهارة استعماله عند إنشاء كلام بليغ ، والمجاز العقلي عند الخطيب هو : (إسناد الفعل أو ما في معناه إلى ملابس [٢] له غير ما هو له بتأول) فإذا كانت الحقيقة العقلية هي إسناد الفعل إلى ماهو له ، فإن المجاز العقلي هو إسناد الفعل إلى ملابس له ، ويقصد (بالملابس له) اسم الفاعل واسم المفعول ، وظرف الزمان والمكان ، والمصدر، والسبب ، فكل هذه ملابسات للفعل ، ولا بد في المجاز من قرينة صارفة عن أن يكون الإسناد إلى ما هو له .

---

١ - يطلق على المجاز هذا اللفظ لأنه من جاز ، أي تخطى المكان وتعداه ؛ فالإسناد تعدى مكانه الأصلى..وسمى عقلي نسبة للعقل؛ لأن التجوز والتصرف فيه يدرك بالعقل وهو الإسناد، بخلاف المجاز اللغوي فإن التصرف فيه في أمر نقلي، وهو أن اللفظ لم يوضع لهذا المعنى. ويسمى المجازًا حكميًّا أي منسوبًا للحكم بمعنى الإدراك، أو أنه نسبة للحكم بمعنى النسبة والإسناد لتعلقه بها.ويسمى أيضًا مجازًا في الإثبات لحصوله في إثبات أحد الطرفين للآخر، ، فالمجاز العقلي كما يكون في الإسناد المثبت يكون في المنفي أيضا .

٢ - أي المتعلق ، وهو الشيء الذي بينه وبين الفعل تعلق وصلة ، فكل فعل له فاعل وله مفعول ، وله زمان ومكان ومصدر .... إلخ.

قرينة المجاز العقلي:

المخاطب – أي مخاطب – حين يسمع الكلام يعرضه أولا على الحقيقة لأنها الأصل في تلقي حديث المتكلم ، والمتكلم يعلم ذلك ، فإذا ألقى الكلام إلى المستمع يريد به الحقيقة ألقاه غفلا من الدلائل الصارفة عن المعنى الحقيقي لكن المتكلم حين يقول الكلام يريد به غير معناه الحقيق وجب عليه أن يضع من العلامات والإشارات والتنبيهات ما ينبه المخاطب إلى أن هذه العبارت مصروفة عما عهده من الحقائق لينتبه ، ويضع الكلام في موضعه الذي يريده صاحبها ، وهذه العلامات هي ما يطلق عليه في البلاغة (القرينة المانعة) أي : القرينة التي تدل على أن الإسناد الظاهر غير مراد ، وحين يغفل المتكلم عن وضع هذه القرينة يتحول الكلام إلى طلسم لا يفك ، ويعاب قائله ، والقرينة نوعان :

النوع الأول: **القرينة اللفظية**:

وهي الألفاظ التي تكون مع المجاز تحدد اتجاهه، وتأخذ المتلقي إلى المراد منه ، حتى لا يزوغ عن المجاز إلى الحقيقة ، **ومن ذلك قول الشاعر في نصيحته لابنه عمرو** :

أشاب الصغير وأفنى الكبير ... كَرُّ الغداة ومر العشي
نروح ونغدو لحاجاتنا ... وحاجة من عاش لا تنقضي
تموت مع المرء حاجاته ... وتبقى له حاجة ما بقي

ألم تــــرَ لقـــمان أوصى ابنــــه وأوصـــيت عمـــرًا ونعــم الـــوصي
فمِلتنـــــا أننــــــا مســــــلمون عــــلى ديــــن صــــديقنا والنبـــــي

فالفعلان (أشاب وأفنى) أسندا إلى (كر الغداة ومر العشي) وهـذان لا يشيبان أحدا ، ولكن ما الدليل على أن هذا الإسناد إسناد مجازي ؟

الدليل مايذكره الشاعر في آخر مقطوعته **حيث يقول** :

فمِلتنـــــا أننــــــا مســــــلمون عــــلى ديــــن صــــديقنا والنبـــــي

ومن القرينة اللفظية أيضا قول أبو النجم:

قــد أصـبحت أم الخيـار تـدعي عــــلي ذنبًـــا ، كلـــه لم أصـــنع
من أن رأت رأسي كرأس الأصلع ميـــز عــــن قنزعًـــا عــــن قنـــزع
جذب الليالي أبطئي أو أسرعي

حيث أسند الفعل (ميّز) إلى (جذب الليـالي) ، أي تواليهـا ، واتبـاع بعضها بعضا ، والمعروف أن توالي الليالي لـيس الفاعـل الحقيقـي ، والشـاعر يعرف ذلك ، وقد أثبت في مقطوعته ما يؤكد أن جذب الليالي لـيس الفاعـل الحقيقي **فقال** :

أفناه قيـل الله للشـمس اطلعـي حتـــى إذا واراك أفـــق فـــارجعي

وهذا يثبت أن الذي فعل هذا هو قضاء الله تعالى وتصرفه في خلقه .

النوع الثاني:القرينة المعنوية:

وهي كل إسناد غير حقيقي يدرك المخاطب أنـه لا يـراد بـه ظـاهره ، ويعرف **هذا من خلال أمور ثلاثة** :

الأول : الاستحالة عقلا ، فلو أنك قلت لواحد من الناس : أرغمني على ذلك حبك ، ودفعنى عن ذلك عطفك ، وما أحضرني إلا محبتك ، أوكما قال الشاعر :

وصيرني هواك وبي لحيني يضرب المثل

أي أن هواك جعلني مثلا يُضرب في الهلاك، لو أنك قلت كل هذا للمستمع لعلم يقينا أنك تقول كلاما على المجاز وليس على الحقيقة .

الثاني : الاستحالة عادة : كما تقول هزم الأمير العدو ، وبنى فلان بيته ، ورصف المسؤل الطريق ... فهذا ومثله مما يعلم عادة أنه مصروف عن ظاهرة عادة وعرفا .

الثالث : الاستحالة اعتقادا ، وذلك حين يصدر ممن تعتقد أنه لا يريد الظاهر وحين تسمع قول النبي ﷺ (إن مما ينبت الربيع ما يقتل حبَطًا أو يلم)[1] تعلم أنه لا ينسب الإنبات إلى الربيع ، فالإسناد مجازي ، والذي دل عليه هو عقيدتك ودينك .

بين المجاز اللغوي والمجاز العقلي

التصرف إما أن يكون في اللغة ، وإما أن يكون في الإسناد ، ومعنى التصرف في اللغة : استعمال اللفظ في غير ما وضع له ، لكن التصرف في الإسناد يعني إسناد الفعل إلى غير ما ينبغي أن يسند إليه ، فحين تطلق لفظ الأسد وتريد الرجل الشجاع ، أو تذكر لفظ الغيث وتريد الرجل الكريم ، أو

١ - في صحيح البخاري من حديث أبي سعيد الخدري رقم ١٤٦٥.

تسمع كلمة الصراط وهي مستعملة في معنى الدين فهذا كله يخبرك أنك في شأن المجاز اللغوي ، لأنك اطلقت اللفظ وأردت لفظا آخر ، لكن المجاز العقلي شيء آخر لأنه مجاز في الإسناد ، فالطرفان (المسند والمسند إليه) مستعملان في حقيقتهما وانظر مثلا إلى قولهم : أنبت الربيع الورد ، تجد الإنبات مستعملا في حقيقته والربيع والورد كذلك كل منهما مستعمل في حقيقته ، لكن إسناد الإنبات إلى الربيع ، - والربيع جزء من الزمان - هو التجوز ، وهو عمل المتكلم وقصده ولذلك سمي المجاز العقلي ، يقول عبد القاهر : (واعلم أن المجاز على ضربين؛ مجاز من طريق اللغة ومجاز من طريق المعقول، فإذا وصفنا بالمجاز كلمة مفردة كقولنا: اليد مجاز في النعمة، والأسد مجاز في الإنسان، كان حكمًا أجريناه على ما جرى عليه من طريق اللغة، ومتى وصفنا بالمجاز الجملة من الكلام كان مجازًا من طريق المعقول دون اللغة؛ لأن الأوصاف الراجعة إلى الجمل من حيث هي جمل لا يصح ردُّها إلى اللغة؛ لأن التأليف هو إسناد فعل إلى اسم أو اسم إلى اسم، وذلك شيء يحصل بقصد المتكلم فلا يصير "ضَرَبَ" خبرًا عن زيد بوضع اللغة، بل بمن قصد إثباتَ الضربِ فعلًا له. والذي يعود إلى واضع اللغة أن ضرب لإثبات الضرب وليس لإثبات الخروج، وأنه لإثباته في زمان ماضٍ وليس لإثباته في زمان مستقبل، فأما تعيين مَن يثبت له فيتعلق بمن أراد ذلك من المخبرين والمعبرين عن ودائع الصدور، فإذا قلنا مثلًا: (خط أحسن مما وشاه الربيع أو صنعه الربيع) ، كنا قد ادعينا في ظاهر اللفظ أن للربيع فعلًا أو صنعًا وأنه شارك

الحي القادر في صحة وقوع الفعل منه، وذلك تجوز به من حيث المعقول لا من حيث اللغة؛ لأنه إن قلنا: إنه مجاز من حيث اللغة صرنا كأنا نقول : إن اللغة هي التي أوجبت أن يقتص الفعل بالحي القادر دون الجماد وذلك محال)[1]، والمجاز العقلي يكون في الخبر ويكون في الإنشاء أيضا ، وانظر **إلى قوله تعالى** :

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾﴾ [سورة غافر:٣٦]

حيث أسند فعل الأمر إلى هامان ، وهامان لا يبني بنفسه وإنما يأمر العمال بالبناء فأسند إليه الفعل (ابنِ) ؛ لأنه سبب فيه.

والأصل أن يكون لكل مجاز حقيقة ، **فقولك** : صام النهار ، تريد صام المسلم في النهار ، وكذلك الحال في سالت الأباطح ، وجن الجنون ، وجرى النهر ولو عدت بالمثال إلى حقيقته لأذهبت ماءه ، وجففت رواءه ، ونزعت زيته وهدمت بيته ، لأن الجمال كله في اللمحة الجميلة ، واللفتة الأصيلة ، وهذا شاخص في المجاز غالبا ، لكن هناك نماذج من المجاز تكد الذهن ، وتتعب الفكر إذا بحث لها عن حقائق،لأن النظر لم يعتد عليها إلا وهي في ثوب المجاز **وراجع مثلا قول أبي نواس** :

يزيدك وجهه حسنًا إذا ما زدته نظرًا

أو قول العرب { أقدمني بلدك حق لي على إنسان) هل تستطيع أن تجد فاعلا سوى ما ذكره وهو الحق ؟

---

١ - أسرار البلاغة ص ٤٠٩ .

وظن الخطيب القزويني أن عبد القاهر ينكر أن يكون لكل فعلٍ فاعلٌ حقيقي ، **فرد عليه بقوله** : (واعلم أن الفعل المبني للفاعل للمجاز العقلي واجب أن يكون له فاعل في التقدير إذا أسند إليه صار الإسناد حقيقة، وذلك قد يكون ظاهرًا **كما في قوله تعالى**:

﴿.....فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ ﴿١٦﴾﴾ [سورة البقرة:١٦]

أي: فما ربحوا في تجارتهم، وقد يكون خفيًّا لا يظهر إلا بعد نظر وتأمل كما في قولك: سرتني رؤيتك ؛ أي: سرني الله وقت رؤيتك، وكما في قولك : أقدمني بلدك حق لي على فلان؛ أي: أقدمتني نفسي بلدك لأجل حق لي على فلان؛ أي: قدمت لذلك، ونظيره: محبتك جاءت بي إليك؛ أي: جاءت بي نفسي إليك لمحبتك.)

وهذا بلا شك لم يكن مقصود الإمام عبد القاهر ، بل أراد أن العرف في بعض الشواهد لم يعتد الجملة إلا في ثوب المجاز ، مما يجعل الرجوع بها إلى توب الحقيقة أمرا بالغ الصعوبة .

بين المجاز العقلي والاستعارة المكنية

قد يشتبه المجاز العقلي بالاستعارة المكنية ، من حيث الشكل ، لكن التحقيق يبين أن الاستعارة المكنية قائمة على التشبيه ، والمجاز العقلي قائم على التجوز في الإسناد ، والمرجع في هذا التفريق هو الذوق السليم ، **ففي قول الفرزدق مثلا** :

سقاها خروق في المسامع لم تكن علاطًــا ولا مخبوطــة في الملاغــم

السقيا حقيقة ، والخروق في المسامع أراد به انتشار الذكر ، وذيوع الصيت ولا مجال للتشبيه هنا ، ولم يرد الشاعر هذا التشبيه ، بل أراد أن هذا الذِكر لقومه ونباهة شأنهم وصِيتهم البعيد الذي ملأ الدنيا كان سببًا في تنحى الناس عن موارد الماء حتى شربت هذه الإبل ، **وفي قول شاعر آخر**

وكل امرئ يولي الجميل محبب وكــل مكــان ينبـت العـز طيــب

تجد الشاعر يسند الفعل (ينبت) إلى الضمير العائد على المكان ، واعتبار الاستعارة بعيد جدا ، بل غير متصور ، لأن التشبيه في الكلام غير متصور .

لكنك على الجانب الآخر حين تنظر في أمثلة الاستعارة المكنية تجد التشبيه حاضرا بقوة ، **وانظر إلى قول الهذلي:**

وإذا المنيــة أنشــبت أظفارهــا ألفيــت كــل تميمــة لا تنفــع

فإنك إن تفرست في البيت وجدت المشابهة ظاهرة بين(المنية) و(السبع) الذي نشب أظفاره ، ووجه الشبه أن كلا منهما يقتل النفوس ، فحضور التشبيه يجعلك تذهب بالصورة إلى جهة الاستعارة ، وعليه فلا وجه

لما أراده السكاكي حيث أدخل المجاز العقلي إلى حديقة الاستعارة المكنية ، بحجة تقليل الأقسام(١)، يقول الإمام و ليس بواجب في هذا- أي المجاز الحكمي أو العقلي- أن يكون للفعل فاعل في التقدير إذا أنت نقلت الفعل إليه عدت به إلى الحقيقة، مثل إنك تقول في «ربحت تجارتهم»: ربحوا في تجارتهم .... .

---

١ - وقد رد الخطيب على كلام السكاكي بما لا مزيد عليه فقال : أنكر السكاكي وجود المجاز العقلي في الكلام، وقال: الذي عندي نظمه في سلك الاستعارة بالكناية، بجعل الربيع استعارة بالكناية عن الفاعل الحقيقي١ بواسطة المبالغة في التشبيه على ما عليه مبني الاستعارة كما سيأتي، وجعل نسبة الإنبات إليه قرينة للاستعارة ويجعل الأمير المدبر لأسباب هزيمة العدو استعارة بالكناية عن الجند الهازم وجعل نسبة الهزم إليه قرينة للاستعارة. .... وفيما ذهب إليه "السكاكي" نظر:

١- لأنه يستلزم أن يكون المراد بعيشة في قوله تعالى "فهو في عيشة راضية صاحب العيشة لا العيشة، وبماء في قوله: خلق من ماء دافق فاعل. فاعل الدفق لا المني، لما سيأتي من تفسيره للاستعارة بالكناية.

٢- وأن لا تصح الإضافة في نحو قولهم: فلان نهاره صائم وليله قائم؛ لأن المراد بالنهار على هذا فلان نفسه وإضافة الشيء إلى نفسه لا تصح.

٣- وأن لا يكون الأمر بالإيقاد على الطين في إحدى الآيتين وبالبناء فيهما لهامان، مع أن النداء له.

٤- وأن يتوقف جواز التركيب في نحو قولهم: أنبت الربيع البقل، وسرتني رؤيتك على الإذن الشرعي؛ لأن أسماء الله تعالى توقيفية، وكل ذلك منتف ظاهر الانتفاء.

٥- ثم ما ذكره منقوض بنحو قولهم: "فلان نهاره صائم" فإن الإسناد فيه مجاز، ولا يجوز أن يكون النهار استعارة بالكناية عن فلان؛ لأن ذكر طرفي التشبيه يمنع من حمل الكلام على الاستعارة ويوجب حمله على التشبيه، ولهذا عد نحو قولهم "رأيت بفلان أسدًا، ولقيني منه أسد" تشبيها لا استعارة، كما صرح السكاكي أيضًا بذلك في كتابه.

ويقول الشيخ أبو موسى : (وملخص توجيهه أنه يشبه الفاعل المجازي بالفاعل الحقيقي، ثم يدعي أن المشبه صار هو المشبه به، ثم يطلق لفظ المشبه الادعائي أي الذي ادعى أنه المشبه به على المشبه به، كما هو مذهبه في الاستعارة المكنية، فيقول في قولنا: أنبت الربيع البقل: أن الربيع مشبه بالحي القادر، ثم ادعى أن الربيع قادر مختار، ثم أطلق لفظ المشبه الادعائي أي الربيع الذي ادعى أنه قادر مختار على المشبه به أي الحي القادر، وكذلك يقول في قوله تعالى: {فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ} ، أنه شبه التجارة بالمشترين، ثم ادعى أن التجارة مشبه به، ثم أطلق لفظ المشبه الادعائي على المشبه به، وهكذا تنصرف نظرته عن الإسناد، ولا يرى فيه تجوزًا، وإنما التجوز كان في الفاعل الحقيقي، والذي دفعه إلى ذلك -كما قال- الرغبة في تقليل الأقسام، ولهذه الرغبة أيضا أنكر الاستعارة التبعية.

والرغبة في تقليل الأقسام أمر يحرص عليه كل باحث بشرط ألا يدفعنا ذلك إلى تجاهل الخصوصيات الواضحة التي تتميز بها الطرق المختلفة في أداء المعاني، والأبر بالأساليب أن ننظر في كل صورة بما يلائمها، وكثير من صور المجاز العقلي يطفئها جريانها على طريقة الاستعارة بالكناية، ألا تراك لو قلت في قول الفرزدق، سقاها خروق في المسامع: أنه شبه الخروق بالساقي تكون قد فسرت الشعر على غير مراده، وأجريته على غير طريقته؛ لأن الفرزدق لم يلحظ هذا، وإنما أراد أن يقول: إن ذكر قومه وصيتهم البعيد الذي ملأ الأسماع كان سببا قويا في أن أفسح الناس لهذه الإبل، ولم يتعرض لها أحد، فبالغ في هذه السببية حين صيرها فاعلة الفعل، فجعل الذكر هو الساقي) خصائص التراكيب ص ١٣٠.

علاقات المجاز العقلي

كل ما يصحح التجوز في الإسناد هو علاقة من علاقات المجاز العقلي وقد ذكر العلماء علاقات كثيرة منها : ("السببية ، أو الزمانية ، أو المكانية أو المصدرية ، أو المفعولية ، أو الفاعلية.) فهذه كلها ملابسات للفعل ، وإذا أردت أن تحصر هذا فاعلم أن العلاقات تدور حول واحد من أمرين ، الأول : العلاقة بين الفاعل المجازي والفاعل الحقيقي ، والآخر : العلاقة بين الفعل أو ما في معناه والمسند إليه المجازي، **وإليك هذه العلاقات** :

١-علاقة السببية :

أي إسناد الفعل إلى سببه ، وهي أقوى العلاقات ، لأن العقل يستحضر عند كل فعل سببه ، فإذا أسندت الفعل إلى هذا السبب كأنك عللت له وأمددت النفس سريعا بما تشتاق إليه ، **ومن نماذج ذلك قولهم** : (رصف الوزير الطريق ، وبنى الرئيس المدينة ، وهزم القائد العدو) وهؤلاء جميعا أسباب للفعل ، لكنها أسباب قوية ، بحيث يجوز إسناد الفعل إليها ، لأن رصف الطريق لا يكون بأمر واحد من آحاد الناس ، وكذلك بناء المدينة ، وهزيمة العدو فهذه كلها أفعال تحتاج إلى أوامر من قادة ، وزعماء ، وأناس لهم منزلتهم ، حتى إذا أمروا سارع الجميع بالتنفيذ .

وفي قول الشاعر:

يزيدك وجهه حسنًا إذا ما زدته نظرًا

والوجه سبب في الحسن ، ولا يكون حسن إلا إذا كان الوجه مبدؤه

فهو موضع النظر ، ومحل الجمال الأول ، لذلك كان إسناد الزيادة إليه لها سببها الوجيه ، ولو أسندت الزيادة في الحسن إلى عضو آخر لكانت الجفوة محلى الاستحسان ، فالعلاقة ليست اعتباطا ، ولا يسند العربي الفعل إلى شيء إلا

وهو يعلم مكانته من النفوس ، وقدرته على حمل المعاني . وقل مثل ذلك في جميع العلاقات .**وفي مثال آخر لعلاقة السببية يقول الشاعر :**

فلا تسأليني واسألي عن خليقتي إذا رد عافي القدر من يستعيرها

(فعافي القدر) هو المرق الذي يتبقى فيها ، والمعنى اسألي عني حين تشتد حالة العوز بين الناس ، ويبخل الكرماء بِقِدرهم الذي اعتادوا إعارته بسبب ما فيه من بقايا المرق ، وهذا لايكون إلا عند الحاجة الشديدة .

وفي القرآن الكريم قال الله تعالى:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْاْ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿٣٣﴾ ﴾ [سورة لقمان:٣٣]

والحياة الدنيا سبب الغرور، فلما جعلت فاعلا كان ذلك من قبيل إسناد الفعل إلى سببه ، **ومنه قوله تعالى :**

﴿ فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴿١١٧﴾ ﴾

[سورة طه:١١٧]

أي: فلا يكونن إبليس سببًا لإخراجكما من الجنة،لأن إبليس لن يخرجهما وإنما سيكون سببا في خروجهما .

وعلى شاكلة هذا قوله سبحانه:

﴿ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا ۖ أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾ [سورة يس:٦٢]

فأسند الإضلال إلى الشيطان ، وهو سبب .

وقال سبحانه :

﴿ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴿٧٨﴾ ﴾ [سورة الأعراف:٧٨]

والذي أخذهم هو الله سبحانه ، بدليل أن سيدنا موسى قال بعدها :

﴿ ....قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّايَ ۖ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا ۖ إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَاءُ وَتَهْدِي مَن تَشَاءُ ۖ أَنتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا ۖ وَأَنتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ﴾ [سورة الأعراف:١٥٥]

لكن الصورة التي تنتقل إلى السامع حين يقال : (أخذتهم الرجفة) فيها من الترهيب ، والترعيب ، وبيان شدة هذه الرجفة ما لا مزيد عليه ، لأنك لو قلت : فأخذهم الله ، لاستحضرت النفوس أخذ الجميع ، ومنهم الصالح والطالح ، فكل ميت يحق عليه قول أخذه الله ، وهذا لايصور لك فعل الرجفة ولا قوتها ، ولا سطوتها أثناء الأخذ .

وتقول العرب : أقلقتني بنات الليل ، وأرهقتني بنات الدهر ، وهم يريدون الهموم ، والمصائب، ولا شك أنها أسباب للقلق والإرهاق ، وكم في زماننا من بنات الليل وبنات الدهر **!! وراجع وحدك هذه النماذج:**

(جمعتهم الطاعة) ،(فرقتهم المعصية)(أذل الحرص أعناق الرجال)

وانظر إلى قول أبي الطيب في مدح كافور حيث يقول :

أبا المسك أرجو منك نصرا على العدا ... وآمل عزا يخضب البيض بالدم

ويوما يغيظ الحاسدين وحالة ... أقيم الشقا فيها مقام التنعم

فالمتنبي قال (عزا يخضب البيض بالدم) فجعل فاعل يخضب الضمير العائد على العز ، والعز لا يخضب السيوف ، ولكن العز سبب القوة الناشئة من كثرة الأبطال الذين يخضبون السيوف بالدم ، فالإسناد علاقته السببية .

وفي سورة الإسراء قال الله تعالى :

﴿ ......وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً ...... ﴾ [سورة الإسراء:٥٩]

وليس المعنى على انه ترى ،بل هي السبب في تبصيرهم الحق ،فكلمة مبصرة رفعت فاعلا يعود على الناقة ، والناقة سبب في إبصار الحق .

٢- علاقة المفعولية :

أي أن الفاعل كان أصله مفعولا لهذا الفعل فتم إسناد الفعل المبني للفاعل إلى المفعول،[١]و الفعل يشمل الصريح وما في معناه ، مثل اسم الفاعل إذا أسند إلى المفعول ، **في قوله تعالى:**

﴿ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٢١﴾ ﴾ [سورة الحاقة:٢١]

فالضمير في اسم الفاعل (راضية) يعود على العيشة ، والعيشة مرضية وليست راضية ، والراضي هو صاحبها ، ولو عبر بالأسلوب الحقيقي لقيل : فهو في عيشة راض صاحبها عنها، لكن الآية جعلت الرضى من أعمال

---

١ - يشمل هذا أيضا إسناد اسم الفاعل إلى المفعول ، والأصل أن الفعل ، أو اسم الفاعل يسند إلى الفاعل لكن المثال المذكور يبين إسناد اسم الفاعل (راضية) إلى المفعول إسنادا مجازيا .

العيشة لتدل على أن الرضى تجاوز الرجل إلى العيشة نفسها،لأنها باقية دائمة أحبت صاحبها فرضيت به كما رضي بها.**وفي قوله سبحانه** :

﴿.....أَوَلَمۡ نُمَكِّن لَّهُمۡ حَرَمًا ءَامِنٗا .....﴾ [سورة القصص:٥٧]

والحرم لا يكون آمنا ، لأن الإحساس بالأمن من صفات الأحياء والأصل : (أولم نمكن لهم حرما أمنوا فيه على أنفسهم) ، فالحرم مأمون فيه على النفوس (١).

ومن ذلك أيضا قوله تعالى :

﴿خُلِقَ مِن مَّآءٖ دَافِقٖ ٦﴾ [سورة الطارق:٦]

والماء مدفوق ،وليس بدافق ، لكنه لسرعة خروجة يدفق بعضه بعضا ويدفع بعضه بعضا .

ومنه قوله تعالى :

﴿......قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلۡيَوۡمَ مِنۡ أَمۡرِ ......﴾ [سورة هود:٤٣]

المعنى لا معصوم اليوم من أمر الله إلا من رحمة الله، فاسم الفاعل أسند إلى المفعول ، ومع أن الكلام يجوز فيه اعتبار الحقيقة ، وتكون كلمة (عاصم) على حقيقتها ، أي : لا شيء يعصم الناس اليوم من قضاء الله تعالى ، إلا أن السياق ، يرشد إلى أن كلمة (عاصم) يراد بها : لا معصوم من أمر الله اليوم إلا من رحم .

١ - اعلم أن من القواعد البلاغية أن الفعل المبني للفاعل ،واسم الفاعل إذا أسندا إلى المفعول ، فالعلاقة المفعولية .والفعل المبني للمجهول ، واسم المفعول إذا أسندا إلى الفاعل ، فالعلاقة الفاعلية .
واسم المفعول المستعمل في موضع اسم الفاعل مجاز علاقته المفعولية .
واسم الفاعل المستعمل في موقع اسم المفعول مجاز علاقته الفاعلية .

ومما يستعذب ذكره هنا كلمة الحطيئة (واقعد فإنك أنت الطاعم الكاسي) أراد أقعد عالة على غيرك يطعمونك لأنك مطعوم كما تطعم النساء ، ويكسونك لأنك مكسوٌّ كما تكسى النساء ، فأسند الوصف المسند للفاعل إلى ضمير المفعول.[1]

١ - موقف الحطيئة مع الزبرقان بن بدر ، وكان الحطيئة جاور الزّبرقان بن بدر، فلم يحمد جواره، فتحوّل عنه إلى مجاورة رجل اسمه (بغيض بن عامر) من رؤساء بني تميم في الجاهلية ، فأكرم جواره، فقال يهجو الزبرقان ويمدح بغيضا :

ما كان ذنب بغيض أن رأى رجلا ... ذا حاجة عاش في مستوعر شاس
جارا لقوم أطالوا هون منزله ... وغادروه مقيما بين أرماس
ملّوا قراه وهرّته كلابهم ... وجرّحوه بأنياب وأضراس
دع المكارم لا ترحل لبغيتها ... واقعد فإنّك أنت الطّاعم الكاسي

فاستعدى الزبرقان عليه عمر بن الخطاب رضى الله عنه، فحكّم عمر، حسان ابن ثابت، فقال حسان: ما هجاه ولكن سلح عليه، فحبس عمر الحطيئة، فقال يستعطفه

ماذا تقول لأفراخ بذى مرخ ... حمر الحواصل لا ماء ولا شجر؟
ألقيت كاسبهم في قعر مظلمة ... فاغفر عليك سلام الله يا عمر
ما آثروك بها إذ قدّموك لها ... لكن لأنفسهم كانت بك الآثر

فأخرجه عمر، وجلس على كرسيّ، وأخذ بيده شفرة، وأوهم أنه يريد قطع لسانه، فضجّ، وقال: إني والله يا أمير المؤمنين! قد هجوت أبى وأمّى وامرأتى ونفسى، فتبسّم عمر، ثم قال: ما الذى قلت؟ قال: قلت لأبى وأمّى

ولقد رأيتك في النساء فسؤتنى ... وأبا بنيك فساءنى في المجلس

وقلت لأبى خاصة

فبئس الشيخ أنت لدى تميم ... وبئس الشيخ أنت لدى المعالى

وقلت لأمّى خاصة

تنحّى واجلسى منّى بعيدا ... أراح الله منك العالمينا؟
أغربالا إذا استودعت سرّا ... وكانونا على المتحدّثينا؟

وقلت لامرأتى

أطوّف ما أطوّف ثم آتى ... إلى بيت قعيدته لكاع

وقلت لنفسى

أبت شفتاى اليوم إلا تكلّما ... بسوء فما أدرى لمن أنا قائله
أرى لى وجها شوّد الله خلقه ... فقبّح من وجه وقبّح حامله

فخلّى عمر سبيله، وأخذ عليه أن لا يهجو أحدا، وجعل له ثلاثة آلاف اشترى بها منه أعراض المسلمين، فقال يذكر نهيه إيّاه عن الهجاء ويتأسف

وأخذت أطراف الكلام فلم تدع ... شتما يضرّ ولا مديحا ينفع
ومنعتنى عرض البخيل فلم يخف ... شتمى وأصبح آمنا لا يجزع

راجع في ذلك نهايةالأرب في فنونالأدب ٣ / ٢٩٨.

٣-علاقة الفاعلية :

وتعني إسناد الفعل المبني للمفعول إلى الفاعل ، **ومثاله قوله تعالى** :

﴿.....إِنَّهُۥ كَانَ وَعۡدُهُۥ مَأۡتِيّٗا ٦١﴾ [سورة مريم:٦١]

فكلمة (مأتيا) اسم مفعول ، والأصل أن يعود مرفوعه على نائب الفاعل لكن الضمير عاد إلى الوعد ، والوعد في الحقيقة فاعل وليس مفعولا به فالمرفوع باسم المفعول في الآية عائد على الفاعل وليس نائب الفاعل ، ووجه البلاغة في هذا الإشارة إلى أن الوعد الذي كتبه الله تعالى على الناس يسير إليه الناس ويأتونه مسيرين لا مخيرين .ومنه قولهم : (سيل مُفعَم) أي ممتلئ والحقيقة أن السيل يفعم المكان أي يملؤه، والمكان هو الذي يفعم ، ولكنهم تجوزوا في الإسناد فجعلوا السيل مفعمًا ، ليشيروا إلى أن الامتلاء غطى كل شيء حتى السيل .

وفي قوله تعالى :

﴿وَإِذَا قَرَأۡتَ ٱلۡقُرۡءَانَ جَعَلۡنَا بَيۡنَكَ وَبَيۡنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ حِجَابٗا مَّسۡتُورٗا ٤٥﴾ [سورة الإسراء:٤٥]

الحِجَابُ فِي أَصلِهِ سَاتِرٌ، وليسَ مَستُوراً ، أُسنِدَ الوَصْفُ المبنيُّ للمَفعولِ (مستورا) إِلَى الفَاعِلِ وهو الضمير العائد على الحجاب ، وكان حقّه أن يُسْنَدَ الى المفعول فيقال :وإذا قرأت القرآن جعلنا بينك وبين الذي لا يؤمنون بالأخرة حجابا فتكون مستورا ، وساعتها سيعود الضمير على النبي ﷺ وهو المستور .

٤-علاقة المصدرية :

وتعني إسناد الفعل إلى مصدره، فبدلا من أن أقول : جد الناس ، أقول جد الجد ، وأقول : وفزع الفزع ، وسار السير ، وهمّ الهمُّ ، وقام القيام . وضربوا لذلك مثلا **بقول الشاعر** :

(وَإِنِّي لجــرارٌ لكـــل كتيبـــةٍ معــودةٍ أَن لَا يخــل بهَــا النَّصْرـ)
(فأظمأ حَتَّى ترتوي الْبيض والقنا وأسغب حَتَّى يشْبع الذِّئْب والنسرـ)
(وَيَـا رب دارٍ لم تخفنـي منيعـةٍ طلعت عَلَيْهَا بـالردى أَنـا وَالْفَجْـر)
(وَلَا بَات يطغيني بأثوابه الْغنى وَلَا بَات يثنينـي عَـن الْكَـرم الْفقـر)
(وَمَا حَاجَتي بِالْمَالِ أبغي وفوره إِذا لم أفـر عـرضي فَـلَا وفـر الـوفر)
سيذكرني قومِي إِذا جد جـدهم وَفِي اللَّيْلَــة الظلــاء يفتقــد الْبَــدْر
وَلَو سد غَيْرِي مَا سددت اكتفـوا بِهِ وَمَا كَانَ يغلو التبر لَـو نفـق الصـفر
وَنحن أنـاسٌ لَا توَسـط عنـدنَا لنــا الصَّــدْر دون الْعَــالمين أَو الْقَــبْر

فلقد أسند الفعل (جَدَّ) إلى المصدر (جِدُّهم) أي: إذا جَدُّوا ، والمرادُ الإِشعارُ بأنْ قومه إذا حزبهم أمر ، وضاقوا به فسيذكرونه ، لأنه الناصر والمعين وقت الشدائد ، وهو الملاذ عند الكرب ، وحين يجد الجد ، **ومنه أيضا قول الشاعر** :

تكــاد عطايــاه يجــن جنونهــا إذا لم يعوذهـــا بنغْمـــة طالـــبِ

(قال الإمام المرزوقي يقول قد تعود هذا الرجل تفريق ماله بالصلات وتبديده بالعطيات حتى تقرب عطاياه لو أمسك يوما من أن تجن إن لم يعلق عليها عوذها من نغم الطلاب والزوار ، وقوله : يجن جنونها، إنما يريد : يجن صحتها ، أي يصير بدل صحتها جنون ... ولم يجن جنون عطاياه انتظارا للطلب بل يبدأ بالعطاء ويستريح)[1] وناهيك بجنون العطايا ، الذي لا يهدأ حتى يسمع طلب الطالبين فالفعل المبني للمجهول (يُجَنُّ) أسند إلى المصدر (جنونها) وهذا مجاز عقلي علاقته المصدرية . **ومن شواهده أيضا قول القائل**

قد عز عزّ الألى لا يبخلون على أوطانهم بالدم الغالي إذا طلبا

فالذي عز وارتفع هو العز ، وهذا واضح في المجاز العقلي.

٥-علاقة الزمانية :

وتعني إسناد الفعل أو ما في معناه إلى الزمان ، **ومن ذلك قول الله عز وجل:**

﴿.....بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ .....﴾ [سورة سبأ:٣٣]

فجاء المصدر مسندا إلى الليل والنهار ، والمعنى مكركم في الليل والنهار وذكر العلماء هنا قول العرب : نهاره صائم ، وليله قائم و أرادوا أنه صام النهار كله ، وقام الليل كله ، فعدلوا عن صام فلان النهار إلى نهاره صائم ، ليشيروا إلى دوام صيامه ، وشدة صونه في صيامه عن كل مفطر ، حتى تحول النهار معه إلى الصيام ، وكذا الحال في ليله قائم ، فقيام الليل يعني ملازمته القيام في كل ليل ومبالغته في الطاعة ، وعدم ركونه إلى الفتور

١ - خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب للبغدادي ١/ ٣٥٢.

وأخذ نفسه بالجد حتى صار الذي يقوم هو الليل وليس الرجل ، وهذه كلها أحوال ساكنة في التعبير اختزلتها حالة الإسناد الجديدة ، لأن النفوس حين ترى الأحوال قد تغيرت تستدعي من اللغة ما يحمل هذا التغيير ، فالذين يصومون كثير جدا ، لكن من منهم يصوم كل نهار ؟ ومن منهم يحافظ على صيامه من قول الزور ، وفعل السيئات ؟ ومن منهم لا يُرى في نهار إلا وهو صائم ؟ هذه الأحوال لا يعبر عنها قولك صام فلان النهار ، بل يعبر عنها : نهاره صائم ، وقل مثل ذلك في : ليله قائم . وقس على مثل ذلك ما يشبهه . **ومن شعر جرير قوله :**

تقولُ لنا سلمَى مَن القومُ ؟ أن رأتْ ... وجوهاً عتاقاً لوِّحتْ بالسَّمائمِ

لقدْ لُمتِنا يا أمَّ غيلانَ في السُّرَى ... ونمتِ وما ليلُ المطِيِّ بنائمِ

فالشاعر يقول لابنته (سلمى) لا تلومينا في السرى في ليلتنا ونهارنا فأسند النوم الى الليل وهو زمان النوم ، قال صاحب الخزانة : (أَرَادَ وَمَا ليل أَصْحَاب الْمطِي) فَحذف وَأَرَادَ بأصحاب الْمطِي من يركب ويسافر فَلَا يَنْبَغِي أَن ينَام من أول اللَّيْل إِلَى آخِره وَأم غيلَان هِيَ بنت جرير يَقُول لمتنا فِي تركنَا النّوم واشتغالنا بالسرى والمطي جمع مَطِيَّة وَهِي الرَّاحِلَة والسرى سير اللَّيْل)

ومنه قول طرفة :

ستبدي لك الأيام ما كنت جاهلا ... ويأتيك بالأخبار من لم تزوّد

فالفعل (ستبدي) في البيت فاعله كلمة (الأيام) وهي زمان ، والفاعل الحقيقي هو ما في الأيام من أحداث ، لكن الشاعر أسند الإبداء الى الأيام إسنادا مجازيا ، ليشير إلى كثرة الأحداث ، وفداحتها ، وغفلة المخاطب عنها .

ومن ذلك أيضا قول الله تعالى:

﴿فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَانَ شِيبًا ﴿١٧﴾﴾ [سورة المزَّمل:١٧]

فالفعل (يجعل) أسند إلى ضمير يعود على كلمة (يوما) ، واليوم لا يجعل الوليد يشيب، وإنما الفاعل هو الله -سبحانه وتعالى- والأيام زمان تجري فيها هذه الأحداث . **ويقول أبي البقاء الرندي:**

لِكُلِّ شَيءٍ إِذا ما تَمّ نُقصانُ ... فَلا يُغَرَّ بِطيبِ العَيشِ إِنسانُ

هِيَ الأُمُورُ كَما شاهَدتُها دُوَلٌ ... مَن سَرّهُ زَمَنٌ ساءَتهُ أَزمانُ

وَهَذِهِ الدارُ لا تُبقي عَلى أَحَدٍ ... وَلا يَدُومُ عَلى حالٍ لَها شانُ

فالزمن لا يسر ، وليس من خصائصه أن يسر أو يسيء ، إنما الذي يسر ويسيء الأحداث التي تقع في الزمن ، لكن الأحداث ترتبط بالزمان ؛ لأنه لا حدث إلا في زمان حتى قيل أيام الفرح ، وأيام الشقاء ، أيم الصحة ، وأيام المرض ، فارتباط الأحداث بالزمان لا انفكاك منه ؛ لذلك صح إسناد الأفعال إلى زمان حدوثها .

٦-علاقة المكانية :

وهذا كثير لأنه لا فعل إلا في مكان ، فالمكان من لوازم الفعل ، ويكثر حضوره عند ذكره ، ومن إسناد الفعل إلى مكانه **قول الله تعالى** :

﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ..... ﴾ [سورة البقرة:٢٥]

فجريان الأنهار من المجاز العقلي ، لأن الجريـان للـماء ولـيس للنهـر ، ومن إسناد اسم الفاعل إلى المكان **قوله تعالى** :

﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴿٣٨﴾ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴿٣٩﴾ ﴾ [سورة عبس:٣٨-٣٩]

فالضحك وما قبله أسند إلى ضمير يعـود عـلى الوجـوه، وهـي مكـان الضحك ، والأصل أن الضاحك هو الإنسان ، وأمـا الوجـه فمكـان ظهـور الضحك ، فكان الإسناد مجازيا .

ومنه قوله تعالى :

﴿ .....وَجَعَلْنَا ٱلْأَنْهَٰرَ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمْ ..... ﴾ [سورة الأنعام:٦]

والنهر مكان لوجود الماء ، والمكان لا يمشي إنما الذي يتحرك هـو المـاء ولكن هذا الإسناد يصور لك النهر وقد امتلأ بالماء وتحركت هذه الميـاه بقـوة فصرت لا ترى ماء يجري بل أرضا تتحرك بسرعة ، فهـي تجـري مـن تحـتهم في الوقت الذي فتحت فيه أبواب السماء بالماء فصاروا بين ماءين ، من تحتهم ومن فوقهم فكان الهلاك ،**ومنه قول الشاعر**:

مَلكْنا فكان العَفْوُ منَّـا سَـجيَّةً　　　فلـمَّا مَلَكْـتُمْ سـالَ بالـدَّمِ أبْطَـحُ

لَقَدْ أسْنِدَ السَيَلان إلَى الأباطح، أي إلَى غَيرِ فَاعِلِهِ ؛ لأنَّ الأبطَحَ مكـان سَيَلانِ الدَّمِ والأبطح لا يسيل ، وإنَّمَا يَسِيل مَا فيه وهُوَ الـدَّم، فلـما أراد كثـرة الدم وانشاره ملأ به الأبطح ، وجعله يسـيل ، ليشـعرك بـالامتلاء ، والكثـرة ،**وقال كثير**:

ولما قضينا من منى كـل حاجـة　　　ومسـح بالأركـان مـن هـو ماسـح

وشدت على دهم المهارى رحالنا ... ولم ينظر الغادي الذي هو رائح

أخذنا بأطراف الأحاديث بيننا ... وسالت بأعناق المطي الأباطح

يقول ابن طباطبا : (فائدة هذا الشعر هو استشعار قائله لفرحة قفوله إلى بلده، وسروره بالحاجة التي وصفها من قضاء حجه، وأنسه برفقائه ومحادثتهم، ووصفه سيل الأباطح بأعناق المطي كما تسيل بالمياه، فهو معنى مستوفى على قدر مراد الشاعر.) وهذه الأبيات مما اختلف حولها النقاد من مادح إلى قادح .(١).

بلاغة المجاز العقلي

التصرف في الإسناد صنعةٌ لا يحسنها إلا أهل البلاغة الكبار ، وحرفة لا يجيدها إلا من عرفوا مفردات اللغة وعلائقها القريبة منها والبعيدة ،

---

١ - يقول ابن المعتز : ولا خلاف في أن المعنى ضائع في اللفظ، لأنه بمعنى لما حججنا رجعنا وتحدثنا في الطريق ، كذا فقط ، وفي الوقت نفسه ترى من يقول : ابن الأثير في المثل السائر ألا ترى إلى حسن هذا اللفظ وصقالته، وتدبيج أجزائه، ومعناه مع ذلك ليس مدانيا له ولا مقاربا، فإنه إنما هو لما فرغنا من الحج ركبنا الطريق راجعين وتحدثنا على ظهور الإبل، ولهذا نظائر شريفة الألفاظ خسيسة المعاني.

فالجواب عن ذلك أنا نقول: هذا الموضع قد سبق إلى التشبث به من لم ينعم النظر فيه، ولا رأى ما رآه القوم، وإنما ذلك لجفاء طبع الناظر، وعدم معرفته، وهو أن في قول هذا الشاعر «كل حاجة» مما يستفيد منه أهل النسيب والرقة والأهواء والمقة ما لا يستفيد غيرهم، ولا يشاركهم فيه من ليس منهم، ألا ترى أن حوائج منى أشياء كثيرة: فمنها التلاقي، ومنها التشاكي، ومنها التخلي للاجتماع، إلى غير ذلك مما هو تال له ومعقود الكون به، فكأنّ الشاعر صانع عن هذا الموضع الذي أومأ له وعقد غرضه عليه بقوله في آخر البيت «ومسّح بالأركان من هو ماسح» أي: إنما كانت حوائجنا التي قضيناها وآرابنا التي بلغناها من هذا النحو الذي هو مسح الأركان وما هو لاحق به وجار في القرية من الله مجراه: أي لم نتعدّ هذا القدر المذكور إلى ما يحتمله أول البيت من التعريض الجاري مجرى التصريح، وأما البيت الثاني فإن فيه: «أخذنا بأطراف الأحاديث بيننا» وفي هذا ما نذكره لتعجب به وبمن عجب منه ووضع من معناه، وذلك أنه لو قال أخذنا في أحاديثنا أو نحو ذلك لكان فيه ما يكبره أهل النسيب؛ فإنه قد شاع عنهم واتّسع في محاوراتهم علو قدر الحديث بين الإلفين والجذل بجمع شمل المتواصلين، ألا ترى إلى قول بعضهم:

وحديثها يا سعد عنها فزدتني ... جنونا فزدني من حديثك يا سعد

وقول الآخر:

وحديثها السّحر الحلال لو انّه ... لم يجن قتل المسلم المتحرّز

فإذا كان قدر الحديث عندهم على ما ترى فكيف به إذا قيّده بقوله: «أخذنا

وارتباط الكلمات بعضها ببعض ؛ لأن الصنعة إن لم تكن من يد خبير فَسَدَ معها الكلام وضل بسببها المعنى ، وعمي على المخاطبين المراد ، واللغة العربية لغة بيان فلابد للمتصرف في روابطها من أن يكون خبيرا بكل ما من شأنه توسعة اللغة وفتح الباب أمام تراكيب جديدة ، فالمجاز يوسع اللغة ، ويفتح الباب أمام علائق جديدة بين الكلمات ، حتى ترى اللغة لا حدود لها في البيان عن النفوس وتراها أعذب لفظا ، وأحسن موقعا ، وأملأ بالفائدة من الحقيقة ، وأشد تمييزا للمقصد ، وأقرب إلى الصورة المشاهدة المحسوسة ، وكل ما أقوله لك غيض من فيض ، لكني أحيلك إلى شيخ البلاغيين ، وهو يرسم لنا فضيلة المجاز العقلي **فيقول** : (في المجاز العقلي ترى المتكلمين لم يلتزموا إسناد الأحداث، والأفعال لما هي له دائما، وإنما يتوسعون ويتجوزون ، انطلاقا مع الخيال ، واستجابة للحس ، وتأنفا في أداء المعاني، فالدموع يرقرقها نسيم الصبا الذي جاس خلال ديار الأحبة يحمل أنفاسهم، ووميض الغمام يهيج غوافي الأشواق، ويشعل لهيب الحنين، والبرق وغناء الحمام يشجي، ويستفز لواعج الهوى، وحمام بطن ودان يثير بلابل الشوق في نفس قيس بن الملوح، **فيقول:**

ألا يا حمامي بطن ودان هجتما　　علي الهوى لما تغنيتما ليا
فأبكيتماني وسط أهلي ولم أكن　　أبالي دموع العين لو كنت خاليا

والدمن الخوالي تهيج علل امرئ القيس، أو عقابيل علله وبقاياها في **قوله:**

أتت حجج بعدي عليها فأصبحت كخط زبور في مصاحف رهبان

ذكرت بها الحي الجميع فهيجت عقابيل سقم من ضمير وأشجان

والحجج جمع حجة وهي السنة، والزبور الكتاب، والمصاحف جمع مصحف، وهي: صحائف مكتوبة مجموعة بين دفتين، والعقابيل: جمع عقبول وهي بقية العلة.

والرياح السوافي تدرج بما دق من التراب، فتغير آيات ابن الدمينة في **قوله:**

دمن خلون وغيرت آياتها دق التراب مسفة الأذيال

وذكريات حديث الصاحبة تهز ابن خفاجة في شيخوخته هزة تدير له الزمان كله والشباب، فيصبح ما مضى منه أمامه في **قوله:**

لقد هزني في ريطة الشيب هزة أرتني ورائي في الشباب أمامي

كل هذه الصور من القول الممتاز لم تستند فيها الأحداث، والأفعال إلى ما ينهض ويتصف بها على وجه الحقيقة ، فخفقه البرق لا تشعل الشجا حقيقة وإنما هي سبب يثيره ، ومثلها نسيم الريح ، وحمام بطن وادن، والدمن الخوالي ووميض الغمام ، وذكريات الصاحبة كل هذه مثيرات، وأسباب وليست فاعلة لهذه الأحداث والأفعال، ولو قلت : زفرت دموعي لما هب نسيم الريح واشتقت لما أومض الغمام، وأشجى الله فؤادي بخفقه البرق، وهاجت علل امرئ القيس لما أبصر الدمن الدوارس، واهتز ابن خفاجة لما

ذكر أحاديث الصحاب، لكان الكلام جاريا على أسلوب الحقيقة؛ لأنك أسندت الأفعال والأحداث إلى ما هي له، والعبارة قد ذهبت عنها خصائصها الشعرية، وانطفأ فيها وهج الحس، وصارت إلى كلام بارد مغسول كما يقولون)[1] لخرجت من عالم البلاغة إلى عوالم أخرى .

لماذا أدرج المجاز العقلي في علم المعاني ، وليس في علم البيان ؟

ذكر الخطيب أنه لم يورد الكلام في الحقيقة والمجاز العقليين في علم البيان -كما فعل السكاكي ومن تبعه- لدخوله في تعريف علم المعاني، دون تعريف علم البيان ، وهوحديث عن أحوال اللفظ ، والمجاز العقلي عنده حديث في المبالغة ، وليس صورة من صور الدلالة حتى يدرج في علم البيان ، وهذا أمر يحتاج إلى نظر .

---

١ - خصائص التراكيب ص ١٠٤

الفصل الثالث
أحوال المسند إليه

١- الحذف والتكرار .
٢- التعريف والتنكير .
٣- التقديم والتأخير

حذف المسند إليه

مقدمة

بناء الجملة في اللغة العربية له خصائص تعلو أو تهبط بها في عالم البيان بحسب مطابقة هذه الخصائص للمقام والسياق والأغراض التي تُؤَم ، وقد وضع العلماء قوانين النحو ليسير عليها كل متكلم فصيح ، وينتقي من المعاني النحوية ما يناسب الغرض والأحوال التي يقصدها ، وإذا خالف البليغ هذه القوانين ، وضاع من تحت قدمه الطريق الذي رسموه اختلط الكلام وغمض ، والتبس المعنى وفسد ، فليس النظم الذي أقام عبد القاهر عليه البلاغة إلا أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه علم النحو .

والبليغ قبل أن ينطق يعرف قصده وغايته ، فيختار اللفظ الحامل لمراده ويعرف وجوه الكلام وخصائصه ، والفروق الدقيقة بين ذكر شيء وحذفه فهناك فرق بين (زيد منطلق) و (زيد المنطلق) فأنت في الأولى حذفت الألف واللام لأنك أردت إخبارا مجردا عن انطلاق زيد ، لكنك في الثانية تريد شيئا آخر ، تريد أن تقصر الانطلاق عليه ، وتقول ليس غيره المنطلق ،

وتبطل زعم من يثبت غير ذلك ، فإن زاد عناده ، وأصر على رأيه قلت : (زيد هو المنطلق) وهكذا تجد الجملة يحذف منها ويزاد بحسب غايتك ومرادك .

وكذلك تقول : إن تخرج أخرج ، فتعلق خروجك على خروجه ، لأن الفعل الثاني متعلق في الحقيقة على الفعل الأول ، لكنك حين تقول : إن تخرج فأنا خارج ، فالأمر مختلف ، لأن خروجك ثابت وليس متعلقا بخروج صاحبك بل إنك فقط تربط بينهما شرطيا ، دون أن تعلق الثاني على الأول ، فهذا أشبه بقولك إن تخرج ، أو لا تخرج فأنا خارج ، وهكذا تجد اللفظة إذا حذفت دل الكلام على معنى ، وإن ذكرت دل الكلام على معنى آخر . ودرب نفسك على مثل هذا ، وضع كلمات في الجمل ، واحذفها وانظر الفروق الدقيقة بين الذكر والحذف ، تجد عجبا ، فإذا بدلت أماكن الكلمات فقدمت وأخرت وجدت عالما من الدلالات لا يكون إلى في لغة اصطفاها الله تعالى لتحمل إلى خلقه مراده .

وباب الحذف من أجلّ أبواب علم المعاني ، وعكس الحذف هو التكرار لأن الذكر هو أصل الكلام ، فإما تحذف منه اللفظ لغرض ، أو تكرر اللفظ لغرض ، ولم أجد عبد القاهر يتحدث عن الذكر مع الحذف ، ولم يردف الحذف بالذكر ، بل أردفه بالتكرار ، **وهو يتحدث عن النظم فقال** : (وذلك أنا لا نعلم شيئا يبتغيه الناظم بنظمه غير أن ينظر في وجوه كل باب وفروقه ، فينظر في الخبر وفي الشرط والجزاء ،وفي الحال ،ويتصرف في التعريف والتنكير والتقديم والتأخير في الكلام كله ، وفي الحذف والتكرار

والإضمار والإظهار فيصيب من كل ذلك مكانه ويستعمله على الصحة وعلى ما ينبغي .)(١) وكذلك جمع بينهما في باب التقديم والتأخير فقال (كذلك صَنعوا في سائرِ الأبواب، فجعلوا لا ينظرون في "الحذف والتكرار" و "الإظهار والإضمار" و "الفصل والوصلِ" ولا في نَوْع من أنواعِ الفُروق والوجوه إِلا نَظَرُك فيما غيرُه أهمُّ لك، بل فيما إِنْ لم تعلَمْه لم يَضُرَّك) (٢).

ولقد قدم الإمام لباب الحذف بمقدمة فاقت في بيانها كل المقدمات فقال:

(هو بابٌ دقيقُ المَسْلك، لطيفُ المأخذ، عجيبُ الأَمر، شبيهٌ بالسِّحْر فإنكَ ترى به تَرْكَ الذِكْر، أَفْصَحَ من الذكْرِ، والصمتَ عن الإفادةِ، أَزْيَدَ للإِفادة وتَجدُكَ أَنْطَقَ ما تكونُ إِذا لم تَنْطِقْ، وأَتَمَّ ما تكونُ بياناً إذا لم تُبِن) (٣)، وعبارات عبد القاهر وجُمَلِه مستنبطة من كلام الجاحظ ، فقوله (دقيق المسلك ، لطيف المأخذ) ولطف المسلك يعني أن الوصول إليه صعب ، وبابه ضيق ، فلا يحدد المحذوف في العبارة إلا الفطن ، ولا يسلك باب الحذف في الكلام إلا خبير فدقة المسلك تشير إلى المنشئ للكلام ، وهذا يعني أن الذي يحذف ماهر بدروب الكلام ، فإذا سلك طريق الحذف فقد سلك دربا صعبا من التركيب ، **وقوله** :

---

١ - دلائل الإعجاز ص ٨٢.
٢ - دلائل الإعجاز ص ١٠٩.
٣ - دلائل الإعجاز ١٤٦

(لطيف المأخذ) يشير إلى أمر القارئ ، وهذا يعني أن تحديد المحذوف وتقديره ليس بالأمر السهل ، بل هو أشد ، فاللطف هو الدقة المتناهية ، وكل ذلك سببه أن المنشئ قد يحذف شيئا فيُفسد معناه ، وقد يتخلى عن لفظ فيصيب الكلام آفة الغموض ، **وراجع مثلا قول المتنبي :**

ولذا اسم أغطية العيون جفونها من أنها عمل السيوف عوامل

فهذا بيت معيب ، رغم دقة المعنى ، ووجاهته لأنه يريد القول بأن الجفون سميت بهذا الاسم ،لأن العيون تعمل عمل السيوف ، فحذف الفعل (تعمل) وأبقى المفعول المطلق (عمل السيوف) والأصل : بسبب أنها تعمل عمل السيوف ، فغمض المعنى وشق على القارئ . ...

ومن الشعر الذي أفسد الحذف معناه قول أبي تمام :

ثانية في كبد السماء ولم يكن كاثنين ثان إذ هما في الغار[1]

وقوله : (عجيب الأمر) هي أيضا من عبارات الجاحظ ، فقد قال مثلها وهو يتحدث في كتاب الحيوان عن الببغاء والطاووس ، فمن جهة الببغاء يخفي بعض الكلمات ويظهر بعضها ، بحيث تجد تشابها بين ذلك وبين الحذف ، ومن جه تجد في الطاووس شكلا وجمالا وبهاء في المنظر ، وهذا ما

١ - يقول الآمدي في الموازنة : (أي هو ثاني اثنين في الصلب لمازيار الذي هو رذيلة، وليس هو ثانياً في الغار؛ لأن هذه فضيلة؛ فكان يجب أن يقول في البيت " ولم يكن لاثنين ثانياً "؛ لأنه خبر يكن، واسمها هو اسم بابك مضمر فيها؛ فليس إلى غير النصب سبيل في البيت، وإلا بطل المعنى وفسد، وفساده أنك إذا أخليت " يكن " من ضمير بابك وجعلت قوله " ثاني " اسمها كان ذلك خطأ ظاهراً قبيحاً؛ لأنك إذا قلت: كان زيد وعمرو اثنين ولم يكن لهما ثان، كنت مخطئاً؛ لأن كل اثنين أحدهما ثانٍ للآخر، وكذلك إذا قلت: كانوا ثلاثةً ولم يكن لهم ثالث، كنت مخطئاً؛ لأن أحد الثلاثة هو ثالثهم، وإنما تكون مصيباً إذا قلت: كانا اثنين ولم يكن لهما ثالث، وثلاثةً ولم يكن لهم رابع، وأيضاً فإنه لو أراد هذا المعنى لم يكن في البيت فائدة البتة؛ لأنه كان يكون المعنى حينئذٍ أن بابك ثاني مازيار، فأي فائدة في هذا مع ما فيه من الخطأ الفاحش؟ وأي تعلق لهذا المعنى بما قبله في البيت؟ الموازنة بين أبي تمام والبحتري للآمدي ١/ ٣٠ .

يفعله الحذف في تزيين العبارة ، وتجويدها . ثم قال (فإنك ترى به ترك الذكر أفصح من الذكر والصمت عن الإفادة أزيد للإفادة ، وتجدك أنطق ما تكون إذا لم تنطق ، وأتم ما تكون بيانا إذا لم تبن) .

وكان الشيخ أبو موسى يوصي بتأمل هذا الكلام ؛ لأنه من الكلام النادر الذي ذهب من يحسنونه ، إذ كيف يكون ترك الذكر أفصح من الذكر ؟

نعم – لأن الكلام المحذوف يثير العقل ، ويوقظ الحس ، ويفتح الباب للمعاني ،حتى تتسع إلى غاية ، ويجعل المخاطب مشاركا في تكوين المراد مع المتكلم ، وهذا من عجائب اللغة ، وهذا ما نص عليه عبد القاهر مفسرا حيث قال : والصمت عن الإفادة أزيد للإفادة ، فالصمت لا يكون إلا عن كلام يرى المتكلم أن طيّه في النفس أولى من ذكره ، لأن في طيه زيادة في المعنى ، وعندها يُحكم للمبدع بأنه أنطق الناس ، مع أنه وارى كثيرا من الكلام ، وسكت عن الكلام مع أنه أبان المراد ، إن هذا العالم من الإمتاع بمكان ، ويصدق عليه قول الإمام (عَالَم شبيه بالسحر) .

والأصل في اللغة العربية ذكر كل عنصر داخل الجملة مادام المعنى يحتاج إليه ، وحضور اللفظ في الصورة دليل على الاحتياج إليه صراحة ، فإذا حذف فهناك ما يدل عليه لفظا أو تقديرا ، ولا حذف إلا بدليل ، قال الزركشى : « والحذف خلاف الأصل، وعليه ينبنى فرعان، أحدهما: إذا دار الأمر بين الحذف وعدمه، كان الحمل على عدمه أولى، لأن الأصل عدم

التغيير.والثانى: إذا دار الأمر بين قلة المحذوف وكثرته، كان الحمل على قلته أولى»(١)،والعرب في كلامها حذفت كل ما يمكن الاستغناء عنه ، وأقاموا لغتهم على الإيجاز وخضعوا في كل ذلك لأحوال السامعين ، لأن المستمع لا يطيق سماع ما يعرفه أو يستنبطه من الكلام ، ومن هنا تعلم أن الحذف يقوم على أمرين :

الأول : وجود قرينة تدل على المحذوف .

والآخر:وجود ما يرجح الحذف على الذكر من أغراض يقصدها المتكلم .

الأغراض العامة للحذف :

١-الاختصار :

والاختصار غرض تجده في كل حذف ، سواء اقتصر عليه المتكلم أم أضاف إليه غيره ، والعرب سنّت هذه السنة ، فحذفوا الحروف اختصارًا مثل حذف حرف الجر (في) من جميع الظروف اختصارا واستخفافا ، فلو قلت : جلست خلفك ، فالمعنى : في خلفك ، ولوقلت قدمت اليوم فالمعنى في اليوم ، وأنابوا عن الأفعال الحروف من أجل الاختصار ، فوضعوا الهمزة نيابة عن (أستفهم) و(ما) نيابة عن (أنفي) وحذفوا جواب لولا اختصارا للعلم به ، وحذفوا الكلمة والجملة ، للعلم بها ، **وانظر إلى قول الشاعر** :

وما المال والأهلون إلا ودائع ولا بد يوما أن ترد الودائع

---

١ - البرهان في علوم القرآن ٣/ ١٩٩.

هل ترى لذكر الأهلون الأهلون في الشطر الثاني قيمة ، بعد أن ذكرها في الشطر الأول ، إن العقل لا بد أن يذكرها عند التقدير ، فيقول : ولا بد يوما أن يرد المال والأهلون ، لكن لما كان رد الأهلون تراه العيون كل يوم فيمن يموتون ، ونحملهم إلى ربهم ، كان التنصيص على رد الأهلون غير ذي قيمة لكن الذي تناكفُ فيه النفوسُ النفوسَ هو رد المال ، لذلك نص عليه الشاعر ليقيسه كل عاقل على رد الأهلون ،وهكذا ، وقل مثل ذلك في أشباهه.

٢-الاحتراز عن العبث :

والاختصار والاحتراز عن العبث غرضان لاينفصلان ، لكن الأول يهدف إلى تقليل اللفظ ، ولآخر يقصد به نقاء الجملة من كل شائبة ، وترويقها مما يعلق بها من الزيادات ، لأن ما يحذف يمكن للمتلقي إدراكه ، لدلالة القرائن عليه ، فإذا كان المخاطب من الذين تكفيهم الإشارة ، أو أن القرائن تدل على اللفظ كان ذكره عبثا ، فلو قلت لمن يستشرف الهلال : (هذا هو الهلال والله) لكان ذكر المبتدأ من العبث ، لكن يكفي القول : الهلال والله ، لأنه ينتظره ، فلا يحتاج إلى ذكره ، لأنه لا يبحث عن غيره .

ويكثر حذف المبتدأ في جواب الاستفهام، **كقوله تعالى :**

﴿ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا هِيَهۡ ﴿١٠﴾ نَارٌ حَامِيَةُۢ ﴿١١﴾﴾ [سورة القارعة:١٠-١١]

أي : هي نار حامية :

﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡحُطَمَةُ ﴿٥﴾ نَارُ ٱللَّهِ ٱلۡمُوقَدَةُ ﴿٦﴾﴾ [سورة الهُمَزة:٥-٦]

أي : هي نار الله .

وبعد الفاء في جواب الشرط مثل : (من عمل صالحا فلنفسه ، أي فعمله لنفسه .) وبعد القول مثل : (فصكت وجهها وقالت عجوز عقيم) أي : هو عجوز .

٣-ضيق المقام :

وضيق المقام يعود بالكلام إلى ضوابط في النصوص تلجئ المتكلم إلى الحذف ، مثل الشعر ، فله ضروراته ، أو ضجر يصيب المتكلم أو السامع فيضطر إلى الحذف ، أو خوف يلحق بالمتكلم من التصريح بالمسند إليه فيحذفه لضيق المقام ، أو فوات فرصة ، أو شدة حزن ، أو شدة ألم إلخ ،فكل ذلك من باب ضيق المقام فلو كنت تصطاد ومعك صاحبك ، وعنت لك ظبية ، تقول له : ظبية ، أو : غزال ، أي هذه ظبية ، وهذا غزال، ومن رأى النار مشتعلة في بيت يقول : (حريق) ولو زاد على ذلك لقال خبلا ، ومن رأى رجلا يغرق يقول :(غريق) فالمقام لا يحتمل أكثر من هذا ، **ومن ذلك قول الشاعر :**

قالت لي كيف أنت قلت: عليل سهر دائم وحزن طويل

فحالته اقتضت حذف المسند إليه (أنا) لأنه عليل ، والعليل لا يتكلم إلا على قدر الحاجة الضرورية .

٤- تطهير اللسان به ، أو عنه .

فمن تطهير اللسان به قولك : (ﷺ) ، فتحذف الضمير المبتدأ وتسرع في ذكر (رسول الله) والمراد هو رسول الله . أو يراد العكس مثل قول السيدة عائشة رضي الله عنها : (ما رأى مني ولا رأيت منه) تريد : العورة .

٥-الإنكار عند الحاجة .

وهذا غرض عجيب أشار إليه أهل الصنعة ، بأن الحذف يفتح لك باب الإنكار إن كان لك حاجة إلى الإنكار ، فحين تقول : (فاجر) تريد هو فاجر ومن هذا الباب حمل قول النبي ﷺ كما جاء عند البخاري عن عائشة : أن رجلا استأذن على النبي ﷺ ، فلما رآه قال: «بئس أخو العشيرة، وبئس ابن العشيرة» فلما جلس تطلق النبي ﷺ في وجهه وانبسط إليه، فلما انطلق الرجل قالت له عائشة: يا رسول الله، حين رأيت الرجل قلت له كذا وكذا، ثم تطلقت في وجهه وانبسطت إليه؟ فقال رسول الله ﷺ: «يا عائشة، متى عهدتني فحاشا، إن شر الناس عند الله منزلة يوم القيامة من تركه الناس اتقاء شره» ، والتقدير : هو بئس أخو العشيرة .

٦-كون الخبر لا يصلح إلا له حقيقة أو ادعاء :

مثل قولك : عالم الغيب ، أي : الله تعالى ،فالخبر لا يجوز إطلاقه إلا على رب العزة سبحانه ، وقد تقول : الواهب المئين ، تريد ممدوحا بعينه ، فلا تذكر اسمه تدعي أنه لا يهب غيره المئين .

٧-تعجيل المسرة ، أو المساءة .

فحين يعود عزيز من السفر ، ثم تراه من بعيد ، تقول : أبي ، أي هذا أبي وحين تقول مثل ذلك لمن يخاف عودته يكون القصد تعجيل المساءة .

٨- مراعاة السجع :

كقول العرب : "من طابت سريرته حمدت سيرته". فلو قيل: "حمد الناس سيرته" لفات السجع ثم زاد الخطيب على ذلك أغراضا أخرى ذكر

في توصيفها : أنها اعتبارات أخرى للحذف لا يهتدي إلى مثلها إلا العقل السليم والطبع المستقيم ، **وذكر من شواهدها قول الشاعر :**

سأشكر عمرا إن تراخت منيتي … أيادي لم تُمْنَن وإن هي جلت

فتى غير محجوب الغنى عن صديقه … ولا مظهر الشكوى إذا النعل زلت

وقول آخر :

أضاءت لهم أحسابهم ووجوههم … دجى الليل حتى نظم الجزع ثاقبه

نجوم سماء كلما انقض كوكب … بدا كوكب تأوي إليه كواكبه

وقول بعض العرب في ابن عم له موسر، سأله، فمنعه، وقال: كم أعطيك مالي وأنت تنفقه فيما لا يعنيك، والله لا أعطينّك. فتركه حتى اجتمع القوم في ناديهم وهو فيهم، فشكاه إلى القوم وذمه، فوثب إليه ابن عمه فلطمه، **فأنشأ يقول :**

سريع إلى ابن العم يلطم وجهه … وليس إلى داعي الندى بسريع

وفي كل ذلك حذف المبتدأ والتقدير: (هو فتى – هم نجوم سماء – هو سريع) والقصد في كل ذلك أن الحذف لا يجوز ، ولا يصح إلا مع وجود دليل على المحذوف ، وقرينة توضحه وتدل عليه ، **مثل قول الشاعر :**

سُبقنا إلى الدنيا فلو عاش أهلها … مُنعنا بها من جيئة وذهوب

فبناء الفعل للمجهول قرينة تشير إلى حذف الفاعل ، والتقدير : سبقنا الناس إلى الدنيا ، فحذف للعلم به . **وفي قول آخر :**

نبئت أن أبا قابوس أوعدني … ولا قرار على زأر من الأسد

فالشطر الثاني دليل على أن هناك تشبيها ضمنيا، يريد أنه كالأسد، فحذف للخوف منه ، **وفي شاهد آخر يقول الشاعر :**

أُسِرتُ وما صحبي بعُزل لدى الوغى ولا فرسي مهر ولا ربه غمر

والمعنى كما هو واضح : أسرني أعدائي ، فحذف لضيق المقام .

أقسام الحذف

يتنوع الحذف في اللغة العربية ، فيشمل حذف الحرف ، ثم حذف الكلمة ثم حذف الجملة ، ثم حذف العبارة .

١ - حذف الحرف ، أو جزء من الكلمة :

ومثاله قول الله تعالى :

﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَسۡرِ ۝٤﴾ [سورة الفجر:٤]

وفي علة الحذف قال الأخفش: "عادة العرب أنها إذا عدلت بالشيء عن معناه نقصت حروفه، والليل لما كان لا يسري، وإنما يسري فيه نقص منه حرف .

وقال آخرون : إنه لرعاية الفاصلة ، ولا أرى أن الهدف من ذلك مقتصر على موافقة السجعة ، أو الفاصلة ، – وإن كان هذا واقعا – وإنما أرى في حذف الياء تصويرا لحالة التؤدة في السير ، حتى لا يكاد يشعر بها أحد ، فكأن الليل يتسلل دون أن يُرى ، فحرف الياء المحذوف هو صوت أريد إسكاته ، فحُذف .

وكثيراً ما يحذف العرب أداة النداء، وياء المتكلم التي يضاف إليها المنادى مثل: "يَارَبِّ – يَا أَبَتِ – يا ابْنَ أَمَّ – يَا عبادِ – يَا غلامِ" ، وفي كل

ذلك من التودد ، والتحبب ما فيه وقد يكون في الحذف معنى الحسم ، والسرعة كما في قوله تعالى " فكيف كان نكير " يراد : نكيري ، يقول ابن عاشور (وهو استفهام تعجيبي، أي فاعجب من نكيري كيف حصل. ووجه التعجيب منه أنهم أبدلوا بالنعمة محنة، وبالحياة هلاكا، وبالعمارة خرابا فهو عبرة لغيرهم.

والنكير: الإنكار ونكير- بكسرة في آخره- دالة على ياء المتكلم المحذوفة تخفيفا.

و مناسبة اختيار النكير في هذه الآية دون العذاب ونحوه أنه وقع بعد التنويه بالنهي عن المنكر لينبه المسلمين على أن يبذلوا في تغيير المنكر منتهى استطاعتهم، فإن

الله عاقب على المنكر بأشد العقاب، فعلى المؤمنين الائتساء بصنع الله وقد قال الحكماء: إن الحكمة هي التشبه بالخالق بقدر ما تبلغه القوة الإنسانية وفي هذا المجال تتسابق جياد الهمم.) (١)

ومن نماذج حذف الحرف في القرآن الكريم التي تحتاج إلى مراجعتك وتدبرك :

- حذف الواو من ﴿.... حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا ....﴾ [سورة الزُّمَر:٧١]
- ﴿....يَسُومُونَكُمۡ سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبۡنَآءَكُمۡ ....﴾ [سورة البقرة:٤٩]

١ - التحرير والتنوير ١٧/ ٢٨٤

- ﴿ سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ .... ﴾ [سورة الكهف:٢٢]
- ﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَٰتٍ مُّؤْمِنَٰتٍ قَٰنِتَٰتٍ تَٰٓئِبَٰتٍ عَٰبِدَٰتٍ سَٰٓئِحَٰتٍ ثَيِّبَٰتٍ وَأَبْكَارًا ﴿٥﴾ ﴾ [سورة التحريم:٥]
- ﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ ٱلْحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلْءَامِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ .... ﴾ [سورة التوبة:١١٢]

٢ – حذف الكلمة ، أو جزء من الجملة :

سواء كان مسندا أو مسندا إليه ، أو أحد المتعلقات ، **ومن أمثلة ذلك قوله تعالى :**

﴿ وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا .... ﴾ [سورة يوسف:٨٢]

أي : واسأل أهل القرية ، فحذف المضاف ليشعرك بالرغبة في سؤال كل من يسكن القرية ، ويبرهن للمخاطب على صدقه الذي أمسى محل شك

وكذلك قولهم : حللت أهلا ، ونزلت سهلا ، أي : مكانا ، وكأنهم حين حذفوا المكان أرادوا أن يشعروه بمدى الترحاب حتى أنه لن يتذكر المكان ، بل سيدخل إلى عالم الأهل ، والسهل ، وذلك من باب التخفيف على الضيف والبعد به عن كل المنغصات ، لأنه لم ينزل بمكان ، إنما نزل بالأهل والسهل .

وفي قوله تعالى :

﴿ دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ ۚ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾ ﴾ [سورة يونس:١٠]

التقدير (سلام عليكم) لكن الآية اقتصرت على (سلام) وحذفت كلمة (عليكم) لأن المراد هو الإيناس والتكريم فهي خبر وشكر وليس تأمينا وتسكينا كما هو الحال في الدنيا .

ومن ذلك أيضا حذف المبتدأ في قوله تعالى:

﴿..... بَلَٰغٌ ۚ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾ [سورة الأحقاف:٣٥]

والتقدير : هذا بلاغ ، وسياق الغضب جعل الاقتصار على الخبر أقرب إلى التهديد .

ومن نماذج الحذف للكلمة حذف المعطوف مع حرف العطف مثل: ﴿ ....لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ ۚ .... ﴾ [سورة الحديد:١٠]

وحذف الحال، مثل:

﴿..... وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ ﴾ [سورة الرعد:٢٣]

أى قائلين: سلام.

وحذف المفعول به كما في قوله تعالى :

﴿ وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴿٥٠﴾ ﴾ [سورة المؤمنون:٥٠]

والتقدير ، وجعلنا ابن مـريم آيـة ، وأمـه آيـة ،حُـذفَت الأولى لدلالـة الثانية عليها .

٣ – حـذف جـمـلـة كـامـلـة :

كما أن اللغة تبيح حذف الحرف والكلمة كذلك تجيـز حـذف الجملـة ما دام هناك دليل عليها ،ومن ذلك حذف جملة جواب الشرـط ، **مثـل قـول الله**

عزَّ وجلَّ :

﴿ وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي ٱلسَّمَآءِ فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍ ..... ﴾ [سورة الأنعام:٣٥]

فالتقدير: إن استطعت ذلك فافعل ، واعلم أنهم لن يؤمنوا.

وفي قوله تعالى:

﴿ ...... فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِۦٓ أَذًى مِّن رَّأْسِهِۦ فَفِدْيَةٌ .... ﴾ [سورة البقرة:١٩٦]

حذف ما يكتمل به المـراد ، وهـو(فحلـق) فعليـه فديـة مـن صـيام، فحذف «فحلق» لدلالة الكلام عليه ، ومثله قولـه تعـالى : {فعـدة مـن أيـام أخر} البقرة:١٨٤ والتقدير : (فأفطر فعليه عدة من أيام أخر) .

ومن حذف الجملة أيضا حذف جملة القسم ، أو حذف جواب القسـم فمن حذف القسم **قوله تعالى :**

﴿ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا .... ﴾ [سورة النمل:٢١]

والتقدير : والله لأعذبنه ، وهذا ماتقتضيه قوانين اللغة .

أما حذف جواب القسم فكثير ومنه قوله تعالى :

﴿وَٱلنَّٰزِعَٰتِ غَرۡقٗا ١﴾ [سورة النازعات:١]

أي لتبعثن، وكذلك قوله :

﴿صٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ذِي ٱلذِّكۡرِ ١﴾ [سورة ص:١]

أي إنه لمعجز، وقوله :

﴿قٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡمَجِيدِ ١﴾ [سورة ق:١]

ليس الأمر كما زعمتم .

وقد تحذف الجملة الخبرية المكونة من المبتدأ والخبر، كما في قول الشاعر:

سُنَّة العُشَّاقِ واحِدَةٌ فَإذا أحْبَبْتَ فَاسْتَكِنِ

والتقدير : سُنَّة العشاق واحدة هي الاستكانة. فإذا أحببتَ فاستكن .

٤-حذف أكثر من جملة :

هذه الحالة تكون غالبا في الأخبار ، والقصص ، فمن الأخبار قوله تعالى:

﴿......ۚ لَا يَسۡتَوِي مِنكُم مَّنۡ أَنفَقَ مِن قَبۡلِ ٱلۡفَتۡحِ وَقَٰتَلَۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَعۡظَمُ دَرَجَةٗ مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُواْ مِنۢ بَعۡدُ وَقَٰتَلُواْۚ......﴾ [سورة الحديد:١٠]

والتقدير: لا يستوى منكم مَنْ أنفق من قبل الفتح وقاتَلَ.ومَنْ أنفق من بعده وقاتَلَ.، ولذلك قال بعده :(أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا) .

أما القصص فتلحظ مثل ذلك في سورة يوسف حيث قال الله تعالى :

﴿وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا مِنْهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ فَأَرْسِلُونِ ﴿٤٥﴾ يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِى سَبْعِ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ لَّعَلِّىٓ أَرْجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِى سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ ﴿٤٨﴾ ثُمَّ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴿٤٩﴾ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّٰتِى قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ۚ إِنَّ رَبِّى بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴿٥٠﴾﴾ [سورة يوسف:٤٥-٥٠]

فيَ هذه الآيات تستطيع أن تقف على أربعة مواضع للحذف ، وفي كل موضع يقدر المحذوف بأكثر من جملة ، وإليك ذلك :

أولاً: حين قال الذي نجا من السجن (أنا أنبئكم بتأويله فأرسلون) حذف كلام كثير ، لأن العبارة جاءت بعدها (يوسف أيها الصديق أفتنا) والكلام المقدر هنا : (فأرسلوه فذهب إلى يوسف في السجن وسأله فقال يوسف .

ثانياً : بعد أن قال له يوسف ما قال رجع الرجل إلى الملك وحاشيته فأخبرهم بما قاله يوسف عن الرؤيا ، فقال الملك ائتوني به .

ثالثاً: بعد أن طلب الملك أن يأتوه بيوسف ، ذهب قائد الجند إلى يوسف ليفك أسره ويخرجه من السجن بأمر الملك وأخبره بما كان من شأن القوم ، فقال له يوسف ارجع إلى ربك فاسأله ما بال النسوة.إلخ .

رابعاً: حين عاد الرسول وأبلغ الملك رغبة يوسف، والتقدير: فلما رجع الرسول إلى الملك وأبلغه رغبة يوسف أرسل الملك إلى النسوة اللاتي قطعن أيديهن وسألهن قائلا ما خطبكن إذ راودتن يوسف عن نفسه .

التكرار(١)

هذا اللون من أكثر الوان الكلام شيوعا وحضورا في لسان العرب ، فهو كثير في القرآن الكريم ، والحديث الشريف ، والشعر الجاهلي ، وغيره من الكلام العالي ، فالعرب لها سنن تسير عليها في الكلام ، وإذا كان العرب يكثرون في كلامهم من الحذف رغبة في الإيجاز ، ويعيبون كل متكلم يذكر اللفظ المعلوم فإن من سنن العرب أيضا كما قال ابن فارس: (التكرير والإعادة إرادةَ الإبلاغ بحسب العناية بالأمر)(٢).

فالعناية بالمراد جعل العربي يبالغ في اتباع الوسائل الكفيلة بتوصيل هذا المراد إلى المتلقي ، وكان من أسرع هذه الوسائل ، وأعلاها صوتا التكرار فالعربي يحذف من اللفظ إذا علم السامع ، ويكرر اللفظ إذا احتاج إلى التكرار ولذلك كان التكرار عكس الحذف ، وليس كما فعل البلاغيون في كتبهم حيث جعلوا الذكر هو المضاد للحذف ، وقالوا في جميع كتبهم : باب الحذف والذكر وهذا ليس صوابا – كما أرى – لأن الحذف عكس التكرار ، وليس عكس الذكر وعكس الذكر الإضمار ، والعربي يراعي المقام فيحذف ، ويراعي المقام فيكرر مرة ومرتين وثلاثة ، **واسمع إلى قول القائل** :

---

١ - راجع كتاب الدكتور إبراهيم الخولي : التكرار بلاغة .

٢- الصاحبي في فقه اللغة العربية ومسائلها وسنن العرب في كلامها لأحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي، أبو الحسين (المتوفى: ٣٩٥ هـ) ١/ ١٥٨.

كـــم نعمـــة كانـــت لَـــهُ   كَـــــــمْ كَـــــــمْ وَكَـــــــمْ

ألا ترى أنه أراد منك أن تردد معه (كم كم وكم ؟) وجعلـك وأنـت تكرر هذا اللفظ تستحضر تلك النعم ، وتعددها ، وتظل كذلك حتى تتحول من ذاكر للنعم إلى منشد لها ، ويرى ابن رشيق أن التكرار منه ما هـو حسـن ، ومنه ما هو معيب ، وذكر أن الأصل في التكرار أن يكون للفظ ، وقـد يكـرر المعنى لكنه قليل في اللسان العربي ، فإذا كـرر اللفـظ والمعنـى فهـو الخـذلان بعينه ويقول :

(لا يجب للشاعر أن يكرر اسماً إلا على جهة التشوق والاستعذاب، إذا كان في تغزل أو نسيب..) وهذا الكلام محل نظر لأن التكرار مـن أهـم فنـون القول ، وله من الميزات ما يعجز غيره عنها ، **يقول امرؤ القيس** :

ألا عِمْ صَبَاحاً أيّهَا الطّلَلُ البَـالي   وَهل يَعِمنْ مَن كان في العُصُرِ الخالي
وَهَـل يَعِمَـنْ إلا سَـعِيدٌ مُخَلَّـدٌ   قَلِيـلُ الهُمـومِ مـا يَبيـتُ بأوْجَـالِ
وَهَل يَعِمَنْ مَن كان أحدثُ عَهدِه   ثَلاثِـينَ شـهراً في ثَلاثَـةِ أحـوَالِ
دِيارٌ لسَلمَى عَافِيَاتٌ بذِي خَالِ   ألَـحّ عَلَيهـا كُـلُّ أسْـحَمَ هَطّـالِ
وَتحسِبُ سَلمَى لا تَزَالُ تَرى طَـلاً   من الوَحشِ أوْ بَيضـاً بمَيثـاءِ مِحْلالِ
وتحسِبُ سَلمَى لا تزالُ كَعَهْدِنَا   بوَادي الخُزَامى أوْ عـلى رَسّ أوْعـالِ
لَيَـاليَ سَـلَمى إذْ تُرِيـكَ مُنَصَّـباً   وَجِيداً كَجِيدِ الـرِّئمِ لـيسَ بمِعطـالِ

والأوجال : الأمور الموجبـة للوجـل ،وتوقـع المصـائب ، وذو الخـال ووادي الخزامى ، ورس أوعال : كلها اسماء أماكن ، والأسحم هو الأسود

من السحاب ، والطلا : ولد الظبية ، أما الميثاء المحلال فهي الأرض السهلة التي كثر نزول الناس بها ، وتريك منصبا يعني : ثغرا متسقًا ، والمعطال: المجرّد من القلائد. والشاعر كرر جملة : و(تحسب سلمى لا تزال) ، وراجع هذه الجملة : (وتحسب سلمى لا تزال) وما ورائها من أثر نفسي على الشاعر جعله كأنه يصرخ بهذا المعنى ، ويستنجد بمن يصحح لسلمى هذا الحسبان ، لأنه ضاق به ، وأصبح لا يرى له نهاية ، وهذا من صرخات الألم النفسي التي تترك الشاعر يكرر ما يؤلمه لعله يتخلص منه .والتكرار في اللسان العربي من (الكر) وهو الرجوع والانعطاف والإعادة ، والمكرر من الحروف :(الراء) لأنك إذا وقفت عليه رأيت طرف اللسان يتردد ، ويعود إليه مرات .

والتكرار مصدر الفعل الثلاثي (كرّ) أما التكرير فهو مصدر الفعل الرباعي (كرّر) ، وتنوعت تعريفات العلماء للتكرار .فحد التكرار :

إعادة العبارة بنصها في سياق واحد ، لغرض يقتضي إعادتها ، في مقام يلائم هذا الغرض .

واسمع مثلا إلى قول المؤذن : الله أكبر الله أكبر ، أو قوله حين يقيم الصلاة : قد قامت الصلاة ، قد قامت الصلاة ، لأن العرب – كما يقول ابن جني – إذا أرادت المعنى مكنته ، واحتاطت له ومن أكثر الأمثلة دورانا في باب التكرار من كلام الله تعالى **قوله سبحانه :**

﴿ كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلۡأَرۡضُ دَكّٗا دَكّٗا ٢١ ﴾ [سورة الفجر:٢١]

وقوله :

﴿ فَمَهِّلِ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَمۡهِلۡهُمۡ رُوَيۡدَۢا ١٧ ﴾ [سورة الطارق:١٧]

وقوله :

﴿ ۞ هَيۡهَاتَ هَيۡهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ٣٦ ﴾ [سورة المؤمنون:٣٦]

وقوله :

﴿ وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡيَمِينِ مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلۡيَمِينِ ٢٧ ﴾ [سورة الواقعة:٢٧]

وقوله :

﴿ فَإِنَّ مَعَ ٱلۡعُسۡرِ يُسۡرًا ٥ إِنَّ مَعَ ٱلۡعُسۡرِ يُسۡرٗا ٦ ﴾ [سورة الشَّرح:٥-٦]

وقوله :

﴿ كَلَّا سَوۡفَ تَعۡلَمُونَ ٣ ثُمَّ كَلَّا سَوۡفَ تَعۡلَمُونَ ٤ ﴾ [سورة التكاثر:٣-٤]

وقوله :

﴿ فَكَيۡفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ٢١ وَلَقَدۡ يَسَّرۡنَا ٱلۡقُرۡءَانَ لِلذِّكۡرِ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ ٢٢ ﴾ [سورة القمر:٢١-٢٢]

في كل ذلك تلحظ أن المكرر يشمل اللفظ الواحد ، والجملة ، وما هو أكثر من جملة ، فما دام السياق واحدا ، والمقام واحدا ، واللفظ المكرر واحدا فالكلام يدخل في إطار التكرار ، فإذا اختل واحد مما سبق فلا تكرار ، فإذا

قلت مثلا : (أطعني ولا تعصني) فأنت لا تكرار لأنه ليس اللفظ الأول هو اللفظ الثاني ، وإن غيرت في الترتيب فقلت : (أطعني اليوم ، اليوم أطعني)

فلا تكرار .

فالشروط التي يجب توفرها في التكرار هي :

١- إعادة النص .

٢- وحدة السياق .

٣- وجود الغرض المقتضي .

٤- وجود المقام الملائم .

فإذا توفرت هذه الشروط كانت الصورة صورة التكرار البليغ .

القيمة الفنية للتكرار :

لا شك أن التكرار وسيلة بيانية ، وأداة فنية لا يسد غيرها مسدها في موضعها من وسائل البيان ، كما أن له قيمة فنية تكشف عن وظيفته التعبيرية والنفسية ، فالتكرار له أسبابه ودوافعه الكامنة في فطرة النفس ، فالطفل حين يسمع لفظة جديدة يكررها ، كأنه يدرك أن التكرار هو الوسيلة لكي يحفظها ويضيفها إلى ثروته اللغوية التي يحرص على تنميتها وزيادتها ، والمربون والمعلمون يعتمدون هذه الوسيلة في توصيل المعلومات إلى الطلاب ، وبخاصة الصغار ، وكذا الدعاة والوعاظ ، والحكام والقادة يصطنعون ذلك ، ليرسخوا في أذهان المتلقين ما يرونه مهما ، بل إنك حين تتكلم تراك تعيد

لفظا أو غيره إذا تبين لك أن مرادك لم يستبن للمخاطب ، فالتكرار فن بلاغي أصيل يسعف المتكلم في مقامات لا يسعفه فيها غيره ، ويلبي أغراضا لا يحققها غيره ، ويفي بمقصود المتكلم من الإفادة والإمتاع معا .(١)

مقامات التكرار

أولا : مقام اللجوء إلى الله والعياذ به من وسوسة الشياطين :

وراجع في ذلك سورة الناس ، وتكرار لفظة (الناس) في السورة ، **قال تعالى :**

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ﴿١﴾ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ﴿٢﴾ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ﴿٣﴾ مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ﴿٤﴾ ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ﴿٥﴾ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ﴿٦﴾﴾ [سورة الناس:١-٦]

يقول الخولي :(سر تكرار لفظ الناس مضافا إليه في المواضع الثلاثة هو الإيحاء بما للجن والإنس من منزلة في هذا العالم حيث خصهم الله بحرية الاختيار ، ولم يبن أمرهم على التسخير الذي يحكم حركة الوجود ... والإيحاء بشدة قرب الناس من خالقهم ، وتقريبه لهم ، كما أنه يعمق في نفوسنا معنى الإلتجاء إلى الله رب العالمين)(٢).

ثانيا : مقام التبليغ والإنذار :

ومثال ذلك تكرار جملة :

١- التكرار بلاغة للخولي ص ٨٢ – ٩٠ بتصرف شديد .
٢- التكرار بلاغة للخولي ص ١١١.

﴿....يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٍ﴾ [سورة الأعراف:٥٩]

على ألسنة الرسل (نوح ، وهود ، وصالح ، وشعيب) والتي جاءت في سورة الأعراف ، وهي سورة إنذار ، فالأصل في دعوتهم واحدة ، وهي التوحيد وملخص التوحيد : اعبدوا الله مالكم من إله غيره ، وهذا الاتحاد في الدعوة أرشد إلى عدة دروس مهمة ، منها : وحدة الدين في أصله السماوي المنزل من عند الله تعالى ، وأن ما يرى من اختلافات عند أصحاب الديانات التي تنتمي إلى أصل سماوي إنما هو اختلاقات ، وافتراءات على دين الله ، وهذه نتيجة ضرورية للتسليم بوحدة الأصل ، ومن الدروس أيضا : ضرورة الإيمان بالرسالات كلها وبالرسل كلهم دون تفرقة بينهم ، كما قررته أواخر سورة البقرة لأن التكذيب برسالة واحدة ، أو برسول واحد هو تكذيبب كل الرسل وبجميع الرسالات (١).

ثالثا : مقام الدعوة إلى التفكر والاعتبار .

وراجع قوله تعالى في سورة الشعراء :

(كذبت قوم نوح – كذبت عاد – كذبت ثمود - كذبت قوم لوط - كذب أصحاب الأيكة المرسلين) (٢).

١- السابق ص ١٢٣.
٢ - آيات ١٠٥-١٢٣- ١٤١- ١٦٠- ١٧٦.

فسورة الشعراء تدور حول المكذبين ومصائرهم ، **لذلك بدأت بقوله تعالى:-**

﴿ لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ ﴾ [سورة الشعراء:٣] (١) لتبين للرسول ﷺ أنه ليس بدعا فلقد كذبت رسل من قبله فصبروا وسوف يلقى الكاذبون مصائر سابقيهم (فسيأتيهم أنباء ما كانوا به يستهزئون) وعلى قريش ومن يكذب برسالة النبي ﷺ أن يعتبروا ، ولذلك كررت جملة :

﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٢١﴾ ﴾ [سورة الشعراء:١٢١]

رابعا : مقام التعليم والتلقين .

فالتكرار من طرق التعليم ، وبخاصة للصغار ، ولقد جاء عند البخاري من حديث أنس رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ (أنه كان إذا تكلم بكلمة أعادها ثلاثا ؛ حتى تفهم عنه ، وإذا أتى على قوم فسلم عليهم سلم عليهم ثلاثا) يقول الدكتور الخولي : فقوله : (حتى تفهم عنه)أوحت إلينا بالمقامات التي كان يصطنع رسول الله فيها التكرار ، وسيلة تعليمية غايتها إفهام المخاطبين دون لبس أو غموض .

ومن ذلك أيضا حديث (رغم أنف ، ثم رغم أنف ، ثم رغم أنف ، قيل من يا رسول الله ؟ قال : من أدرك أبويه عند الكبر أحدهما أو كليهما فلم يدخل الجنة)(٢)، فهذه كناية عن الذل لمن أساء إلى والديه ، ولم يجعلهما سببا لدخوله الجنة .

١- التحرير والتنوير ٢١ م ٢٣١.
٢ - صحيح مسلم حديث رقم ١٩٧٨.

خامسا : مقام الدعاء والاستغفار .

ولقد كان رسول الله ﷺ يدعو ثلاثا ويستغفر ثلاثا ، لأن في ذلك من الضراعة والخشية والافتقار إلى الله الكثير ، وهو أرجى إلى القبول لأن من أطال قرع الباب أخلق بأن يلج ، ولذلك تسمعه ﷺ يقول :

(ألظّوا بــ"يا ذا الجلال والإكرام ")(١)أي ألحوا وأكثروا .

سادسا : مقام الذب عن الحرمات ،والدفاع عن الحقوق.

ويقابلنا في هذا المقام حديث النبي ﷺ " إن بني هشام بن المغيرة استأذنوني أن ينكحوا ابنتهم عليَّ بن أبي طالب ، فلا آذن لهم ، ثم لا آذن لهم ، ثم لا آذن لهم ، إلا أن يحب ابن أبي طالب أن يطلق ابنتي وينكح ابنتهم ، فإنما ابنتي بضعة ، مني يريبني ما رابها ، ويؤذيني ما آذاها" (٢).

وهشام ابن المغيرة هو والد أبي جهل : الحكم بن هشام ، عدو الله وهو كذلك والد : الحارث بن هشام ، وسلمة بن هشام ، وقد أسلما وحسن إسلامهما ، كما أسلم عكرمة بن أبي جهل وأخته التي أراد سيدنا علي بن أبي طالب الزواج بها .، والجملة المكررة هنا هي قوله (فلا آذن لهم) مع أن هذا ليس بمحرم ، إنما علل رسول الله ﷺ لعدم الإذن بأن ذلك يؤذي السيدة فاطمة ، وهي بضعة منه ، مما يعني وصول الأذى إليه ﷺ ، كما زاد في رواية أخرى علة ثانية وهي : لا تجتمع بنت رسول الله وبنت عدو الله تحت رجل واحد ، فالتكرار في هذا المقام يعني أن عدم الإذن لا مندوحة فيه ولا تجوّز

---

١ - مسند الإمام أحمد ٢٩ / ١٣٨.
٢٢ صحيح البخاري رقم ٥٢٣٠.

بل هو حتم لازم ، فلا يجوز لأحد أن يراجع فيه ، أو يفاوض بشأنه أو يفتح فيه حوارا ، ففاطمة ليست ككل النساء ، والزواج عليها يؤذيها وإيذاؤها إيذاء لأبيها ﷺ ، وهذا يستتبع اللعن ، فليحذر كل إنسان من إيذاء نبي الله تعالى إيذاء مباشرا ، أو غير مباشر ، فالتكرار مكن لرفض الإذن في عقول الناس ، ولذلك وضعه الرسول في خطبة ليسمعها كل الناس (١).

التقديم والتأخير

توطئة :

الجملة العربية إما اسمية ، وإما فعلية ، ولكل منهما ترتيب أصلي فالأصل في ترتيب الجملة الفعليّة أن يتقديم الفعل ، يليه الفاعل ، فالمفعول ، ثم تأتي متعلقات الفعل، والأصل في ترتيب الجملة الاسميّة أن يتقديم المبتدأ ويتأخر الخبر ، ثم تأتي المتعلقات .

وقد ذكر بعض النحاة ترتيبا للمتعلقات إذا اجتمعت ، وترتيبا للأسماء إذا اجتمعت .

والذي يعنينا هنا أن ترتيب الجملة الاسمية، أو الفعلية قد يتغير لدواع يراها المتكلم، أو يستدعيها السياق والمقام .

وليس هناك تقديم إلا ومن ورائه فائدة ، بل فوائد ، فقد ترى في التقديم توكيدا، وقد ترى قصرا ، وقد ترى التفاتا إلى منزلة المقدم بين أقرانه ، وأنه الرأس ، فهوكثير الفوائد ، والبليغ حين يقدم كلاما على كلام يراعي مع الفوائد حسن العبارة ، وبهاء اللفظ ، ونغم الإيقاع الذي يختاره للنص .

١- راجع كتاب الشيخ إبراهيم الخولي : التكرار بلاغة .

والتقديم والتأخير ليس مقصورا على الكلمات داخل الجملة، بل يدخل التقديم عالم الجمل، فترى جملة مقدمة على أخرى داخل العبارة، وترى عبارة مقدمة على أخرى داخل الفقرة، وترى فقرة مقدمة على أخرى داخل النص وهكذا تجد التقديم والتأخير لا يقتصر في تصرفه على الجملة النحوية .

ولا يدرك أغراض التقديم في مظانه إلى خبير بتصاريف القول ، عليم بفنون الأداء ، يدرك الفروق الدقيقة بين بناء وبناء ، كما يدرك الفروق الدقيقة بين لفظ ولفظ ، فللبناء تصاريفه ، وللأداء فنونه ، وإدراك ذلك من الأهمية بمكان ولذلك حين تسمع قول الله تعالى : (والله خبير بما تعملون) وقوله : (والله بما تعملون خبير) لا تظن أن كلا منهما بمعنى الأخرى ، وإلا كان التقديم عبثا من القول ، فلكل منهما سياق يقتضيها ، ومقام يحتويها ، وغرض لا يكون إلا بها .

وكلما تفرست كلام العرب ، وتأملت تصاريف التقديم والتأخير عندهم وراجعت الفروق في الأداء وجدت المعاني تنبت لك من خلف كل موقع للكلمة كما تنبت من تحت كل لفظ ، ووجدت للمكان دلالة كما أن للفظ دلالة ووجدت اللفظ حين يقدم يحمل معنى لا تجد مثله حين يؤخر ، بل إنك كلما راجعت الكلام العالي ، والقول المبين ، واستحسنت منه الدقة مع الرقة والسهولة مع العذوبة ، ووجدتك تشعر بحسن لا مزيد عليه ، وعلوا لا يرتقى إليه ، واستشكل عليك مرجع الحسن ، وموضع المزية فاعلم

أن الحسن والمزية تعود إلى مواقع الكـلام ، أو بـالأحرى إلى التقـديم ، يقول الإمام عبد القاهر في **مقدمته للباب** :

(هو بابٌ كثيرُ الفوائد ، جَمُّ المحاسن ، واسعُ التصرُّف ، بعيدُ الغاية لا يزالُ يفتَرُّ لك عن بديعةٍ ، ويُفضي بـكَ إلى لطيفـةٍ ، ولا تـزالُ تـرى شِعراً يروقُك مسمَعُه ، ويَلْطُف لديك موقعُه ، ثم تنظرُ فتجدُ سببَ أنْ راقك ولُطف عندك أن قُدِّم فيه شيءٌ وحُوِّل اللفظُ عن مكانٍ إلى مكان) (١).

وهذه المقدمة تعد من أفضل مقدمات أبـواب البلاغـة، حيـث بـدأها بكثرة الأغراض التي يحملها التقديم والتأخير، مما يشير إلى أنه لا تقـديم دون فائدة.

ثم أعقب ذلك بكثرة المحاسن ، والفرق بـين هـذه الجملـة وسـابقتها أن الفوائد تعود إلى الأغراض ، والمحاسـن تعـود إلى نسـق الكـلام ونغماتـه وفي التقديم ترى الأمرين معا ، دلالة جديده ، ونغما رائقا .

أما (الوسع في التصرف) ، فيشير إلى دخول التقديم كل أنواع الكلام – كالتقديم بين الفعل والفاعـل ، وبـين الفاعـل والمفعـول ، وبـين المفاعيـل بعضها البعض ، وبين التوابع بعضها الـبعض ، وبـين المبتـدأ والخـبر ، وبـين الجمل والفقرات ، بل وبين النصوص إلخ .

وقوله (بعيد الغاية) يعني أن الوصول إلى كل ما في جعبة التقديم مـن أغراض أمر غاية في الصعوبة، إما لكثرتها، وإما لعمقها ودقتها .

---

١ ـ دلائل الإعجاز للإمام عبد القاهر ص ٩٦ ت / شاكر – الخانجي .

ثم بدأ الإمام يفصل هذه الغاية فقال (لايزال يفتر لك عن بديعة، ويفضي بك إلى لطيفة ، ولاتزال ترى شعرا يروقك مسمعه.إلخ.

فكل تقديم من ورائه دلالة ، ولا يمكن أن يكون تقديم بعض الكلام مفيدا ، وبعضه غير مفيد ، فالتقديم كله مفيد ، ويحمل من بدائع المعاني ولطائفها الكثير .

قانون التقديم :

وضع عبد القاهر قانوناً للتقديم ، يحكم طرفيه ، فالتقديم إما أن تنزع اللفظ من مكانه وتجلسه في مكان يخر ، لكن عليه حليته وكساؤه ، وإما أن تنزع اللفظ من مكانه وتجلسه في مكان آخر مع حلية أخرى وكساء آخر ، فالمتكلم إما أن يقدم اللفظ مع بقاء حكم الإعراب فيه ، فيقدم المفعول منصوبا ، فيقال عليا أكرمت ، وخالدا رأيت ، أو ضرب عمرا زيد ، وفي الخبر مثل : منطلق زيد فالمتكلم يقدم وفي نيته أن المقدم هذا هو المؤخر لفظا ، فقدمه بحكمه الإعرابي وكأنه ينبه المخاطب بأن هذا المقدم جاء في أول الكلام عرضا ، لكنه هو المؤخر ، فانتبه ، هكذا يقول المتكلم إذا قدم الكلمة وأبقى حكمها الإعرابي .

وإما أن تقدم اللقظ فتخلعه من عالمه وتضعه في عالم آخر ، وتنزع عنه لباسه وتلبسه ثوبا آخر ، فلو قلت (محمدٌ رأيت) ، و(علي ضربت) فأنت بدلت المكان والحكم ، وهذا يسميه عبد القاهر تقديم ليس على نية التأخير وكم هو بديع ذكر لفظ النية هنا ، فهذا تطعيم للبلاغة بغذاء الشريعة ، وتطاعم العلوم من أجلِّ ما ينبغي التدقيق فيه واستنباته في ساحة العلم .

وملخص نية الحكم الجديد ، والإعراب الجديد قولك :(ضربتُ زيداً) (وزيدٌ ضربتُه) . الجملة الأولى مرتبة ترتيبها الصحيح في القانون النحوي (فعل – فاعل – مفعول) لكنك حين تنقل لفظ المفعول (زيد) وتبدأ به الكلام ، فأنت تنقله من عالم المفاعيل ، وهو عالمٌ حكمه النصب ، إلى عالم المبتدأ والخبر ، فتنقل حكمه ، وتنقل إعرابه ، وتشغل الفعل بضميره ، وهذا كله كما ترى نظرٌ من داخل الجملة ، وتقديم في حيز المسند والمسند إليه ، لكن اللغة العربية تحمل في جعبتها تصورا أوسع للتقديم والتأخير ، حيث ترى تقديم جملة على جملة ، وفقرة على فقرة داخل النص ، فإذا كان النظر لمجموعة من النصوص لمتكلم واحد ، فلابد من توسيع الدائرة لتشمل تقديم نص على نص .

غرض التقديم :

ثم انتقل الإمام إلى الحديث عن علة التقديم، وسرِّه البلاغي، فذكر رأي النحاة ، ولم يرتضِ اقتصارهم على العناية والاهتمام ، **فقال** :

(واعلمْ أنَّا لم نجدْهُم اعْتَمدوا فيه شيئاً يَجري مَجرى الأصل غيرَ العنايةِ والاهتمام .

قال صاحبُ " الكتاب وهو يذكرُ الفاعلَ والمفعولَ : " كأنَّهم يقدمون الذي بيانُه أهمُّ لهم وهم بشأنِهِ أعْنَى وإِن كانا جميعاً يُهمَّانِهِم ويَعْنيانهم "(١).

١ - الكتاب لسيبويه ١ / ٣٤ .

ولم يذكر في ذلك مثالاً ،وقد وقعَ في ظنونِ الناسِ أنه يكفـي أن يقـالَ : إِنه قُدِّم للعناية ، ولأنَّ ذكرَه أهمُّ ، من غير أن يُذْكرَ مِن أين كانت تلك العنايةُ وبمَ كان أهمَّ

والعجيب أن الخطيـب القزوينـي في الإيضـاح ذكـر أن أول علـة مـن تقديم المسند إليه على المسند هي الاهتمام ، ولعله كان يتحـدث عـن المبتـدأ ، لأنه لا مقتضى للعدول عن تقديمه في الكلام ، والحديث عن تقديم المبتـدأ لا يسلم لصاحبه ، لأن المبتدأ لا يقدم ، فمكانه بداية الجملة ، ولا يقال لمـا جـاء في مكانه إنه مقدم ، فلا أقول : قدم الفاعل على المفعـول ، وقـدم المبتـدأ عـلى الخبر ، لأن هذا مما يعاد فيه النظر ، حتى وإن احتوى على تشـويق ، **كـما قـال الخطيب في قول الشاعر:**

والـذي حـارت البَرِيَّـة فيـه　　　حيـوان مسـتحدث مـن جمـاد

لأن التشويق لم يكن في المبتدأ (الذي) بل في جملـة الصـلة : (حـارت البرية فيه)، وبعد ذلك عدد الخطيب بعض الأغراض التي لا تقف على ساق في أسباب تقديم المسند إليه ، مثل : تعجيـل المسرـة ، أو المسـاءة ، والتفـاؤل والتطير ، وهذا كله كلام لا يرجع إلى التقديم من حيث هو ، بل كلام يرجـع إلى دلالة الألفاظ ، أو سياقها ، وليس إلى التقديم والتـأخير ، فالحـديث عـن أغراض التقديم والتأخير عند الخطيب حديث عن أغراض الكلام ، ولـيس أغراض التقديم ، ولعله أراد ذلك حين كان يذكر الغرض ، ويعلق عليه بـأن فيه نظرا ، مما دفعه إلى الرجوع إلى الإمام عبد القاهر الجرجاني ليسير خلفـه في هذا الباب ، فلم يكتب أحد في التقديم والتأخير كما كتب .

يقول الإمام : واعلمْ أنَّ من الخطـأ أن يُقسَّـم الأمـرُ في تقـديمِ الشيـءِ وتأخيره قسمينِ فيجعلُ مفيداً في بعضِ الكـلامِ وغـيرَ مفيـد في بعـض . وأنْ يعلَّلَ تارةً بالعناية ، وأخرى بأنه توَسعةٌ على الشاعرِ والكاتـب، حتـى تطَّـردَ لهذا قوافيهِ ولذاك سجعُه)[1].

وأحسن مما ذهب إليه الإمام هو تعليله لرأيه ، واستدلاله لمنطقه ، فقال :

(ذاك لأنَّ منَ البعيد أنْ يكونَ في جملةِ الـنظم مـا يـدلُّ تـارةً ولا يـدلُّ أخرى . فمتى ثبتَ في تقديمِ المفعولِ – مثلاً – على الفِعل في كثيرٍ من الكـلامِ أنه قد اختصَّ بفائدةٍ ، لا تكونُ تلـك الفائـدةُ مـعَ التـأخيرِ ، فقـد وجـبَ أن تكونَ تلك قضيةً في كلَّ شيءٍ وكلَّ حال .) .

التقديم مفيد أبدا :

ثم انتقل الإمام ليشرح أبوابا تدل على ما ذهـب إليـه مـن أن التقـديم مفيد في كل كلام ، فجاء بالتقديم في حيز الاسـتفهام ، وفي حيـز النفـي ، وفي الخبر المثبت ، وتقديم النكرة ، وتقديم كلمتي : مثل وغير إلخ **يقول** :

التقديم في حيز الاستفهام

وهذه مسائلُ لا يستطيعُ أحدٌ أن يمتنعَ من التَّفرقةِ بينَ تقـديمِ مـا قُـدِّم فيها وتَرْكِ تقديمِه ، ومن أبْينِ شيء في ذلك الاستفهامُ بالهمزةِ ، فـإنَّ موضـعَ الكلام على أنك إذا قلت : (أفعلتَ) فبدأتَ بالفعل ، كـان الشـكُّ في الفِعـل نفسِه ، وكان غرضُك من استفهامِك أن تعلمَ وجودَه .

---

١ - دلائل الإعجاز ٩٧ .

وإِذا قلتَ : أأنتَ فعلتَ ، فبدأتَ بالاسمِ كان الشكُّ في الفاعِل مَن هو ؟ وكان التردُّدُ فيه).

فالأصل عند الإمام أنك حين تبدأ بالفعل بعد الهمـزة فالسـؤالَ عـن الفعل نفسِه والشكَّ فيه لأنك في جميع ذلك متردِّدٌ في وجودِ الفعل .

وحين تبدأ بالفاعل بعد الهمزة فالسـؤال عـن الفاعـل فتقـولُ : أأنـتَ بنيتَ هذهِ الدارَ ، أأنتَ قلتَ هذا الشعرَ ، أأنت كتبتَ هذا الكتابَ ، فتبدأ في ذلك كلِّه بالأسم .

ذلك لأنك لم تشكَّ في الفعل أنه كان ، كيف وقد أشرتَ إلى الدارِ مبنيةً ، والشعرِ مَقولاً والكتاب مكتوباً ، وإِنما شككتَ في الفاعل مَن هـو ؟ فهـذا منَ الفرقِ لا يدفعُه دافعٌ ولا يشكُّ فيه شاكٌّ.

وكذلك لو قلتَ : أبنيتَ هذه الدارَ ، أقلتَ هذا الشـعرَ ، أكتبـتَ هـذا الكتابَ ، قلتَ ما ليس بقولِ ، ذاكَ لفسادِ أن تقولَ في الشيـء المشـاهَدِ الـذي هو نُصْبَ عينيك : أموجودٌ أم لا ؟ .

ويؤكد الإمام هذه الفكرة ، ويلح عليها ، فـذكر مـا يترتـب عـلى هـذا الفهم في عرف البلاغة ، **فيقول** :

(ومما يُعلمُ به ضرورةً – أنه لا تكونُ البدايةُ بالفعل كالبداية بالاسم – أنك تقولُ : أقلتَ شعراً قط ، أرأيتَ اليومَ إِنساناً ، فيكونُ كلامـاً مسـتقيماً .)
ومعنى أنه كلام مستقيم ، أي من حيث البلاغة ، والمفهوم البلاغـي ، لأنـك حين شككت في الفعل جاز لك أن تجعل المفعول عاما (إنسانا – شعرا) لأن

الفعل لم يثبت ، ولم يتقرر ، أما إذا قدمت الفاعل ، وقلتَ :(أأنتَ قلتَ شعراً قطُّ ، أأنتَ رأيتَ إنساناً)أخطأتَ .

لماذا ؟ لأن تقديم الفاعل على الفعل ، جعل الفعل محل ثبوت ، فلا يتقدم الفاعل في اللسان الفصيح إلا بعد ثبوت الفعل ، وعليه لا يجوز التشكيك في الفاعل ، والفعل عام ، أما الفعل المخصوص فيجوز ، يقول الإمام : (وذاك أنه لا معنى للسؤالِ عن الفاعِل مَنْ هو في مثلِ هذا ، لأن ذلك إنما يُتَصور إذا كانتِ الإشارةُ إلى فعلٍ مخصوصٍ نحوُ **أن تقولَ** :

مَن قال هذا الشعرَ؟

ومن بنَى هذه الدارَ؟

ومن أتاكَ اليومَ ؟

ومن أذِنَ لك في الذي فعلتَ ؟

وما أشبَه ذلك مما يمكنُ أن يُنَصَّ فيه على مُعين .

فأما قيلُ شعرٍ على الجملة ورؤيةُ إنسانٍ على الإطلاق فمحالٌ ذلك فيه لأنه ليس مما يختصُّ بهذا دون ذاك) .

الاستفهام التقريري :

ثم ينتقل الإمام إلى مشهد آخر ، ودلالة أخرى للهمزة ، وهي دلالة التقرير، أو الإنكار ، والتي يسبغ بها السياق الهمزة وما دخلت عليه ، فيقول: (إذا قال المتكلم (أفعلتَ) فهو يقرره بالفعلِ من غيرِ أن يرددَه بينه وبين غيره وكان كلامهُ كلامَ مَن يُوهم أنه لا يدري أن ذلك الفعل كان على الحقيقةِ .

وإِذا قال : أأنت فعلتَ كان قد ردَّد الفعلَ بينهُ وبين غيره ، ولم يكنْ منهُ في نفس الفعل تردُّدٌ)فدخول الهمزة على الفعل ، يفيد أن التقرير في الفعل وهل حدث منك أم لم يحدث؟ ، فالفعل هو محل التقرير ، وسبب ذلك أن الفعل مازال في مكانه ، في أول الجملة الفعلية ، ولم يتحرك إلى الوراء ، فإذا تحرك الفعل من مكانه فهذا دليل على ثبوته ، فحين تقول أأنت فعلت ؟ ، فلقد أجريت عملية تحريك للفعل من مكانه ، ويرى الإمام أن تحريك الفعل من مكانه لا تتم إلا بعد ثبوته، ويكون التقرير ساعتها للفاعل ، أأنت أم غيرك ، ثم استدل الإمام على إثبات هذه الفكرة بأن المتكلم يأتي معها بالإشار إلى الفعل ، فيقول أأنت بنيت هذه الدار ؟ فوجود الإشارة (هذه) دليل ظاهر على ثبوت الفعل ، وما قيل (هذه الدار) إلا بعد تحريك ، وتغيير مكان الفعل من بداية الجملة إلى موضع آخر ، ولا ينبغي أن يغيب عنك هذا الأمر وأنت تناقش جميع دلالات الهمزة سواء كانت للاستفهام الحقيقي، أم للتقرير، أم للإنكار.

الاستفهام الإنكاري :

وفي دلالة الهمزة على الإنكار يقول الإمام :

(إِذا قُدَّم الاسمُ صار الإِنكار في الفاعل ومثالُه قولُك للرجل قد انتحلَ شعراً : أأنت قلتَ هذا الشعرَ ؟

كذبتَ لَسْتَ ممن يُحسِنُ مثلَه ، أنكرتَ أن يكون القائلُ ولم تُنكر الشعرَ)

ثم ينتقل الإمام إلى تركيب آخر ، لينظر فيه عند دخول الهمزة وهو دخول الهمزة على الفعل المضارع ، **فيقول** :

(وإذ قد بيَّنا الفرقَ بينَ تَقديمِ الفِعل وتقديمِ الاسم والفعلُ ماضٍ فينبغي أن يُنظَرَ فيه والفعلُ مُضارع .

والقولُ في ذلك أنك إذا قلتَ : (أتفعلُ ، وأأنت تَفْعلُ ؟) لم يَخْلُ من أن تريدَ الحالَ أوِ الاستقبال .

فإنْ أردتَ الحالَ كان المعنى شَبيهاً بما مضى في الماضي ، وإن أردتَ بـ " تفعل " المستقبلَ ،فالمعنى أنه لايكون ، أولاينبغي أن يكون ، **وراجع قول امرئ القيس** :

(أَيَقْتُلُنِي والمَشْرَفِيُّ مُضَاجِعي ومَسْنُونَةٌ زُرْقٌ كَأَنْيابِ أَغْوَالِ)

فالمعنى : لايكون ، وكذلك الحال في قول شاعر آخر :

(أَأَتْرُكَ إنْ قَلَّتْ دَراهِمُ خالِدٍ زِيارَتَهُ إنِّي إذاً لَلَئِيمُ)

أي : لايكون .

التقديم بين المتعلقات

ثم ينتقل الإمام إلى وجهة أخرى، وهي التقديم بين المتعلقات، وأول هذه المتعلقات : تقديم المفعول به في حيز الاستفهام.

فيقول :

(واعلمْ أنَّ حالَ المفعولِ فيما ذكرنا كحالِ الفاعلِ ، فإذا قلتَ : أزيداً تضربُ ، كنتَ قد أنكرتَ أن يكونَ زيدٌ بمثابة أن يُضرَبَ ، أو بموضعٍ أن يُجترأ عليه ويُستجازَ ذلك فيه ، ومن أجل ذلك قدَّم " غير " .

في قولهِ تعالى:

﴿ قُلۡ أَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيّٗا ﴾ [سورة الأنعام:١٤]، وقولهِ عزّ وَجَلَ : ﴿.....أَغَيۡرَ ٱللَّهِ تَدۡعُونَ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ٤٠﴾ [سورة الأنعام:٤٠]وكان له من الحُسن والمزيَّة والفخامة ما علمُ أنه لا يكونُ لو أُخرَ ، فقيلَ : قل أتتَّخذُ غيرَ الله ولياً ؟ وأتدعون غير الله ؟ ، وذلك لأنه حصل بالتقديم معنى قولك أيكون غير الله بمثابة أن يتخذ وليا ؟ وأَيرضى عاقلٌ من نفسهِ أن يفعلَ ذلك ؟، وأيكونُ جهلٌ أجهلَ وعمًى أعمى من ذلك ؟ ولا يكونُ شيءٌ مِن ذلك إِذا قيلَ : أأتَّخذ غيرَ الله ولياً وذلك لأنَّه حينئذٍ يتناولُ الفعلَ أن يكونَ فقط ، ولا يزيدُ على ذلك فاعرفْه .

وكذلك الحكمُ في قولِهِ تَعالى :

﴿ فَقَالُوٓاْ أَبَشَرٗا مِّنَّا وَٰحِدٗا نَّتَّبِعُهُۥٓ .....﴾ [سورة القمر:٢٤]، وذلك لأنَّهم بَنَوا كفرَهُم على أنَّ مَن كان مثَلهُم بشراً لم يكُن بمثابةِ أن يُتَّبعَ ويُطاع

التقديم في حيز النفي

ثم ينتقل الإمام من التقديم في حيز الاستفهام إلى التقديم في حيز النفي ليبرهن على اختلاف المعنى باختلاف ما دخل عليه النفي ، **فيقول** :

إذاقلتَ : ما فَعَلْتُ ، كنتَ نفيتَ عنك فِعْلاً لم يثبتْ أنه مفعولٌ .

وإِذا قلتَ : ما **أنا** فَعلتُ ، كنتَ نفيتَ عنك فِعلاً ثَبَتَ أنه مفعُولٌ .

تفسيرُ ذلك أنَّك إذا قلتَ : ما قلتُ هذا ، كنتَ نفيتَ أن تكونَ قد قلتَ ذاك . وكنتَ نُوظرتَ في شيءٍ ثبتَ أنّه مقولٌ .

وكذلك إذا قلتَ : ما ضربتُ زيداً . كنتَ نفيتَ عنك ضرَبه ، ولم يجبْ أن يكونَ قد ضُرِبَ بل يجوزُ أن يكونَ قد ضرَبه غيرُك وأن لا يكونَ قد ضُرِبَ أصلاً .

وإِذا قلتَ: ما أنا ضربتُ زيداً : لم تقلْه إلاّ وزيدٌ مضروبٌ ، وكان القصدُ أن تنفيَ أنْ تكونَ أنتَ الضَّاربَ .

ومن أجل ذلك صَلُح في الوجهِ الأول أن يكونَ المنفيُّ عامّاً كقولك: ما قلتُ شعراً قطُّ ،وما أكلتُ اليومَ شيئاً وما رأيتُ أحداً منَ الناس .

ولم يصلحْ في الوجهِ الثاني فكان خُلْفاً أن تقولَ: ما أنا قلتُ شِعراً قطّ وما أنا أكلتُ اليومَ شيئاً وما أنا رأيتُ أحداً من الناس ،وذلك لأنه يَقْتضي المُحالَ وهو أن يكون هاهُنا إنسانٌ قد قالَ كلَّ شعرٍ في الدُّنيا وأكلَ كلَّ شيء يُؤكُل ورأى كُلَّ أحدٍ من النّاس . فنفيتَ أن تكونه .

وهاهنا أمران يرتفعُ معهُما الشكُّ في وجوبِ هذا الفرقِ ويصيرُ العلمُ به كالضَّرورة **أحدهما** :

أنه يصحُّ لك أن تقولَ: ما قلتُ هذا ولا قالَه أحدٌ من الناس وما ضربتُ زيداً ولا ضربَه أحدٌ سواي ، ولا يصِحُّ ذلك في الوجهِ الآخر .

فلو قلتَ: ما أنا قلتُ هذا ولا قالَه أحدٌ من الناس ، وما أنا ضربتُ زيداً ولا ضربه أحدٌ سواي ، كان خُلْفاً من القول .

تقديم المفعول في حيز النفي :

ويجيءُ لك هذا الفَرقُ على وجهه في تقديمِ المفعولِ وتأخيرِه ، فإذا قلتَ : ما ضربتُ زيداً ، فقدمتَ الفعلَ كان المعنى أنك قد نفَيْت أن يكونَ قد وَقَعَ ضربٌ منك على زيدٍ ، ولم تَعْرِضْ في أمرٍ غيرِه لنفيٍ ولا إثباتٍ وتركتَه مُبهماً مُحتملاً .

وإذا قلتَ : ما زيداً ضربتُ فقدمتَ المفعولَ كان المعنى على أن ضرباً وقَعَ منك على إنسانٍ ، وظُنَّ أنَّ ذلك الإنسانَ زيدٌ ، فنفيتَ أن يكون إيَّاه .

العطف على جملة النفي :

ومما ينبغي أن تعلَمه أنه يصحُّ لك أن تقولَ: ما ضربتُ زيداً ولكني أكرمتُه فَتُعْقِبَ الفعلَ المنفيَّ بإثبات فعلٍ هو ضدُّه .

ولا يَصحُّ أن تقولَ: ما زيداً ضربتُ ولكني أكرمتُه،.وإذا قلتَ : ما أمرتُك بهذا ، كان المعنى على نفيِ أن تكونَ قد أمرتَه بذلك ، وإذا قلتَ : ما بهذا أمرتُك كنتَ قد أمرتَه بشيءٍ غيرِه).

التقديم في حيز الخبر المثبت

ولايكتفي الإمام عبد القاهر بضرب الأمثلة ، والنماذج للتقديم ، حيث يواصل الحديث ، **فيذكر الخبر المثبت ويقول:**

(واعلمْ أن هذا الذي بانَ لكَ في الاستفهام والنفي منَ المعنى في التقديمِ قائمٌ مثلُه في الخَبَرِ المُثْبَتِ .

فإذا عمدتَ إلى الذي أردتَ أن تحدث عنه بفعلٍ، فقدَّمتَ ذكرَه ، ثُمَّ بَنَيْتَ الفعلَ عليه ، فقلتَ : زيدٌ قد فعلَ ، وأنا فَعَلْتُ ، وأنتَ فعلتَ ، اقتضى ذلك أن يكونَ القصدُ إلى الفاعلِ.

إلاَ أنَّ المعنى في هذا القصدِ **ينقسمُ قسمين** :

أحدهُما : جليٌّ لا يُشْكلُ ، وهو أن يكون الفعلُ فعلاً قد أردتَ أن تنصَّ فيه على واحدٍ فتجعلُه له ، وتزعمُ أنه فاعلُهُ دونَ واحدٍ آخر ، أو دونَ كلَّ أحد .

ومثالُ ذلك أن تقولَ : أنا كتبتُ ، في معنى فلان ، وأنا شفِعْتُ في بابه ، تريدُ أن تدّعيَ الانفرادَ بذلك والاستبدادَ به ، وتُزيلَ الاشتباهَ فيه ، وتردَّ على من زعمَ أنَّ ذلك كان من غيرِك ، أو أنَّ غيرك قد كَتَبَ فيه كما كتبت ، ومن البيَّن في ذلك قولُهم في المثل : " أتُعْلمني بضَبٍّ أنا حَرَشْتُهُ " .

والقسمُ الثاني : أن لا يكونَ القصدُ إلى الفاعلِ على هذا المعنى ، ولكنْ على أنّك أردتَ أن تحقَّق على السامع أنَّه قد فَعَل ، وتمنَعَه من الشَكّ ، ... و ذلك من أجل أنه لا يُؤتى بالاسم مُعرَّى منَ العوامل إلاّ لحِديثٍ قد نُوِيَ إسنادُه إليه .

وجُمْلةُ الأمرِ أنّه ليس إعلامُك الشيء بَغتةً مثلَ إعلامِك له بعدَ التَّنبيهِ عليه والتَّقدمةِ له لأنَّ ذلك يَجري مَجْرى تكريرِ الإعلام في التأكيد والإحكام .

ومِمّا يَحْسُن ذلك فيه ويكْثُر الوَعْدُ والضَّمانُ كقولِ الرجل :أنا أعطيكَ ، أنا أكفيكَ ، أنا أقومُ بهذا الأمر ، **ويكْثُرُ في المدحِ كقول الشاعر** :

(نَحْنُ في المَشْتاةِ نَدْعُو الجَفَلى ...) ...إلخ.

واعلمْ أن هذا الصنيعَ يقتضي في الفعل المنفيَّ ما اقتضاهُ في المُثبتِ ، فإذا قلتَ : أنتَ لا تُحْسِنُ هذا ، كان أشدَّ لنفيِ إحسانِ ذلك عنه من أن تقول : لا تُحسنُ هذا ، ويكونُ الكلامُ في الأولِ مع من هو أشدُّ إعجاباً بنفسهِ وأعرض دعوى في أنه يحسنُ .

تقديم مثل وغير

يرى الإمام عبد القاهر أن كلمتي " مثل وغير " يتضح فيهما الفرق بين تقديم ما قدم وتأخير ما أخر ، لأن الجملة إذا بدأت بهذين اللفظين تحمل من الدلالات الكثير ، وذلك أنّ كلمتي "مثل" و"غير" تلازمان التقديم في التراكيب البليغة، إذا أُرِيد بهما الكناية عن الشخص الذي يجري الحديث عنه.

كأنْ تقول له:

* "مثْلُكَ لاَ يَبْخَل – مثلُكَ لا يقصر في فعل الخير – مثلك لا يترك الصلاة المفروضة عامداً" ، أي: أنت لا تفعل ذلك.

يقول الإمام : (ومما يُرى تقديمُ الاسم فيه كاللازم " مثلُ و غيرُ " في نحو **قول القائل** :

(مِثْلُكَ يَثْنِي المُزْنَ عن صَوْبِهِ ويَسْتَرِدُّ الدَّمْعَ عَنْ غَرْبِهِ)

والمعنى أن المزن حين يأتي أرضا ، ويراك فيها يستحي ، يولي راجعا ، لأنه لا يمكنه أن يعطي عطاءك ، ولا أن يجود بمثل جودك ، وفي الشطر الثاني يقول أيضا : مثلك يوقف دموع الحزانى ، والغرب هو العرق الذي يجري فيه الدمع فإذا رآك الحزين قلص دمعه ، ورجع سعده وسروره ، وأرجع دمعه إلى مصدره فلا يدمع .

وكذلك حكمُ **" غَير "** إذا سُلِك هذا المَسلكَ فقِيلَ : غيري يفعلُ ذاك على معنى أني لا أفعلهُ ، **كما قال:**

(غَيْرِي بأكْثَرِ هذا النّاسِ يَنْخَدِعُ) واستعمالُ " مثل " و " غير " على هذا السبيل شيءٌ مركوزٌ في الطباع وهو جارٍ في عادةِ كلِّ قومٍ . إلخ).

تقديم النكرة

ولا ينتهي الإمام عبد القاهر من حديثه عن نماذج الكلام إلا بعد الحديث عن النكرة إذا قُدِّمتْ على الفعل أو قُدِّم الفعلُ عليها ، فقال : إِذا قلتَ : أجاءَك رجلٌ ؟

فأنت تريدُ أن تسألهُ : هل كانَ مجيءٌ مِنْ أحدٍ من الرِّجالِ إليه ؟

فإِن قدَّمتَ الاسم فقلتَ : أرجلٌ جاءك ؟

فأنتَ تسالُه عن جِنْس مَنْ جاءه أرجلٌ هو أم امرأة ؟ فالسؤالُ عَنِ الفاعل يكونُ إما عن عينِهِ أو عن جنسِه ولا ثالثَ .

والنكرةُ لا تَدلُّ على عينِ شيءٍ فيسألُ بها عنه ، فإِنْ قلتَ : أرجلٌ طويلٌ جاءَكَ أم قصير؟ كان السؤالُ عن أن الجائي من جنسِ طِوالِ الرجالِ أم قِصارِهم ؟

وعكسُ هذا أنك إذا قلتَ : أرجلٌ أتاك أم رجلان ؟ كان القصدُ منك إلى كونِه واحداً دون كونِه رجلاً فاعرف ذلك أصلاً .

وتستطيع بعد كل هذا التحليل أن تجمع أغراض التقديم من خلال كل سياق ، وكل مقام ، فهو الحَكَمُ والمرجع في تحديد علة التقديم والتأخير .

التعريف والتنكير

توطئة : دائرة التعريف والتنكير مرهونة بالجملة ، والنظر إلى هذا باب يحكمه السؤال البدهي : متى يُعرَّف المسند إليه ، ومتى يُنكَّر ؟ ولا شك أن الوقوف على مواقع التعريف ، والتنكير ، والفرق بين أنواع المعارف باب شريف يحتاج إلى دربة ، فضلا عن ذكاء حس ، وتيقظ وعي ، فاللفظ الواحد يأتي مرة معرفا ، وأخرى نكرة لداع مقصود ، وغرض موجود ، ولحظ البلاغيون ذلك وعلموا أن الأصل في المسند إليه أن يحكم عليه ، والمحكوم عليه لا بد أن يكون معرفة ، لأنه لا يحكم على مجهول ، فتمام الفائدة في تعريفه ، مرتبطة باقتضاء المقام ، والأصل أن الحكم على معلوم ، فإذا اقتضى المقام تنكيره نُكِّر . ففي قول الله تعالى في قصة سيدنا يحيى **حين قال** :

﴿وَسَلَٰمٌ عَلَيۡهِ يَوۡمَ وُلِدَ وَيَوۡمَ يَمُوتُ......﴾ [سورة مريم:١٥]

وفي قوله تعالى في قصة سيدنا عيسى عليه السلام:

﴿وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوۡمَ وُلِدتُّ وَيَوۡمَ أَمُوتُ وَيَوۡمَ أُبۡعَثُ حَيّٗا ﴿٣٣﴾﴾ [سورة مريم:٣٣]

(قالوا: إن تنكير السلام في قصة يحيى عليه السلام ؛ لأنه وارد من جهة الله تعالى، أي سلام من جهة الله مغن عن كل تحية، ولهذا لم يرد السلام من جهة الله إلا منكرًا **كقوله تعالى**:

﴿سَلَٰمٞ قَوۡلٗا مِّن رَّبّٖ رَّحِيمٖ ﴿٥٨﴾﴾ [سورة يس:٥٨]

وقوله:

﴿قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهۡبِطۡ بِسَلَٰمٖ مِّنَّا ....﴾ [سورة هود:٤٨]

وقوله:

﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٖ فِي ٱلۡعَٰلَمِينَ ٧٩﴾ [سورة الصافات:٧٩]

وقوله:

﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِلۡ يَاسِينَ ١٣٠﴾ [سورة الصافات:١٣٠]

وأما تعريف السلام في قصة عيسى عليه السلام؛ فلأنه ليس واردًا على جهة التحية من الله تعالى، وإنما هو حاصل من جهة نفسه) (١).

ومن ذلك أيضا قوله تعالى في سورة :

﴿......بِأَنَّهُمۡ كَانُواْ يَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقۡتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّۗ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ ٦١﴾ [سورة البقرة:٦١]

حيث جاءت كلمة الحق معرفة لأنها تتحث عن أسلافهم من الكفار الذين لم يروا رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وكأن المعنى : بغير الحق الظاهر المعلوم للجميع ، لكن في سورة آل عمران قيل :

﴿.....إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٞۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٞ ذُو ٱنتِقَامٍ ٤﴾

وفي قوله تعالى :

﴿......وَيَقۡتُلُونَ ٱلۡأَنۢبِيَآءَ بِغَيۡرِ حَقّٖۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ ١١٢﴾

[سورة آل عمران:١١٢]

جاء لفظ الحق نكرة ، لأن المعنى على إنكار فعلهم حيث يقتلون النبيين بغير سبب ، فقوله : بغير حق يعني بغير سبب .

---

١ - خصائص التراكيب ص ١٤٣.

والمعارف في لغة العرب كثيرة ، منها :"الضمير – العلم – اسم الإشارة – اسم الموصول – المحلَّى بأل – المضاف إلى واحد من المعارف السابقة – ثم النكرة المقصودة في النداء" ، وأول صور التعريف هي:

التعريف بالعلم

وللتعريف بالعلم أغراض يرمي إليها المتكلم ، ويقتضيها السياق والمقام ومن هذه الأغراض :

١ – إحضاره في ذهن السامع باسمه الخاص ليمتاز عما عداه .

فللاسم سلطان على العقول حين يحضر ، حيث يرسم صاحبه دون ظلال ويعين حامله دون إشارات ،فلا يدل على شيء إلا على صاحبه مع تمام الوضوح لكنك إذا سترته وجئت بضميره ، أو بموصول يعبر عنه فإنك أردت ساعتها إضافة ظلال للاسم ليست في الاسم العلم ، **وانظر إلى قوله سبحانه :**

﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ﴿٢﴾﴾ [سورة الإخلاص:١-٢]

تجد الآية تأخذك إلى الاسم الصريح ، لأن المقام مقام ذكر النسب ونسب الله تعالى : أنه سبحانه واحد ، أحد ، فرد ، صمد ، وبدلا من أن يقال (هو الصمد) قال (الله الصمد) لزيادة التمكين .

وفي قوله تعالى:

﴿وَإِذۡ يَرۡفَعُ إِبۡرَٰهِـۧمُ ٱلۡقَوَاعِدَ مِنَ ٱلۡبَيۡتِ وَإِسۡمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلۡ مِنَّآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ١٢٧﴾ [سورة البقرة:١٢٧]

تلحظ التعريف بالاسم العلم " إبراهيم " ليتعين باسمه ، لأن إحضاره في الذهن يبقيه في الأسماع كل وقت ، ولذلك ترى القرآن الكريم يسلم على الأنبياء بأسمائهم ، فيقول " سلام على نوح – سلام على إبراهيم – سلام على إل ياسين ، ليظل السلام أبد الآبدين ، ومن جميل ذلك قول المتنبي ، وهو يبرهن على أهمية معرفة الأسماء :

مَنْ أَغْفَلَ الشِّعْرَ لَمْ تُعْرَفْ مَنَاقِبُهُ لاَ يُجْتَنَى ثَمَرٌ مِنْ غَيْرِ أَغْصَانِ

لَوْلاَ أَبُو الطَّيِّبِ الْكِنْديُّ ما امتَلأَتْ مَسَامعُ النَّاسِ مِنْ مَدْحِ ابْنِ حَمْدَانِ

فالتصق مدح سيف الدولة الحمداني ، بأبي الطيب ، بل التصق أبو الطيب بسيف الدولة ، فلا يذكر هذا إلا ويذكر ذاك .

٢ – إرادة التعظيم ، أو التحقير :

فقد يحمل الاسم معنى التعظيم، كما في قولهم: " قضية ولا أبو الحسن لها " فلما اشتهر سيدنا علي – رضي الله عنه – بالحكمة والعدل في القضاء ، كان استحضاره في أذهان الناس – عند استصعاب المسائل – شديدا فقيل هذا .

وقد يفهم معنى التحقير ، كما يقال : إنه أبو جهل ، يقصدون الغباء والكبر ، وهذا أبو لهب يقصدون الذم الباقي أبدا.

وقد يساعد السياق على فهم المراد من الاسم، **كما في قول القائل** :

فعباس عباس إذا احتدم الوغى والفضـــل فضـــل والربيـــع ربيـــع

فعند احتدام الوغي ، يحتاج الناس إلى الشدة ، والقوة ، وحين يكون عباس عباسا في هذا الوقت ، فقد وافق المقام ، وكان ينبغي للفضل ، والربيع أن يكونوا عبوسا وقت احتدام الوغى ، لكنهم كانوا فضلا ، وربيعا ، وهذا مما لا يحتاج إليه ساعتها.

ومن النماذج التي تؤكد تحمل العلم التعظيم والتحقير تبعا لقصد المتكلم ما ورد من أن اليهود هم الذين أطلقوا على سيدنا عيسى لقب : المسيح (تهكّماً عليه : لأنّ معنى المسيح في اللغة العبرية : المَلِك. وهو لقب قصدوا منه التهكّم ، فصار لقباً له بينهم . وقلب الله قصدهم فجعله تعظيماً له .

ونظيره ما كان يطلق بعض المشركين على النبي محمّد اسم مذمَّم ، قالت امرأة أبي لهب : مذمَّماً عصينا ، وأمره أبينا . فقال النبي ألا تعجبون كيف يصرف الله عنّي شتم قريش ولعنهم ، يشتمون ويلعنون مذمّماً وأنا محمد) [1].

٣ - التلذذ بالاسم :

فمن أحب شيئا أحضره على لسانه، كما في قول مجنون ليلى :

بالله يا ظبيات القاع قلن لنا ليلاي منكن أم ليلى من البشر

١ - التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور ٤ / ١٦٥ دار سحنون تونس .

وقوله :

كأن القلب غداة قيل يغدى ... بليلى العامرية أو يراح
قطاة عزها شرك فباتت ... تعالجه وقد علق الجناح
لها فرخان قد تركا بوكر ... فعشهما تصفقه الرياح
فلا بالليل نالت ما تمنى ... ولا بالصبح كان لها براح

وقوله :

قضاها لغيري ، وابتلاني بحبها ... فهلا بغير ليلى ابتلانيا

فالشاعر لا يكاد يقول شعرا إلاَّ ويذكر الاسم العلم لمحبوبته ، لأنه يجد من اللذة في ذكره ما لا يجده في الضمير أو غيره ، ففي اسمها راحة لنفسه ، ومن ذاق عرف .

٤ - التفاؤل أو التطير:

إن كان في العَلَم مايشير إلى ذلك ،مثل لفظ (سعد ، وسعيد ، ومسعود وسعاد وهناء ، ورحاب ... إلخ فيستخدم العلم ليدل على ذلك ، والعكس في الأسماء الدالة على ذلك مثل (أبو لهب – قحطان – قتيلة . إلخ) .

التعريف بالإشارة

في التعريف باسم الإشارة خصوصية لا تجدها في المعارف الأخرى ، وهي المشاركة بين المتكلم والسامع في إنتاج المعنى ، فكأن المتكلم لا يريد إخبار السامع بالمعنى ، ولكنه يريد منه أن ينظر إليه ، ويرى بنفسه المسند إليه ، ويتحقق بحواسه مما يقوله له ، فالإشارة تحمل المعنى الحسي للمعنى ، ورغبة المتكلم في إيصال هذا المعنى المحسوس إلى المخاطب ، **يقول ابن الدمينة يخاطب محبوبته :**

قفِي يا أُميمَ القلبِ تَقضِي لُبانـةً | ونشكُ الهوَى ثمَّ افعـلِي مـا بـدَا لـكِ
عدمتكِ من نفسٍ فأنتِ سقَيتِني | كؤوس الهوَى من حبِّ مَن لم يبالـكِ
هوِيتُ ولم تهوَى فأنـتِ سـقيمةٌ | ولا ذنـب لي أنـتِ ابتليـتِ بـذلكِ
فما لكِ من صبرٍ وما لكِ من نُهًى | ولا مـن عـزاءٍ فـاهلِكِي في الهوالـكِ
ليهنـكِ إمسـاكي بكفِّـي عـلى الحشَا | ورقـراقُ دمعـي خشـيةً مـن زِيالـكِ
فلو قلتِ طأْ في النَّـارِ أعلـمُ أنَّـه | هوًى منكِ أو مُـدْنٍ لنـا مـن نوالـكِ
لقدَّمتُ رِجلي نحوَهـا فوطئتُهـا | هُدًى منكِ لي أو ضلَّةً مـن ضـلالكِ
تعاللْتِ كي أشجَى وما بكِ علَّةٌ | تُريـدين قـتِلي قـد ظفـرتِ بـذلكِ
لئنْ سـاءَني ذكـراكِ لي بمسـاءةٍ | لقــد سرَّني أنِّي خطــرتُ ببالــكِ
أبيني أفي يُمنَى يـديكِ جعلتِنـي | فــأفرحَ أمْ صــيَّرتني في شــمالكِ
أحبُّ الصَّبا إن كنتِ من قِبَل الصّـبا | ونجــماً أراه طالعــاً مــن حِيالــكِ
وركْبٍ شِداد الوخْد بالنَّوم مُيَّلٍ | عمائمُهــم نبَّهــتهم مــن جلالــكِ
وبي لَـمٍ ممَّـا بهـم غـيرَ أنَّنـي | مُحـبٌّ وحاجـاتُ المحـبِّ كـذلكِ

راجع هذا البيت الذي قال فيه :تريدين قتلي ؟ قد ظفرت بذلك،وكان مقتضى الظاهر أن يقول: قد ظفرت بـه ؛ لأنـه لـيس بمحسـوس،فعدل إلى(ذلك) إشارة إلى أن قتله قد ظهـر ظهـور المحسـوس" ويحمـل أيضـا اسـم الإشارة من الأغراض الكثير ، **ومنها** :

١ – تمييزه أكمل تمييز :

وذلك بإحضاره في ذهن السامع بواسطة الإشارة الحسية، كأن يكون المقام للمدح ، فيكون أعون على كماله ، **وعليه قول الحطيئة:**

أولئك قوم إن بنوا أحسنوا البنى   وإن عاهدوا أوفوا وإن عقدوا شدوا

إنه يريد أن تنظر إليهم، حتى تراهم لتحكم لهم بأنهم أحسن الناس بناء وأوفى الناس عهدا ، وأعزم الناس قصدا ، ولا يريد منك أن تسمع ذلك بل تراه ، ومن هنا كانت الإشارة .

٢ – التعريض بغباوة السامع :

وذلك إذا كانت الأشياء لا تتميز لديه إلا بالإشارة الحسية ، كقول الفرزدق يهجو جريرا ، **ويفخر بآبائه:**

أولئك آبائي فجئني بمثلهم   إذا جمعتنا يا جرير المجامع

وكأن جريرا لا يرى ما يراه الناس، أو يلتفت إلى جهة أخرى غير جهة الناس،فلفته إلى الجهة التي يقف فيها آباؤه ليراهم .

٣ – القصد إلى التعظيم أو التحقير :

ففي رحم اسم الإشارة:

﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ ..... ﴾ [سورة الإسراء:٩]

أي هذا السفر العظيم

ومنه قول ابن الرومي :

هذا أبو الصقر فـردا في محاسـنه من نسل شـيبان بـين الضـال والسـلم (١)

وقول آخر :

أولئك قوم إن بنوا أحسنوا البنى وإن عاهدوا أوفوا ، وإن عقدوا شـدوا

وكأنه يقول لك : انظر إلى هذه الأفعال تراها فيهم .

وقد يراد باسم الإشارة التقليل والتحقير ، ومن ذلك قـول المشـركين {أَهَذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ} ، يقصدون التقليل من شأنه ، والتحقير من قدره فأشاروا إليه مستفهمين ، وكأن هناك من يذكره ، ويحدده ، وهـم لا يعرفونـه فادعاء تنكيره ، وأنه غـير معـروف جعلهـم يشـيرون إليـه ، لـيس لأنهـم لا يعرفونه فهو – عليه السلام – كان ملءُ السمع والبصر ، ولكـنهم صـنعوا صـنيع المتجاهل المتغابي .

التعريف بالموصولية :

(الذي – الّتِي – اللَّذَان – اللَّتَانِ – الأُولَى – الّذِينَ – اللاّتي – اللاّئي – مَنْ – ما – أيُّ – ألْ – ذو – ذا").

تلك هي الأسماء الموصولة، سواء منها ما يدل على الصلة بنفسه، أو ما له معنى خاص لكنه يحمل في رحمه دلالة الصلة .

وفي اسم الموصول خصوصية لا تجدها في المعارف الأخـرى حيـث يحمل غموضا – أي غموض – ثم يتم الإيضاح والتعريف بجملة كاملة

١ - الضال : شجر السدر البحري ... والسلم شجر ذو شوك ، والشاعر أراد أنه من نسل العرب الخلص الذي عاشوا في البادية ، ومنابتها .

تسمى جملة الصلة ، كما يحمل ضميرا في جملة الصلة يعود على اسم الموصول ، ومن أهم أغراض التعريف باسم الموصول **ما يأتي** :

١ - غياب الذات وحضور الصلة .

كما في قوله تعالى:

﴿ فَأَصْبَحَ فِي ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا ٱلَّذِى ٱسْتَنصَرَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُۥ ۚ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ ﴾ [سورة القصص:١٨]

فسيدنا موسى لا يعرف عن الرجل إلا أنه " الذي استنصره بالأمس " إنه الغويّ المبين الذي يريد أن يجعل من سيدنا موسى قاتلا مأجورا ، فما كان منه إلا أن وصفه بأنه غوي مبين .

٢ – إعلاء شأن الحدث على الاسم .

كما في قوله تعالى :

﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ ......ۚ ﴾ [سورة البقرة:١٨٥]

فأعظم ما يتصف به شهر رمضان ، هو أنه الشهر الذي نزل فيه القرآن الكريم ، فأوثر في تعريف الشهر بالصلة الأشهر .

٣ – الرغبة عن ذكر الاسم تعففا .

كما في قول النبيّ ﷺ :

"مَنْ يَضْمَنْ لِي ما بَيْنَ لَحْيَيْهِ وَمَا بَيْنَ رِجْلَيْهِ أَضْمَنْ لَهُ الجَنَّة" ، فما بين الرجلين معروف باسمه الخاص ، لكن التصريح به باعث على الحياء ، فأوثر التعريف بذكر الموضع دون ذكر الاسم ، وألحق به اللسان ، مشاكلةً .

٤ - التهويل والتعظيم .

وذلك كما في قوله تعالى :

﴿ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِۦ فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴿٧٨﴾ ﴾ [سورة طه:٧٨]

أي :فغشيهم من اليم شيء هائل ، لا يتصوره عقل ، ولا يحيط به فكر

ومن ذلك أيضا قوله تعالى :

﴿إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ﴿١٦﴾ ﴾ [سورة النجم:١٦]

أي : شيء عظيم لن تحيطوا به .

٥ – ستر الاسم تكرمًا :

وذلك كما في قوله تعالى :

﴿وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا .... ﴾ [سورة يوسف:٢٣]

فالتصريح بالاسم هنا لا يفيد إلا كشف العورات ، ولا شك أن القرآن الكريم يعلم الناس فضيلة ستر العورات ، فسَتَرَ الاسمَ، ولم يذكر عنها شيئا حتى شاع الأمر بين النساء ، فقلن:" امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه " فصرحن بما ستره القرآن الكريم.

وتستطيع أن تقول إن اسم الموصول يكتسب دلالته من جملة الصلة التي بعده ، وهي حبل ممدود لا ينتهي أبدا .

التعريف بالضمير .

اعتادت اللغة العربية على أنه لا يكون ضمير في اللفظ إلا إذا سبق بمذكور يعود عليه ، حتى لا ينبهم المراد ، ووجود الضمير في اللفظ دليل على حضور ما يعود عليه في ذهن المتكلم ، فضلا عن حضوره في الكلام ، فهو إذا

موجود ، وحاضر في ضمير المخاطب ، لذلك عدُّوه أعرف المعارف ، وهذا يعني أن المتكلم حين يؤثر الضمير ليكون بديلا عن المعرفات الأخرى إنما يريد من المخاطب أن يرجع إلى نفسه، وأن يكتشف ما سبق إلى قلبه .

ثم يأتي السياق ليوزع دلالاته في الضمائر الثلاثة (المتكلم ، والخطاب والغيبة) فضمير المتكلم ، ينقلك من النظر إلى الحروف والكلمات إلى النظر إلى المتكلم ، فهو ينقلك من المعنوي إلى الحسي ، ينقلك من فلان وفلان إلى أنا ونحن ، لتنظر إليه وهو يتكلم ، وكذا الحال في ضمير الخطاب ، لاحظ مثلا - حين تقول : إن زرتني أكرمتك ، وأنا الذي صدقتك ، ونحن الذين شاهدناكم تلحظ في كل ذلك الضمائر وهي تجسد لك الأشخاص ، وتحدد لك المعاني .

وقد يراد بضمير الخطاب العموم، كما تقول : فلان أصيل ، إن أسأت إليه أحسن إليك لا تريد أنه يحسن إليك خاصة ، بل لكل إنسان .

ومنه قول الله تعالى :

﴿ ٱنظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۖ وَكَفَىٰ بِهِۦٓ إِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٠﴾ ﴾ [سورة النساء:٥٠]

لا يريد مخاطبا بعينه، ولكن كل ناظر ، وكل صاحب عقل .

وفي قول النبي – ﷺ : (إذا سرتك حسنتك وساءتك سيئتك فأنت مؤمن) [١] لاشك أنه لا يخاطب واحدا بعينه ، ولكن كل من سرته حسنته وساءته سيئته ، ومع كل هذا إلا أن هناك أغراضا للتعريف بالضمير نص عليها العلماء ، **ومن أهمها :**

١ - المستدرك على الصحيحين للحاكم – كتاب الإيمان ١ / ٥٨.

١- إرشاد الناس إليه ، دون غيره :

وهذا تلحظه في موقف النبي – ﷺ – في غزوة حنين حين انفرط عقد المسلمين ، وركب المشركون ظهورهم قتلا ، فما كان منه إلا أن دعا الكفار إلى نفسه ، ووجههم تجاهه ليُعرضوا عن أصحابه ، فقال : " أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب " يقول النووي في شرحه لحديث مسلم : (وأعلمهم أيضا بأنه ثابت ، ملازم للحرب ، لم يول مع من ولى ، وعرفهم موضعه ؛ ليرجع إليه الراجعون.

ومعنى قوله ﷺ (أنا النبي لا كذب) أي أنا النبي حقا ، فلا أفر ولا أزول ، وفي هذا دليل على جواز قول الإنسان في الحرب : أنا فلان وأنا بن فلان ومثله قول سلمة : أنا بن الأكوع ، وقول علي رضي الله عنه :

أنا الذي سمتني أمي حيدره

وأشباه ذلك وقد صرح بجوازه العلماء ، وفيه حديث صحيح ، قالوا : وإنما يكره قول ذلك على وجه الافتخار ، كفعل الجاهلية)(١).

٢ – الفخر والتباهي :

ومن ذلك قول بشار مفاخرا بذيوع صيته :

أنا المرعث لا أخفى على أحد ذرت بي الشمس للقاصي وللداني

يصف نفسه بأنه ذائع الصيت ، لا يخفى على أحد ، تشير إليه بالبنان الأيادي .

١ - شرح النووي على صحيح مسلم ١٢ / ١٢٠.

وقول المتنبي :

أنا الذي نظر الأعمى إلى أدبي وأسمعت كلماتي من به صمم

فكل من الشاعرين يتباهى بذيوع صيته ، لكن بشار يتباهى بنفسه والمتنبي يتباهى بشعره ، وفي شعر بشار قصور في الشطر الأول ، لكن الشطر الثاني أزاح هذا القصور ، ورمى بنفسه في عين كل ناظر ، فلا يوجد صاحب عين يرى الشمس إلا ورأى بشارا ، لكن المتنبي يرسم لشعره قوة ذاتية تستطيع اختراق كل حاجز ، حتى أن الأعمى يرى، والأصم يسمع شعره !!!

٣ – إفادة القصر :

وذلك كما في قول الله تعالى :

﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ....﴾ [سورة يونس:١٠٧]

فالضمير هنا مع السياق أعطى دلالة القصر ، وزاد غرضا آخر وهو إعادة المخاطب إلى اسم الله المذكور من قبل ، لأن ضمير الغيبة يلجئ المخاطب إلى الرجوع لما يعود عليه الضمير ليتبين قدره ، فيرى ما في الاسم من قوة فيقر نفساً ، ويهدأ حالا ؛ لأن الكرب زائل لا محالة .

٤ – إرادة العموم :

وهذا من الأغراض التي تحتاج إلى وقفة ، لأن الأصل في الضمير أنه يفيد التحديد ، لكن هناك ضمائر يراد منها العموم بمصاحبة السياق ، **ومن ذلك قوله تعالى :**

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴿١٢﴾﴾ [سورة السجدة:١٢]

وقوله تعالى :

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ بِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَلَا بِٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ ۗ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿٣١﴾﴾ [سورة سبأ:٣١]

فالضمير في (إنا موقنون،) و (لولا أنتم) لا يراد منه مخاطبا معينا، كما يقصد من كل خطاب، وإنما عموم المجرمين، وعموم الظالمين ، فكل من يرى وينظر يراهم لشهرتهم ، **ومن ذلك قول الشاعر :**

إذا أنت لم تحفظ لنفسك حقها   هوانا بها كانت على الناس أهونا

وقول آخر :

إذا أنت أكرمت الكريم ملكته   وإن أنت أكرمت اللئيم تمردا

(فأنت) في كل ذلك لا يراد بها: أنت، وإنما يراد بها كل سامع ، وكل ناظر .

التعريف بالإضافة

يؤتى بالمسند إليه معرفا بالإضافة كثيرا، ومن وراء هذه الإضافة أغراض كثيرة يحملها المضاف إليه، **ومن أهم هذه الأغراض :**

١ - الرغبة في الإيجاز، فالسبب المباشر للتعريف بالإضافة، والذي تراه خلف كل إضافة هو الإيجاز، لأن الإضافة تغني عن تفصيلات كثيرة

كقول الشاعر عن قومه:

بنو مطر يوم اللقاء كأنهم أسود لها في غيل خفان أشبل

يعني قومه الذين من شأنهم: أنهم أسود يوم اللقاء، ولهم أشبال، وكذا وكذا.

وقول آخر:

هواي مع الركب اليمانين مصعد جنيب وجثماني بمكة موثق

ومعنى:هواي، أي: التي أهواها، يريد إبراز أسفه وحزنه لفراقها، وقد صار وحيدا بمكة، وحبيبه باليمن وانظر إلى هذا الكم من الألم الموجود خلف الإضافة **في قول الشاعر:**

قومي هم قتلوا أميم أخي فإذا رميت يصيبني سهمي

فلئن عفوت لأعفون جللا ولئن سطوت لأوهنن عظمي

يقول الشيخ أبو موسى معلقا (قال: قومي ولم يذكر أسماءهم؛ لأنه لو فعل ذلك لأوغر صدورهم عليه، وعندنا أن هذه الإضافة وراءها معنى أكبر من هذا؛ لأنها ترشد إلى بشاعة جريمتهم، وترمز إلى ما في قلبه من الأسى، فإن الذين قتلوا أخاه هم قومه الذين إذا أصابتهم رميته، فإنما تصيبه معهم، الإضافة كما ترى إضافة القوم القاتلين إلى النفس الموجوعة بهذا القتل، وقد مر بنا هذا البيت، وتأمل التناقض والتضارب الذي بني عليه البيت، والذي يكاد يتفجر به الشعر والشاعر)[1].

---

١ - خصائص التراكيب ص ١٨١.

والإضافة تستمد دلالتها من المضاف إليه، فإن كان المضاف إليه يحمل التعظيم أفادت الإضافة تعظيما، **كما في قول الله تعالى**:

﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبۡدُ ٱللَّهِ يَدۡعُوهُ كَادُواْ يَكُونُونَ عَلَيۡهِ لِبَدٗا ١٩﴾ [سورة الجن:١٩]

لم يقل (محمد) ولكنه أضافه لاسمه العظيم، ليشير إلى كمال العبودية التي تحوي كمال الذل ، مع كمال الحب ، فهو أحب الناس إلى الله ، لأنه أكثرهم له ذلا ، وخضوعا ، فاستحق لقب العبودية لله رب العالمين ، فالإضافة هنا تشريف أيّ تشريف .

التعريف بالألف واللام .

تفيد " أل " المعرفة أمرين: العهد ، أو الجنس . ومعنى إفادتها للجنس أنها تبين حقيقة الشيء من غير نظر إلى عموم أو خصوص، ولا يصح استعمال كلمة " كل " مكانها وذلك كم **في قول الله تعالى** :

﴿...... وَجَعَلۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ كُلَّ شَيۡءٍ حَيٍّۚ أَفَلَا يُؤۡمِنُونَ ٣٠﴾ [سورة الأنبياء:٣٠]

أي : من جنس الماء ، ولام الجنس تقترب كثيرا من النكرة لما فيها من معنى العموم ، فحين تقول – مثلا – لصاحبك : (ادخل السوق) تريد تاجرْ ، واشتغلْ بالبيع والشراء ، فأنت لا تقصد سوقا بعينه ، إنما تقصد أن يعمل في الأسواق .

ومن هذا الباب قول الشاعر :

ولقد أمر على اللئيم يسبني فمضيت ثمت قلت لا يعنيني

فلا يقصد هنا لئيم محدد ، ولكن من طبع اللئام شتم الناس ، والتعرض لهم في الطرقات ، مما يعني أن اللفظ يحمل معنى العموم ،وقد تفيد

لام الجنس معنى الاستغراق للأفراد ، وهذه اللام يصح وضع كلمة (كل) مكانها كما في **قول الله تعالى** :

﴿ .....**وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا** ﴿٢٨﴾ ﴾ [سورة النساء:٢٨]

أي كل إنسان .

وهناك استغراق جزئي ، وهو الذي يشمل الأفراد في زمان معين أو مكان معين ، كما تقول : حضر العلماء ، أو جاء الناس إلى اللقاء

وقوله تعالى :﴿ وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ ..... ﴾ [سورة الأعراف:١١٣]

أي : سحرة مصر في هذا الوقت .

اللام العهدية :

حين يتقدم ذكر للفظ في الكلام ، ثم يعبر عنه باللام تكون هذه اللام لام العهد الذكرى ، **كما في قول الله تعالى** :

﴿ .....كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ ..... ﴾

[سورة المزَّمل:١٥-١٦]

وعلامته : صحة وقوع الضمير موقعه ، أي تقول فعصاه .

وهناك عهد ذهني ، أو علمي ، وهذا العهد لم يسبق ذكره في اللفظ لكنه معلوم من الواقع ، **كما في قوله تعالى**:-

﴿.....**إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ** ...... ﴾ [سورة التوبة:٤٠]

فالغار لم يسبق ذكره لكنه معلوم للناس ، **وكذلك قوله** :

﴿.....**إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ** ..... ﴾ [سورة الفتح:١٨]

وعليه فإن المتكلم البليغ يختار لكل سياق ما يناسبه من هذه اللامات المعرفة .

ومن نماذج لام العهد قوله تعالى :

﴿..... وَلَا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [سورة الأنبياء:٤٥]

فالألف واللام في (الصم) تشير إلى المنذرين **في قوله تعالى:**

﴿قُلْ إِنَّمَا أُنذِرُكُم بِالْوَحْيِ ....﴾ [سورة الأنبياء:٤٥]

التنكير

النكرة لفظ يطلق على القليل والكثير، ويطلق على المعنى الشائع، مثل كلمات : مسجد – كتاب – جامعة قلم ..إلخ أو **كما يقول الإمام**:(ما عم شيئين فأكثر ، وما أريد به واحد من جنس لا بعينه) [1].

أما أسباب اختيار النكرة ، فكثيرة تعود إلى سياقها ومقامها ، لأن التنكير يفيد المعنى ، ويفيد ضده ، **فالعرب تقول:** "إن له إبلا وإن له غنما" يريدون بذلك : الكثرة.

وقد يفيد معنى التقليل ، **ومنه قوله تعالى:**

﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ......﴾

[سورة التوبة:٧٢]

١ - أسرار البلاغة للإمام عبد القاهر ص ١٩١.

فكلمة " رضوان " تعني : قليل من رضوان الله أكبر من نعيم الدنيا ، ومن كل نعيم آخر ، **وصدق الشاعر حيث قال :**

قليل منك يكفيني ولكن قليلك لا يقال له قليل

وللتنكير أغراض بلاغية كثيرة ، منها :

١ - إرادة الجنس .

كما تقول جاءني رجل ، أي ليس امرأة ، **ومن ذلك قوله تعالى :**

﴿وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ ....﴾ [سورة القصص:٢٠]

ليس المراد – كما أرى – إلا وصف ما حدث بأن الذي جاء رجل ولم يكن صبيا ، أو شابا ، أو امرأة ، أو غير ذلك من الأمور التي تحدد ملامح القادم من أقصى المدينة ، وبعض الدعاة يرسمون صورة لهذا القادم على أنه يتحلى بالرجولة ، واكتمال الهمة ، وتمام الدعوة ، وغير ذلك من الصفات التي يلحظونها في الرجولة – الصفة - وهذا محمود في مجال الدعوة ، وإن لم يكن عليه دليل في علم البلاغة ، إلا إذا كان السياق أو المقام في ذكر الصفات المحمودة في الإنسان .

٢ - إرادة الإفراد .

حين يُظن أن القادم اثنان، فتقول : جاءني رجل ، تقصد : ليس رجلين

٣ - الخوف عليه .

قد يكون المراد من التنكير إخفاء شخص المتحدّث عنه للخوف عليه كما في قوله سيدنا أبي بكر – رضي الله عنه - حين سئل عن رسول الله – صلى الله عليه وسلم "

هاد يهديني الطريق " ، فقد أخرج الإمام أحمد في مسنده (عن أنس قال : لما هاجر رسول الله ﷺ كان رسول الله ﷺ يركب ، وأبو بكر رديفه و، كان

أبو بكر يُعرَف في الطريق ، لاختلافه إلى الشام ، وكان يمر بالقوم فيقولون : من هذا بين يديك يا أبا بكر ؟ فيقول : هاد يهديني)[1].

راجع هذا اللفظ " هادٍ " لتعلم كيف هُدي إليه أبو بكر في لحظتها وما هداه إلى هذا اللفظ إلا الهادي – سبحانه .

٤ – الدلالة على نوع خاص .

وذلك نحو قول الله تعالى :

﴿ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٧﴾ ﴾ [سورة البقرة:٧]

فتنكير كلمة (غشاوة) دل على أن المقصود نوع خاص منها، تعمي أعينهم عن رؤية النور الذي تراه كل العيون .

ومن ذلك قول الشاعر :

لكل داء دواء يستطب به … إلا الحماقة أعيت من يداويها

والمعنى : لكل داء دواء خاص يعالجه ، ويذهب بما فيه من آلام ، فتنكير كلمة (دواء) لإرادة الخصوصية ، فليس كل دواء يصلح لكل داء ، ومنه قوله تعالى :

١ - مسند الإمام أحمد ٢ / ٢٢٣.

﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ ......﴾ [سورة البقرة:٩٦]

تجد المجرور هنا جاء نكرة ليشير إلى حرصهم على أي حياة ، المهم أن يحيى ولا يموت ، وقد يفهم من اللفظ أنهم حريصون على نوع خاص من الحياة المتطاولة ، التي ينعمون فيها ويفرحون .

٥ – التكثير .

قد يكون المراد من التنكير هو التكثير، **كما في قوله تعالى :**

﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَآءُو بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ ﴿١٨٤﴾﴾ [سورة آل عمران:١٨٤]

فما من نبي إلا كذبه قومه ، وأخرجوه ، وآذوه ، رغم مجيئهم بالبينات واستحضار هذه المعني يخفف عن رسول الله ﷺ، ويثبّته ويجعله يستحضر هذه السلسلة الشريفة ، وما تعرضوا له ، وأنه لم يكن بدعاً من الرسل ، فيهدأ بالاً ، ويقر حالاً .

٦ – التقليل .

وقد يكون القصد إلى التقليل والتصغير والتحقير **كما في قوله تعالى :**

﴿يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ وَإِنَّ ٱلْءَاخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ﴾ [سورة غافر:٣٩]

فكلمة " متاع " تشير إلى حقارتها، وقلة شأنها ، وليت الدنيا إلا هذا .

وهناك أغراض أخرى كثيرة تحملها النكرة بمعاونة السياق والمقام تستطيع أن تقف عليها حين تتفرس في الكلام ، وتحيط بالغرض الذي يرمي إليه والمقام الذي قيل فيه ،ثم تقف على سياقه العام والخاص ، وليس هذا بالصعب ولا البعيد .

الخروج على مقتضى الظاهر

الكلام إما أن يراعى فيه الأحوال، فيطابقها ، وإما أن يعرض المتكلم عن هذه الأحوال ، ولا يعتد بها ، ويضع الكلام على خلافها ، لاعتبارات يراها هو ، ومن ذلك الجمل الواقعة عقب الأمر أو النهي، **كقول الشاعر** :

وتشبهوا إن لم تكونوا مثلهم   إن التشبه بالرجال فلاح

فجملة (إن التشبّه بالرجال فلاح) جاء لتعليل هذا الأمر ، وكأن المخاطب أراد أن يعرف العلة التي تدفعه إلى هذا التشبّه ، فقيل له : إن التشبه بالرجال فلاح ، **ومنه أيضا قول الله تعالي** :

﴿ .....وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾ ﴾ [سورة القصص:٧٧]

وقوله: (أقم الصلاة إن الصلاة كانت على المؤمنين كتابا موقوتا) .. وهذا السمت الذي ترى فيه أمرا ، أو نهيا ، نصحا ، أو إرشادا ، تراه يعقبه في غالب الأحوال جملة مؤكدة ، كأنها استشعرت قلقا من الطلب ، أوترددا في التنفيذ فأعقبت الطلب بهذه الجملة المؤكدة ، وللخروج صور كثيرة ، **وأول هذه الصور** :

١-تنزيل غير السائل منزلة السائل :

وأول ما يظهر على صفحة الذهن لهذا الأمر ما روته كتب البلاغة والنقد في القصة المشهورة التي قبّلَ فيها خلفُ الأحمر رأسَ بشار ، وفيها أن أبا عمرو بن العلاء، وخلف الأحمر كانا يأتيان بشارا فيُسلّمان عليه بغاية

الإعظام ، ثم يقولان : يا أبا معاذ ، ما أحدثت؟ – يعني : ماذا قلت من الشعر حديثا ؟ فيخبرهما وينشدهما، ويكتبان عنه متواضعيْنِ له، حتى يأتي وقت الزوال، ثم ينصرفان. فأتياه يوما، فقالا: ما هذه القصيدة التي أحدثتها في ابن قتيبة؟ قال: هي التي بلغتكما، قالا: بلغنا أنك أكثرت فيها من الغريب**!!** قال: نعم، إن ابن قتيبة يتباصر بالغريب؛ فأحببت أن أورد عليه ما لا يعرف، قالا: فأنشدناها يا أبا معاذ، **فأنشدهما** :

بكـرا صـاحبي قبـل الهجـير   إن ذاك النجـاح في التبكـير

حتى فرغ منها، فقال له خلف: لو قلت يا أبا معاذ مكان "إن ذاك النجاح" (بكرا فالنجاح في التبكير)كان أحسن ، فقال إنما قلتها يعني قصيدته أعرابية وحشية فقلت أن ذاك النجاح في التبكير كما يقول الأعراب البدويون ولو قلت بكراً فالنجاح في التبكير كان هذا من كلام المولدين ولا يشبه ذلك الكلام ولا يدخل في معنى القصيدة التي قلتها فقام خلف وقبل بين عينيه) (١).

فقد أدرك بشار أن الأمر في (بكـرا) يحتاج إلى محفزات ، وهذا شيء مركوز في الفطرة ، فالنفس البشرية إذا أمرت احتاجت إلى مثيرات لها لتقوم بتنفيذ هذا الأمر ، تلك فطرة النفوس الأصيلة ، التي تعرف قدر الكلام وقيمته ، وهذه المثيرات لا بد أن تُؤكَّد ، لأن المثيرات علل وأسباب تقرب الأمر من القبول فأكد، ولو قال:(فالنجاح) من غير توكيد لبعد عن

١ ـ انر كتاب الأغاني ١/ ٩٠ .

متطلبات النفس ، وعلى هذا فعبارة بشار مطابقة لحاجات النفس ، وأقرب إلى الكلام العربي القديم .

وهذا النسق كثير في القرآن الكريم ، **وراجع قول الله تعالى :**

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٞ ١﴾

[سورة الحج:١]

وقوله تعالى:

﴿.....إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَاۖ .....﴾

[سورة التوبة:٤٠]

وقوله تعالى:

﴿قُلْ أَنفِقُواْ طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْۖ إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ٥٣﴾

[سورة التوبة:٥٣]

وقوله سبحانه:

﴿......وَلَا تُخَٰطِبْنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْۚ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ٣٧﴾ [سورة هود:٣٧]

فكل ذلك من قبيل القطع والاستئناف، وهو لا يكون إلا عند الكلام الشديد الأهمية،الذي تتحفز له النفوس وتتأهب لملاقاته،مما يحوجها إلى التوكيد .

٢-تنزيل المنكر منزلة غير المنكر .

فيأتي الكلام خاليا من أدوات التوكيد ، لعدم الاعتداد بهذا الإنكار، أو أن المتكلم يرى أنه لا يحق له هذا الإنكار إذا تأمل ونظر ، فالعلاقة هنا قد انفصلت بين المتكلم والمخاطب ، ومطابقة الكلام لمقتضى الحال حدث فيها

شرح ، لأن المتكلم لم يلتفت ، ولم يعبأ بهذا الحال ، وأتى بـالكلام عـلى ما يراه

هو ، لا ما يتطلبه المقام ، يقول الشيخ أبوموسى : (وهذا فـن دقيـق لا يهتدى إلى مسالكه إلا بصير بسياسة الكلام، ثم إن له أثره الغالـب في الـنفس حين تجـد الكـلام الـذي يواجـه الـرفض، والجحـود خاليـا مـن الاحتفـال والتوكيد، خافت النبرة، هامسا بالحقيقة في غير جلجلة وضجيج، وتجد هـذا في كتاب الله كثيرا جدا.

انظر قوله يخاطب المؤمنين والمنكرين:

﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ٱلْمَلِكِ ٱلْقُدُّوسِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ۝١﴾

[سورة الجمعة:١]

لا تجـد في هـذا الخـبر العظـيم الـذي يفيـد أن كـل مـا في السـموات والأرض من ناطق، وصامت وجبـال وبحـار، وكواكـب كـل ذلـك يسـبح للملك القدوس هذا خبر يرجّ النفوس رجًّا، ثم هو منكور عنـد الجاحـدين، ولكن القرآن لم يعبأ بهذا، وسـاق الحقيقـة الضـخمة في هـذا الهـدوء الواثـق الحكيم.

ومثله قوله تعالى:

﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ۝٢﴾ [سورة غافر:٢]

وقوله:

﴿لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ۝٥﴾ [سورة الحديد:٥]

وقوله: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ .....﴾ [سورة الفتح:٢٩]

وقوله: ﴿... قُلْ هُوَ رَبِّي ...﴾ [سورة الرعد:٣٠]

وقوله: ﴿.....اللَّهُ رَبُّنَا .....﴾ [سورة الشورى:١٥] (١).

فعلى الرغم من أن هذه القضايا أنكرها المشركون إلا أنها سيقت هنا دون توكيد ، لأنك لا تجد لهم دليلا على إنكارهم ، ولذلك تقول لمن ينكر الإسلام : الإسلام حق ، كذا دون التفات لإنكاره ، أو اعتراضه ، فلا قيمة له

وليس هذا النمط من القول بعيدا عن الشعر، بل هو أصل فيه ، **وانظر أولا إلى المتنبي وهو يمدح سيف الدولة :**

(بغيرك رَاعيا عَبث الذئاب وَغَيْرك صَارِمًا ثلم الضراب)
وتملك أنفس الثقلين طرا فكيف تحوز أنفسها كلاب؟
(وَمَا تركوك مَعْصِيّة وَلَكِن يعاف الْورْد وَالْموْت الشَّرَاب)
(طلبتهم على الأمواه حَتَّى تخوف أَن تفتشه السَّحَاب)
(فَبت لياليا لَا نوم فِيهَا تخب بك المسومة العراب)
(يهز الجَيْش حولك جانبيه كَمَا نفضت جناحيها الْعقَاب)
(وتسأل عَنْهُم الفلوات حَتَّى أجابك بَعْضهَا وهم الجَواب)
(وَمَا جهلت أياديك الْبَوَادِي وَلَكِن رُبمَا خَفِي الصَّوَاب)
(وَكم ذنبٍ مولده دلالٌ وَكم بعدٍ مولدة اقتراب)
(وجرمٍ جَرّه سُفَهَاء قومٍ فَحل بِغَيْر جارمه الْعَذَاب)

---

١ - خصائص التراكيب .

(وَلَو غير الْأَمِير غزا كلابا ... ثناه عَن شموسهم ضباب)
(ولاقى دون ثايهم طعانا ... يلاقي عِنْده الذِّئْب الْغُرَاب)
(وخيلاً تغتذي ريح الموامي ... ويكفيها من المَاء السراب)
(وَلَكِن رَبهم أسرى إِلَيْهِم ... فَمَا نفع الْوُقُوف وَلَا الذّهاب)
(وَلَا ليلٌ أجن وَلَا نهارٌ ... وَلَا خيلٌ حملن وَلَا ركاب)
(رميتهم ببحرٍ من حديدٍ ... لَهُ فِي الْبر خَلفهم عباب)
(فمساهم وبسطهم حَرِير ... وصبحهم وبسطهم تُرَاب)
(وَمن فِي كَفه مِنْهُم قناة ... كمن فِي كَفه مِنْهُم خضاب)

والمتنبي في هذه القصيدة يعرض المعاني التي ينكرها العقل والنقل ،ويرفضها القريب والبعيد ، وتحتاج إلى جوش من المؤكدات ، يعرضها هو كأنها مسلمات ، لا تحتاج إلا أن تذكر فقط ، وراجع معي هذه المعاني لتعرف كيف يعرض المتنبي عن كل منكر ، وكيف يترفع عن كل معترض ، وكيف يبسط معانيه العجيبة دون توكيد وكأنه يقول لك الشيء الواضح الذي يقر به كل ذي عقل ، انظر إلى قوله : (وتملك أنفس الثقلين طرا) كذا !! ، بل يتعجب من ادعاء قبيلة (كلاب) أنها تملك أنفسها ، وتهرب من المعركة ،لا حظ إن بني كلاب يهربون من المعركة نجاة بأنفسهم من ملاقاة جيش سيف الدولة ، فهل تملك بني كلاب أنفسها ؟! إنها ملك سيف الدولة الذي يملك أنفس الثقلين جميعا ، هل رأيت معنى كهذا يلقى هكذا ، على آذان المستمعين ، لكنه المتنبي وادعائه أن معناه هذا من المسلمات .

ثم راجع قوله :

ومـــن في كفــه مـــنهم قنـــاة　　　كمـــن في كفـــه مـــنهم خضـــاب

وكيف وصف الرجال بأنهم مثل النساء دون أن يحشد لهذا المعنى شـيئا من المؤكدات وكأنه مسلمة من المسلمات .

إن إيمان المتكلم بمعناه ، واعتقاده بأنه ثابت لا يشك فيه – رغم غرابته – يجعله يأتي به دون توكيد ، ولو ترك الأمر لطبيعته لجمعت له من المؤكـدات ما تنوء به الصفحات .

وقوله الحطيئة : "من الطويل"

تزور فتى يعطي على الحمد ماله　　　ومــن يعــط أثــمان المكــارم يحمــد

تزور فتى يعطي على الحمد ماله　　　ويعلـــم أن المـــرأ غـــير مخلـــد

يرى البخل لا يبقي على المرء ماله　　　ويعلـــم أن المـــرء غـــير مخلـــد

كسـوب مـتلاف إذا مـا سـألته　　　تهلـــل واهتـــز اهتـــزاز المهنـــد

متى تأته تعشـو إلى ضـوء نـاره　　　تجـد خـير نـار عنـدها خـير موقـد

وراجع هذه المعاني التي خلـت مـن كـل توكيـد رغـم إنكارهـا لأنهـا تتحدث عن أفضل الناس ،وخير الناس ، وهذا أمر لا يدعيه أحد ،وانظر إلى قوله (تجد خير نار ، عندها خر موقد) هكذا خير الناس هو الممدوح ، دون توكيد .

فالمعاني التي تنكرها المسامع لا شك تحتاج إلى حشد المؤكدات لها ، أما إذا أرسلت غفلا من أي توكيـد فـاعلم أن قائلهـا لا يلتفـت إلى إنكـار ، ولا يتحدث إلا بما يراه في نفسه هو .

٣ – تنزيل غير المنكر منزلة المنكر :

وهذا على خلاف السابق ،فهناك كان مقتضى الحال يستلزم التوكيد فيعرض المتكلم عن ذلك ، ويسوق كلامه مساق الحقائق المسلمة التي لا تستدعي مجرد أداة توكيد واحدة ، أما الذي معنا الآن فهو حشد المؤكدات على المعاني التي لا ينكرها أحد ، مما يعني خروج الكلام على خلاف مقتضى الحال ، **ومن ذلك قول حجل بن نضلة الباهلي:**

جاء شقيق عارضا رمحه إن بني عمك فيهم رماح

وهذه الهيئة هيئة تستفز كل ناظر ، لأن فيها أكثر من معنى ، **ففيها** : استهزاء وتهكم ، وفيها إعجاب بالنفس ،وعلى الرغم من أنه لا ينكر وجود رماح في بني عمه ، إلا أن وضعه لرمحه عرضا ، جعله لا ينظر إلى رماحهم إلا أنها ليست برماح ، والشاعر كأنه يعظه ، ويحذره تماما كما تقول لتارك الصلاة : والله إن الصلاة لواجبة ، تجعله منكرا ، مع أنه لا ينكر في الحقيقة لكن فعله فعل المنكر ، ومن ذلك قول الله تعالى لرسوله ﷺ :

﴿ فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ ﴾ [سورة الروم:٥٢]

والرسول لا ينكر هذا ، لكن فعله وإلحاحه في دعوتهم ، ومبالغته في حشد المرغبات لهم جعله كأنه يريد أن يسمع الصم ، أو يهدي العمي .

وعليه يجب أن تتذكر أن توكيد الكلام وعدم توكيده يرجع إلى حال المخاطب ، فإن كان خالي الذهن أرسل له الكلام إرسالا ، دون مؤكدات ، وإن كان مترددا أكد له الكلام بمؤكد واحد ، وإن كان منكرا وضع له في الكلام من المؤكدات ما يناسب درجة إنكاره ، وقد يخرج الكلام على خلاف

هذا الأصل فينزل كل واحد من هؤلاء مكان صاحبه ، لأن المتكلم لا يعتبر هذه الحالة عند المخاطب ، بل يعتبر حالته هو ، ورؤيته هو ، وإحساسه هو ، ولكل فن من ذلك سياقته التي تحتاج إلى النظر والتدبر .

وأعرض عليك الآن نماذج دون تعليق لتنظر إليها وتحاول أن تضعها **حيث ينبغي وضعها على وفق ما بينت لك :**

قال تعالى:

﴿رَبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ ......﴾

[سورة إبراهيم:٣٧]

وقال تعالى :

﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعۡلَمُ مَا نُخۡفِي وَمَا نُعۡلِنُۗ وَمَا يَخۡفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ [سورة إبراهيم:٣٨]

وقال تعالى :

﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ جَامِعُ ٱلنَّاسِ لِيَوۡمٖ لَّا رَيۡبَ فِيهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ ٩﴾

[سورة آل عمران:٩]

وقال تعالى :

﴿وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوۡاْ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمۡ قَالُوٓاْ إِنَّا مَعَكُمۡ إِنَّمَا نَحۡنُ مُسۡتَهۡزِءُونَ ١٤﴾ [سورة البقرة:١٤]

وقال تعالى :

﴿إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ تَنزِيلٗا ٢٣﴾ [سورة الإنسان:٢٣]

وقال تعالى :

﴿إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ ﴿١٤﴾﴾ [سورة طه:١٤]

وقال تعالى :

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٩١﴾ وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾﴾

[سورة الشعراء:١٩١-١٩٢]

وللتوكيد مقامات يحسن فيها ، غير الشك والإنكار **ومن أهمها** : مقام التعليم والتأديب ، فهذا المقام يحسن فيه توكيد الكلام ، وتطريزه بكلمات ترغب النفس في قبوله ، ومن ذلك ما جاء عند ابن المقفع **حيث يقول** :

("اعلم أن رأيك لا يتسع لكل شيء ففرغه للمهم، وأن مالك لا يغني الناس كلهم، فاختص به ذوي الحقوق، وأن كرامتك لا تطيق العامة فتوخ بها أهل الفضائل، وأن ليلك ونهارك لا يستوعبان حاجتك، وإن دأبت فيهما، وأنه ليس لك إلى أدائها سبيل مع حاجة جسدك إلى نصيبه من الدعة، فأحسن قسمتهما بين عملك ودعتك ... "(١).

وكذا مقام الوعد أو الوعيد.ففي الوعد تستحب النفس سماع ما يكفكف من حاجتها ، ويوثق عندها الوعد الذي وعدت به ، وتزداد يقينا بتحقق هذا الوعد وتطمئن إلى ذلك ،**مثل قوله تعالى**:

---

١ - عبد الله بن المقفع (١٠٦- ١٤٢ ه) : واحد من أئمة الكتاب، وأول من عني في الإسلام بترجمة كتب المنطق، أصله من الفرس، ولد في العراق مجوسيا (مزدكيا) وأسلم على يد عيسى ابن علي (عم السفاح) وولي كتابة الديوان للمنصور العباسي، وترجم له " كتب أرسطوطاليس " الثلاثة، في المنطق، وكتاب " المدخل الى علم المنطق وترجم عن الفارسية كتاب " كليلة ودمنة وهو أشهر كتبه.

﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۗ ..... ﴾ [سورة الحج:٣٨]

وقوله:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتۡ لَهُم مِّنَّا ٱلۡحُسۡنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنۡهَا مُبۡعَدُونَ ١٠١ ﴾

[سورة الأنبياء:١٠١]

وقوله:

﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمۡ ظُلِمُواْۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصۡرِهِمۡ لَقَدِيرٌ ٣٩ ﴾

[سورة الحج:٣٩]

وقوله تعالى لسيدنا موسى:

﴿ قُلۡنَا لَا تَخَفۡ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡأَعۡلَىٰ ٦٨ ﴾ [سورة طه:٦٨]

تنبيه :

ينبغي قصر هذا الخروج على توكيد الخبر وعدم توكيده، لأنا لو فتحنا باب الخروج على خلاف الظاهر على مصراعيه، لدخل كثير من أبواب البلاغة فيه

كوضع المضمر موضع المظهر، ووضع المظهر موضع المضمر والالتفات ، واستعمال المضارع مكان الماضي ،والإخبار عن الفعل الماضي بالفعل لمضارع أو بالمستقبل ، وتقديم ما حقه التأخير ، والعكس ، وحذف ما حقه الذكر والعكس وكل تنويع يُلاَحَظُ فيه خروج الكلام عن مقتضى الظاهر، **فمثلًا قول الله عزّ وجلّ في سورة (الفاتحة):**

﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ٧ ﴾ [سورة الفاتحة:٦-٧]

ظاهر الكلام أن يقال: "غـير الـذينَ غَضِـبْتَ علـيهم" فَخُولِـفَ هـذا الظاهر وهذا لا يكاد ينتهي ، لذلك أقول ينبغي قصر خروج الكلام على توكيد الكلام وترك توكيده .

الالتفات

هذا الباب من أجل أبواب البلاغة ، حتى قال العلوي عنه : هـو أمـير جنودها، والواسطة فى قلائدها وعقودها ، وعلامة على شجاعة اللغة العربية **كما قال ابن جني ويعرف بأنه :**

التعبير عـن معنـى مـن المعـاني بطريـق مـن الطـرق الثلاثـة: الـتكلم والخطاب والغيبة بعد التعبير عنه بطريق آخر منها فالانتقال مـن أسـلوب إلى أسلوب ، ومن طريـق في الأداء إلى طريـق آخـر ، يـرى المـتكلمُ فيـه مناسـبةً تساعد على إيصال المضمون الذي يبتغيه ، هو ما يسمى الالتفات .

ومصطلح الالتفات مأخوذ من نظر الإنسان يمينا ، وشمالا ، فيقولون التفت بوجهه ، والتفت عن رأيه ، ولفت وجهه عنه ، كل ذلك بمعنى تحـول من جهة إلى جهة .

فالالتفات في اصطلاح البلاغيين : هو الانتقال في الكلام من وضع إلى وضع، أو من حالة إلى أخرى ؛ كأن ينتقل الكـلام مـن خطـاب الحـاضر إلى الغائب ومن خطاب الغائب إلى الحاضر، ومن خطاب المتكلم إلى المخاطب ، ومن المخاطب إلى الغائب إلخ

فالقصد هو التحول ، وتغيير المسار البياني من صيغة إلى أخرى ، وانظر إلى **قوله تعالى :**

"هذان خصمان اختصموا في ربهم " تجد أن الآية تحولت من الحديث عن المثنى (هذان) إلى الجمع (اختصموا) لأن الحديث عن فريقين ، وليس عن رجلين ، وكل فريق منهم جماعة ، وأول من أشار إلى هذا الفن الأصمعي (ت ٢١٦هـ) **حين قال لأبي إسحاق الصولي** (١):

" أتعرف التفاتات جرير ؟ قال : وما هي ؟ قال :

أتنسى إذ تودعنا سُليمى　　بعود بشامة سقي البشام "

حيث تحول من الحديث الخبري ، وتذكير صاحبه بسليمى ، ووداعها عند البشام ، إلى الدعاء للبشام ، وكأنه حين تذكر وداعها ، انتابته حالة من الحنين إلى هذا المكان ، فانطلق لسانه بالدعاء له .

ويقول الزمخشري معلقا على قول الله تعالى :

﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝﴾ [سورة الفاتحة:٥] (فإن قلت: لم عدل عن لفظ الغيبة إلى لفظ الخطاب؟ قلت: هذا يسمى الالتفات في علم البيان ، قد يكون من الغيبة إلى الخطاب، ومن الخطاب إلى الغيبة، ومن الغيبة إلى التكلم،**كقوله تعالى:**

﴿......**حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمۡ فِي ٱلۡفُلۡكِ وَجَرَيۡنَ بِهِم بِرِيحٖ** ......﴾ [سورة يونس:٢٢]

وقوله تعالى:

﴿ وَٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابٗا فَسُقۡنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٖ ...... ﴾ [سورة فاطر:٩]

---

١ - الصُّولي (١٧٦ - ٢٤٣ هـ = ٧٩٢ - ٨٥٧ م) إبراهيم بن العباس بن محمد بن صول، أبو إسحاق: كاتب العراق في عصره. أصله من خراسان، وكان جده محمد من رجال الدولة العباسية ودعاتها. ونشأ إبراهيم في بغداد فتأدب وقرّبه الخلفاء فكان كاتبا للمعتصم والواثق والمتوكل. وتنقل في الأعمال والدواوين إلى أن مات متقلدا ديوان الضياع والنفقات بسامراء. قال دعبل الشاعر: لو تكسب إبراهيم ابن العباس بالشعر لتركنا في غير شئ.

وقد التفت امرؤ القيس ثلاث التفاتات في ثلاثة أبيات:

تطـــاول ليلـــك بالإثمـــد	**ونــــام الخـــلى ولم ترقــــد**
وبـــات وباتـــت لـــه ليلـــة	**كليلـــة ذى العـــائر الأرمـــد**
وذلـــك مـــن نبـــإ جـــاءنى	**وخبرتـــه عـــن أبـــى الأســـود**

وذلك على عادة افتنانهم في الكلام وتصرفهم فيه، ولأن الكلام إذا نقل من أسلوب إلى أسلوب، كان ذلك أحسن تطرية لنشاط السامع، وإيقاظًا للإصغاء إليه من إجرائه على أسلوب واحد" (١).

أنواع الالتفات

أولاً : الالتفات في الضمائر :

ويقصد به انتقال المتكلم في سياق كلامه من ضمير إلى ضمير آخر مخالف وينتج عن ذلك ست صور ، **هي على النحو التالي :**

❁ **الصورة الأولى**: الانتقال من التكلم إلى الخطاب.

❁ **الصورة الثانية**: الانتقال من التكلم إلى الغيبة.

❁ **الصورة الثالثة**: الانتقال من الخطاب إلى التكلم.

❁ **الصورة الرابعة**: الانتقال من الخطاب إلى الغيبة.

❁ **الصورة الخامسة**: الانتقال من الغيبة إلى التكلم.

❁ **الصورة السادسة**: الانتقال من الغيبة إلى الخطاب.

---

١ - الكشاف للزمخشري ١/ ٦٤ ط / الأولى مصطفى الحلبي .

وتقوم تلك الأساليب على انتقال المعنى من ضمير إلى آخر، وفائدة الانتقال في الكلام هنا كما ذكر الزمخشري، هو التجديدُ والنشاطُ لحال السامع ورفع السأم والضجر عن السامع من إتباع أسلوب واحد، وهذا ما أكده حازم القرطاجني حيث يقول : "وهم يسأمون الاستمرار على ضمير متكلم أو ضمير مخاطب، فينتقلون من الخطاب إلى الغيبة، فيعدل المتكلم بضميره، فتارة يجعله تاءً على جهة الإخبار عن نفسه، وتارة يجعله كافاً فيجعل نفسه مخاطباً، وتارة يجعله هاءً فيقيم نفسه مقام الغائب، فلذلك كان الكلام المتوالي فيه ضمير متكلم أو مخاطب فقط لا يُستطاب؛ وإنما يحسُن الانتقال من بعضها إلى بعض يقول الشاعر :

لا يُصلحُ النفس إن كانت مصرَفةً إلا التنقلُ من حالٍ إلى حالِ

وهذه إشارات سريعة لهذه الضمائر، وبعض وجوه الدلالات في تلفتاتها :

١ - الالتفات من التكلم إلى الخطاب.

وتبرز بلاغة هذا الأسلوب في حث السامع على الاستماع إلى المتكلم **كقوله تعالى :**

﴿وَمَا لِيَ لَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ٢٢﴾ [سورة يس:٢٢]

والالتفات في الآية الكريمة هنا، هو في انتقال الكلام من المتكلم في (مالي لا أعبد) إلى المخاطب وهو (ترجعون).

وأصل الخطاب كان يقتضي (وإليه أرجع) لكـي يتناسـب مـع قولـه (ومالي لا أعبد الذي فطـرني) ، لكنـه هنـا انتقـل إلى الخطـاب فقـال (وإليـه ترجعون) لحث السامع على الاستماع إلى الكـلام ؛ والإقبـال عليـه ،وزيـادة العناية والاهتمام به .

٢ - الالتفات من أسلوب التكلم إلى الغائب .

وهذا الأسلوب كثير في القرآن الكريم، فتسمع مثلا قولـه تعـالى " إنـا أعطيناك الكوثر، فصل لربك وانحر " الكوثر ١أ٢، فقال (أعطيناك) ثـم قـال (فصل لربك) ولم يقل (فصل لنا) ، لأن الرب عند كل عابد يستحق العبادة ، فإذا كان كل عابد يصل لربه فصل لربك ، وهذا تحـريض عـلى الصـلاة لحـق الربوبية .

ومن ذلك قوله تعالى :

﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ ...... ﴾ [سورة الأعراف:١٥٨]

فالتفت من (إني رسول) إلى (رسوله) وكان الظاهر يقتضي ، فـآمنوا بالله وبي ، لكن التدبر يفتح لك باب وجه الالتفات ، لأنه أراد أن يبين قاعـدة لا تحتمل الشك ، وهي أن رسول الله ، مهما كان اسمه ينبغي الإيمان به ، فهـو لا يدعوهم إلى الإيمان به من حيث كونه فلان بن فلان ، ولكنـه يـدعوهم إلى الإيمان به من حيث كونه رسول الله .

٣ - الالتفات من الخطاب إلى التكلم.

ومن أمثلته قوله تعالى :

﴿ وَٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِۚ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٞ وَدُودٞ ﴿٩٠﴾ ﴾ [سورة هود: ٩٠]

فقيل أولا : (استغفروا ربكم) ، ثم التفت إلى التكلم فقال : (إن ربي) وهذا الالتفات يحمل معنى الوحدانية ، فربكم هو ربي ، وربي هو ربكم .

٤ - الالتفات من الخطاب إلى الغائب.

ومن الشواهد على هذا الأسلوب قوله تعالى :

﴿ .... حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمۡ فِي ٱلۡفُلۡكِ وَجَرَيۡنَ بِهِم بِرِيحٖ .... ﴾ [سورة يونس: ٢٢]

خاطب أولا فقال (كنتم) ثم التفت إلى الغائب فقال (جرين بهم) لأن ما بعد ذلك عذاب وانتقام ، فكانت الغيبة مقدمة لبعدهم عن الله ورحمته ،فأول الغضب الإعراض ، وحديث الغيبة هو حديث إعراض عن المشركين ، فلم يقل وجرين بكم ، لأن في الخطاب ود ، وفي الغيبة غضب ، لذلك قيل بعدها (جاءتها ريح عاصف،وجاءهم الموج من كل مكان...)

٥ - الالتفات من الغيبة إلى التكلم.

ومن هذا الأسلوب قوله تعالى:

﴿ ... وَأَوۡحَىٰ فِي كُلِّ سَمَآءٍ أَمۡرَهَاۚ وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا ... ﴾ [سورة فُصِّلَت: ١٢]

وهذا الالتفات عند التدبر تجد أن الوحي كان بأمور لم يعلم حقيقتها وهذا شيء غامض ، فناسبه ضمير الغيبة ، لكنه حين انتقل إلى زينة السماء الدنيا كان الانتقال أيضا مع الضمير فجاء بضمير التكلم الظاهر .

وشبه هذا قوله تعالى:

﴿....وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ﴿٥٣﴾﴾ [سورة طه:٥٣]

فالغموض في طبيعة الإنزال جعل التعبير عنه بلفظ : أنزل ، وفاعل الفعل ضمير الغيبة (هو) لكنه عند إخراج النبات أزواجا ، وأنواعا شتى جاء بضمير المتكلم الظاهر .

٦- الالتفات من الغيبة إلى الخطاب.

ومثاله قوله تعالى :

﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤﴾ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾﴾ [سورة الفاتحة:٤-٥]

حيث جاء الحمد متتابعا ، بأوصاف المحمود (الرب – الرحمن – الرحيم – المالك) فكأنه أدخله في حضرته فخاطبه مباشرة فقال له (إياك نعبد) وقل **مثل ذلك في قوله تعالى :**

﴿......وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴿٢١﴾﴾ [سورة الإنسان:٢١]

ثانياً : الالتفات في الأفعال.

ينتقل الالتفات في الأفعال من الماضي إلى المستقبل، ومن المستقبل إلى الماضي ومن المستقبل إلى الأمر، ومن الماضي إلى الأمر وهكذا ، وأقف معك على هذه الأنواع ...

١ - انتقال الكلام من الفعل الماضي إلى فعل الأمر.

كقوله تعالى :

" قل أمر ربي بالقسط وأقيموا وجوهكم عند كل مسجدٍ وادعوه:

﴿ قُلۡ أَمَرَ رَبِّي بِٱلۡقِسۡطِۖ وَأَقِيمُواْ وُجُوهَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَٱدۡعُوهُ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَۚ كَمَا بَدَأَكُمۡ تَعُودُونَ ﴿٢٩﴾ ﴾ [سورة الأعراف:٢٩]

فبدلا من(وأمركم أن تقيموا) قال وأقيموا ، ووجه ذلك أن القسط والعدل بين الناس من الصعوبة بمكان ، فكانت تحتاج إلى أسلوب لا تأول فيه وهو (أمر ربي بالقسط) فلا يحمل هذا الأسلوب إلا على الوجوب اللازم ، لكن الجملة الثانية (وأقيموا) ليست على مستوى الأولى ، من حيث الأهمية والصعوبة على النفس فجيء بها على نسق الأمر المعتاد فقال (أقيموا) .

٢ - انتقال الفعل من المستقبل إلى الأمر :

كقوله تعالى :

﴿ .....قَالَ إِنِّيٓ أُشۡهِدُ ٱللَّهَ وَٱشۡهَدُوٓاْ أَنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِۦۖ فَكِيدُونِي جَمِيعٗا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ ﴾ [سورة هود:٥٤-٥٥]

الالتفات في الآية (أُشهدُ الله واشهدوا) ولم يقل (وأشهدكم) كما كان يقتضي السياق ، لأن إشهادهم لا يرقى إلى منزلة (أشهد الله) فهناك فارق بين الإشهادين، ولا بد من وسيلة تفرق بين هاتين الصورتين (إشهاد الله تعالى ، وإشهادهم ، فجعل إشهاد الله تعالى خبرا مكونا من فعل مضارع وفاعل ومفعول ، وجعل إشهادهم فعل أمر لأنهم أقل منه قدرا .

٣ - انتقال الفعل من الماضي إلى المستقبل :

كقوله تعالى:

﴿ وَٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابٗا فَسُقۡنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٖ مَّيِّتٖ فَأَحۡيَيۡنَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَاۚ كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ ٩ ﴾ [سورة فاطر:٩]

وراجع الفعلين (أرسل) (فتثير) ولم يقل فأثارت ، وهذا الانتقال من حالة الماضي إلى حالة المضارع فيه تحريك للمشهد حتى لا يكون الكلام على جهة الخبر الماضي المنقضي ، بل هو خبر مشاهد الآن ، **ومثله** :

﴿ .....فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخۡطَفُهُ ٱلطَّيۡرُ ..... ﴾ [سورة الحج:٣١]

وقوله :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ..... ﴾ [سورة الحج:٢٥]

٤ - انتقال الفعل من المستقبل إلى الماضي.

مثل قوله تعالى :

﴿ وَيَوۡمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ ..... ﴾ [سورة النمل:٨٧]

والالتفات في الآية هنا في الفعل المضارع (ينفخ) وفي الفعل الماضي (ففزع). والفزع لتحققه والقطع به جيء به في صورة الماضي .

ثالثاً : **الالتفات في الأعداد** :

الانتقال من خطاب العدد إلى عدد مخالف هو النوع الأشهر في الالتفات وهو كثير في اللسان العربي وفي القرآن الكريم ، **وإليك بعض النماذج من ذلك** :

١ - الانتقال من خطاب الواحد إلى خطاب الاثنين، **كما في قوله تعالى:**

﴿ قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِتَلۡفِتَنَا عَمَّا وَجَدۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلۡكِبۡرِيَآءُ فِي ٱلۡأَرۡضِ.... ﴾

[سورة يونس:٧٨]

فقوله (أجئتنا) تاء الفاعل تشير إلى مفرد ، ثم قال : (وتكون لكما الكبرياء)،فعبر عن المثنى ،حيث ضم إليه أخاه ، لأن الأصل في الدعوى هو سيدنا موسى ، لكن النفع كما يظن فرعون لن يكون لموسى وحده ، بل له ولأخيه لذلك قال : وتكون لكما الكبرياء .

٢ - الالتفات من خطاب الواحد إلى خطاب الجمع :

كقوله تعالى :

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ ....﴾ [سورة الطلاق:١]

حيث انتقل الخطاب من المفرد وهو (النبي) إلى الجمع وهو (طلقتم النساء)، لأن النبي ﷺ لم يطلق نساءه ، لكن كثيرين من أمته سيفعلون ذلك فكأنه نادى النبي بخطاب الأمة ، لأنه أول من يسمع ويطيع .

٣ - الالتفات من خطاب الاثنين إلى خطاب الواحد :

كقوله تعالى:

﴿ قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٩﴾ ﴾ [سورة طه:٤٩]

وكأنه لا يوجد على شاكلة موسى إلا أخوه، ولما كان هارون تابعا في هذا خاطب فرعون موسى بهذا الخطاب.

وفي قوله تعالى:

﴿....فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴿١١٧﴾﴾ [سورة طه:١١٧]

خاطب الاثنين محذرا من صنيع إبليس ، لكنه زاد في تحذير آدم وحده بأن نزوله من الجنة سيترتب عليه شقاؤه وحده ، وسعيه على المعيشة وحده وتكليفه بالإنفاق على زوجته وأولاده وحده.

٤ – الالتفات من خطاب الاثنين إلى الجمع :

كقوله تعالى:

﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَٱجْعَلُوا۟ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٧﴾﴾ [سورة يونس:٨٧]

حيث خاطب موسى وهارون(تبوءا) ، ثم التفت وخاطب الجمع (واجعلوا- وأقيموا) وذلك لأنه ضم إليهما قومهما عند الأمر بالصلاة وجعل البيوت قبلة .

٥ – الالتفات من خطاب الجمع إلى الواحد :

كقوله تعالى:

﴿.....وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٧﴾﴾ [سورة يونس:٨٧]

وهذا الانتقال من (أقيموا) إلى (وبشر) يعني أن المأمور بإقامة الصلاة جموع المسلمين الذين أسلموا مع موسى ، ويدخل معهم موسى ، لكن التبشير كان بأمر خاص موجه إلى موسى عليه السلام ، لأنه المخول بذلك في زمان الكرب ، فلا يملك التبشير في وقت الشدائد إلا موسى ، ولو بشرهم غيره لاستهزؤا به ، لأن إيمانهم كا مرتبطا بموسى ومعجزاته المتتالية ، **حتى قيل:**

(فما آمن لموسى) ، ولم يقل : فما آمن بالله ، لذلك كان الأمر لموسى بالتبشير وحده ، فأفرد الضمير .

٦ - الالتفات من خطاب الجمع إلى التثنية :

كقوله تعالى :

﴿ يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ إِنِ ٱسۡتَطَعۡتُمۡ أَن تَنفُذُواْ ..... ﴾ [سورة الرحمن:٣٣]

إلى قوله :

﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٤﴾ ﴾ [سورة الرحمن:٣٤]

ووجه ذلك أن الخطاب خطاب تحد وتعجيز ، والانتقال في التعجيز من التثنية إلى الجمع أدل على القدرة .

وبعد فإن الالتفات فن محكوم بسياق ، وليس من قبيل التلاعب أو الترويح كما جاء في كتب البلاغيين ، بل هو نمط من الكلام ينتقل فيه الأسلوب من طريق إلى طريق آخر لِيُنَشِّط السامع ، ويرسم له هدفا في تحوله من خطاب إلى خطاب جديد ، فلكل جملة مخاطب بها ، يختلف عن الأخرى

الإضمار والإظهار

ذكرت من قبل أن الذكر عكسه الإضمار، لأنني أعني بالذكر: الإظهار والبلاغيون يقرنون الذكر بالحذف ، ويقولون باب الذكر والحذف ، مع أن الذكر هو الإظهار ، وعكسه الإضمار وليس الحذف ، أما الحذف فعكسه التكرار وقد جئت لك بصور للذكر والإضمار لتتبين الفارق بين الشيء وضده ، وقبل أن ترى فضائل الإضمار أقفك على مواطن وفضائل الذكر ، وأغراضه ، **ومن أهمها** :

١ - الاحتياط

فخوف المتكلم من حصول اللبس ، واختلاط المعنى المراد بمعنى آخر غير مراد يلجئه إلى ذكر ما يمكن إضماره ، ويكون ساعتها معتمدا على اللفظ بدلا من اعتماده على القرينة بذكر العنصر ، **انظر إلى قول البحتري** :

أُصْفيكِ أقصَى الوُدّ، غَيرَ مُقَلِّلٍ، إنْ كـانَ أقصَى الـوُدّ عنـدَكِ يَنفَـعُ

وأَرَاكِ أحْسَنَ مَنْ أرَاهُ، وإنْ بَـدا مِنكِ الصّدُودُ، وبَانَ وَصْـلُكِ أجمـعُ

لقد أعاد قوله (أقصى الود) ، مع ذكرها قبل في البيت ، وأعاد كـذلك (الرؤية) فقال : (وأراك أحسن مـن أراه) ،لأن هـذه الألفـاظ تحمـل مـن المشاعر ما يجعلها تطفوا على اللسان ،فاستحقت أن تكرر ، وأن تملأ البيت كما ملأت جوانح الشاعر .

ويقول مالك بن الريب ، وهو يحتضر :

ألا ليت شعري هل أبيـتن ليلـة بجنب الغضا أزجي القلاص النواجيا

فليت الغضا لم يقطع الركب عرضـه **وليت الغضا مـاشي الركـاب لياليـا**

لقد كان في أهل الغضا لو دنا الـ غضا مزار ولكن الغضا لـيس دانيـا

والغضا : من نبات الرمل ، له هُدَب كهدب الأرطـي ، وأهـل الغضـا هم أهل نجد لكثرتـه هنـاك ، ولعـل الشـاعر يستحضرـ الأرض والأهـل ، والذكريات بل ويستحضر الحياة ، في لحظات يعلم أنه سـيفارق كـل شيء ، ويكثر من ذكر الغضا حتى يتمسك به تمسك الغريق بقارب النجاة ، لأنـه في نظره هو الحياة فأشاع في أبياته هذا النبات الأخضر ،يسـتبقي بـه حياتـه ، أو على الأقل لعله يستنزل به الرحمات قطرا ، كما توالى في الأبيات قطرا ، ولكـن الفظ "ليت" يرسم في الخلفية شيئا آخر !!

٢ - غباوة المخاطب

من دواعي ذكر المسند إليه استشعار الغباوة من السامع ، وبخاصة عند من لا يعرفون ما وراء الكلام ، ولا يقتنعون إلا بالظاهر من اللفظ ، ويرفعون شعار دلالة المنطوق ، ولا يعنيهم مقصود الكلام ، أو الدلالات الأخرى كدلالة المفهوم، ودلالة الفحوى ، ومستتبعات التراكيب . إلخ.

وهذا الصنف يحتاج معه إلى ذكر اللفظ الصريح ، وتلحظ مثل هذا في **قول سيدنا إبراهيم لقومه حين سألوه :**

﴿ قَالُوٓاْ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُواْ يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾ ﴾ [سورة الأنبياء:٦٣]

٣ - زيادة الإيضاح :

فهناك أمور تحتاج النفس فيها إلى الوضوح التام ، كما في أمور العقيدة أو الحلال والحرام ، أو عقود البيع والشراء ، فالذكر هنا أفصح من الحذف وكذلك في مقام التعليم والتحفيز .

وقد قالوا: إن يحيى بن خالد بن برمك([١])أمر اثنين أن يكتبا كتابًا في معنى واحد، فأطال أحدهما واختصر الآخر، فقال للمختصر وقد نظر في

---

١ - يَحْيى البَرْمَكي(١٢٠ - ١٩٠ هـ = ٧٣٨ - ٨٠٥ م)يحيى بن خالد بن برمك، أبو الفضل: الوزير السريّ الجواد، سيد بني برمك وأفضلهم. وهو مؤدب الرشيد العباسي ومعلمه ومربيه. رضع الرشيد من زوجة يحيى مع ابنها الفضل، فكان يدعوه: يا أبي! وأمره المهدي (سنة ١٦٣) وقد بلغ الرشيد الرابعة عشرة من عمره، أن يلازمه، ويكون كاتبا له، وأكرمه بمئة ألف درهم، وقال: هي معونة لك على السفر مع هارون.

ولما ولي هارون الخلافة دفع خاتمه إلى يحيى، وقلده أمره، فبدأ يعلو شأنه. واشتهر يحيى بجوده وحسن سياسته. واستمر إلى أن نكب الرشيد البرامكة فقبض عليه وسجنه في " الرقة " إلى أن مات، فقال الرشيد: مات أعقل الناس وأكملهم. أخباره كثيرة جدا. قال المسعودي: كانت مدة دولة البرامكة وسلطانهم وأيامهم النضرة الحسنة، من استخلاف هارون الرشيد إلى أن قتل جعفر بن يحيى، سبع عشرة سنة وسبعة أشهر وخمسة عشر يوما. ويستفاد من كشف الظنون إن أول من عني بتعريب المجسطي يحيى بن خالد، فسره له جماعة ولم يتقنوه فأتقنه بعدهم بعض أصحاب بيت الحكمة. ومن كلام يحيى لبنيه: اكتبوا أحسن ما تسمعون، واحفظوا أحسن ما تكتبون، وتحدثوا بأحسن ما تحفظون

كتابه: ما أرى موضع مزيد وقال للمطيل: ما أرى موضع نقصان، وقال الخليل: يختص الكتاب ليحفظ ويبسط ليفهم، وقيل لأبي العلاء[1] هل كانت العرب تطيل؟ قال: نعم كانت تطيل ليسمع منها، وتوجز ليحفظ عنها.

٤ - إرادة التعظيم والتفخيم :

وبخاصة إذا كان اللفظ يحمل معنى المهابة والتعظيم ، كلفظ : صخر في رثاء الخنساء لأخيها **حيث تقول :**

وإن صخرا لكافينا وسيدنا ... وإن صخرا إذا نشتو لنحار

وإن صخرا لتأتم الهداة به ... كأنه علم في رأسه نار

فهذا الاسم ممدوح عند العرب للرجال ، لأنهم كانوا يختارون الشديد من الأسماء للصبيان ،لأنهم أهل حروب وعداوات .

٥ - الإهانة والتحقير :

وهذا عكس السابق ، وذلك إذا كان في الاسم ما يُشْعِرُ بمهانة صاحبه واحتقاره والاستهانة به ، أو تكرار الاسم مع ذكر صفات السوء ، كما فعل

---

١ - أَبُو العَلاء المَعَرِّي(٣٦٣ - ٤٤٩ هـ = ٩٧٣ - ١٠٥٧ م) أحمد بن عبد الله بن سليمان، التنوخيّ المعري: شاعر فيلسوف. ولد ومات في معرة النعمان. كان نحيف الجسم، أصيب بالجدريّ صغيرا فعمي في السنة الرابعة من عمره. وقال الشعر وهو ابن إحدى عشرة سنة. ورحل إلى بغداد سنة ٣٩٨هـ فأقام بها سنة وسبعة أشهر. وهو من بيت علم كبير في بلده. ولما مات وقف على قبره ٨٤ شاعرا يرثونه. وكان يلعب بالشطرنج والنرد. وإذا أراد التأليف أملى على كاتبه علي بن عبد الله بن أبي هاشم. وكان يحرّم إيلام الحيوان، ولم يأكل اللحم خمسا وأربعين سنة. وكان يلبس خشن الثياب.

أما شعره وهو ديوان حكمته وفلسفته، فثلاثة أقسام: (لزوم ما لا يلزم - ط) ويعرف باللزوميات، و (سقط الزند - ط) و (ضوء السقط - خ) وقد ترجم كثير من شعره إلى غير العربية (٢) وأما كتبه فكثيرة وفهرسها في معجم الأدباء. وقال ابن خلكان: من تصانيفه كتاب (الأيك والغصون) في الأدب يربى على مئة جزء. وله (تاج الحرة) في النساء وأخلاقهن وعظاتهن، أربع مئة كرأس، و (عبث الوليد - ط) شرح به ونقد ديوان البحتري، و (رسالة الملائكة - ط) صغيرة، وهي مقدمتها، ثم نشر المجمع العلمي الرسالة كاملة، و (اختيارات الأشعار، في الأبواب خ) في أياصوفية و (شرح ديوان المتنبي - خ) جزآن، تم نسخهما سنة ١٠٥٩ هـ في خزانة الشيخ محمد طاهر بن عاشور، بتونس.

جرير مع قبيلة سدوس ، **فقال فيهم** :

أَخِلاَّئِي الْكِرَامُ سِوَى سَدُوسٍ وَمَالِي فِي سَدُوسٍ مِنْ خَلِيلِ
إِذَا أَنْزَلْتَ رَحْلَكَ فِي سَدُوسٍ فَقَدْ أُنْزِلْتَ مَنْزِلَةَ الذَّلِيلِ
وَقَدْ عَلِمَتْ سَدُوسٌ أَنَّ فِيهَا مَنَارَ اللُّؤْمِ واضِحَةَ السَّبِيلِ
فَمَا أعْطَتْ سَدُوسٌ مِنْ كَثِيرٍ وَلاَ حَامَتْ سَدُوسٌ عَنْ قَلِيلٍ

فأهال التراب على سدوس ، فلا يكاد يذكرها ذاكر، إلا ويذكر اللؤم والذل، والبخل.

٦- إثارة المشاعر :

كما في ذكر الكلمات المحبوبة ، أو الأسماء المحبوبة حيث يتلذذ بذكرها لأن من أحبّ شيئاً أكثر من ذكره ، أو الإلحاح على النفس لتظل المشاعر ملتهبة كما في قصيدة الخنساء ، **وهي تقول** :

أَعَيْنَيَّ جُودَا وَلاَ تَجْمُدا أَلاَ تَبْكيَانِ لِصَخْرِ النَّدَى
ألاَ تَبْكِيَانِ الْجَوَادَ الْجَمِيلَ أَلاَ تَبْكِيَانِ الْفَتَى السَّيّدا

وترى شاعرا آخر وقد علا الشيب مفرقه ، فتعلق بلفظ التصابي ليعود به إلى الأيام الخوالي فتراه يكثر من ترداده ، **وانظر إلي ابن الزيات يقول** :

أتعزف أم تقيم على التصابي فقد كثرت مناقلة العتاب
إذا ذكر السلو عن التصابي نفرت من اسمه نفر الصعاب
وكيف يلام مثلك في التصابي وأنت فتى المجانة والشباب

سأعزف إن عزفت عن التصابي إذا مـــا لاح شـــيب بـــالغراب

ألم تـرني عـدلت عـن التصـابي فـــأغرتني الملامـــة بالتصـــابي

ولست ممن يرى في الأبيات برودا بكثـرة ذكـر التصـابي ، لأن الرجـل حين ملأ الأبيات بهذا اللفظ أراد أن يترجم عن مشاعر داخله تتلهـف لأيـام التصابي وفيها من الإلحاح ، والثورة ، بـل والجنـون مـا فيهـا ، وحـين تـرى الشاعر يرسم نفسه أمامك ، وينقل ما بداخله بصـدق فـلا ينبغـي أن تعيـب عليه .

وتستطيع أن تقول : إن كل لفظ يـذكره العـربي الفصـيح لـه فائـدة في اكتمال المعنى ، وحين يستشعر المتكلم أن المخاطب يستطيع أن يصل إلى مراده دون ذكر لفظ ما ، فإنه يبادر بحذفه ، ويسـقطه مـن عبارتـه ، إلا إذا كـان في الذكر غرض يرمي إليـه ، وهـدف يريـد تحقيقـه ، أو تـراه مـدفوعا بتجربـة لايقوى معها على كبح جماح الألفاظ ، فتنسال من بين فكيـة ضـاربة بعـرض الحائط كل الحواجز وعندها ينبغي على النقاد ، وأهل البلاغة أن يفتشوا عـلى الدواعي والمقاصد التي تقف من وراء الذكر .

وضع المظهر موضع المضمر وعكسه

الأصل في الأسماء أن تكون ظاهرة، وكذلك الأصل في المحـدث عنـه أن يكون ظاهرا، فإذا ذكر ثانيا حل محله ضميره، لوجود الاسم الظـاهر مـن قبل **وانظر مثلا إلى قول الله تعالى** :

﴿ .....فَٱبۡتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزۡقَ وَٱعۡبُدُوهُ وَٱشۡكُرُواْ لَهُۥٓۖ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ١٧ ﴾

[سورة العنكبوت:١٧]

وَقَوْلِهِ تَعَالَى :

﴿ وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ ﴾ [سورة الشورى:٤٠]

وَقَوْلِهِ تَعَالَى :

﴿ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا ﴿٣﴾ ﴾

[سورة النصر:٣]

ففي هذه الآيات ذكر الاسم الصريح ثم أعيد بضميره . أما إذا أعيد بنفسه ، وذكر مرة أخرى صراحة ، فهذا وضعٌ للمظهر مكان المضمر ،ولا بد من علة بلاغية تبيحه ، **ومن هذه العلل البلاغية ما يأتي :**

١ – التعظيم :

فحين يكون اللفظ فيه معنى التعظيم ، فالأولى ذكره صراحة ، ووضعه في الكلام جهارا ؛ ليصل إلى المخاطب هذا المعنى الذي لا يحمله الضمير وراجع مثلا **قوله تعالى :**

﴿ .....وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ﴿٢٨٢﴾ ﴾

[سورة البقرة:٢٨٢]

حيث تجد اسم الجلالة أعيد مرتين ، فبعد أن قال : واتقوا الله ، عاد وقال : ويعلمكم الله ، ثم عاد وقال : والله بكل شيء علم ، والاسم الصرح هنا أولى من الضمير ، لأن كل جملة كأنها إعلان وحدها ، وقانون وحدها ، وخطاب وحدها ، فلما استقلت ،أو لما أريد لكل جملة أن تكون عنوانا بذاتها ، وليست مرتبة بعضها على بعض ، أعيد الاسم الصريح في كل واحدة ، **وفي**

قَوْلِهِ تَعَالَى:

﴿.... أُوْلَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [سورة المجادلة:٢٢]

ليس قوله إن حزب الله هم المفلحون مرتبة على قوله أولئك حزب الله لذلك أعيد معها الاسم الصريح دون الضمير ، ولو قيل أولئك حزب الله ألا إنهم هم المفلحون ، لفهم أن الفلاح لهؤلاء خاصة ، ولكن إعادة الاسم الصريح دلت على أن جملة (إن حزب الله هم المفلحون) شعار يرفع في كل زمان ومكان وينطلق على كل جماعة يصدق عليها أنها حزب الله بالحقيقة ، وليست شعارا فارغا، **وفي قوله تعالى:**

﴿.....وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴿٨﴾﴾ [سورة المائدة:٨]

الجملة الثانية غرض مكتمل ، وقانون عام ، ولو قيل : إنه ، بدلا من إن الله ، لظن القارئ أن علمه متعلق بعمل هؤلاء فقط ، وأن كونه خبيرا بالعمل ليس على إطلاقه ، وإنما هو خبير بعملهم ، والآية لا تريد هذا ، إنما تريد أن الله تعالى خبير بعمل كل الخلق ، لذلك جاء الاسم الظاهر بدلا لا من الضمير . **وراجع أيضا قوله تعالى :**

﴿ لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّي وَلَآ أُشۡرِكُ بِرَبِّيٓ أَحَدٗا ﴿٣٨﴾﴾ [سورة الكهف:٣٨]

ومع أن في الاسم تعظيما ، إلا أن المعنى يشعرك بأن الرب لا ينبغي الإشراك به ، فكل من اتخذ ربا لا يجوز أن يشرك به أحدا ، ومادام الرب لا ينبغي الإشراك به فأنا لا أشرك بربي أحدا . **وراجع أيضا قوله تعالى :**

﴿قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ﴿٢﴾﴾ [سورة الإخلاص:١-٢]

وحاول أن تفرق بين هذا النمط، وبين أن يقال : الله أحد هـو الصـمد وأي فرق بين الأسلوبين ، ستجد أن في ذكر اللفظ الصريح بدلا من الضـمير تعظيما ، ومهابة ، وتذكيرا بأن كل خبر مستقل عـن جـاره ، لأنـه حـري بـأن يكون قانونا وحده .

وفي نحو قوله تعالى :

﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلسَّاعَةِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِٱلسَّاعَةِ سَعِيرًا ﴿١١﴾﴾ [سورة الفرقان:١١]

تجد الآية لم تقل واعتدنا لهم سعيرا ،لأن إعداد السعير لم يكـن لهـؤلاء خاصة ، بل لكل من كذب بالساعة ، لذلك كان التعبير معادا بلفظه الصريـح ليوضع قاعدة بين البشر أن كل من كذب بالساعة أعد له السعير .

وفي قوله تعالى :

﴿....وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ ۖ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴿٧٨﴾﴾ [سورة الإسراء:٧٨]

يقول ابن عاشور : (وجملة " إن قرآن الفجر كان مشـهودا" اسـتئناف بياني لوجه تخصيص صلاة الصبح باسم القرآن بأن صـلاة الفجـر مشـهودة، أي محضورة. وفسر ذلك بأنها تحضرها ملائكة الليل وملائكة النهار، كما ورد في الحديث: «وتجتمع ملائكة الليل وملائكة النهار في صلاة الصـبح» وذلـك زيادة في فضلها وبركتها. وأيضا فهي يحضرها أكثر المصلين لأن وقتهـا وقـت النشاط وبعدها ينتظر الناس طلوع الشمس ليخرجوا إلى أعمالهم فيكثر سماع القرآن حينئذ)(١).

١ - التحرير والتنوير ١٥/ ١٨٣ .

وتلحظ هذا التقدير والتعظيم في نحو قول الله تعالى :

﴿.....كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا .....﴾ [سورة آل عمران:٣٧]

فأعاد لفظ (زكريا) لأن ما فعله كان من الجلال والبهاء ما استحق عليه أن يكرر اسمه ، ويعظم قدره ، ويبقى ذكره إلى أبد الآبدين ملتصقا بالأمرين : أمر الكفالة ، وأمر الرعاية بمداومة الدخول للاطمئنان عليها فيجد رزق الله عندها .

٢ – الإهانة والتحقير :

فوضع الاسم الظاهر مكان ضميره كما يراد منه التعظيم في بعض السياقات يراد منه التحقير في سياقات أخرى ، ومثال ذلك إعادة لفظ الشيطان **في قوله تعالى :**

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ....ۚ ﴾ [سورة النور:٢١]

وقوله تعالى:

﴿ وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُواْ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿٥٣﴾ ﴾ [سورة الإسراء:٥٣]

وقوله تعالى :

﴿.....وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۚ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِى تَبَابٍ ﴿٣٧﴾ ﴾ [سورة غافر:٣٧]

فهذه الأسماء أعيدت ، وكان الضمير أحق في الظاهر من اللفظ الثاني ،لكن الآيات أرادت أن تبرز ما في الاسم من إهانة ، ومقت ، وسوء ، فأعيد ليتنصب عليه أثناء نطقه مشاعر الغضب ، ومعاني التحقير والإهانة ، لأن النفس حين يذكر أمامها ما تكره تجمعت له ، واحتشدت لمقاومته ، وتهيأت لمقته ولعنه وكذا الحال في كل ممقوت .

ومن الشعر ما يقترب من ذلك ، حين تذكر اللفظ الممقوت ، وتعيد ذكره كأنك تفتح لنفسك باب تفريج ، وتنفيس ما فيها من ألم ، فينطلق لسانك على هذا الاسم بالسب والشتم ، والمقت ، **وراجع قول الشاعر** :

فَمَا لِلنَّوَى لَا بَارَكَ اللهُ فِي النَّوَى وَعَهْدُ النَّوَى عِنْدَ الْفِرَاقِ ذَمِيمُ

وسمع الأصمعي رجلا يقول:

فَمَا لِلنَّوَى جَدَّ النَّوَى قَطَعَ النَّوَى كَذَاكَ النَّوَى قَطَّاعَةٌ لِلْقَرَائِنِ

ويبدو أنه شاركه مشاعره فقال : لو قيض الله تعالى لهذا البيت شاة لأتت عليه . وهذه مشاركة في المشاعر بالدعاء على النوى ، لكن وضع المظهر موضع المضمر قد يكون على العكس مما سبق ، فيوضع المظهر تلذذا بذكره ، وإعلاء لقدره ، وتحضيرا لجلاله ، **كما في قوله تعالى** :

﴿وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ ۗ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿١٠٥﴾﴾

[سورة الإسراء:١٠٥]

وقوله تعالى :

﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًاۚ ......﴾ [سورة فاطر:١٠]

فتكرار اللفظ الطيب على السمع يُهدِّئ بالها ، ويكفكف ألمها ،ويريح تعبها ، ويملؤها بالمعاني الطيبة لما يشيعة من حالة البهجة والسرور ، **يقول الشاعر :**

كَـرِّرْ عَـلَى السَّـمْعِ مِنِّـي أَيُّهَـا الْحَادِي ... ذِكْرَ الْمَنَازِلِ وَالْأَطْلَالِ وَالنَّادِي

ويلحق بما سبق غرض آخر وهو :

٣- زيادة التقدير :

ومعنى زيادة التقدير ، رفع منزلة الاسم الظاهر ، وإحضار جلاله عند النطق ، **ومن ذلك قوله تعالى :**

﴿ .....وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ..... ﴿٧٨﴾ ﴾

[سورة آل عمران:٧٨]

وكذلك قوله تعالى :

﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُۥنَ أَلْسِنَتَهُم بِٱلْكِتَٰبِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ ....﴾ [سورة آل عمران:٧٨]

فالكتاب ذو شأن عندهم ، فكان ذكره بالاسم الصريح رفعا لقدره وتقديرا لشأنه .

٤ - إزالة اللبس :

ففي قوله تعالى :

﴿وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ ۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٦﴾﴾ [سورة الفتح:٦]

أعاد القرآن الكريم لفظ (السوء) لأنه لو قيل : الظانين بالله ظن السوء عليهم دائرته ، لتوجه الذهن إلى اسم الله تعالى ، وهذا ملبس ، فأعيد اللفظ بنصه **وراجع أيضا قوله تعالى :**

﴿ ۞ **ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ ﴿٥٤﴾** ﴾ [سورة الروم:٥٤]

وكذلك في قوله تعالى :

﴿ فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَآءِ أَخِيهِ ..... ﴾ [سورة يوسف:٧٦]

فلو قال من وعائه لالتبس المعنى ، وظننا أنه وعاء يوسف لأنه أقرب المذكورين ، ولا أريد أن أبعد بك في الأغراض ، لأن الغرض الرئيس من وضع المظهر موضع المضمر أن يتمكن المعنى في ذهن السامع ، **وراجع قول الشاعر :**

كم عاقل عاقل أعيت مذاهبه ... وجاهل جاهل تلقاه مرزوقا

هذا الذي ترك الأوهام حائرة ... وصير العالم النحرير زنديقا

فكم مبتدأ وخبره جملة (أعيت مذاهبه) والتقدير : كم عاقل غلقت دونه الأبواب ، ومنعت عنه الأسباب ، وضاق رزقه ، وهذا معنى أعيت مذاهبه ، أي أعيته مذاهبه ، في الوقت الذي تجد فيه الجاهل مرزوقا ، فلا تعجب من تصاريف القدر ، فمع أن العاقل كامل العقل ، إلا أنه فقير ، والشاعر عبر بالتكرار (عاقل عاقل) ليدلل على كمال العقل ، والشاهد في كلمة (هذا) لأن مقتضى الظاهر أن يقال : (هو) لأنه يريد البيت السابق كله ، أعني وجود العاقل والجاهل واختلاف الأرزاق ،فمدلول البيت ينبغي أن يقال عنه(هو) لكن الشاعر عدل عن الضمير ووضع اسم الإشارة.

ومثل ذلك قوله تعالى :

﴿وَبِٱلۡحَقِّ أَنزَلۡنَٰهُ وَبِٱلۡحَقِّ نَزَلَ .....﴾ [سورة الإسراء:١٠٥]

وقوله تعالى :

﴿ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ قَوۡلًا غَيۡرَ ٱلَّذِي قِيلَ لَهُمۡ فَأَنزَلۡنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ رِجۡزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾ [سورة البقرة:٥٩]

بدلا من أن يقال: فأنزلنا عليهم، **وقول عبد الله بن عنمة :**

(مَا إِن ترى السَّيِّد زيدا فِي نُفُوسهم ... كَمَا تَرَاهُ بَنو كوز ومرهوب)

(إِن تسألوا الْحق نعط الْحق سائله ... والدرع محقبة وَالسيف مقروب)

(فَإِن أَبَيْتُم فَإِنَّا معشر صَبر ... لَا نطعم الذل إِن السم مشروب)

(فـــازجر حِمَـــارك لَا يرتـــع إِذن يـــرد وَقيـــد العـــير مكـــروب)
بروضتنا
(وَلَا تكونن كمجرى داحس لكم فِي غطفان غَـدَاة الشّـعب عرقـوب)
(إِن تدع زيد بني ذهـل لمغضـبة نغضب لزرعة إِن الْفضل محْسُـوب)

فقوله في جملة الشرـط : (إن تسـألوا الحـق) ، كـان ينبغـي الجـواب : نعطكم إياه ، لكنه عدل إلى الاسم الظاهر ليبين أن إعطاء الحق سمة ثابتة لهم لكل الناس ليس لهؤلاء فقط .

وقد يكون وضـع المظهـر موضـع المضرـ باعثـا عـلى المهابـة ، وزجـر المخالف كما يقول الوزير : الوزير يأمركم ، أو الرئيس يأمركم ، بدلا من أنـا آمركم وتلحظ مثل ذلك في آيات الدعاء والتوكل ، **ففي القرآن الكريم يقول الحق سبحانه :**

﴿.....فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾﴾ [سورة آل عمران:١٥٩]

بدلا من (فتوكل عليّ) وفي الدعاء :

إلهـي عبـدك العـاصي أتـاك مقـرا بالـذنوب وقـد دعـاك
فـإن تغفـر فأنـت لـذاك أهـل وإلا فمـن يـرحم سـواك

أما وضع المضمر مكان المظهر فيظهر في صورتين ، الأولى في أسـلوب نعم وبئس ، أو أسلوب المدح والذم ، فتقول مثلا : نعم رجلا محمد ، وبـئس رجلا عمرو ، والأصل أن تقول نعم الرجل محمد ، وبئس الرجل عمرو

حتى لا تجعل الفاعل (لنعم وبئس) ضميرا ليس له عائد ، ولا قرينة تدل عليه ، لكن العرب استعملت ذلك لتشوق السامع ، وتوضح له بعد إبهام فيستقر المعنى في قلبه .

والصورة الثانية في ضمير الشأن والقصة ، وهو كل ضمير يتقدم مرجعه حكما ، ويتأخر لفظا ورتبة ، **كما في قوله تعالى :**

﴿ .....إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١١٧﴾ ﴾ [سورة المؤمنون:١١٧]

وقوله :

﴿ .....فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ..... ﴾ [سورة الحج:٤٦]

وقوله :

﴿ .....وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجْوَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ..... ﴾ [سورة الأنبياء:٣]

فالضمير في تلك المواضع ضمير الشأن ، وهو ضمير ليس له مرجع ولا قرينة عليه ،ولا دليل ، وكان الأصل في غير القرآن أن يعبر بالاسم الظاهر لكنه عدل إلى ذلك ووضع المضمر مكان المظهر بقصد التفخيم ، **أو كما قال السكاكي :**

قولهم : (هو زيد عالم) و(هي هند مليحة) مكان (الشأن زيد عالم) (والقصة هند مليحة) ليتمكن في ذهن السامع ما يعقبه وذلك أن السامع متى لم يفهم من الضمير معنى بقي منتظرا لعقبى الكلام كيف تكون ؟ فيتمكن المسموع بعده فضل تمكن في ذهنه ، وهو السر في التزام تقديمه(١).

---

١ - مفتاح العلوم ١٩٨.

الأسلوب الحكيم

يتعلق هذا الأسلوب غالبا بالمخاطب سواء سأل فأجيب بغير ما يترقب أو تكلم بغير سؤال ، فحُمل كلامه على غير مراده ، والأصل في السؤال والجواب أن يتطابقا ، لكن المتكلم قد يُعدِّل في الجواب ، فيأتي به أعم ، أو أخص أو مشتملا على شيء لم يرد ذكره في السؤال ، وكل هذا بحسب ما يراه المخاطب من أحوال تستوجب تعديل الجواب عن مطابقة السؤال .

أما غير السؤال فيحمل كلام المتكلم على غير مراده .

وعليه فإن الأسلوب الحكيم كما يراه أهل البلاغة هو : (تلقي المخاطِب بغير ما يترقب، بحمل كلامه على خلاف مراده ؛ تنبيها على أنه الأولى بالقصد أو "تلقي" السائل بغير ما يتطلب ، بتنزيل سؤاله منزلة غيره ؛ تنبيها على أنه الأولى بحاله، أو المهم له.) [١] **فتلقي المخاطب بغير ما يترقب يكون بطريقين** :

الأول : بترك سُؤله: والإجابة عن سؤال لم يسأله.

والآخر : بحمل كلام المتكلم على غير ما كان يقصد ويريد، تنبيهاً على أنه كان الأولى بالقصد ، وقد سمى عبد القاهر هذا النوع : المغالطة ، وهي تسمية معبرة عن تدخل المقاصد في توجيه الكلام ، فأنت تريد معنى والآخر يريد غيره ، واللغة تسع الجميع .

---

١ - بغية الإيضاح ١/ ١٤٥.

ومن نماذج النوع الأول ما فعله القبعثري (١) بالحجاج (٢)، إذ قال لـه الحجّاج مُتوعِّداً (لأحملنّك على الأدهم) .

يريد الحجّاج: القيد الحديد الأسود: فقال القبعثري «مثلُ الأمير يحمـل على الأدهم والأشهب» يعني الفرس الأسود، والفرس الأبيض، لأن الأصل فيمن ولي أمر الناس أن يقضي حاجاتهم ، وييسر الأمـور لهـم ، ويحملهـم في أسفارهم تلك صفات الأمراء الذين يعرفون قدر المناصب ، أما الذين

١ -- غضبان بن القبعثري الشيباني البصري (١) حكى عن الحجاج بن يوسف وقطري بن الفجاءة الخارجي (٢) وحبيب بن المهلب ابن أبي صفرة الأزدي حكى عنه منجوف بن جبر وعياش الهمداني والد عبد الله بن عياس المرهبي (٣) الكوفي أخبرنا أبو القاسم علي بن إبراهيم أنبأنا رشأ بن نظيف أنبأنا الحسن بن إسماعيل أنبأنا أحمد بن مروان حدثنا محمد بن علي الأنصاري البصري حدثنا سليمان بن أبي شيخ قال سمعت صالح بن سليمان يقول سمعت أبي يقول دخل الغضبان ابن القبعثري على الحجاج بن يوسف وكان من علماء العرب فجالسه وحادثه فنظر إليه الحجاج متبسما فقال له سموك غضبانا وسنك ضاحك * لقد غلطوا إذ لم يسموك ضاحكا * فقال أصلح الله الأمير كان لي جد يسمى الغضبان فسميت باسمه وليس كل اسم يشاكل صاحبه ولو كانت الأسماء تقسم على الأحساب إذا ما نالت الأندال منها شيئا فهل ترى اسمي تشاكل لحسبي فقال له الحجاج أخبرني عن أمهات الأولاد فقال هن بمنزل الأضلاع إن سويته انكسر وإن تركته انتفعت بهن وفيهن جوهر لا يصلح إلا على المداراة فمن داراهن انتفع بهن وقرت عينه ومن ماراهن كدرن عيشه ونغصن عليه حياته قال فأخبرني عن العاقل والجاهل قال العاقل الذي لا يتكلم هذرا (١) ولا ينظر شزرا ولا يضمر غدرا والجاهل المهذار في كلامه الضنين بسلامه التائه على غلامه المجتهد في أقسامه المتكلم في طعامه قال فمن أكرم الناس قال أعطاهم للمئين وأطعمهم للسمين قال فمن ألأم الناس قال المعطي على الهوان المعين على الإخوان البذول للإيمان المنان على الإحسان .

٢ - الحَجَّاج الثَّقَفي(٤٠ - ٩٥ هـ = ٦٦٠ - ٧١٤ م) الحجاج بن يوسف بن الحكم الثقفي، أبو محمد: قائد، داهية، سفاك، خطيب. ولد ونشأ في الطائف (بالحجاز) وانتقل إلى الشام فلحق بروح بن زنباع نائب عبد الملك بن مروان فكان في عديد شرطته، ثم ما زال يظهر حتى قلده عبد الملك أمر عسكره، وأمره بقتال عبد الله بن الزبير، فزحف إلى الحجاز بجيش كبير وقتل عبد الله وفرق جموعه، فولاه عبد الملك مكة والمدينة والطائف، ثم أضاف إليها العراق والثورة قائمة فيه، فانصرف إلى بغداد في ثمانية أو تسعة رجال على النجائب، فقمع الثورة وثبتت له الإمارة عشرين سنة. وبنى مدينة واسط (بين الكوفة والبصرة) . وكان سفاكا سفاحا باتفاق معظم المؤرخين. قال عبد بن شوذب: ما رؤى مثل الحجاج لمن أطاعه ولا مثله لمن عصاه. وقال أبو عمرو ابن العلاء: ما رأيت أحدا أفصح من الحسن (البصري) والحجاج. وقال ياقوت (في معجم البلدان) : ذكر الحجاج عند عبد الوهاب الثقفي بسوء، فغضب وقال: إنما تذكرون المساوئ! أو ما تعلمون إنه أول من ضرب درهما عليه (لا إله إلا الله محمد رسول الله) وأول من بنى مدينة بعد الصحابة في الإسلام، وأول من اتخذ المحامل، وأن امرأة من المسلمين سبيت في الهند فنادت ياحجاجاه، فاتصل به ذلك فجعل يقول: لبيك لبيك! وأنفق سبعة آلاف درهم حتى أنقذ المرأة؟. واتخذ (المناظر) بينه وبين قزوين فكان إذا دخن أهل قزوين دخنت المناظر إن كان نهارا وإن كان ليلا أشعلوا نيرانا فتجرد الخيل إليهم، فكانت المناظر متصلة بين قزوين وواسط، وأصبحت قزوين ثغرا حينئذ. وأخبار الحجاج كثيرة. مات بواسط، وأجري على قبره الماء، فاندرس.

ينتقمون فهم أراذل في ثياب أمراء ، وكأن القبعثرى يعلمه ويعلمنا درسا ، فقال له الحجاج: أردت (الحديد) ، فقال القبعثري: لأن يكون حديداً خيرٌ من أن يكون بليداً وهذا لفت وتنبيه آخر لعله يتذكر أو يخشى فالأليق به الوعد (لا الوعيد) يقول السكاكي في بلاغة هذا النوع من الأسلوب : (هذا الأسلوب الحكيم لربما صادف المقام ، فحرك من نشاط السامع ما سلبه حكم الوقور ، وأبرزه في معرض المسحور، وهل ألان شكيمة الحجاج لذلك الخارجي ، وسل سخيمته حتى آثر أن يحسن على أن يسيء غير أن سحره بهذا الأسلوب إذ توعده الحجاج بالقيد في قوله لأحملنك على الأدهم فقال متغابياً مثل الأمير يحمل على الأدهم والأشهب مبرزا وعيده في معرض الوعد متوصلاً أن يريه بألطف وجه أن أمرءًا مثله في مسند الإمرة المطاعة خليق بأن يُصفِد لا أن يَصفد [1] أن يعد لا أن يوعد)[2] .

ويحكى: أنه لما توجّه (خالد بن الوليد) لفتح الحيرة، أتى إليه من قبل أهلها رجل ذو تجربة: فقال له (خالد) فيم أنت؟

قال في ثيابي.

فقال علام أنت؟

فأجاب على الأرض .

فقال كم سنّك؟

قال اثنتان وثلاثون .

---

١ - ١ أي جدير به أن يعطي لا أن يقيد. أصفد: أعطى. وصفد: أوثق.

٢ - مفتاح العلوم ص ٢٢٧.

قال: ما سنّك؟ قال: عظم.

قال: أتعقل، لا عقلت؟

قال: أي والله وأقيّد.

قال: ابن كم أنت؟ قال: ابن رجل واحد.

قال: كم أتى عليك من الدهر؟ فقال: لو أتى علي شيء لقتلني.

قال: ما تزيدني مسألتك إلا غمّى ؟

قال: ما أجبتك إلا عن مسألتك. [1]

وفي هجرة النبي ﷺ لقي سفيان الضمري، فقال رسول الله ﷺ: من الرجل؟

فقال الضمري: بلى من أنتم؟

فقال رسول الله ﷺ: فأخبرنا ونخبرك!

قال الضمري: وذاك بذاك ؟

قال النبي ﷺ: نعم .

قال الضمرى: سلوا عما شئتم!

فقال النبي ﷺ: أخبرنا عن قريش.

قال الضمري: بلغني أنهم خرجوا يوم كذا وكذا من مكة، فإن كان الذي أخبرني صادقا فإنهم بجنب هذا الوادي.

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: فأخبرنا عن محمد وأصحابه.

---

١ - البيان والتبيين للجاحظ ١٠٠/٢.

قال: خبرت أنهم خرجوا من يثرب يوم كذا وكذا، فإن كان الذي خبرني صادقا فهم بجانب هذا الوادي.

قال الضمري: فمن أنتم؟

قال النبي ﷺ: نحن من ماء . وأشار بيده نحو العراق.

فقال الضمري: من ماء العراق! ثم انصرف رسول الله ﷺ إلى أصحابه ولا يعلم أحد من الفريقين بمنزل صاحبه .

وذكر ابن أبي الأصبع في تحرير التحبير بابا سماه : باب الإسجال بعد المغالطة هو أن يقصد الشاعر غرضا من ممدوح فيشترط لحصوله شرطا، ثم يقدّر وقوع ذلك الشرط مغالطةً ليسجّل به استحقاق مقصوده، **كقول بعضهم:**

جاء الشتاء وما عندي لقرته ... إلا ارتعادي وتصفيقي بأسناني

فإن هلكت فمولانا يكفنني ... هبني هلكت فهبني بعض أكفاني

ومن نماذج النوع الثاني قوله تعالى :

﴿ ۞ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ ..... ﴾

[سورة البقرة:١٨٩]

فعدل عن الجواب عن طبيعة الأهلة ، وتدرج حجمها ، هلالا ثم خيطا ثم يمتلئ حتى يصير بدرا ، ثم يتصاغر حتى يصير هلالا ويعود كحاله الأول عدل عن جواب علّة كل ذلك إلى ما هو أولى بأن الأهلة لها وظائف كثيرة ، ومن أهمها أنها مواقيت للناس والحج ، والسؤال عن طبيعة

تدرجها في الحجم يحتاج إلى علم في الفلك لم يكـن موجـودا سـاعتها ، ولا فائدة من السؤال عنه في وقتها ولن يستوعب القوم الكلام إن قيـل لهـم كيف يكون الأمر .

وفي نموذج آخر يقول الحق سبحانه :

﴿ يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَۖ قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِۗ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٢١٥﴾ ﴾

[سورة البقرة:٢١٥]

فكان سؤالهم (ماذا ينفقون) وكانت الإجابة عن من تعطونهم ، وهـم الوالدين ، والأقربين واليتامى والمساكين ، لأن النفقـة والعطـاء يشـمل كـل شيء جادت به نفسك ، فلا تسأل : أي شيء أُعطي ، فأعط كـلَّ شيء ، لكـن اسأل : من الأولى بالعطـاء ؟فحددتـه الآيـة ، وفي سـؤال آخـر سـأل النـاس رسول الله ﷺ عن الروح ، **فكانت الإجابة :**

﴿ ..... قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾ ﴾

[سورة الإسراء:٨٥]

ذلك لأن السؤال كان تعنتا منهم ، لأن لفظ الروح يطلـق عـلى أشـياء كثيرة فأمين الوحي (جبريل) قال له الروح ، والسر الذي يسرـي في الجسـد فيجعله حيا يقال له الروح ، والقرآن الكـريم سـمى في الآيـات : (الـروح) وسيدنا عيسى لقب بالروح ، فـما الـذي يقصـده هـؤلاء ؟ولـذلك خرجـت الإجابة من هذا اللغط فقالت:(قل الروح من أمر ربي) **ومنه قول الشاعر**:

أتت تشتكي عندي مزاولة القرى وقد رأت الضيفان ينحون منزلي
فقلت كأني ما سمعت كلامها هم الضيف جدي في قراهم وعجلي

وقد يخرج الأسلوب الحكيم إلى باب آخر حيث يزاد على الإجابة المطلوبة شيئا لغاية يراها المتكلم ، **ومن ذلك قوله تعالى** :

﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَـٰمُوسَىٰ ﴿١٧﴾ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُاْ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾﴾ [سورة طه:١٧-١٨]

وجاء السؤال بـ (ما تلك) وقد نقل ابن عطية في المحرر الوجيز عن القاضي أبي محمد قال: (والأصل أن تِلْكَ إشارة إلى ما غاب و «هذه» إشارة إلى ما حضر، وقد تتداخل ، متى كان في الغيبة حصول وثقة به تقوم مقام الحضور- ومتى كان في الحضور بعد ما يقوم مقام الغيبة فمن ذلك قوله تعالى وَما تِلْكَ بِيَمِينِكَ يا مُوسى : لما كان موسى لا يرى ربه تعالى، فهو وعصاه في منزل غيب فساغ ذلك)

والسؤال عن العصى يقصد به التنبيه له على ما سيحدث لها ، حتى يأنس ولا يفزع فإن السؤال سيعقبه أمر جلل ، وكانت الإجابة زائدة عن الحد استئناسا بالكلام مع الله تعالى ، ورغبة في إطالة اللقاء .فكل شيء يحمل على غير مراده يمكن أن يدخل تحت هذا النوع من الكلام ، **ومن لطائف ذلك قول الشاعر** :

وإخوان حسبتهمو دروعا فكانوها ولكن للأعادي
وخلتهمو سهاما صائبات فكانوها ولكن في فؤادي
وقالوا قد صفت منا قلوب لقد صدقوا ولكن من ودادي

التعبير عن المستقبل بلفظ الماضي

وهذا النوع من التعبير أدخلـه العلـماء في دائـرة خـروج الكـلام عـلى مقتضى الظاهر ، والتعبير بالماضي يفيد تحقق الوقوع ، وذلـك كثـير في الـنص القرآني **ومثاله الأشهر قوله تعالى :**

﴿.....أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسۡتَعۡجِلُوهُۚ ﴾ [سورة النحل:١]

فقوله (فلا تستعجلوه) دليل على أنه سيكون في المسـتقبل ، وقولـه (أتى) دليل على أنه حدث وانتهى ، وهذا لا تعارض فيه لأن الإتيان وإن كـان في المستقبل إلا أن تحقق وقوعه لا يقترب منه شك ، لذلك عبر عنه بالمـاضي ، وفي مثال آخر قال تعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمۡ لَا يَأۡلُونَكُمۡ خَبَالٗا وَدُّواْ مَا عَنِتُّمۡ قَدۡ بَدَتِ ٱلۡبَغۡضَآءُ مِنۡ أَفۡوَٰهِهِمۡ وَمَا تُخۡفِي صُدُورُهُمۡ أَكۡبَرُۚ قَدۡ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡقِلُونَ ﴿١١٨﴾ ﴾ [سورة آل عمران:١١٨]

فعبر بالماضي (ودوا ما عنـتم) والسـياق سـياق مسـتقبل ، لأن هـذه صفتهم القائمة ، وحالهم الملازمة .

وفي قوله تعالى :

﴿ وَيَوۡمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَفَزِعَ...... ﴾ [سورة النمل:٨٧]

عبر بالماضي (فزع) لأنه لا شك في تحققه ، وكذا الحال في قوله تعالى :

﴿ وَيَوۡمَ نُسَيِّرُ ٱلۡجِبَالَ وَتَرَى ٱلۡأَرۡضَ بَارِزَةٗ وَحَشَرۡنَٰهُمۡ فَلَمۡ نُغَادِرۡ مِنۡهُمۡ أَحَدٗا ﴿٤٧﴾ ﴾

[سورة الكهف:٤٧]

وقوله : (ونادى أصحاب النار)(ونـادى أصـحاب الجنـة)(ونـادى أصحاب الأعراف) كل ذلك تعبير بالماضي لأن المعنى أن كل ذلـك لاشـك في وقوعه ، ومما يستدل به على ذلـك أيضـا قـول سـيدنا حسـان لولـده عبـد الرحمن حين لسعه زنبور وهو طفل فجاء إليه يبكي ، فقال له : يابني مالـك ؟ فقال : لسعني طويّر ، كأنه ملتف في بردي حبرة ، فضمه إلى صدره ، وقال له : يا بني قد قلـت الشـعر ، فسـيدنا حسـان اسـتدل بكـلام ولـده عـلى كـمال استعداده لقول الشعر فجعل قول الشعر كالواقع لذلك قال له : (قـد قلـت الشعر)(١).

ومن نماذج ذلك أيضا قوله تعالى :

﴿ وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابٗا .... ﴾ [سورة فاطر:٩]

حيث أحاط إثارة السحاب بفعلين ماضيين وهمـا (أرسـل – سـقناه) لأنهما مسندين إلى ضمير العزيـز سـبحانه ، لكـن الإثـارة مسـندة إلى الريـاح فافترقا .

وقد يعبر بالماضي زجرا وتهديدا **كما في قوله تعالى :**

﴿ وَجَآءَتۡ سَكۡرَةُ ٱلۡمَوۡتِ بِٱلۡحَقِّۖ ..... ﴾ [سورة ق:١٩]

حيث نبه على أن الموت قريب جدا، وكل نفـس ذائقـة لـه ، فـالأمر لا مناص منه لذلك عبر عنه بالماضي (جاءت) .

---

١ - الطوير تصغير الطائر ، وكان القياس طويئر ، إلا أنه قلب الهمزة ياء وأضـغمها فـي اليـاء ، والحبـرة من نواع البرد اليماني ، ويقصدبها جناحي الزنبور

وفي قوله تعالى :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَقَالُواْ لِإِخْوَٰنِهِمْ إِذَا ضَرَبُواْ فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ كَانُواْ غُزًّى لَّوْ كَانُواْ عِندَنَا مَا مَاتُواْ وَمَا قُتِلُواْ ..... ﴾ [سورة آل عمران:١٥٦]

يقول الفخر الرازي : في الآية إشكال وهو أن قوله: (وقالوا لإخوانهم) يدل على الماضي، وقوله:(إذا ضربوا) يدل على المستقبل فكيف الجمع بينهما؟

بل لو قال: وقالوا لإخوانهم إذ ضربوا في الأرض، أي حين ضربوا لم يكن فيه إشكال.

والجواب عنه من وجوه: الأول: أن قوله: (قالوا) تقديره: يقولون فكأنه قيل: لا تكونوا كالذين كفروا ويقولون لإخوانهم كذا وكذا، وإنما عبر عن المستقبل بلفظ الماضي لفائدتين: أحدهما: أن الشيء الذي يكون لازم الحصول في المستقبل قد يعبر عنه بأنه حدث أو هو حادث قال تعالى: (أتى أمر الله) وقال: (إنك ميت) فهنا لو وقع التعبير عنه بلفظ المستقل لم يكن فيه مبالغة ، أما لما وقع التعبير عنه بلفظ الماضي، دل ذلك على أن جدهم واجتهادهم في تقرير الشبهة قد بلغ الغاية، وصار بسبب ذلك الجد هذا المستقبل كالكائن الواقع) (١).

١ ـ الفخر الرازي ٩ / ٤٠١.

فالقصد أن المتكلم يحول صيغة الكلام إلى الماضي لما يحمله الماضي من قوة في ترسيخ المعنى وتحقيق وقوعه ، وانظر مثلا إلى هذا الدعاء حين يقول لك قائل : وفقك الله فيما ستصنع ، تجد أن الكلام ما زال حبله ممدودا في المستقبل ومع ذلك عبر المتكلم بالفعل الماضي (وفقك) لينقل إليك معنى يقينه بتحقق وقوع الفعل . **لذلك سطرت كتب البلاغيين هذا النص** :

يجيء التعبير عن المستقبل بلفظ المضي تنبيها على تحقق وقوعه، وأن ما هو للوقوع كالواقع **كقوله تعالى:**

﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ إِلاَّ مَن شَاء اللَّهُ . ﴾ [سورة الزُّمَر:٦٨]

وقوله: ﴿ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴾[سورة الكهف:٤٧]

- التعبير عن المستقبل باسم الفاعل أو المفعول وفي هذا خروج على مقتضى الظاهر ، وهذا العدول لا بد له من غاية **ففي قوله تعالى** :

﴿ وَإِنَّ ٱلدِّينَ لَوَٰقِعٌ ﴿٦﴾ ﴾ [سورة الذاريات:٦]

التعبير باسم الفاعل (واقع) لما فيه من معنى الثبوت ، واختار لفظ الوقوع ؛ لأن الوقوع في حقيقته سقوط الشيء من أعلى إلى الأرض، ومنه: وقع الطائر، إذا نزل إلى الأرض، واستعير الوقوع لظهور أمر رفيع القدر، لأن ظهوره كان بتأييد إلهي فشبه بشيء نزل من علو، وقد يطلق الوقوع على الحصول لأن

الشيء الحاصل يشبه النازل على الأرض.[1]

أما اسم المفعول فمنه **قوله تعالى** :

﴿....ذَٰلِكَ يَوۡمٞ مَّجۡمُوعٞ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوۡمٞ مَّشۡهُودٞ ﴿١٠٣﴾﴾ [سورة هود:١٠٣]

وأوثر اسم المفعول بدلا من الفعل لما فيه من دلالة على ثبوت المعنى فجمع الناس يوم القيامة لا ريب فيه ، ولا بد من حصوله ، يقول الزمخشري (وأسند اسم المفعول إلى الناس لأنهم لا ينفكون منه، ونظيره قول المتهدد: إنك لمنهوب مالك ، محروب قومك، فيه من تمكن الوصف وثباته ما ليس في الفعل وإن شئت فوازن بينه وبين قوله يوم (يجمعكم ليوم الجمع) تعثر على صحة ما قلت لك.

ومعنى يجمعون له: يجمعون لما فيه من الحساب والثواب والعقاب ، يوم مشهود مشهود فيه، فاتسع في الظرف بإجرائه مجرى المفعول به ، والمراد بالمشهود: الذي كثر شاهدوه ، ومنه قولهم: لفلان مجلس مشهود، وطعام محضور.

ولهذا السر ورد قوله تعالى:

﴿إِنَّا سَخَّرۡنَا ٱلۡجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحۡنَ بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِشۡرَاقِ ﴿١٨﴾ وَٱلطَّيۡرَ مَحۡشُورَةٗۖ كُلّٞ لَّهُۥٓ أَوَّابٞ ﴿١٩﴾﴾

[سورة ص:١٨-١٩]

فاستعمل الفعل حيث يليق به، واسم المفعول حيث يحسن استعماله أيضا... الخ (٢).

---

١ - التحرير والتنوير ٩/ ٥٠.
٢ - الكشاف ٢/ ٤٢٧ .

القلب

وهو أن يجعل أحد أجزاء الكلام مكان الآخر، والآخر مكانه ،**كقولهم** : عرضت الناقة على الحوض ، والأصل أن الحوض هو المعروض على الناقة وليس العكس **وهو نوعان** :

لفظي ، كما في قولهم : خرق الثوبُ المسمارَ ، والمعروف عقلا ، أن الخارق هو المسمار ، وأن الثوب مفعول به وليس فاعلا ، وهذا العدول يعتمد على فهم كل سامع ، وحين يؤمن اللبس فلك أن تحيد عن المألوف ، وتخالف القاعدة النحوية .

وقد يكون القلب معنويا ، أي أن الأمر لا يتعلق بالمخالفة النحوية ، وإنما بفهم المعنى ، **ومن ذلك قول رؤبة:**

"ومهمة مغبرة أرجاؤه" كأن لون أرضه سماؤه

والمهمة : المفازة ، والمغبرة : المملوءة بالغبرة ، والأرجاء : الأطراف وحذف من البيت المضاف إلى كلمة السماء ، والتقدير : كأن لونَ أرضه لون سمائه ، وهو لا يريد وصف لون الأرض بالغبرة ، لأن الغبرة أصل في الأرض إنما يريد أن يصف لون السماء بالغبرة ، فعكس المعنى وقلبه .

ومنه قول أبي تمام يصف قلم الممدوح:

لعاب الأفاعي القاتلات لعابه وأرى الجنى اشتارته أيد عواسل

الأفاعي: الحيات ، وأرى الجنى: العسل ، واشتارته: جنته ، والأيد العواسل: أي العارفة بطريقة الجني ، فالشاعر يصف قلمه وأثره على أعدائه بأنه يشبه فعل الحيات حين تلدغ فرائسها ، فمداده كلعاب الأفاعي ، وفي

الوقت نفسه تجده يمدح ويصف أحبابه ، وأصدقائه بالأوصاف الطيبة مما يجعل القلم بالنسبة لهم كالشهد الذي يقطر عسلا ، ولعلك تستطيع الآن أن تتخيل المسافة الطويلة بن لعاب الأفاعي ، وشهد العسل ، فالمسافة هي المسافة بن الأعداء والأصدقاء ، لكن الشاعر حين وصف صنيع القلم في الأعداء قلب الصورة وجعل لعاب الأفاعي مشبها ، وأقل تأثيرا من لعاب ، أو مداد قلمه ، والأصل أن يجعل مداد قلمه كلعاب الأفاعي ، لكنه قلب الصورة تضخيما ومبالغة في أثر القلم على الأعداء .

ومن القلب قولهم : أدخلت القلنسوة في رأسي ، والخاتم في أصبعي والخف في رجلي ... وكل ذلك من صور القلب الذي يريد به المتكلم جذب انتباه المخاطب ، وتحريك فكره، وتنشيط خياله بعكس الصورة .

وكل شيء تضمن معنى لطيفا ، وغرضا رائقا قبلته الفطرة ، حتى وإن وضع الأمور في غير موضعها ، أما إذا كان القصد إلى التشويش ، وصرف السامع إلى اللفظ دون المعنى فإن البلاغة ترد ذلك وتنفر منه.

ولقد عد بعض أهل العلم قوله تعالى :

﴿ وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلۡغَضَبُ ..... ﴾ [سورة الأعراف:١٥٤]

وقالوا إن الأصل في السورة هو (وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلۡغَضَبُ) وكذلك **في قوله تعالى :**

﴿ إِذِ ٱلۡأَغۡلَٰلُ فِيٓ أَعۡنَٰقِهِمۡ ..... ﴾ [سورة غافر:٧١]

والأصل : إذ أعناقهم في الأغلال ، **وكذلك قوله :**

﴿ قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتۡ عَلَيۡكُمۡ أَنُلۡزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمۡ لَهَا كَٰرِهُونَ ٢٨ ﴾ [سورة هود:٢٨]

والأصل : (فعميتم أنتم عنها) وكل ذلك من باب قلب الصورة لفتًا لها وتنشيطا لأذهان السامعين .

ويدخل القلب أركان الجمل كلها فتراه بين الفاعل والمفعول كما في قولهم : أكل طعامُكم الأبرارَ ، وتارة بين المبتدأ والخبر مثل قولهم: جعلت النار حطبا ، وتارة بين المبتدأ والخبر **كما في قولهم:**

﴿ .....إِنَّمَا ٱلۡبَيۡعُ مِثۡلُ ٱلرِّبَوٰاْۗ ..... ﴾ [سورة البقرة:٢٧٥]

وتارة بين الشرط والجزاء **كما في قوله تعالى** :

﴿ فَإِذَا قَرَأۡتَ ٱلۡقُرۡءَانَ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِ .... ﴾ [سورة النحل:٩٨]

والمعنى إذا أردت القراءة، وفي كل ذلك توسيع للمعنى، وإبراز لقوة اللغة وشجاعتها، وإثبات المبالغة .

الفصل الرابع
أحوال المسند

١- حذف المسند.

٢- ذكر المسند.

٣- تعريف المسند.

٤- تقديم المسند.

حذف المسند

لا تفترق كثيرا أحوال المسند عن أحوال المسند إليه ، وما يقال هنا من كلام حول الحذف ، أو الذكر ، أو التقديم ، أو غير ذلك ، قد قيل مثله من قبل في أحوال المسند إليه ، ففي الحذف تجد من الأغراض العامة هنا مثل ما هنالك من الاختصار ، والاحتراز عن العبث ، وضيق المقام ، وكلما كانت العبارة موجزة ، والمعنى مزدحم كان الحذف أولى ، فتصفية العبارة من كل شائبة هدف من أهداف البليغ ، وإذا كان ما سبق يمثل أهدافا عامة فإن وراء كل مثال هدفًا خاصًا للحذف ، **يقول ضابئ بن الحارث البرجمي** (١):

١ - ضابئ البُرْجُمي(٠٠٠ - نحو ٣٠ هـ = ٠٠٠ - نحو ٦٥٠ م) ضابئ بن الحارث بن أرطاة التميمي البرجمي: شاعر، خبيث اللسان، كثير الشر. عرف في الجاهلية. وأدرك الإسلام، فعاش بالمدينة إلى أيام عثمان. وكان مولعا بالصيد، وله خيل.ومن شعره أحد أبيات الشواهد:

(فمن يك أمسى بالمدينة رحله ... فإنّي، وقيّار بها، لغريب)

وكان ضعيف البصر: سجنه عثمان بن عفان لقتله صبيا بدابته، ولم ينفعه الاعتذار بضعف بصره. ولما انطلق هجا قوما من بني نهشل، فأعيد إلى السجن. وعرض السجناء يوما فإذا هو قد أعدّ سكينا في نعله يريد أن يغتال بها عثمان، فلم يزل في السجن إلى أن مات .

فمن يك أمسى بالمدينة رحله — فإني وقيار بها لغريب

وما عاجلات الطير تدني من الفتى — نجاحا ولا عن ريثهن يخيب

ورب أمور لا تضيرك ضيرة — وللقلب من مخشاتهن وجيب

ولا خير فيمن لا يوطن نفسه — على نائبات الدهر حين تنوب

وفي الشك تفريط وفي الحزم قوة — ويخطئ في الحدس الفتى ويصيب

والشاعر هنا يستخدم أسلوب الحكمة في وصف ما يستشعره من وحشة وغربة ، في المدينة ، والأصل أن يستشعر الإنسان في المدينة أنسا ورفقا ، لكنه لا يجد هذا الأنس ، ولا ذاك الرفق ، حتى أنه يخاطب كل من أراد السكن والمبيت في هذه المدينة ، بأن لا يأمن على حاله فيها ، وأن يوطن نفسه على النوائب ، لأنه وبعيره في هذه المدينة غرباء ، والشاهد في هذه المقطوعة قوله : فإني وقيار- وهو اسم جَمَله - بها لغريب ، حيث جعل الغربة شاخصة في نفس البعير ، كما هي شاخصة في نفسه ، وظاهر السياق كان يقتضي أن يقول : فإني لغريب بها ، وقيار غريب أيضا ، لكنه حذف المسند في الجملة المعطوفة على جملة ، فإني بها لغريب لأن ذكره مرة يغني عن إعادته ، وإعادة ذكره من العبث ، كما أن الغربة التي يستشعرها تجعل النفس تضيق بالكلام ،وتجنح إلى الاختصار، كما أنه قدم اسم الجَمَل الذي يتحدث عنه (قيار) ، **وفي ذلك يقول السعد :**

(إنه لو قيل: إني لغريب وقيار لجاز أن يتوهم أن له مزية على قيار في التأثر بالغربة؛ لأن ثبوت الحكم أولا أقوى ، فقدمه لتأتي الإخبار عنهما دفعة بحسب الظاهر تنبيها على أن قيارا مع أنه ليس من ذوي العقول قد ساوى العقلاء في استحقاقه الإخبار عنه بالاغتراب قصدا إلى التحسر") (١).

وفي نموذج آخر لحذف المسند ذكر البلاغيون قول امرئ القيس :

نحن بما عندنا وأنت بما عندك راض والرأي مختلف

والأصل : نحن بما عندنا راضون ، وأنت بما عندك راض ، والرأي مختلف لأن (نحن) لا يجوز الإخبار عنها بـ (راض) لأن : (راض) مفرد فالخبر محذوف تقديره : نحن بما عندنا راضون ، وأنت بما عندك راض .. لكن الشاعر أدمج (نحن) مع (أنت) تحت مظلة (راض) فاكتفى بمسند واحد لجملتين واصطفى حالة الإفراد ليشير إلى أن رضاه هو ليس كرضى صاحبه ، بل إنه لا يكاد يرضى ، ولذلك ستر رضاه في رضى مخاطبه ، وكأنني

---

١ - ذكر الشيخ أبو موسى شيئا من خبر ضابئ بن الحارث هذا فقال : وكان من خبر هذه الأبيات أن صاحبها ضابئ بن الحارث استعار كلبا من بني نهشل، وأطال مكثه عنده، وطلبوه فامتنع فلما عرضوا له، وأخذوه منه هجاهم ورمى أمهم به، فحبسه عثمان بن عفان رضي الله عنه، وكان ضابئ شجاعا متهورا فيه طيش، هم بقتل عثمان لما حبسه، ولكنه لم يفعل وندم على أنه لم يفعل قال: "من الطويل"

هممت ولم أفعل وكدت وليتني ... تركت على عثمان تبكي حلائله

ومع حبي الشديد لذي النورين رضي الله عنه، ومقتي الشديد لمن تطاولوا عليه، فإني أحب هذه الصنعة اللطيفة البارعة في هذا البيت، وهذا اللمح السريع، والتقسيم الممتاز في قوله: هممت ولم أفعل، وكدت وليتني.

وأظن أن القارئ الجيد الذي يستشعر معنى الشعر لا بد له أن يقف قليلا بعد النطق بهممت ليدرك المدى الذي وصل إليه هم الشاعر، ثم يقف قليلا بعد: "ولم أفعل"، ليدرك مدى إحساسه بالندم الذي أفرغه في هذه الكلمة -لم أفعل- ثم ينطق وكدت نطقا منفردا غير موصول بما قبله، ولا بما بعده ليلمح ضراعة الأمل الذي يداعب خيال ضابئ، وهو يشارف الفعل ويدنو من الغاية، ثم عليه أن يقرأ بقية البيت في نفس واحد يطول طول ندم الشاعر على تولي تمنيه ... أرأيت أننا في الشعر نقف عند صنعته، وبراعته وتثقيفه، وإتقانه، مع أنه يعبر عن خاطر أسود نكرهه ونمقته، وهكذا كان علماؤنا ومنهم المفسرون والمحدثون، والفقهاء وهم جميعا أهل عبادة، وأصحاب أوراد.

استشعر أن جملة (نحن بما عندنا) لا تحمل الرضى الكامل ؛ لذلك حذف المسند ؛ ليظل مخبوءا تحت لسانه . كل ذلك في حذف الفعل ، **ومثله قول الآخر :**

قالت وقد رأت اصفراري : من به   وتنهدت ، فأجبتها المتنهد

والتقدير : من فعل به هذا ؟ من الذي جعله مصفرا هكذا ؟ ثم تنهدت فأجابها : أن من فعل بي هذا هو المتنهد . أي : هي التي فعلت به هذا

فالبيت فيه أكثر من حذف ، ففي قوله : من به ؟ حذف الفعل ، أي : من فعل به؟

وفي قوله : (المتنهد) حذف الخبر ، والتقدير : المتنهد هو الفاعل .

وفي الحالتين حذف المسند من الجملة سواء أكان الفعل ، أم الخبر .

وفي حذف الخبر تجد قوله تعالى :

﴿ أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ..... ﴾ [سورة الرعد:٣٣]

أي : كمن ليس كذلك ، والقيام على النفوس بمعنى حفظها ، والآية ترشد الناس إلى وجوب عبادة من يملك النفوس ، وإفراده بالوحدانية ، وبدأت بالاستفهام بالهمزة المراد به النفي ، والخبر مفهوم من سياق الكلام ، وتقديره أفمن هو قائم على كل نفس كمن ليس قائما على النفوس ؟

وقس على هذا النموذج الجمل التي بدأت بالاستفهام **مثل قوله تعالى :**

﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ....﴾ [سورة الزُّمَر:٢٢]

وقوله :

﴿ **أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ ....** ﴾

[سورة الزُّمَر:٩]

أي كمن ليس قانتا ولا ساجدا .

ومنه قوله أيضا :

﴿ **أَفَمَن يَتَّقِى بِوَجْهِهِۦ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ......** ﴾ [سورة الزُّمَر:٢٤]

أي: كمن يأتي يوم القيامة آمنا مطمئنا .

وفي سورة فاطر يقول سبحانه :

﴿ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا .... ﴾ [سورة فاطر:٨]

والتقدير كمن يعمل الصالحات ويخاف عدم القبول ؟ أو : كمن هـداه الله لقوله بعد ذلك :

﴿.... **فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ....** ﴾ [سورة فاطر:٨]

وفي قوله تعالى :

﴿**وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا .....**

﴾ **[سورة السجدة:١٢]**

أي : يقولون ربنا ...

وفي قوله تعالى :

﴿ وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ ..... ﴾ [سورة سبأ:١٢]

كلمة (الريح) معطوفة على الحديد في قوله: وألنا له الحديد ، بتقدير فعل يدل عليه (وألنا). والتقدير: وسخرنا لسليمان الريح .

وفي قصة فرعون يحكي القرآن الكريم مقولة فرعون للسحرة حيث قال لهم بعد أن خروا لله سُجّدا

﴿ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ۚ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٩﴾ قَالُوا۟ لَا ضَيْرَ.... ۖ ﴾

[سورة الشعراء:٤٩-٥٠]

وهذه الجملة الأخيرة (لا ضير) مكونة من (لا) النافية للجنس واسمها (ضير) وحذف الخبر (علينا) والكلام بهذا الاختصار يحمل معنى أن كل شيء يصيب الإنسان مع مرضاة الله تعالى لا يحسب في موازين الضرر وليس الأمر مقصورا عليهم فقط ، بل لكل من يتعرض لمثل هذه الفتن وحاول أن تضع هذه الإجابة بجوار الصراخ والتهديد ، والتزبيد ، والترعيد الذي صنعه فرعون **حيث قال:**

﴿ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ۚ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٩﴾ قَالُوا۟ لَا ضَيْرَ.... ۖ ﴾

وقد يضاف مع الحذف شيئ آخر يزيد من دلالته ، ويضفي عليه طعما آخر من المعاني ، **ومن ذلك قوله تعالى :**

﴿ ....وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ ﴾

[سورة التوبة:٦٢]

والأصل : والله أحق أن يرضوه ، ورسوله كذلك ، لكنه جمع الرضائين في رضى واحد ، وأخر الرضى حتى يكون أقرب إلى اسم الرسول منه إلى اسم الله تعالى ، وأعاد ضمير الإفراد (الهاء) في (يرضوه) على أقرب مذكور ، وفي كل ذلك إشارات لطيفة ، **منها** :

- أن رضي الله تعالى في رضي رسوله ﷺ.
- أنه لا فرق بين رضي الله تعالى ورضي رسوله ﷺ . عود الضمير إلى أقرب مذكور ، وهو الرسول ﷺ يوضح أن رضاه هو السبيل الوحيد لرضي رب العالمين ، فلن تصل إلى رضي الله تعالى ، وهي الغاية العظمى إلا من طريق رسوله ﷺ، ولو فصل الرضي ، ووزع على اللفظين ، لظن القارئ أن لكل منهما رضي يختلف عن الآخر ، وهذا فاسد ، ولو قيل : والله أحق أن يرضوه ورسوله كذلك ، لظننا أن لكل منهما رضي يختلف عن الآخر ، ولانصرفت النفوس إلى رضي الله تعالى ، وتكاسلت في إرضاء رسوله ﷺ، والحق أن رضاهما واحد ، فما يرضي رسول الله يرضي الله تعالى ، والعكس صحيح ..

ومن نماذج حذف المسند (الخبر) قوله تعالى:

﴿۞ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمۡتُم مِّن شَيۡءٖ فَأَنَّ لِلَّهِ ....﴾ [سورة الأنفال:٤١]

فجملة (أن لله خمسه) تصلح أن تكون مبتدأ ثانيا ، والخبر محذوف تقديره : واجب ، أو حق ثابت ،ويكون المعنى : ما غنمتموه ، كون خُمسه لله تعالى واجب وحق ، والكلام يحتمل هذا ولا يتأباه ، وهذا أولى في التقدير عندي من غيره ، لأن الحديث حديث تثبيت قواعد الغنائم ، ووضع هذه

القواعد في إطار الجملة الاسمية أولى .

وقد يحذف المسند لأن قدره لا يرقى إلى الذكر بجوار المذكور ، **كما في قوله تعالى :**

﴿ أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ..... ﴾ [سورة الرعد:٣٣]

والتقدير : كمن ليس كذلك ، فحذف المسند حتى لا يوضع في مقابلة (من هو قائم على كل نفس بما كسبت) سبحانه وتعالى ،وهذا النمط من الأسلوب كثير في القرآن الكريم ، ويحذف فيه الخبر كثيرًا ، إما إعلاء لقدره أو وضعا لقدره ، أو لغرض آخر ، لكن قماشة الأسلوب واحدة ، وهي الاستفهام الإنكاري السابق على الجملة ، كأن يقال : أفلان كفلان ، أو أفمن يفعل كذا ، ويسكت السياق عن المقابل ، وأعرض عليك بعض هذه النماذج

ومثل هذا قوله تعالى:

﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ....﴾ [سورة الزُّمَر:٢٢]

وسكت السياق عن الخبر ، وترك لك تقديره ، والمعنى : أفمن شرح الله صدره كمن ضيق الله صدره ؟

أجب أنت ، هل يستويان ؟

ولاحظ هذه الإضافة بعد السؤال ، وهي (فهو على نور من ربه) لأنها حاملة للنفوس على الإجابة الصحيحة ، ودافعة عن النفس لجاجة الشيطان وزبائنه ، حين يزعمون أن الفريق الآخر ، أغنى ، وأملك لوسائل الدنيا ، وكذا وكذا .

ويرى الشيخ أبو موسى أن سر حذف المسند هنا هو (الرغبة في أن ينصرف الذهن إلى هذه الصورة ليمتلئ القلب بها، ولتبقى وحدها في التعبير لا تنازعها أخرى) (١).

ومثلها قوله تعالى:

﴿ أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْأَخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ..... ﴾ [سورة الزُّمَر:٩]

أي كمن ليس كذلك.**وقوله تعالى:**

﴿ أَفَمَن يَتَّقِى بِوَجْهِهِۦ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ .... ﴾ [سورة الزُّمَر:٢٤]

أي: كمن ينعم في الجنة.

ومنه قوله تعالى:

﴿ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا .... ﴾ [سورة فاطر:٨]

أي: كمن لم يزين له سوء عمله .

ومن حذف الخبر أيضا **قوله تعالى :**

﴿ وَٱلَّٰٓـِٔى يَئِسْنَ مِنَ ٱلْمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمْ إِنِ ٱرْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ أَشْهُرٍ وَٱلَّٰٓـِٔى لَمْ يَحِضْنَ ۚ وَأُوْلَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا ﴿٤﴾ ﴾ [سورة الطلاق:٤]

فحذف الخبر من الجملة الأخيرة،لأن التقدير : واللائي لم يحضن مثلهن . وفصل هذا النوع لأن ضمه إلى الفريق الأول يتطلب تفصيلا مثل

١ - خصائص التراكيب ص ٢٧٧ .

التفصيل الذي سبق ، لكن الآية اكتفت بالقول : واللائي لم يئسن ، لتضم إليها أنت كل التفاصيل السابقة ، وهي (من المحيض من نسائكم إن ارتبتم فعدتهن ثلاثة أشهر كذلك ، وهذا حشو ثقيل ، لذلك أعرضت عنه الآية ، وجعلت القارئ يستحضر كل ما قيل في شأن الفريق الأول ويضعه مع الفريق الثاني .

وأهل النحو يقولون : إن حرف الشرط (لو) إذا دخل على اسم وجب تقدير فعل قبله ، لأن (لو) يستدعي الفعل ، فوجب تقدير الفعل بعدها ، ومن **ذلك قوله تعالى**:

﴿قُل لَّوۡ أَنتُمۡ تَمۡلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحۡمَةِ ....﴾ [سورة الإسراء:١٠٠]

والتقدير: لو تملكون أنتم تملكون، ولقد عمدت الآية إلى ذلك رغبة في التأكيد .

ومنه قول حاتم: (لو ذات سوار لطمتني)[1] أي : لو لطمتني شريفةٌ مثلي لهان الأمر عليّ. فأضمر الفعل بعد لو ، لأن لو تستدعي الفعل ، **ومثله**

١ - وقصة هذه المقولة أن حاتم الطائي وقع في أسر قبيلة بني عنزة ، ثم حدث لهم أمر اضطرهم إلى الارتحال ، فارتحل القوم ، وبقي حاتم مغلولا ،ثم بدا للنساء أن يرتحلن ،فارتحلن بحاتم، فبينما هن في أثناء الطريق جعن جوعا شديدا ،وكان أكل الفصيد – وهو الدم المتخثر – معتادا في الجاهلية وقت المخمصة فأمرن حاتما بفصد الناقة ، فقال افككن الغل عني حتى أفعل ، ففكن غله ، فنزل عن ناقته فنحرها . فقلنله لم صنعت هذا ؟ قال : هكذا قزدي أنه – اي : قصدي أنا ، والعرب تقلب الصاد زايا وبخاصة قبل الدال وتقول في أنا : أنه ، فعند ذلك لطمته جارية ، فقال : لو ذات خال – يعني : حرة ، لطمتني ، أي لو أن التي لطمتني حرة ما حزنت ، لأن ذات الخال هي الحرة ، فالأمة لا تلبس السوار ، والمعنى أنه وهو الكريم لطمته أمة ، حتى صارت هذه العبارة مثلا يضرب لكل كريم يجني عليه لئيم .

قول الشاعر :

ولو غير أخوالي أرادوا نقيصتي جعلت لهم فوق العرانين ميسما

والمعنى : لو ظلمني غير أخوالي لانتقمت منهم ، وجعلتهم عبرة والعرانين هي الأنوف ، والميسم هي العلامة ، يريد لجعلت لهم علامات في أنوفهم لا تخفى أبدا .

وهناك صور أخرى يستوي فيها تقدير المحذوف مسندا ، أو مسندا إليه .

وهذه الصور يكون الغرض العام لها الاختصار ، **مثل قوله تعالى :** ﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ﴾ [سورة يوسف:١٨]

حيث يجوز أن تقدر المحذوف هو المبتدأ ، ويكون التقدير: فأمري صبر جميل ، أو تقدره خبرا ويصير المراد : فصبر جميل أجمل وأحسن بحالي من الضجر والمعنى مستقيم على الحالين ، لكن الحمل على حذف المبتدأ أولى ، ويكون المعنى : فأمري صبر جميل ، لأن هذا التقدير يدل على حصول الصبر للمتكلم واللسان العربي يحذف المبتدأ أكثر من حذف الخبر ، لأن الخبر عمود العبارة ومحط نظر المتلقي .

ومن نماذج ذلك أيضا قوله تعالى : ﴿سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا ..... ﴾ [سورة النور:١]

فالمعنى : هذه سورة أنزلناها ، ولو قدرت الوجه الآخر تقول : مما أوحينا إليك سورة أنزلناها ، لكن تقدير حذف المبتدأ أكثر وأولى وأليق بالسياق ويزيده قوة أن المحذوف كلمة واحدة عكس التقدير الآخر .

ومــن ذلــك أيضــا قولــه تعــالى : ﴿.... وَلَا تَقُولُواْ ثَلَٰثَةٌۚ ..... ﴾ [ســورة النساء:١٧١]

فعلى تقدير حذف المبتدأ يكون المعنى : ولا تقولـوا : آلهتنـا ثلاثـة ، أو الآلهة ثلاثة ، وعلى تقدير حذف الخبر يكون المعنى : ولا تقولوا : الله والمسيح وأمه ثلاثة ، أو أن كلمة ثلاثة شعارنا ، أي التثليث شعارنا ، وليس المراد مجرد النهي عن إثبات مفهوم العدد ، بـل لا تقولـوا هـذه الكلمـة ، يقـول الشـيخ الطاهر بن عاشور رحمه الله : (وقوله : ولا تقولـوا ثلاثـة أي لا تنطقـوا بهـذه الكلمة، ولعلهـا كانـت شـعارا للنصـارى في ديـنهم ككلمـة الشـهادة عنـد المسلمين، ومن عوائدهم الإشارة إلى التثليث بالأصابع الثلاثة: الإبهام والخنصر والبنصر. والمقصود من الآية النهي عن النطق بالمشتهر مـن مـدلول هـذه الكلمـة وعن الاعتقاد. لأن أصل الكلام الصدق فلا ينطق أحد إلا عن اعتقاد، فالنهي هنا كناية عن إرادة المعنى ولازمه.

وثلاثة خبر مبتدأ محذوف ، تقديره مـن مـذاهبهم مـن التثليـث، فـإن النصارى اضطربوا في حقيقة تثليث الإله كما سيأتي، فيقدر المبتـدأ المحـذوف على حسب ما يقتضيه المردود من أقوالهم في كيفية التثليث مما يصـح الإخبـار عنه بلفظ ثلاثة من الأسماء الدالة على الإلـه، وهـي عـدة أسـماء. **ففـي الآيـة الأخرى:**

﴿....لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ .... ﴾ [سورة المائدة:٧٣]

في آخر هذه السورة قيل :

﴿ .....ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ..... ﴾

[سورة المائدة:١١٦]

أي إلهين مع الله، كما سيأتي، فالمجموع ثلاثة: كل واحد منهم إله ولكنهم يقولون: إن مجموع الثلاثة إله واحد أو اتحدت الثلاثة فصار إله واحد. قال في «الكشاف» : (ثلاثة) خبر مبتدأ محذوف فإن صحت الحكاية عنهم أنهم يقولون: هو جوهر واحد وثلاثة أقانيم، فتقديره الله ثلاثة وإلا فتقديره الآلهة ثلاثة (١).

لابد من قرينة في الحذف :

فلا حذف إلا بدليل، وعدم وجود دليل على المحذوف يخل بالإفهام وهذه القرينة تقترب كثيرا حتى تبدو لكل ناظر **مثل قوله تعالى** :

---

١ - التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور ٦ / ٥٤ وقال مضيفا : (والتثليث أصل في عقيدة النصارى كلهم ولكنهم مختلفون في كيفيته. ونشأ من اعتقاد قدماء نصارى اليونان أن الله تعالى (ثالوث) ، أي أنه جوهر واحد، وهذا الجوهر مجموع ثلاثة أقانيم ، - أي ثلاثة أسماء ، أو صفات - وعبروا عن مجموع الأقانيم الثلاثة بعبارة (آبا- ابنا- روحا قدسا) وهذه الأقانيم يتفرع بعضها عن بعض: فالأقنوم الأول أقنوم الذات أو- الوجود القديم وهو الأب وهو أصل الموجودات.

والأقنوم الثاني أقنوم العلم، وهو الابن، وهو دون الأقنوم الأول، ومنه كان تدبير جميع القوى العقلية.

والأقنوم الثالث أقنوم الروح القدس، وهو صفة الحياة، وهي دون أقنوم العلم ومنها كان إيجاد عالم المحسوسات.

وسموا أقنوم الذات بالأب، وأقنوم العلم بالابن، وأقنوم الحياة بالروح القدس، لأن الإنجيل أطلق اسم الأب على الله، وأطلق اسم الابن على المسيح رسوله، وأطلق الروح القدس على ما به كون المسيح في بطن مريم، على أنهم أرادوا أن ينبهوا على أن أقنوم الوجود هو مفيض الأقنومين الآخرين فراموا أن يدلوا على عدم تأخر بعض الصفات عن بعض فعبروا بالأب والابن، (كما عبر الفلاسفة اليونان بالتولد) . وسموا أقنوم العلم بالكلمة لأن من عبارات الإنجيل إطلاق الكلمة على المسيح، فأرادوا أن المسيح مظهر علم الله، أي أنه يعلم ما علمه الله ويبلغه، وهو معنى الرسالة إذ كان العلم يوم تدوين الأناجيل مكللا بالألفاظ الاصطلاحية للحكمة الإلهية الرومية، فلما اشتبهت عليهم المعاني أخذوا بالظواهر فاعتقدوا أن الأرباب ثلاثة وهذا أصل النصرانية، وقاربوا عقيدة الشرك).

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ .... ﴾ [سورة لقمان:٢٥]

أي : الذي خلق هو الله تعالى ، لكن في موضع آخر ذكر الفعل مرة أخرى ولم يحذفه ، **فقال** :

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٩﴾ ﴾ [سورة الزُّخرُف:٩]

ولعل إعادة ذكر الفعل مرة أخرى سببها أن هاتين الصفتين: «الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ» ليستا من قولهم. فهم كانوا يعترفون بأن الذي خلقهن هو «الله» و لكنهم لم يكونوا يعرفون الله بصفاته التي جاء بها الإسلام، فالقرآن هنا يعلمهم أن الله، الذي يعترفون بأنه خالق السماوات والأرض، هو «الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ» .. فهو القوي القادر، وهو العليم العارف. فيبدأ بهم من اعترافهم ، ويخطو بهم الخطوات التالية لهذا الاعتراف.مع أن المسند لو حذف لدل عليه الدليل ، لكن الآية ذكرته زيادة في تقرير خلق الله للسماوات والأرض .

ومثال ذلك أيضا قوله تعالى :

﴿قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ﴾ [سورة يس:٧٩]

حيث أعاد الفعل ، فقال أولا : من يحيي ؟ ثم قال : (قل يحييها) وفي ذلك يقول الشيخ أبو موسى : (وفي السؤال ما يدل عليه كما ترى، والمقصود من الذكر أن يتقرر أن الله أحياها، وفيه إشارة أخرى، هي أنه لا يسأل عن الإحياء بعد الموت -أعني عن إمكانه- سؤال مستبعد منكر إلا من في عقله غشاوة تحجبه عن الإدراك النافد والرؤية الصادقة، مثله لا يعول في خطابه

على ذكاء -وهذه الإشارة نجدها أيضا في الآية السابق: {خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ} -وفي الآية لمحة ثالثة نراها في قوله: {الَّذِي أَنْشَأَهَا} ، وكان يمكن أن يقول: يحييها الله ولكن هذه الصلة تضمنت البرهان الصادق على جواب سؤالهم وكأنه قال: يحيها الله بدليل أنه أنشأها أول مرة، وهذا أسلوب عجيب كما ترى فقد قرر القضية بذكر المسند، وأقام برهانا بذكر الموصول، فأصاب في الإفحام وأدمج القضية، ودليلها في أنفذ عبارة وأبينها، وكأنه يجمع بين الإيجاز الديد وذكر ما يمكن حذفه، وهكذا الأساليب العالية لا تتبين فيها موضع إطناب من وجه إلا، وترى إيجازا خفيا من وجه آخر وهذا الغرض الذي هو التقرير والإيضاح من أهم أغراض ذكر المسند، وأكثرها اتساعًا ، وغيره من الأغراض التي ذكرناها ربما كان ضيق المجال، كالتنبيه على غباوة السامع الذي ينحصر غالبا في مقامات الخطاب حين يكون المتكلم موجها كلامه إلى سامع غبي في حقية أمره، أو في اعتبار المتكلم، وربما كان بعضها محدودة القيمة مثل كونه الأصل، ولا مقتضى للعدول عنه، ومثل الاحتياط لضعف التعويل على القرينة.

قلت: إن التقرير والإيضاح من أهم أغراض ذكر المسند وأشيعها، وذلك لأن المعاني الأدبية لا يكفي فيها ما يكفي في الحالات الخطابية من مجرد الإفهام وإنما هي محتاجة فوق ذلك إلى مزيد من التقرير، والتأكيد حتى تؤثر في النفس وتدخل القلب، وتتعمق في الشعور، وذلك غاية الكلام البليغ، وإذا تأملنا كلام أرباب البيان وجدناه في حالات كثيرة، وقد دل بعضه على

معاني بعض فقد قالوا: إنه لما أحيط بمروان قال خادمه: "من أغفل القليل حتى يكثر والصغير حتى يكبر، والخفي حتى يظهر أصابه مثل هذا" (١).

تكرار المسند :

ذكرت قبل ذلك في أحوال المسند إليه أن الحذف يقابله التكرار ، وفي التكرار توثيق ، واحتياط ، وتنصيص على المراد حتى لا يلتبس بغيره ، وأغراض أخرى يحملها السياق والمقام ، وأعرض عليك هنا بعض النماذج لتتبين من خلالها حضور هذا النمط من التعبير في القرآن الكريم ، والأغراض التي يشير إليها .

من ذلك قوله عز اسمه :

﴿ **كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾** ﴾ [سورة التكاثر:٤]

وانظر إلا البداية ب(كلا) وهي ترسل إشارات تهديد لمن يسمعها ، ثم هذا النمط من التعبير (سوف تعلمون) وهي من أشد عبارات التهديد في القرآن الكريم ، وتكرر لتخلع قلب كل سامع ، وتتوعد كل سامع ينكر وجود النار ، ويتخذ حديث القرآن هزوا .

---

١ - خصائص التراكيب ص ٢٩١.

ومن نماذج التهديد أيضا حيث كرر المسند قوله تعالى :

﴿ أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾ أَفَأَمِنُوا۟ مَكْرَ ٱللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩٩﴾ ﴾ [سورة الأعراف:٩٧-٩٩]

وراجع هذا الأسلوب وكرره على أذنك (أفأمن – أوأمن – أفأمنوا) حتى تعلم أن القصد هو التعجب من أمان الناس رغم المحاذير ، مما ينم عن غفلة ، فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون .

وفي المقابل تسمع قوله تعالى:

﴿ فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٥﴾ ﴾ [سورة الشَّرح:٥]

حيث كرر الوعد ، وأكده ووحد العسر وعدد اليسر ، ليجعل قلوب الموحدين تمتلئ بالغبطة والسرور .

وقد يعاد اللفظ للإشارة إلى غباوة المخاطب، لينتبه إلى ما وراء اللفظ من مقصود ، ومن ذلك قوله تعالى :

﴿ قَالُوٓا۟ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٢﴾ ﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾ ﴾ [سورة الأنبياء:٦٢-٦٣]

فأعاد سيدنا إبراهيم لفظ الفعل (فعله) لوصفهم بالغباء ، لذلك رجعوا إلى أنفسهم فقالوا إنكم أنتم الظالمون ، وياليت هذه الصحوة بقيت ، بل نكسوا على رؤسهم ، وظلوا على عمايتهم ، والمهم أن لفظ الفعل (بل فعله) بعد قولهم (أأنت فعلت) ينبه كل ناظر إلى أن الفعل لا يكون من الحجارة ، لذلك كان اللفظ مصباح تنبيه لكل قارئ فضلا عن المخاطبين به .

وفي الشعر يعمد الأديب إلى تكـرار المسـند ليصـور مكانـة الكـلام في نفسه وأنه بلغ منزلة يحتاج من كل سـامع أن يلتفـت إليهـا ، وحـين يتجـذر المعنى في الحس لا يملك الشاعر إلا أن يفرج عن نفسه بذكر هذه الأحاسيس وبخاصة ساعات الألم ،كما هو الحال مع المهلهل حين قتل أخوه ، فقام يصرخ بما يصيح في نفسه من أوجاع الفراق في صورة هي من أرقى ما قيل في الرثاء ، حتى أن الأصمعي قال : لو قال المهلهل خمس قصائد مثلها لعده من الفحول بل كان أفحلهم ، **يقول في قصيدته التي مطلعها :**

أليلتنـا بـذي حسـمٍ أنـيري ... إذا أنـت انقضـيت فـلا تحـوري

فإن يـك بالـذّنائب طـال لـيلي ... فقـد يبكـى مـن اللّيـل القصـير

فلـو نـبش المقـابر عـن كليـبٍ ... فيخـبر بالـذّنائب أيّ زيـر

بيـوم الشـعثمين لقـرَّ عينـاً ... ويـف لقـاء مـن تحـت القبـور

عـلى أن قـد تركـت بـواردات ... بجـيراً في دم مثـل العبـير

ينـوء بصـدره والـرمح فيـه ... ويـأطره خـدب كـالبعير

هتكـت بـه بيـوت بنـي عُبـاد ... وبعـض القتـل أشـفى للصـدور

وهمـام بـن مـرة قـد تركنـا ... عليـه القشـعمان مـن النسـور

على أن ليس عـدلاً مـن كليـب ... إذا طـرد اليتـيم عـن الجـزور

على أن ليس عـدلاً مـن كليـب ... إذا مـا ضـيم جـيران المجـير

على أن ليس عـدلاً مـن كليـب   إذا علنـــت نجيـــات الأمـــور

على أن ليس عـدلاً مـن كليـب   غـــداة تلاتـــل الأمـــر الكبـــير

على أن ليس عـدلاً مـن كليـب   إذا رجـفَ العضـاهُ مـن الـدبور

على أن ليس عـدلاً مـن كليـب   إذا خرجـــت مخبـــأة الخـــدور

على أن ليس عـدلاً مـن كليـب   إذا مـــا حـــاز جـــار المســتجير

على أن ليس عـدلاً مـن كليـب   إذا خِيـف المخـوف مـن الثُغـور

كأنـــا غُـــدوة وبنـــي أبينـــا   بجنـــب عـــويرض رحيـــاً مـــدير

كـــأن رماحنـــا أشـــطان بئـــر   بخـــوفٍ هَـــدُّ عرشـــيها جـــرور

تكـــب القـــوم للأذقـــان كبـــا   وتأخـــذ بالترائـــب والنحـــور

فدى لبني الشقيقة يـوم جـاءوا   كأســد الغـــاب لجـــت في زئـــير

وكـانوا قومنـا فبغـوا علينـا   فقـــد لاقـــاهم ســنن الســعير

تظــل الخيــل عاكفــة علــيهم   كـــأن الخيـــل تـــدحض في غـــدير

أراعي شمسـهم ولقـد أراهـم   ومـــا يـــدريك مـــا يخفـــي ضـــميري

فـــلا وأبـــى جليلـــة مـــا أفأنـــا   مـــن الـــنعم المغلـــط مـــن بعـــير

ولكنـــا نهكنـــا القـــوم طعنـــاً   عـــلى الأثبـــاج مـــنهم والنحـــور

ويكفي أن تراجع هذه المفاصل في الكلام ، ومفاصل المعـاني ، وهـي (على أن ليس عدلا من كليب) وكذلك راجع (كأن – كأنا – وكانوا – ولكنا) لتعرف أن النسيج الذي ينسج منه المهلهل نسيج واحد ، وأن الطريق الذي

يسير عليه طريق في الشعر مستقيم ، والحالة التي يصورها المهلهل حالة مختلطة بين الرثاء لأخيه كليب ، والفخر بالنصر على بني بكر .

لكن الرثاء الخالص تراه في رثاء المرأة لزوجها ، أو لأخيها ، ومن رثاء المرأة لزوجها قول ابنة النعمان بن بشير ترثي زوجها (١):

وحدثني أصحابه أن مالكا أقام ونادى صحبه برحيل
وحدثني أصحابه أن مالكا ضروب بنصل السيف غير نكول
وحدثني أصحابه أن مالكا صروم كماضي الشفرتين صقيل

وراجع هذا المشهد (وحدثني أصحابه) وكأنها دارت عليهم تسالهم عنه فهي مشغولة به، لا تهدأ حتى تسمع عنه كل شيء ، فهو(ضروب ، غير نكول صروم ، وهو الذي آذن بالرحيل للقتال رغم اشتراطها عليه عند الزواج بعدم القتال !!).

ونموذج آخر في التكرار للمسند في سياق الرثاء ، وهو من أروع النماذج في اللسان العربي ، تقول فيه الخنساء مخاطبة عينها وتلح (ألا تبكيان ؟ !):

---

١ - جاء في مصارع العشاق تزوج مالك بن عمرو الغساني بابنة عم النعمان بن بشير فشغف كل واحد منهما بصاحبه، وكان مالك شجاعاً، فاشترطت عليه أن لا يقاتل إذا لقي، شفقةً عليه وضناً به، وإنه غزا حياً من لخم، فباشر القتال، فأصابته جراح فقال، وهو مثقل منها:
أَلا ليتَ شِعري عن غزالٍ تركتُه، ... إذا ما أتاهُ مصرعي كيفَ يَصْنَعُ؟.
فَلَوْ أنّني كنتُ المُؤخَّرَ بَعدَهُ، ... لَما بَرِحَتْ نفسي عَلَيه تَطَلّعُ.
وإنه مكث يوماً وليلةً ثم مات من جراحه، فلما وصل خبره إلى زوجته بكته سنةً، ثم اعتقل لسانها فامتنعت من الكلام، وكثر خطابها، فقال عمومتها وولاة أمرها: نزوجها لعل لسانها ينطلق، ويذهب حزنها، فإنما هي من النساء، فزوجوها بعض أبناء الملوك فساق إليها ألف بعيرٍ، فلما كان في الليلة التي أهديت إليه فيها قامت على باب القبة ثم قالت:
يقولُ رجالٌ: زَوِّجوهَا لَعَلّهَا ... تَقَرُّ، وترْضى بعدَهُ بخَليلِ.
فأخفَيتُ في النّفسِ التي ليسَ بعدَها ... رَجاءٌ لهم، والصّدقُ أفضَلُ قِيلِ.
وَحَدّثَني أصْحابُهُ أنّ مالِكاً ... أقامَ، ونادَى صَحَبَهُ بِرَحيلِ.

أعينـــي جــوداً ولا تجمـــدا ألا تبكيـــان لصـــخر النـــدى
ألا تبكيـان الجـريء الجميـل ألا تبكيـــان الفتـــى الســـيدا
طويــل النجــاد رفيــع العــما د ســـــاد عشـــيرته أمـــــردا
إذا القـــوم مـــدوا بأيـــديهم إلى المجـــد مـــد إليـــه يـــدا
فنـــال الـــذي فـــوق أيـــديهم مـــن المجــد ثــم مضى مصــعدا
يكلفـــه القـــوم مـــا عـــالهم وإن كـــان أصـــغرهم مولـــدا

وتقول الخنساء في معزوفة حزينة أخرى لكل من فقد أخاه وهي تكرر الفعل والفاعل والمفعول لكن نغمة (أخـاك) تسـيطر عـلى الجملـة المكـررة بل والبيتين ، وتستشعر أن لفظة (أخاك) منصوبة عـلى الإغـراء والتحـذير وليست مفعولا به :-

وابكي أخاك ولا تنسي شـمائله وابكـى أخـاك شـجاعا غـير خـوار
وابكـي أخـاك لأيتـام وأرملـة وابكي أخاك لحـق الضـيف والجـار

وفي سياق آخر يقول امرؤ القيس في حديث عن سلمى :

وتحسب سلمى لا تزال ترى طللا من الوحش أو بيضـا بميثـاء محـلال
وتحسب سلمى لا تزال كعهدنا بوادي الخزامى أو على رأس أوعـال

وعندي هنا جملتان (وتحسب سلمى) وجملـة (لا تـزال) وهـي جملـة حالية أراد الشاعر أن يضـمها إلى الجملـة الأولى ليبـين أن حسـبانها ، وبُعـد تفكيرها لا ينقطع عن تذكره ، والتفكر فيه .

لكن من الفن العالي والذي يعد من تشابه الأطراف ما فعلته ليلى الأخيلية حين مدحت الحجاج بن يوسف الثقفي ، **فقالت** :

إذا هبط الحجاج أرضا مريضة تتبع أقصى دائها فشفاها
شفاها من الداء العضال الذي بها غلام إذا هز القناة سقاها
سقاها فرواها بشرب سجاله دماء رجال حيث مال حشاها
إذا سمع الحجاج رز كتيبة أعد لها قبل النزول قراها
أعد لها مسمومة فارسية بأيدي رجال يحلبون صراها

ولقد صوب لها الحجاج كلمة واحدة وهي كلمة (غلام) وقال لها : قولي (همام) والتكرار للمسند هنا أمسك بمفاصل الأبيات ، وربطها بخيط واحد .

المسند بين الاسمية والفعلية

تختلف الدلالة للمادة الواحدة إذا كانت اسما عن كونها فعلا، فإذا قلت: زيد منطلق، وزيد ينطلق ، فالخصوصية مختلفة ، ففي زيد منطلق ، المسند هنا ثابت لا يتجدد ، أما إذا قلت : زيد ينطلق ، فالمسند هنا يتجدد حالة بعد حالة . وراجع مثلا **قول الله تعالى** :

﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ .....﴾ [سورة القصص:٢١]

ولم يقل : خائفا مترقبا ولا يخاف يترقب ، فلكل صيغة موضعها ، يقول الشيخ أبو موسى في الفرق بين الدلالتين : (صيغة الاسم تدل على الثبوت من غير إفادة التجدد، وصيغة الفعل تدل على الحدوث والتجدد،

فقولك: زيد منطلق كقولك:(زيد طويل) من حيث دلالته على أنه طويل من غير أن يشعر بتجدد الطول وحدوثه، وقولك:(زيد ينطلق) كقولك:(زيد يطول) من حيث دلالته على حدوث الانطلاق وتجدده ، وهذا إنما يصح إذا كان زيد غلامًا لم يستقر طوله.

ويظهر هذا واضحا في قولك: هذا الشيء أبيض، وقولك: هذا الشيء يبيض، فقولك: (أبيض) يفيد أن صفة البياض ثابتة لا تحدث فيه ، ولا تتجدد كاللبن مثلا، وقولك: (يبيض) يفيد أنه يتحول إلى البياض شيئا، فشيئا فبياضه يحدث ويتجدد.

وإذا تقرر هذا ظهر أنه لا يصح وضع أحدهما موضع الآخر، فلكل منهما سياق يقتضيه، وصورة من المعنى لا يدل عليها غيره.

انظر إلى قول النضر بن جؤبة:

لا يألف الدرهم المضروب صرتنا لكن يمر عليها وهو منطلق

الشاعر يذكر قومه بالسخاء، وأنهم لا يبقون من المال بقية، فصرتهم لا تألف الدرهم ، **وقوله**: وهو منطلق جاء بصيغة الاسم؛ لأنه يريد أن يثبت للدرهم صفة الانطلاق من غير إشعار بتجدد، وحدوث حتى يؤكد أنا الدرهم لا يتوقف توقفا ما عند الصرة ينقطع به انطلاقه ليتجدد بعد ذلك، وإنما هو منطلق انطلاقا ثابتا مستمرا، ولو قال: يمر عليها وهو ينطلق، لكان المعنى أن انطلاقه يتجدد، وهذا يعني أنهم يمسكونه زمانا ما ، كما قلنا.

قال عبد القاهر معلقا على هذا البيت: "هذا هو الحسن اللائق بالمعنى، ولو قلته بالفعل: (لكن يمر عليها وهو ينطلق)، لم يحسن".

وقوله تعالى:

﴿..... وَكَلْبُهُم بَٰسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِٱلْوَصِيدِ .....﴾ [سورة الكهف:١٨]

يفيد أن الكلب على هيئة وصفة ثابتة هي بسط الذراعين بالباب كما تقول: هو طويل، في أنك تثبت له صفة هو عليها من غير إشعار بشيء آخر ولا إشارة إليه ، ولو قال: كلبهم يبسط ذراعيه لكان المعنى أن الكلب يحدث البسط ، ويزاوله ويتجدد منه شيئا فشيئا ، وليس هذا هو المراد ، وإنما المراد أن الكلب باسط ذراعيه بالباب ، وهو على هذه الصورة الثابتة الجامدة ، فتظل الصورة الثابتة الجامدة، وتظل الصورة العامة لفتية الكهف يلفها سياج من المهابة والخشية:

﴿..... لَوِ ٱطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا ﴿١٨﴾﴾ [سورة الكهف:١٨] [1].

ومن نماذج اصطفاء المسند فعلا قوله تعالى :

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَٰٓفَّٰتٍ ......﴾ [سورة المُلك:١٩]

والآية تدعوا إلى النظر ، والتدبر ، وتحث عليه مما يعني أن في الصورة شيئا غريبا ، وهذا الشيء الغريب تعود غرابته إلى ثلاثة أشياء ، **الأول** : أن الطير فوقهم ، ولا يستطيع واحد من البشر أن يصنع صنيع الطير ، ويطير فوق الناس بجسده دون مساعدة آلة ، **والثاني** :أن الطير صافات أجنحتها ، وصفّ الأجنحة يجعل الطير محمولة على الهواء ، وهذا هو الأصل في المكث فوقهم ، وعبر بالصافات (اسما) لأن الطيران يلزمه أجنحة ، والأصل في

١ - خصائص التراكيب ص ٢٩٨.

الجناح هو مدها وبسطها ، **الثالث** : قال (ويقبضن) فعدل عن الاسم إلى الفعل ، لأن الأجنحة إذا بقت على حالتها مبسوطة لا يتأتي بعدها حركة وانتقال وتغيير اتجاه وتبدل أحوال ، فتبدل الأحوال متعلق بالقبض ، فعبر عنه بالفعل الدال على تبدل الأحوال .

ومن البين في ذلك قوله تعالى:

﴿إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾﴾ [سورة ص:١٨]

فالتسبيح متكرر بتكرر تسبيح سيدنا داوود ، فكلما سبح سبحوا فالقصد الدلالة على حدوث التسبيح من الجبال آنا إثر آن، وحالا بعد حال ، على وفق تسبيحه هو.

ومن ذلك أيضا قول الأعشى يمدح من أطعمه وسقاه : [1]

---

١ - ولهذه الأبيات مقام هو من نوادر الأدب ، وذلك أن الأعشى قدم مكة وتسامع الناس به، وكانت للمحلق امرأة عاقلة وقيل: بل أم ، فقالت له: إن الأعشى قدم، وهو رجل مفوه، مجدود في الشعر ما مدح أحداً إلا رفعه، ولا هجا أحداً إلا وضعه وأنت رجل كما علمت فقير خامل الذكر ذو بنات، وعندنا لقحة نعيش بها فلو سبقت الناس إليه فدعوته إلى الضيافة ، ونحرت له ، واحتلت لك ما تشتري به شراباً يتعاطاه ؛ لرجوت لك حسن العاقبة ، فسبق إليه المحلق ، فأنزله ونحر له، ووجد المرأة قد خبزت خبزاً وأخرجت نحياً فيه سمن وجاءت بوطب لبن، فلما أكل الأعشى وأصحابه ، وكان في عصابة قيسية ، قدم إليه الشراب واشتوى له من كبد الناقة، وأطعمه من أطايبها ، فلما جرى فيه الشراب وأخذت منه الكأس سأله عن حاله وعياله فعرف البؤس في كلامه ، وذكر البنات ، فقال الأعشى: كفيت أمرهن ، وأصبح بعكاظ ينشد قصيدته:

أرقت وما هذا السهاد المؤرق ... وما بي من سقم وما بي معشق

ورأى المحلق اجتماع الناس ، فوقف يستمع ، وهو لا يدري أين يريد الأعشى بقوله، إلى أن سمع:

نفى الذم عن آل المحلق جفنة ... كجابية الشيخ العراقي تفهق

ترى القوم فيها شارعين، وبينهم ... مع القوم ولدان من النسل دردق

لعمري قد لاحت عيون كثيرة ... إلى ضوء نار باليفاع تحرق

تشب لمقرورين يصطليانها ... وبات على النار الندى والمحلق

رضيعي لبان ثدي أم تحالفا ... بأسحم داج عوض لا نتفرق

ترى الجود يجري ظاهراً فوق وجهه ... كما زان متن الهندواني رونق

فما أتم القصيدة إلا والناس ينسلون إلى المحلق يهنئونه، والأشراف من كل قبيلة يتسابقون إليه جرياً يخطبون بناته ؛ لمكان شعر الأعشى ، فلم تمس منهن واحدة إلا في عصمة رجل أفضل من أبيها ألف ضعف.

لعمري لقد لاحت عيون كثيرة إلى ضـــوء نـــار في يفـــاع تحـــرق

تشـــب لمقـــرورين يصـــطليانها وبـات عـلى النـار النـدى والمحلـق

فبدأ بالقسم ، وأكد (باللام وقد) فاجتمع أكثر من مؤكد ، مما جعـل كلامه – وهو المسموع – محل ثبوت ، والمؤكَّد هنا تسابق الناس إلى ضوء نـار المحرق ، لكرمه وجوده ، وهذا المشهد ليس من أجل الطعام والشراب ، بـل من أجل تأمل من يجلس حول النار ، إن الجالسين حول النار فريقان ، وكـل فريق من عالم مختلف ، فالفريق الأول هو فريق الندى ، ويا سعد مـن يجلـس مع الندى إنه الفريق الثاني : المحرق ، وهو رجل رقيق الحـال ، لكنـه أحسـن إلى الشاعر فأحسن الشاعر إليه ، وظل الناس بعد هذه القصيدة يتناقلون هذه العبارة : (وبات على النار الندى والمحلق) ، والقصد أن الشـاعر قـال: (في يفاع تحرق) يعني تتحرق فحذف تاء الافتعال ، واليفاع العـالي مـن الأرض، فالنار تدعو كل ناظر ، لأنها تشرف عليهم من مكان عال ، وهي تعلو وتهبط كأنها تنادي وتتحرق شوقا إلى الضيفان ، فلا تكاد تهـدأ حتـى يعلـو صـوتها ولهيبها تدعو كل مقرور .

واستشهد البلاغيون أيضا بقول طريف بن تميم العنبري :

أوَ كلَّـماَ وردتْ عُكـاظَ قبيلـةٌ بعثـــوا إليّ عـــريفهم يتوسَّـــمُ

فتوسَّـموني إنَّنـي أنـا ذاكـم شـاكٍ سـلاحي في الحـوادثِ معلـمُ

تحتي الأغرُّ وفوقَ جلـدي نثـرةٌ زغـفٌ تـردُّ السـيفَ وهـوَ مـثلَّمُ

الهمزة في قوله : (أوكلما) للتقرير ، والواو للعطف على مقدر ، و(كل) في كلما مَنْصُوبَة على الظَّرْفِيَّة بِاتِّفَاق وناصبها الْفِعْل الَّـذِي هُـوَ جَـوَاب فِي الْمَعْنى كما وضح ابن هشام وهو هنا (بعثوا) و(عكاظ) اسم سوق للعرب بناحية مكة كانوا يجتمعون بها كل سنة ، فيقيمون شهرا ، فيتبايعون ، ويتناشدون الشعر فلما جاء الإسلام اندثرت ، والعريف هو الزعيم أو الرئيس او الشريف فيهم ويتوسم بمعنى : يتعرف ويتثبت وجاء المسند فعلا مضارعا ليشير إلى تكرار وتجدد هذا التوسم والتثبت مرة بعد مرة [١].

لأن المضارع فيه استحضار للحالة العجيبة ، **ومثله قوله تعالى** :

﴿وَيَصۡنَعُ ٱلۡفُلۡكَ ....﴾ [سورة هود:٣٨]

وقوله:

﴿ بَلۡ عَجِبۡتَ وَيَسۡخَرُونَ ﴿١٢﴾﴾ [سورة الصافات:١٢]

وقوله:

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِي يُرۡسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابٗا .....﴾ [سورة الروم:٤٨]

ففي كل ذلك جاء المضارع ، ليحمل معنى التجدد المرة بعد المرة ،كما يحمل معنى التعجيب من هذا السؤال ، أو الإنكار لهذا الفعل.

---

١ - وكان من عادة فرسان العرب في المواسم والجموع، وفي أسواق العرب، كأيام عكاظ وذي المجاز وما أشبه ذلك، التقنّع، إلا ما كان من أتى سليط طريف بن تميم، أحد بني عمرو بن جندب، فإنه كان لا يتقنع ولا يبالي أن تثبت عينه جميع فرسان العرب، وكانوا يكرهون أن يعرفوا فلا يكون لفرسان عدوهم همّ غيرهم.

ولما أقبل حمصيصة الشيباني يتأمل طريفا ، وكان طريف قتل شراحيل الشيباني أحد بني عمرو بن أبي ربيعة بن ذهل بن شيبان، فقال حمصيصة: أروني طريفا. فأروه إياه، فجعل كلما مر به تأمله ونظر إليه ففطن طريف، فقال: مالك تنظر إليّ؟ فقال: أترسّمك لأعرفك: فلله عليّ إن لقيتك أن أقتلك أو تقتلني! فقال طريف الأبيات .

والمسند حين يكون فعلا فإنه يتقيد بزمان الفعل، فالزمان في (سخروا منه) غيره في (عجبت ويسخرون) .

وأعيد عليك سريعا هذه الخصوصيات في المسند :

- التعبير بالفعل يجعل المعنى متجددا ، من حالة إلى حالة ، والتعبير بالاسم يجعل المعنى ثابتا لا يتجدد .
- الفعل يقيد المسند بالزمان الذي يدل الفعل عليها، فإن كان الفعل ماضيا تقيد الحدث بالزمان الماضي و وإن كان مضارعا قيده بالزمان الحاضر أو المستقبل .
- المسند المفرد لا يقوى قوة المسند الجملة، حتى وإن كان فعلا **مثل**: (ينطلق زيد) فكلمة ينطلق مسند ، وهي فعل ، لكنها لا تقوى قوة الجملة مثل : (زيد ينطلق) فينطلق هنا مسند جملة لأنه مكون من فعل وفاعل ، وهذه أقوى في المعنى من المفرد ، فإذا جاءت جملة اسمية **مثل** : زيد أبوه منطلق ، أو زيد أبوه ينطلق ، ازدادت قوة لزيادة المساحة في الكلام فالمسند إذا جاء جملة على العموم يفيد تقوي الحكم، وكل ما خبره جملة يفيد التقوي.

خصائص الجملة الاسمية والفعلية :

سبق أن الاسم يفيد الثبوت و والدوام ، والفعل يفيد التجدد والحدوث وكذلك الحال هنا ، فالتعبير بالجملة الاسمية يفيد الدوام والاستمرار ، والتعبير بالجملة الفعلية يفيد التجدد والحدوث ، **وراجع في ذلك قول الله تعالى :**

﴿.... سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَٰمِتُونَ ١٩٣﴾ [سورة الأعراف:١٩٣]

وحاول أن تفرق بين الجملتين (أدعوتموهم) و (أنتم صامتون) ، وكأن المعنى : سواء عليكم الدعوة المتكررة للهداية أم البقاء على حالة الصمت .

لكن لم العدول ؟ وماذا لو قيل : سواء عليكم أدعوتموهم أم صمتم أو قيل : سواء عليكم أنتم داعون أم أنتم صامتون ؟

وللإجابة ينبغي الرجوع إلى المقام ، والمقام يشير إلى أن هؤلاء الوثنيين الذين يعبدون هذه الأصنام كان من عادتهم أنهم لا يدعون هذه الأصنام إذا نزلت بهم شدة، وإنما يدعون الله، فقيل لهم : إن إحداث الدعاء على غير عادتكم، أو البقاء على الصمت كما هي عادتكم عند النوازل سواء .

ومثله قوله تعالى:

﴿قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ ٥٥﴾ [سورة الأنبياء:٥٥]

وراجع نفسك وغير النسق ، وانظر إلى الفروق ، قل مثلا : أجئتنا بالحق أم جئتنا باللعب ، وتفرس فيها ، ثم عاود وقل : أأنت مرسل بالحق ، أم أنت لاعب وحاول أن تسأل نفسك : لم أوثر في الجملة الأولى الفعل ، ستجد أنهم أرادوا أن مجيئه بالحق لم يحدث أبدا ، فالشك في الفعل ، لأن همزة الاستفهام دخلت على الفعل ، مما يعني أنهم يشككون في مجيئه بالحق في حياته ، ثم بنوا الجملة الثانية على الاسم : (أنت) ليعيبوه – وحاشاه ، وكأنهم يقولون أم أن الأمر على عادتك الدائمة من اللعب والهزل ، وهذا عجيب !!!

إنهم يزعمون في الجملة الفعلية أنه لم يأت بالحق ولو مرة ، فاختاروا الفعل وأدخلوا عليه همزة الاستفهام ، ويزعمون أنه ﷺ دائما ما يمزح وأن ما جاء به جار على ما اعتادوه منه من اللعب واللهو ، ولذلك بنوا الكلام على الجملة الاسمية ، وهذا من الظلم البين، والبهتان الصريح ، لأنه ﷺ لم يكن يوما من اللاعبين ، بل كل ما جاء به حق .

ومثله قوله تعالى:

﴿ وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَـٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا..... ﴾

[سورة البقرة:١٤]

والفروق هنا بين الكلام الذي بعد القول في العبارتين ، ففي الأولى جاء بعد القول جملة (آمنا) وفي الثانية جاء بعد القول : (إنا معكم إنما نحن مستهزئون) فتنوعت الإجابة ، لعلة ينبغي البحث عنها ، وحين تديم النظر تجد أن خطابهم للمؤمنين لا بد فيه من ذكر شيء ينم عن تغيير ، وتحويل ، لأنهم كانوا جميعا في السابق يعبدون الأصنام ، وغاية المؤمنين منهم الإيمان بالله وتحويل معتقدهم القديم إلى معتقد جديد ، وهذا يستدعي فعل الإيمان ، لذلك أوثر الفعل ، وقيل (آمنا) ، لكن في خطابهم لقرنائهم من الكفار الأمر على الخلاف ، فالقرناء لا يطيقون تغييرا ، بل يطلبون ثباتا على المعتقد القديم وتمسكا ودواما على ما عليه السابقون ، وهذا يناسبه جملة اسمية ، فقيل (إنا معكم) وهكذا تجد لكل جملة مقاما يستدعيها ، وسياقا لا يستقر بدونها .

تعريف المسند

حين تتحدث عن تعريف المسند ، فأنت في شأن الحديث عن الخبر المفرد لأن المسند إما فعل ، وهذا لا يقال فيه تعريف أو تنكير ، وإما اسم وهذا الذي يقال فيه إنه جاء معرفة أو نكرة ، وعليه فالكلام محصور في الخبر للمبتدأ ومجيء هذا الخبر معرفة ، والحديث عن هذا الخبر **يشمل عدة نقاط** :

الأول : الفرق بين الخبر المعرفة والخبر النكرة .

الثاني : إفادة الجملة للقصر .

وأحدد لك الأمر أكثر فأقول نحن في هذا الباب نفرق بين (زيد منطلق) و(زيد المنطلق) ففي الجملة الأولى جاء الخبر نكرة ، وفي الثانية جاء معرفة ولا يتصور تعريف أو تنكير في المسند الفعلي .

وإذا ثبت هذا فما الفرق بين (زيد منطلق) و (زيد المنطلق) ؟

والبلاغيون يعتمدون كلام النحاة في تحديد مفهوم الخبر بأنه ما تتم به الفائدة ، فالمبتدأ هو الجزء المعلوم عند المخاطب ، والخبر هو الجزء المجهول عنده وبذكره تتم الفائدة ، فلو أنك قلت : زيد منطلق ، فالمخاطب يعلم زيدا ولا يعلم ماذا يفعل ؟ فتقول له : (زيد) ، أي الذي تعلمه ، ولا تعلم ماذا يفعل الآن (منطلق) فأفدته خبرا لم يكن على علم به .

لكنك تعرف الخبر ، وتضع له أداة التعريف (أل) إذا كان المخاطب يعلم زيدا ، ويعلم انطلاقا وغيره ، لكنه لا يحدد صنيع زيد أهو الانطلاق أم السعي أم المشي ، أم الوقوف ، فعندها تقول له : (زيد المنطلق) لتجعل

الانطلاق خبرا لزيد ، وتعرفه بأل لتردد المخاطب بـين الانطـلاق ومـا يشبهه ، فهو يعلم انطلاقا هنا عكس المثال الأول .

وهذا الكلام يخالف ما قاله الإمام عبد القاهر ، وما قالـه شـيخي أبـو موسى ، لكن القاعدة التي ينبغـي أن نقـيس عليهـا هـي : أن المبتـدأ معلـوم والخبر هو المجهول الذي تتم الفائدة بذكره ، وفي التعريف للمسـند في المثـال إضافة لا تجدها في التنكير ، وهي أن المعنى في (زيد المنطلق) أي لا الجـالس وفي قولك : (المنطلق زيد) أي : لا عمرو .

يقول الإمام : (ومن فروق الإثبات أنك تقول: «زيد منطلـق» و «زيـد المنطلق»، «المنطلق زيد»، فيكون لك في كل واحد من هذه الأحـوال غـرض خاص وفائدة لا تكون في الباقي. وأنا أفسّر لك ذلك.

اعلم أنك إذا قلت: «زيد منطلق»، كـان كلامـك مـع مـن لم يعلـم أن انطلاقا كان، لا من زيد ولا من عمرو، فأنت تفيده ذلك ابتداء.

وإذا قلت: «زيد المنطلق» كان كلامك مع من عـرف أن انطلاقـا كـان إما من زيد وإما من عمرو، فأنت تعلمه أنه كان من زيد دون غيره.

والنكتة أنك تثبت في الأول الذي هو قولـك: «زيـد منطلـق» فعـلا لم يعلم السامع من أصله أنه كان، وتثبت في الثاني الذي هو «زيد المنطلق» فعلا قد علم السامع أنه كان، ولكنه لم يعلمه لزيد، فأفدته ذلك.)

وأنا هنا أسأل : كيف هذا ، والخبر هو الجزء المجهول في الجملة ؟

أعيد عليك عبارة الإمام ، يقول : (تثبت في : زيد المنطلق فعلا قد علم السامع أنه كان ، ولكنه لم يعلمه لزيد ، فأفدته ذلك .)

إن هذا يخالف قاعدة النحو من أن المبتدأ معلوم والخبر مجهول، كيف أثبت فعل الانطلاق ، والسامع يعلمه ، ثم أجعله خبرا ؟!

ولذلك اضطرب الكلام في التعليل للبداية ب(زيد) يقول الإمام : (وتمام التحقيق أنّ هذا كلام يكون معك إذا كنت قد بلّغت أنه كان من إنسان انطلاق من موضع كذا في وقت كذا لغرض كذا، فجوّزت أن يكون ذلك كان من زيد. - لاحظ، هنا رجع الإمام إلى القاعدة النحوية، فالمخاطب عنده علم بزيد - ثم عاد فقال : فإذا قيل لك: «زيد المنطلق»، صار الذي كان معلوما على جهة الجواز، معلوما على جهة الوجوب. وهذا كلام ملبس، والذي ينبغي الاعتماد عليه هنا كما أرى أن : المبتدأ معلوم ، والمخاطب هو المجهول وهو الذي بذكره تتم الفائدة .

وشيء آخر : يقول الإمام (ثم إنهم إذا أرادوا تأكيد هذا الوجوب أدخلوا الضمير المسمّى «فصلا» بين الجزءين فقالوا: «زيد هو المنطلق».

وأنا أسأل مرة أخرى : هل ضمير الفصل يؤكد العلم بزيد ، أم يؤكد الخبر ؟

الذي أراه أنه يؤكد النسبة بين المبتدأ والخبر ، ولا يميل إلى طرف دون طرف ، فهو مؤكد لنسبة الانطلاق بين المبتدأ والخبر .

والذي يترتب على تعريف المسند ، في قولك : زيد المنطلق ، أنك لا يجوز لك العطف عليه ، فلا تقول : زيد المنطلق وعمرو ، لكنك عند تنكيره يجوز ذلك فتقول : زيد منطلق وعمرو ، والسبب في ذلك أن التعريف

للمسند أعطاه خصوصية لا توجد في التنكير ، أعني أنك حين تقول : زيد منطلق ، أنت تثبت مطلق انطلاق ، لكنك حين قلت : زيد المنطلق ، أنت تتحدث عن انطلق مخصوص ، ومعين ومعروف للمخاطب ، وهذا الانطلاق حين تثبته لزيد فلا يجوز لك أن تثبته لغيره .

أما إذا كان هذا الانطلاق المخصوص المعين قد وقع منهما فكان يجب عليك أن تقول : زيد وعمرو المنطلقان .

وهذا يشبه قولك : فلان القائل بيت كذا ، فهل يجوز أن تقول : فلان القائل بيت كذا وفلان ؟ ! لا يجوز ، لأن بيت الشعر له قائل واحد ، ولقد جعل عبد القاهر من أراد أن يعطف على هذا الكلام بالواو شيئا يحاول محالا ، وقال : (لو حاولت أن تشرك في هذا الخبر غيره، وقلت: جرير هو القائل هذا البيت وفلان حاولت محالا؛ لأنه قول بعينه فلا يتصور أن يشرك جرير غيره) .

ولكي تتأكد مما ذهبت إليه أعرض عليك كلام الشيخ أبي موسى في موضع آخر ، حين تحدث عن تقديم المسند ، والفرق بين (زيد المنطلق والمنطلق زيد) ، حيث قال : (يشير عبد القاهر إلى الفرق بين زيد المنطلق والمنطق زيد أنهما، وإن اتفقا في إثبات انطلاق قد سبق العلم به لزيد، إلا أنهما يختلفان في شيء دقيق هو أنك تقول: زيد المنطلق لمن علم أن انطلاقا قد كان ولكنه لم يعلم ممن كان؟ فأنت تخبره أن الانطلاق الذي يعلم وجوده كان من زيد.

أما قولك: المنطلق زيد فإن المعنى فيه على أنك رأيت إنسانا ينطلق، ولم تتبينه، ولم تعلم أزيد هو أم عمرو؟ فقال لك صاحبك المنطلق زيد: أي هذا الشخص الذي تراه من بعيد هو زيد، وقد قدم؛ لأنه هو المحدث عنه، والمقصود بالخبر، ولا يجوز هنا أن يعرب خبرا مقدما؛ لأنك لا تقصد الإخبار به، وإنما تقصد الإخبار عنه.

قال البلاغيون: إنك تبتدئ بالأعرف، فالذي تراه منطلقا أعرف عندكم من زيد؛ لأنه شخص أمام عينيك تشير إليه، وهو منطلق وأنت تجهل أنه زيد.

قال العلامة سعد الدين: "والضابط في هذا التقديم أنه إذا كان للشيء صفتان من صفات التعريف، وعرف السامع اتصافه بإحداهما دون الأخرى فأيهما كان بحيث يعرف السامع اتصاف الذات به يجب أن تقدم اللفظ الدال عليه وتجعله مبتدأ، وأيهما كان بحيث يجهل اتصاف الذات به يجب أن تؤخر اللفظ الدال عليه وتجعله خبرًا، فإذا عرف السامع زيدا بعينه واسمه ، ولم يعرف اتصافه بأنه أخوه، وأردت أن تعرفه ذلك قلت: زيد أخوك، وإذا عرف أخا له ولم يعرفه على التعيين: وأردت أن تعينه عنده قلت: أخوك زيد ، ولا يصح زيد أخوك.

وهذا يتضح من قولنا: رأيت أسودا غابها الرماح، ولا يصح رماحها الغاب ، ولهذا قيل في بيت السقط يخوض بحرا نقعه ماؤه ، الأولى : ماؤه نقعه ؛ لأن السامع يعرف أن له ماء، وإنما يطلب تعيينه".

وهذا نص جيد جدا، وتأمل فيه مقدار شفافية موقع الكلمة، وكيف ينبعث في نفس السامع حس خافت بالكلمة، فيوجب هذا الحس تقديمها كما في بيت السقط والمقال الذي قبله.

فترتيب الكلمات في العبارة يتبع أحوال النفس وما يثار فيها، أو ما يمكن أن يثار فيها من معان وصور، فإذا كانت كلمة البحر تثير في النفس الماء لا النقع وجب أن تسبق في الترتيب كلمة الماء استجابة لهذه الإثارة التي نهضت بها كلمة أو تركيب سابق، فإذا قلت: نقعه ماؤه كنت قد أخرت في اللفظ ما هو مقدم في النفس، وتلك مجافاة تنبو بها الكلمات.

وهذا مبحث جليل كما ترى، وهو يتجه في بحث بناء الأسلوب إلى أصوله ومنابعه الداخلية، ويمكن أن يدخل في إطاره أسلوب مراعاة النظير، والمطابقة وكثير من الأساليب التي يرجع الحسن فيها إلى ما يشبه تلك الاستجابة، والمتابعة لما يثار في الخيال، وهذا هو طريق تحليل الشعر عند علمائنا، ولو قرأت قصيدة وتفقدتها من هذا الجانب لوقعت على الكثير من الأسرار، ودقائق صنعة الشعر) ([1]).

ثانيا:إفادة القصر .

تعريف المسند قد يفيد القصر ، والقصر كما سيأتي ، جملتان في جملة ، يراد منه المبالغة في التوكيد فتقول : هو الكريم ، تدعي أنه لا كريم غيره من

١ ـ خصائص التراكيب ص ٣١٠ .

أقرانه وأن كل كرم بجوار كرمه لا يعد ، وتقول : المتنبي الشاعر ، تزعم أن كل من سواه لا يعدون شعراء إذا قرنوا به ، فكأنه بلغ المنزلة العليا في الشعر ، وقل مثل ذلك في كل المتشابهات، وترتب على ذلك امتناع العطف فلا تقل : زيد العالم وعمرو ، **يقول مزرد بن ضرار**[1] **في القصيدة التي مطلعها :**

صَحَا القلبُ عن سَلْمَى ومَلَّ العَواذِلُ   وما كادَ لأَياً حُبُّ سَلْمَى يُزَايِلُ

يقول :

فقد عَلِمَتْ فِتْيانُ ذُبْيَانَ أنني   أنا الفارس الحامِي الذِّمارَ الُمقاتِلُ

وأَنِّي أَرُدُّ الكَبْشَ والكَبْشُ جامِحٌ   وأَرْجِعُ رُمحِي وهْوَ رَيَّانُ ناهِلُ

وعندي إِذا الحَرْبُ العَوَانُ تَلقَّحَتْ   وأَبْدَتْ هَوَادِيها الخطُوبُ الزَّلاَزِلُ

يعني : أنا الفارس وحدي ، مما يعني أن كل من عداه لا يطاولون قدره

ومثله قول المتنبي :

هو الجدّ حتى تفضُل العينُ أختَها   وحتى يكون اليومُ لليوم سيّدا

وما قتل الأحْرار كالعفْو عنهُم   ومن لك بالحُرّ الذي يحفَظُ اليَدا

---

١ - مزرد بن ضرار(ت ١٠ هـ =..نحو ٦٣١ م) مزرد بن ضرار بن حرملة بن سنان المازني الذبيانيّ الغطفانيّ: فارس شاعر جاهلي. أدرك الإسلام في كبره وأسلم. ويقال: اسمه (يزيد) غلب عليه لقبه (مزرد) . وهو الأخ الأكبر للشماخ ، كان هجّاء في الجاهلية، خبيث اللسان: حلف لا ينزل به ضيف إلا هجاه، ولا يتنكب بيته إلا هجاه. وهو القائل في وصف أشعاره في الهجاء، من أبيات:
(ومن نرمه منها ببيت يلح به * كشامة وجه، ليس للشام غاسل).

إذا أنت أكرَمت الكريمَ ملكتَـه　　　وإن أنـــت أكرمْــتَ اللئــيم تمــرّدا

أزِل حسَد الحُسّادِ عنّي بكبتِهم　　　فأنـــت الـــذي صـــيّرتَهم ليَ حُسَّـــدا

ومــا أنــا إلا ســمهريٌّ حملتَــه　　　فـــزيّن معروضـــاً وراع مُســـدَّدا

أجِزْني إذا أُنشِدْت شِـعراً فـإنّما　　　بشِـــعري أتـــاكَ المـــادِحون مـــرَدَّدا

ودعْ كلَّ صوتٍ دون صوتي فإنّني　　　أنا الصائحُ المَحكيُّ والآخرُ الصّدَى

تركتُ السُرى خلفي لَمن قلّ مالُـه　　　وأنعلْــتُ أفــراسي بــنُعماكَ عسْــجَدا

وقيّــدتُ نفسيــ في ذَراك محبّــةً　　　ومــن وجــدَ الإحســانَ قيْــداً تقيّــدا

إذا سأل الإنســانُ أيامــه الغِنــى　　　وكُنــتَ عــلى بُعــدٍ جعلتــك موعِــدا

فالمتنبي لا يرى في الدنيا شاعرا غيره ،حتى وإن قال الناس جميعا شعرا فهو عنده مردد مكرور، ومأخوذ من شعره ، فقوله : (أنا الصائح المحكـي) أي : ليس غيري فالكلام فيه قصر صفة على موصوف ،قصرا ادعائيا .

وقد يحمل التعريف قصرا حقيقيا ،إذا ساعد المقام ذلك ، حين يتحدث الشاعر عن حالة خاصة ، يمكن حملهـا عـلى القصرـ الحقيقـي **كـما قـال ابـن الدمينة :**

ونحــن التــاركون عــلى ســليل　　　مـــع الطـــير الخوامـــع يعترينـــا

والخوامع : يعني الجياع من الضباع ، والشاعر يوضح أنه ما قتل سليل سواهم ، فهم الذين قتلوه دون غيرهم ، وهذا حقيقي ، وهـم الـذين تركـوه طعاما للضباع الجائعة دون سواهم ، وهذا أيضا حقيقي .

المسند المعرف باسم الموصول :

حين يأتي المسند معرفا باسم الموصول ترى لـه ظـلالا تشـيعها الصـلة فللصلة ظلال لا توجد في غيرها ، حيث ترى فيها غموضا ، وتشويقا إلى مـا بعدها ، **يقول جميل بثينة** :

وأنت التي إن شئت كدرت عيشـتي — وإن شـئت بعـد الله أنعمـت باليـا

وأنت التي ما من صديق ولا عـدى — يرى نضـو مـا أبقيـت إلا رثـى ليـا

وراجع كلمة (التي) وهي تحمل في رحمها كل ما بعـدها مـن صـلة ، تحمل الإنعام والإشقاء ، وتعطي وتبقي فيه ما تشاء ، ثم عـد إلى هـذا الـنمط من التعبير في القرآن الكريم ، وراجع كل الآيات التي جاء فيها (وهو الـذي) وانظر ماذا فيها من ظلال حملها اسم الموصول مع القصر .[1]

تقييد القصر بتعريف المسند :

قد يتقيد القصر بشرط يخرجه مـن عـالم إلى عـالم آخـر ، فكـأن القصرـ المفهوم من التعريف لا يتحقق إلا بهذا الشرط ، **ومن ذلك قول الأعشى** :

هـو الواهـب المائـة المصـطفاة — إمـــا مخاضـــا وإمـــا عشـــارًا

وهناك فرق بين الهبة المطلقة، وهبة المائة المصطفاة ، والشـاعر يريـد أن يبين أن الهبة المقصورة على الممدوح هبة خاصة ، وهو وحده الذي يهبها ،

١ - راجع مثلا قوله : (وَهُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ) (وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ) (هو الذي يصوركم في الأرحام كيف يشاء) (هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات) (هو الذي خلقكم من طين) ... وغير ذلك كثير .

ودلالة التعريف على القصر هنا ليست دلالة وضعية وإنما هي دلالة تذوقية، يحملها فحوى الكلام وسياقاته .

وتقول الخنساء في رثاء أخيها صخر :

الحامل الثقل المهم من الملمات الفوادح
الجابر العظم الكسير من المهاصر والمهانح
الواهب المائة الهجان من الخناذيذ السوابح
الغافر الذنب العظيم لذي القرابة والمهالح

وراجع هذه الأخبار التي حذف مبتدؤها (الحامل – الجابر – الواهب – الغافر) فكل ذلك من ورائه أنه الفاعل لا غيره ، لكن هذا الفاعل تقيد فعله بقيد ، **ففي قوله** : (الحامل) تقيد القصر بقولها (الثقل المهم من الملمات الفوادح) وكذلك الحال في (الجابر) أي هو الجابر لا غيره ، لكن تقيد هذا (بالعظم الكسير الذي يحني الناس ويميلهم) ، فالمهاصر تعني التي تهصر الناس أي تميلهم عن استقامتهم ، وسمي الأسد بالهصور لأنه يحني فريسته وأما المهانح فيريد منها التي لا ينقطع دمعها ، وهذه كلها قيود في القصر لا بد من مراعاتها عند النظر .

وفي البيت الثالث يريد أنه الوحيد الذي يهب المائة من النوق الكرام لأن الهجان من الإبل تعني الكرام أو البيض الكرام كما قال الليث ، ويقال للقوم الكرام : إنهم لمن سراة الهجان ، والخناذيذ هي جياد الخيل ، وقيل الخصيان والسوابح : السريعة من الخيل ، وهي صفة غالبة على الخيل ، وهذا

كله لا يعطيه إلا هذا ، فكأنه يقول لا يعطي الجياد الموصوفة بهذه الصفات إلا هو .

أما البيت الرابع فأراد منه أنه الذي يغفر ذنوب الأقارب ، وأصحاب العهود ، لأن الممالح يعني بها المعاهد الذي صار بينك وبينه ملح ، أي طعام .

وقد يفيد التعريف للمسند أنه ظاهر ولا يخفى على أحد، ولا يتطرق إليه شك ، **ومن ذلك قول سيدنا حسان بن ثابت :**

وإن سنام المجد من آل هاشم ... بنو بنت مخزوم ووالدك العبد

فقوله : (ووالدك العبد) أي الذي لا يشك فيه أحد ، ولا يخفى على أحد أنه العبد ، فإذا كان سنام المجد في آل هاشم ظاهر ، لا يخفي ، فإن كون والدك العبد ظاهر لا يخفى ، وقوله (بني بنت مخزوم) يقصد هذا العرق ، الذي ينحدر من بني بنت مخزوم ، وهو عبد المطلب .

وقد يفيد التعريف للمسند اكتمال الصفة فيه ، كما تقول : (هو الفتى) تريد أن الفتوة فيه بلغت درجة الكمال ، و(هو الرجل) تعني أن الرجولة عنده لا مزيد عليها ، وقل مثل ذلك في : هو الوفي ، هو الكريم ، هو البطل .... إلخ .

كل ذلك تقصد من تعريف المسند أنه بلغ الكمال في الصفة ، يقول صاحب الطراز: "كأنك قلت: هل تعقل الحامي والمرتجي وتسمع بهما ، فإن كنت تعقل ذلك وتعرفه حقيقة معرفته، فاعلم أنه فلان فإني خبرته وجربته فوجدته على هذه الصفة، فأشدد يدك به، فإنه ضالتك التي تنشدها، وبغيتك التي تقصدها".

فإذا أضفت إلى المسند صفة فاعلم أن القصد في الإخبار ليس الخبر المباشر ولكن الصفة التي أعقبته ، **ومن ذلك قول ابن الرومي :**

هو الرجل المشروك في جل ماله   ولكنه بالمجد والحمد مفرد

يريد الصفة التي بعد المسند ، وهي (المشروك في جل ماله) ولما كانت هذه لا تكون إلا في الرجل ، جعل الرجل مسند ، وأسس عليه المراد ، وهو :

المشروك في جل ماله ، ليفيد أن الصفة إذا تحققتها ، وعلمت أبعادها فاعلم أنها في هذا الرجل

ويقترب من هذا قول الشاعر :

أخوك الذي إن تدعه لملمة   يجبك وإن تغضب إلى السيف يغضب

فالشاعر جعل المسند اسم موصول (الذي) ليؤسس عليه مراده ويقرره في الأذهان ، وهو الذي إن تدعه لملمة يجبك وإن تغضب إلى السيف يغضب المهم أنك حين تبدأ بالكلمة المعرفة ثم تخبر عنها بالذي فلقد فتحت باب من المعاني تختار منه ما تشاء ، وتضع فيه ما تريد ، لأن لفظ (الذي) مفتاح المعاني كلها ، والستر الذي إن كشفته رأيت ما لاتراه في غيرها ، تلتقط منه ما تشاء .

وأنا أعرض عليك شيئا من ذلك في مفهوم الأخ عند الشعراء ، **حيث يقولون :**

أخوك الذى إن قمت بالسيف عامدا   لتضربه لم يستفثك فى الود

أخـوك الـذي إن ربتـه قـال إنـما ... أربـــت وإن عاتبتـــه لان جانبـــه
أخوك الذي إن أحوجتـك ملمّـة ... مـن الـدّهر لم يـبرح لهـا الـدّهر واجمـا
أخوك الذي إن سرّك الأمر سره، ... وإن غبـت يومـاً ظـلّ وهـو حـزين
أخوك الذي إن قمت بالسيف عامدا ... لتضرـــبه لم يستغشّـــك في الـــودّ
أخوك الذي إن تجن يوما عظيمـة ... يبــت ســاهرا والمســتذيقون رقّــد
أخوك الذى لا تملك الحس نفسه ... وتـرفض عنـد المحفظـات الكتـائف
أَخُوكِ الَّذي يُقْرِى عَدُوَّك صارِماً ... حُســاماً وَيُقْــرِي دُرَّهُ فِي شِــفائِكِ
أخوكَ الَّذِي أَمْسَى بحبكَ مغرمـا ... يَتُــوب إِلَيْــك الْيَــوْم مِمَّــا تقــدَّما
(أَخُوك الَّذِي ترضيه لَا من تـوده ... أَلا رب ود لَا يُفِيـــــد فتــــيلا)
أخـوك الـذي لـو جئـت بالسـيف قاصداً ... لتضرـــبه لم يستغشـــك في الـــود
أخوك الذي يحميك من الغيب جاهـداً ... ويسـتر مـا تـأتي مـن السـوء والقـبح
أخوك الذي تلفيه في كل معضـل ... يدافع عنـك السـوء بالمـال والعـرض
وما أخوك الذي يـدنو بـه نسـب ... لكــن أخــوك الــذي تصــفو ضــمائره
أخوكَ الذي يحميك في الغَيْبِ جاهــدا ... ويســترُ مـا تـأتي مـن السـوء والقـبحِ

تقديم المسند

لا تنس أن المسند هو الخبر ، أو الفعل ، والمسند هو الحكم الذي يحكـم به على المسند إليه ، وحين يقدم الحكم ، فأنا في شأن الخبر المقـدم ، ولسـت في شأن الفعل ، لأن تقديم الفعل أصل ، ولا يقال له مقدم إذا جاء على أصله

مما يعني أن الحديث هنا مقصور على تقديم الخبر على المبتدأ ، والأغراض التي تقف وراء ذلك ، وهي كثيرة لكن الأشهر منها القصر ، **ومن ذلك قوله تعالى:**

﴿ ۞ لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ ..... ﴾ [سورة البقرة:٢٧٢]

حيث قدم الظرف وهو (عليك) على المسند إليه وهو (هداهم) والذي تقرر في علم المعاني أن تقديم المسند الذي حقه التأخير يفيد قصر المسند إليه إلى المسند، فالمعنى ليس عليك خاصة هداهم ، بل على غيرك وهو الله تعالى ووجه الدلالة هنا نفي المسؤولية عن رسول الله ﷺ، لأنه لا يملك الهداية للقلوب ، وكأنه يخاطبه ويقول : ما دمت قد أديت مهمة التبليغ فلا تحزن .

ومنها : قوله تعالى :

﴿وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ ..... ﴾ [سورة الأنبياء:٩٧]

والمعنى: فإذا هي أبصار الذين كفروا شاخصة ، وقدم المسند – شاخصة ليفيد اختصاص الشخوص بالأبصار دون غيرها من المعاني ، فكأنه قيل : فلا ترى الأبصار إلا شاخصة ، فلا يلحظ فيها غير الشخوص ، وهذا من شدة العذاب ، لأن شخوص البصر يدل على مدى الهول الذي يحيط بها ، ولو وصفها بأنها حائرة ، أو منكسرة لما دل على هذا الهول ، فالهول الشديد أفيد من طريقين من طريق اصطفاء لفظ (شاخصة) ثم من طريق التقديم للمسند على المسند إليه.

وعلى شاكلة ذلك قوله تعالى:

﴿ .....بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ..... ﴾ [سورة آل عمران:٢٦]

أي : لا بيد غيرك ، **وقوله تعالى:**

﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴿٦﴾ ﴾ [سورة الكافرون:٦]

أي لكم دينكم ، وليس لغيركم .

وتلحظ القصر في قوله تعالى :

﴿ ..... لَهُ ٱلْمُلْكُ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ ..... ﴾ [سورة التغابن:١] ﴿ إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ﴾ [سورة الغاشية:٢٥] ﴿ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾ ﴾ [سورة القيامة:٢٣] ﴿ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ﴾ [سورة يونس:٧٠] ﴿ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ ﴿٣٠﴾ ﴾ [سورة القيامة:٣٠] ﴿ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمُسْتَقَرُّ ﴿١٢﴾ ﴾ [سورة القيامة:١٢]

وغير ذلك كثير ، ولا يمنع أن يكون مع القصر ـ مراعاة للفاصلة كما يقول الشيخ أبو موسى :(والذي نراه أنه لا تزاحم في النكات والأسرار، وأن التقديم **في الآيات الكريمة يفيد الفائدتين:"** فائدة معنوية وهي الاختصاص، وفائدة لفظية -وهي في تقديرنا جزء من التعبير تماما- وهي الحفاظ على التنغيم الآخذ والتوازن الصوتي الذي يشارك مشاركة فعالة في تحريك القلوب، وبعث خوافي الإحساس والشعور، ويدرك هذه الحقيقة من ذاق حلاوة الترتيل، وجمال التنغيم في هذا القول الحكيم) [1].

١ - خصائص التراكيب ص ٣١١.

أما إذا سبق المسند المقدم أداة نفي ، فإن إفادة القصر تكاد تكون لازمة ومن ذلك **قوله تعالى** :

﴿ لَا فِيهَا غَوْلٌ .... ﴾ [سورة الصافات:٤٧]

أي : ليس فيها خاصة غول ، ولو أنك قارنت بين (لا فيها غول و لا غول فيها) لوجدت أن الأولى تقصر نفي الغول عليها ، وتتعرض لخمر الدنيا في مضمون الجملة ،كأنها تقول ، لا فيها بل في غيرها الغول ، أما لو قيل : لا غول فيها ، فإن المعنى يحمل نفي الغول فقط عنها دون إشارة إلى وجود الغول في خمر الدنيا .

وقد يكون الغرض من تقديم المسند الإسراع بالمعنى ، والتعجيل به ، مثل **قول الشاعر** :

له همم لا منتهى لكبارها وهمته الصغرى أجل من الدهر

فإن (له) شبه جملة خبر مقدم ، (وهمم) مبتدأ مؤخر ، وجملة (لا منتهى لكبارها) في محل رفع صفة لهمم ، ولو أنك عاودت الكلام ووضعت الألفاظ في مواضعها لقلت : (همم له لا منتهى لكبارها) وهذا التركيب يجعلك تظن أن الجار والمجرور (له) صفة لهمم ، لأن النكرة تحتاج إلى الصفة لتعرفها أكثر مما تحتاج إلى الخبر ، فكان الإسراع بالمراد ،وهو إثبات الهمم له ، أولى فقدم الخبر الدال بالتقديم على ذلك ، لأن مقام المدح يتطلب الإسراع بالخبر ليتمكن في نفس السامع.

الفصل الخامس
أحوال متعلقات الفعل

- **تقييد الفعل .**
- **حذف المفعول به .**
- **التقديم بين المتعلقات .**

مقدمة :

ذكر السعد في المطول أن أحوال متعلقات الفعل يقصد بها ثلاثة أشياء هي:

أ- نكات حذف المفعول به.

ب- نكات تقديمه على الفعل.

جـ- نكات تقديم بعض معمولاته على بعض.

لكن العلامة العصام في (الأطول) قال : (المراد جميع أحوال متعلقات الفعل) وذِكْرُ البعض يغني عن ذكر الباقي ، ولو لم يكن المراد جميع الأحوال لم ينحصر الفن **"فن المعاني"** في الأبواب الثمانية.

وحين تتحدث عن متعلقات الفعل فأنت تتحدث عن أحوال متعلقات المسند إذا كان فعلا ، ووضع هذه الأحوال مع أحوال المسند الفعلي غير سديد لأن أحوال المسند خاصة به ، أما الحديث هنا فهو عن المتعلقات به من حذف وذكر ، وتقديم وتأخير .

ومتعلقات الفعل تشمل كل ما في الجملة الفعلية من : (الفاعل والمفعول به والمفعول لأجله والمصدر - وظرف الزمان والمكان والتعليل للفعل ، والحال والتمييز) ولا شك أن الفعل يحمل في عباءته كل هذه الأشياء وهي متصلة به ، وتستطيع أن تدخلها في أحوال المسند إذا كان فعلا ، لكن لكثرتها خصصوا لها كلاما مستقلا ، والحديث هنا سيكون عن أحوال ثلاثة وهي:

١- أغراض تقييد الفعل

٢- حذف المفعول به . **٣- التقديم بين المتعلقات .**

❊ تقييد الفعل

وأعني بالتقييد أشياء كثيرة ، من أهمها ذكر المتعلق ، لأن ذكر المتعلق بالفعل يقيده به ، ويصرف الذهن عن سواه ، فلو قلت : (جاء مشيا) فلقد قيدت المجيء بقيد ، لا يجوز صرف الذهن عنه ، وهو المجيء مشيا ، والقصد الأول من تقييد الفعل كما قال الخطيب القزويني تربية الفائدة ، وتنميتها ، فزيادة القيد توجب زيادة البعد ، وتوجب قوة الفائدة فإذا قلت : (صليت) فقد جئت بخبر له فائدة ، فإذا أضفت إليه مفعولا ، وقلت : (العصر) فقد زادت الفائدة زيادة لم تكن موجودة في الأول ، فإذا قلت : (يوم العيد) فلقد زادت الفائدة أكثر ، فإذا قلت (في جماعة) زادت الفائدة أكثر وأكثر ، وهكذا...

وتقول : ضربت **زيدا** ،وضربت زيدا **يوم الجمعة** ، وضربت زيدا يوم الجمعة **أمامك** ، وضربت زيدا يوم الجمعة أمامك **تأديبا** ، وضربت زيدا يوم الجمعة أمامك تأديبا **بالسوط** ،وهكذا كلما أضفت إلى الجملة زيادة كانت قيدا يضيف إلى المعنى إضافة لا توجد مع عدمها ، وإذا سكت عن هذه الإضافات فهذا يعني أن السامع لا حاجة له إليها ، فكل شيء تذكره هو من متطلبات المخاطب ، وحاجته إلى ذكره ضرورة ينبغي الالتزام بها، وكل شيئ تهمله فاعلم أنه ليس من حاجات المخاطب ، يقول الأقسرائي[1] في إيضاح الإيضاح :

(وأما ترك تقييده فلا مانع منها ، أي من تربية الفائدة ، كعدم إرادة أن يطلع السامع أو غيره من الحاضرين ،على زمان الفعل أو مكانه ، أو غيرهما من القيود ، كخوف أن يتصور السامع أو غيره أن المتكلم مكثرا ... وغير ذلك .

هذا، وللمتعلقات أغراض لطيفة، ودلالات شريفة ، تفتح للمعاني أبوابًا موصدة ، وبخاصة إذا فهم المعنى بدونها ، ومن ذلك التنصيص على اللفظ المدلول عليه بغيره مثل ، **قوله تعالى:**

---

١ - الأَقْسَرَائِي (٠٠٠ - بعد ٧٧٦ هـ = ٠٠٠ - بعد ١٣٧٤ م)محمد بن محمد بن محمد بن فخر الدين، جمال الدين المعروف بالاقسرائي: عالم بالتفسير والطب، عارف باللغة والأدب. نسبته إلى (آق سراي) من بلاد الروم، ومعناها (القصر الأبيض) وهو حفيد الإمام فخر الدين الرازيّ. كان مدرسا في بلاد (قرامان) بمدرسة (السلسلة) وقد شرط بانيها أن لا يدرّس فيها إلا من حفظ (الصحاح) للجوهري،فعين لها جمال الدين. وصنف كتبا، منها (حواش على الكشاف) في التفسير، و (إيضاح الإيضاح - خ) شرح الإيضاح في المعاني والبيان .

(وتقولون بأفواهكم ما ليس في قلوبكم) فالقول لا يكـون إلا بـالفم وحذف كلمة (بأفواهكم) لا يصرف المعنى إلى غـير الفـم ، وهـذا يعنـي أن ذكر الفم هنا له دلالة زائدة ، وهو أن اللسان إذا لم يترجم ما في القلب ، فهـو قول لا حقيقة له ، ولا قيمة له ، فكون المعنـى لا قيمـة لـه جـاء مـن خـلال التعبير بأنه قول الفم ، وهذا تأكيد على بطلان القول .

وهذا الأسلوب يأتي كثيرا في القرآن الكريم لينكر على القـائلين قـولهم **ومنه قوله تعالى** :

﴿....ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْ ....﴾ [سورة الأحزاب:٤]

في شأن الظهار، أي : كلام لا قيمة له ، ولا يصدر عن قلب ، بـل هـو كلام دون تفكير في العواقب .

والذي أريد أن تكون على ذكر منه أن هذه القيـود ليسـت فضـلات في الكلام يمكن الاستغناء عنها ، لأن المعنى بهذه القيود لـيس كـالمعنى بـدونها ولا تقال هذه الإضافات إلا عند المعان الجليلة التي يريد المـتكلم التنصـيص عليها لأهميتها ، فلا يقال : سلمت عليه بيدي ، ولا سمعته بـأذني ، وشـممته بأنفي ، ونحـو ذلـك إلا عنـد الرغبـة في رسـم صـورة المعنـى ، وتقريـره في النفوس .

تقييد الفعل بحرف الجر

وحروف الجر التي يتعدى بها الفعل لها من الدلالات ما يعجز غيرهـا عن حملها ، وكلما تنوع الحرف تنوعت الدلالة ، فالفعل (سبق) حين يتعدى

(باللام) يكثر مجيئه في الخير ، وحين يتعدى (بعلى) يكثر مجيئه في الضر، لأن في اللام معنى التمليك ، والإعطاء ، وفي على معنى الغلبة والقهر ، وراجع في **ذلك قوله تعالى** :

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتۡ لَهُم مِّنَّا ٱلۡحُسۡنَىٰٓ.....﴾ [سورة الأنبياء:١٠١]

وقوله:

﴿وَلَقَدۡ سَبَقَتۡ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿١٧١﴾﴾ [سورة الصافات:١٧١]

وقال معديا الفعل بعلي:

﴿......وَأَهۡلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيۡهِ ٱلۡقَوۡلُ......﴾ [سورة هود:٤٠]

ويلخص ذلك قوله تعالى :

﴿....لَهَا مَا كَسَبَتۡ وَعَلَيۡهَا مَا ٱكۡتَسَبَتۡۗ ....﴾ [سورة البقرة:٢٨٦]

وفرق آخر بين تعدية الفعل بحرف الجر (في)وتعديته بحرف الجر(على) فإذا كانت (على) تحمل معنى الاستعلاء، والتمكن ، فإن حرف الجر(في) يحمل معنى الظرفية ، و الاستقرار ، **ففي قوله تعالى**:

﴿.....وَإِنَّآ أَوۡ إِيَّاكُمۡ لَعَلَىٰ هُدًى أَوۡ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ﴿٢٤﴾﴾ [سورة سبأ:٢٤]

يقول صاحب الكشاف : (فإن قلت: كيف خولف بين حرفي الجر الداخلين على الحق والضلال؟

قلت: لأن صاحب الحق كأنه مستعل على فرس، أو جواد يركضه حيث شاء، والضال كأنه منغمس في ظلام مرتبك فيه لا يرى أين يتوجه)[1]

لاحظ كيف صور حرف الجر المعنى ، وكيف تشكلت الهداية فصارت كأنها فرس يمتطيه صاحبها ، وكيف تحولت الضلالة إلى سجن ، أو قبر يقذف فيها صاحبها ، وهذه كلها ظلال نسجتها حروف الجر .

تقييد الفعل بالشرط

أدوات الشرط كثيرة ،لكن تقييد الفعل بواحد منها ،يكثر مع(إن وإذا) وذلك لأن كل أداة منهما تضاد الأخرى في الكثرة والقلة ، فالمعلوم في اللسان العربي أن أداة الشرط (إذا) تأتي في المعاني الكثيرة ، أو المتوقعة والمرجوة ، لكن أداة الشرط (إن) على العكس فتأتي في المعاني النادرة الوقوع أو غير المتوقعة ولذلك قالوا : إن أداة الشرط (إن) لا يكون الشرط فيها مقطوعا بوقوعه والأصل في (إذا) أن يكون الشرط فيها مقطوعا بوقوعه ، ولذلك استقبح البلاغيون أن تقول : إن طلعت الشمس كان كذا ، إلا في اليوم المغيم .

كما أن الأداتين يكون الشرط بهما مستقبلا، تقول (إن ذاكرت نجحت) إذا كنت متوقعا عدم نجاحه، وتقول: (إذا ذاكرت نجحت) إذا توقعت ذلك ورأيته راجحا، فكلاهما جعلا لتعليق أمر على أمر في الاستقبال.

١ - الكشاف ٣/ ٥٨٣.

ومثال إن الشرطية قول الشاعر :

وإنا لعمر الله إن جد ما أرى   لتلتبسن أسيافنا بالأماثل [1]

والمعنى إن دام هذا العناد الذي أراه تنل سيوفنا أشرافكم ، (فإن) شرط يشعرك برغبته في زوال هذا العناد ،والرجوع إلى الصواب والعقل ، لأن الحرب لا تترك إلا الخراب . **ومن شواهد القرآن الكريم قوله تعالى :**

﴿فَإِذَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡحَسَنَةُ قَالُواْ لَنَا هَٰذِهِۦۖ وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةٞ يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓۗ.....﴾ [سورة الأعراف:١٣١]

فعند ذكر الحسنات جيء بحرف الشرط (إذا) لأنها كثيرة، وعند ذكر الملمات جيء ب(إن) لأنها قليلة إذا قيست بالحسنات. وعلى هدي هذا الطريق ترى أيضا **قوله تعالى:**

﴿ وَإِذَآ أَذَقۡنَا ٱلنَّاسَ رَحۡمَةٗ فَرِحُواْ بِهَاۖ وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةُۢ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡ إِذَا هُمۡ يَقۡنَطُونَ ٣٦﴾ [سورة الروم:٣٦]

فالرحمة أوسع، وأكثر لذلك جيء معها بأداة الشرط (إذا) كما أنها أرجى وأحب إلى النفس ، أما البلايا والرزايا ، والتي عبر عنها بالسيئة فإنها قليلة لذلك قيل معها(إن) ، لكن كيف نوفق بين هذا وبين آيات جيء فيها بإذا مع الضر والشر **مثل قوله تعالى :**

---

١ - عمر الله مبتدأ والخبر محذوف أي: قسمي وجملة لتلتبسن جواب القسم والجملة القسمية خبر وقوله إن جد إن شرطية وجد بمعنى لج ودام وعظم وما موصولة وأرى من رؤية البصر والمفعول محذوف وهو العائد وجواب الشرط محذوف وجوبا لسد جواب القسم محله. والالتباس: الاختلاط والملابسة والنون الخفيفة للتوكيد وأسيافنا فاعل تلتبس. والأماثل: الأشراف جمع أمثل.

﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَـٰنَ ٱلضُّرُّ ..... ﴾ [سورة يونس:١٢]

وقوله :

﴿ .....وَإِذَا مَسَّـهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَـآءٍ عَرِيضٍ ﴿٥١﴾ ﴾ [سورة فُصِّلَت:٥١]

الذي يظهر أن الآيتين تتحدثان عن كثرة الدعاء عند المس، وليس الحديث عن كثرة إصابة الإنسان بالضر، بل كثرة دعائه وتضرعه عند مس الضر.

وانظر إلى قوله تعالى :

﴿ وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَحْمَةٌ .... ﴾

[سورة آل عمران:١٥٧]

تجد (إن) دخلت على الفعل " قتلتم " لأن القتل هنا مقيد بقوله (في سبيل الله) وهذا قليل نادر، أعني تخليص النية في الجهاد لله تعالى حتى يكون القتال في سبيل الله ، وكذلك قوله : (أو متم)، يعني : في سبيل الله ، ولما كان هذا الإخلاص نادرا جيء ب(إن) .

ومن ذلك أيضا قوله تعالى :

﴿ إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ۖ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ .... ﴾ [سورة آل عمران:١٦٠]

فحرف الشرط هنا يشير إلى أن نصر الله تعالى لا يعطى لكل أحد ، بل لا بد من مؤهلات قل وجودها في الناس ، لذلك كان نصره نادرا لندرة من يستحقونه ، **أما قوله** :(وإن يخذلكم) فالمعنى أنه لن يخذلكم ، لأنه إن خذلكم فلا ناصر لكم .

والعلم بمواقع (إن وإذا) في اللسان العربي مهم ، ولا يحسنه إلا الأفراد في البلاغة ، ولذلك ذكر الشيخ أبو موسى أن الزمخشري عاب على عبد الرحمن بن حسان ، حين سأل بعض الولاة حاجة فلم يقضها **فقال** :

ذممت ولم تحمد وأدركت حاجتي   تولى سواكم أجرها واصطناعها

أبى لك كسب الحمد رأي مقصر   ونفس أضاق الله بالخير باعها

إذا هي حثته على الخير مرة   عصاها وإن همت بشر أطاعها

واضح أن الشاعر يذم الرجل ويهجوه هجاء صريحًا، ويذكر رأيه المقصر ونفسه الضائقة بالخير، **وقوله**: إذا هي حثته على الخير مرة، يفيد: أن حث نفسه على الخير أمر مقطوع به، **وقوله**: وإن همت بشر يفيد: أن همها بالشر أمر نادر والنفس التي تحدث على الخير قطعا، وتهم بالشر نادرًا نفس ممدوحة محمودة فكيف يتفق هذا مع سياق الذم، وتصريحه بأن نفسه أضاق الله بالخير باعها **ولو قال**: إن هي حثته على الخير مرة عصاها، وإذا همت بشر أطاعها لاستقام المعنى، ولذلك قال الزمخشري رحمه الله: وللجهل بموقع إن وإذا يزيغ كثير من الخاصة عن الصواب فيغلطون، ألا ترى إلى عبد الرحمن بن حسان كيف أخطأ بهما الموقع. ثم ذكر القطعة والأبيات، **وقال**: لو عكس لأصاب.

وقد سمعت من بعض شيوخنا أن ابن حسان أعلم بطبائع اللغة من البلاغيين، وأن الزمخشري مع سعة ذرعه لم يتنبه إلى قوله مرة: ومهما كانت النفس قد أضاق الله بالخير باعها، فإن حثها على الخير مرة أمر متوقع؛ لأن الله ألهمها فجورها وتقواها، وهو كلام واقع) [1].

ومن روائع استعمال (إذا) ، قول سعد بن ناشب[2]:

إذا هم لم تردع عزيمة همه ... ولم يأت ما يأتى من الأمر هائبا
إذا هم ألقى بين عينيه عزمه ... ونكب عن ذكر العواقب جانبا
فإن تهدموا بالغدر داري فإنها ... تراث كريم لا يبالي العواقبا

وراجع هاتين الأداتين (إذا هم لم تردع عزيمة همه –إذا هم ألقى بين عينيه عزمه) وانظر كيف تحدثك هذه الداة عن هذا الهم الكثير ،وهذه الجرأة التي لا تكفها الغمرات وهذا شأن الفتاك ،ثم راجع البيت الأخير (فإن تهدموا بالغدر داري فإنها تراث كريم لا يبالي العواقبا) حيث اصطفى

---

١ - خصائص التراكيب ص ٣٢٣.
٢ - وهو من بنى العنبر.وكان أبوه ناشب أعور. وكان من شياطين العرب. وله يوم الوقيط، وهو يوم كان فى الإسلام بين تميم وبكر بن وائل. له ذكر ، وكان سعد أيضا من مردة العرب. وفيه يقول الشاعر، أو فى كعب بن ناشب: وكيف يفيق الدهر سعد بن ناشب ... وشيطانه عند الأهلة يصرع
يقول :
سأغسل عنى العار بالسيف جالبا ... على قضاء الله ما كان جالبا
ويصغر فى عينى تلادى إذا انثنت ... يمينى بإدراك الذى كنت طالبا
فيال رزام رشحوا بى مقدما ... إلى الموت خواضا إليه الكتائبا
إذا هم لم تردع عزيمة همه ... ولم يأت ما يأتى من الأمر هائبا
أخا غمرات لا يريد على التى ... يهم بها من مفظع الأمر صاحبا
إذا هم ألقى بين عينيه عزمه ... ونكب عن ذكر العواقب جانبا
ولم يستشر فى رأيه غير نفسه ... ولم يرض إلا قائم السيف صاحبا

للشرط (إن) لأنه لا يتوقع أن يصنعوا هذا ، وهو الذي يحمى الحما ، وهو الذي إذا هم فعل كذا وكذا ، فإن فعلتم وهدمتم داره فإنه لا يبالي العواقبا ،وهذا شعر يربي النفوس ، ويبني الأخلاق ، ويقوم العزائم ، يقول الشيخ أبو موسى (إننا جميعا نحب الشعر والأدب، والفكر الذي ينفر النفس من الخساسة والخزاية والصغار والعبودية، والهوان.، وكان علماؤنا يحرصون على أن تكون النفوس التي هي أوعية العلم الشريف نفوسا حرة شريفة، فكانوا يتخيرون شواهد العلوم من الشعر الذي يغلب عليه هذا الطابع الحي الحر، وكأنهم يثبتون من خلال الدراسة فيما جرت في علومنا ودمائنا وتاريخنا، حتى إنك لترها في تراثنا تجري في دم الخيل فهاتا، "حصان ماجد العرق"، وإنك لترى الثور الوحشي الذي تحيط به كلاب الصيد إذا حدثته نفسه بالهرب راجعه كبر، "فكر محمية من أن يفر"، ويثبت هذا الثور ذو الكبرياء في معمعان الدفع عن نفسه عرضه حتى الموت: "ولو شاء نجى نفسه الهرب"، بل إنك لترى حمار الوحش في الشعر: "معضضا"، أي عض من كل جانب في معمعة المدافعة عن كرامته وعرضه.

وهكذا أفرغ آباؤنا شرف النفس، وسموها وسموقها، ورفضها الهوان والعبودية والذل أفرغوا ذلك، وأفضل من ذلك على ما حولهم حتى مطاياهم فما بالنا الآن ترى العربي يضرب على أنف الغيرة، فلا يغضب؟!! ماذا حدث؟ لقد ربيت هذه الأجيال الضائعة على غير أصولها، وعروقها وغير علومها وتاريخها وقيمها، وبقيت معلقة في الهواء تحتضن الوهم، وتكرع من

كئوس مترعة بالسراب، ويجب أن تعود هذه النفوس التائهة إلى مستقرها حتى تعيش كبقية أمم الأرض في تاريخها، وقيما وأصولها الحضارية، وتغرس في علومها حتى يتغلغل ماؤها مرة ثانية في أصولها وفروعها، وتعرف كيف تدق باب الحرية الحمراء.

وللحرية الحمراء باب بكل يد مدرجة يدق[1]

ويقول أبو الطمحان القيني :

إذا لبسوا عمائمهم طووها على كرم وإن سفروا أناروا

يبيع ويشتري لهم سواهم ولكن بالطّعان هم تجار

إذا ما كنت جار بني خريم فأنت لأكرم الثّقلين جار

فالشاعر يرسم الصورة الخيالية ، لكنه يبدأها ب(إذا) ليصور لك الخيال حقيقة ، بل أقرب إلى الواقع الكثير منه إلى النادر الحدوث ، وتلك

١ خصائص التراكيب ص ٣٢٧.

إضافة صنعتها (إذا) حيث حولت النادر المحال إلى واقع كثير ، وكأنه عادة ، ومثله قول محمد بن المولى ليزيد بن قبيصة بن المهلب[1]في مدح والي مصر :

وإذا تبــاع كريمــة أو تشــترى فســواك بائعهــا وأنــت المشــتري

وإذا تــوعرت المســالك لم يكــن منهــا الســبيل إلى نــداك بــأوعر

وإذا صــنعت صــنيعة أتمتهــا بيــدين لــيس نــداهما بمكــدر

ويقول المتنبي :

لكلِّ امرئٍ من دهره مـا تعـوَّدا وعاداتُ سيف الدولة الفتكُ في العدى

وما قتل الأحرارَ كالعفو عنهم ومَنْ لـك بـالحرِّ الـذي يحفـظ اليـدا

---

١ - ابن المُهَلَّب(٠٠٠ - ٨٢ هـ = ٠٠٠ - ٧٠١ م)المغيرة بن المهلب بن أبي صفرة الأزدي، أبو فراس: أمير، من شجعان العرب المعدودين.استخلفه أبوه على (خراسان) فمات فيها. ولي المغرب وإفريقية زمانا للمهدي، والهادي، والرشيد، وولي قبل ذلك إمرة الديار المصرية للمنصور سبعة أعوام، أولها سنة أربع وأربعين ومائة.وكان أحد الشجعان المعدودين، والأبطال الموصوفين، وعن صفوان بن صفوان قال: كنا مع يزيد بن حاتم فقال: استبقوا إلي ثلاثة أبيات، فكأنما كانت في كمي، فقلت:
لم أدر ما الجود إلا ما سمعت به ... حتى لقيت يزيدا عصمة الناس
لقيت أكرم من يمشي على قدم ... مفضلا برداء الجود، والباس
لو نيل بالمجد ملك كنت صاحبه ... وكنت أولى به من آل عباس
قال: ثم كففت، فقال: لا يسمعن هذا منك أحد.قال الجاحظ: وقال ربيعة بن ثابت يمدح يزيد بن حاتم، ويهجو يزيد بن أسيد السلمي:
لشتان ما بين اليزيدين في الندى ... يزيد سليم، والأغر ابن حاتم
فهم الفتى الأزدي إتلاف ماله ... وهم الفتى القيسي جمع الدراهم
ولا يحسب التمتام أني هجوته ... ولكنني فضلت أهل المكارم
قال ابن عساكر: توفي يزيد بن حاتم سنة سبعين أو إحدى وسبعين ومائة، واستخلف ابنه داود مكانه على إفريقية.قلت: وقد مر في الطبقة السالفة يزيد، وأنه مات في رمضان سنة سبعين ومائة.

إذا أنتَ أكرمت الكريمَ ملكتَـهُ   وإنْ أنــتَ أكرمــتَ اللئــيمَ تمــرَّدا

ووضعُ الندى في موضع السيف بـالعلى   مضرٌ كوضع السيف في موضع النـدى

وقيَّــدتُ نفسي ـ في ذراكَ محبَّــةً   ومَــنْ وَجَـدَ الإحسـانَ قيـداً تقيَّـدا

وراجع بنفسك الفرق بين (إذا و إن) من حيث الموقع والدلالة .

ومن أمتع ما تراه في الهوى قول المجنون(١):

أراني إذا صليت يممت نحوها   بــوجهي وإن كــان المصــلى ورائيــا

ومــا بي إشراك ولكــن حبهــا   كعود الشجا أعيـا الطبيـب المداويا

إذا ما طواك الدهر يـا أم مالـك   فشــأن المنايــا القاضــيات وشــانيا

خليلي إن دارت عـلى أم مالـك   صروف الليـــالي فابغيـــا لي ناعيـــا

فأداة الشرد (إذا) جاءت مع الصلاة ، وهي كثيرة ، لكنها هنـا صـلاة لغير الله تعالى ، هي صلاة لبيت الحبيب ، فالقبلة هناك عنـدها ، لكـن الـذي يؤثرك **هو قوله** : (وإن كان المصلى – يعني الحقيقي – ورائيا ، وهذا شرك ،

---

١ - مَجْنُون لَيْلي(٠٠٠ - ٦٨ هـ = ٠٠٠ - ٦٨٨ م) قيس بن الملّوح بن مزاحم العامري: شاعر غزل، من المتيمين، من أهل نجد. لم يكن مجنونا وإنما لقب بذلك لهيامه في حب " ليلى بنت سعد ". قيل في قصته: نشأ معها إلى أن كبرت وحجبها أبوها، فهام على وجهه ينشد الأشعار ويأنس بالوحوش، فيرى حينا في الشام وحينا في نجد وحينا في الحجاز، إلى أن وجد ملقى بين أحجار وهو ميت فحمل إلى أهله. وقد جمع بعض شعره في " ديوان - ط " وصنف ابن طولون (المتوفى سنة ٩٥٣) كتابا في أخباره سماه " بسط سامع المسامر في أخبار مجنون بني عامر - خ " في دار الكتب. وكان الأصمعي ينكر وجوده، ويراه اسما بلا مسمى. والجاحظ يقول: ما ترك الناس شعرا، مجهول القائل، فيه ذكر ليلى إلى نسبوه إلى المجنون. ويقول ابن الكلبي: حُدثت أن حديث المجنون وشعره وضعه فتى من بني أمية كان يهوى ابنة عم له .

والشاعر هنا يسرع إليك ، حتى لا تظن بـه الظنـون فيقـول : ومـا بي إشراك ، ولكنه صُنع الهوى الذي تركه مريضا لا دواء له ولا طبيب يعالجـه ، أريدك أن تعاود النظر إلى (إذا وإن) في الأبيات وتنظر إلى موقع المعاني منها ، وكيف وضع (إذا ، ثم إن ، ثم إذا ، ثم إن) وكأنه يعلم قيمة كل أداة فيختـار ما يتناسب والمعاني فجاءت (إذا) مع أمرين لا ينفكان من الحـدوث ، وهمـا الصلاة ، والموت ، فهذان أمران تراهما كل يوم ، ووضـع (إن) مـع انشـغاله عن القبلة الحقيقية واهتمامه بقبلة أم مالك ، ثم وضعها مع هلاك أم مالك مما يشير إلى عدم رغبته في ذلك ، وحرصه على بقائها .

واللغة تضع (إن) الشرطية لقلة الاستعمال وندرته، **كما في قوله تعالى** :

﴿فَإِنْ ءَامَنُوا۟ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ....﴾ [سورة البقرة:١٣٧]

فقوله بمثل ما آمنتم به ،معناه : بما آمنتم به وليس معناه دينا آخر يشبهه وإيمان أهل الكتاب بعد عنادهم نادر ، ولكنه غير مستحيل ، في الوقت الذي تضع فيه (لو) للأمور المحالة ، فتقول : لو قام زيد لسـعد عمـرو ، إذا كـان زيد قد مات مثلا ، أو لا أمل في قيامه .

وهذه الأدوات قـد تخـرج عـن دلالاتهـا إلى دلالات أخـرى لغـرض يستوجبه السياق والمقام ،فقد تأتي (إن) في المستحيل قطعا **كما في قوله تعالى** :

﴿ قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ ﴿٨١﴾ ﴾ [سورة الزُّخرُف:٨١]

أو في الموجود قطعا مثل قوله تعالى :

﴿ وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا.... ﴾ [سورة البقرة:٢٣]

لأنهم في ريب قطعا.

وقد يأتي مع (إن وإذا) الفعل الماضي بدلا من المستقبل ، وذلك إذا أراد المتكلم حصول الفعل ، وأنه واقع ،وأنه يخبر عن حصوله ، مثل قولك في كل شيء تتحدث عنه مستقبلا : (إن شاء الله) فلفظ الماضي هنا تصوير لرغبتك الشديدة في حصوله ، وتقول : إن ذاكرت نجحت ، فصيغة الماضي تصور الفعل كأنه حصل ، أو على الأقل أنك ترغب في حصوله، وليس ذلك هدما لمعاني الأدوات ، وإنما هو إحساس جديد بالمعاني ، أو كما يقول الشيخ (المهم ليس هو الأشياء كما هي في الواقع، وإنما المهم هو حس المتكلم بها ، وليست التعبيرات في الحقيقة إلا مظهرا للرؤية النفسية، وانعكاسا للاستجابات الداخلية، وهي في كثير من صورها تتخطى حدود الواقع وجموده، فلا تبالغ في قياس الدلالات اللغوية على الواقع، والحكم عليها من خلاله؛ لأن للغة خلقا آخر هو الخلق اللغوي، وله كوائنه ومقاييسه ومنطقه، واقرأ من الشعر ما شئت لترى هذا) [1].

وراجع معي قول الله تعالى :

﴿.... وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا ....﴾ [سورة النور:٣٣]

حيث ترى الفعل الماضي (أردن) مع (إن) والأصل إن يردن ، لكنه السياق آثر الماضي على المضارع لأن الإماء كانت لديهن الرغبة في ذلك ، لأنه كان العوض عن الزواج ، فالأمة نادرا ما يكون لها زوج ، فكان البغاء طريقا سهلا لتعويضهن عن حاجة الجسد للشهوة في الجاهلية ، وليس معنى الآية

١ - خصائص التراكيب ٣٧٣.

أن من أرادت التحصن لا تكره ، ومن أرادت البغاء لا تمنع . كلا ، فالصورة تنهى عن البغاء في جميع صوره ، لكنها علقت النهي عن الإكراه على إرادة التحصن لتبشيع الوقوع في هذه الجريمة ، فالعربي يأنف من الرذيلة ، فما بالك لو أرادت الأمة العفاف ، وأردت أنت الرذيلة ، هذه مفارقة تصيب العربي بالخزي والعار حتى ولو لم يكن ذا دين .

ومما جاء بصيغة الماضي مع حرف الشرط (إن) **قوله تعالى:**

﴿.....لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ .....﴾ [سورة الزُّمَر:٦٥]

والخطاب لرسول الله ﷺ لكن المقصود هو التعريض بالمسلمين الذين يسمعون هذا الكلام فإذا كان رسول الله ﷺ يقال له هذا ، وحتما لن يشرك وهذا وعظ من بعيد ، وخطاب للنفوس من وراء رسول الله ﷺ لتخاف .

ومثله قوله تعالى:

﴿....وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم مِّن بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿١٤٥﴾﴾ [سورة البقرة:١٤٥]

يقول الزمخشري : (وقوله ولئن اتبعت أهواءهم بعد الإفصاح عن حقيقة حاله المعلومة عنده في قوله وما أنت بتابع قبلتهم كلام وارد على سبيل الفرض والتقدير، بمعنى: ولئن اتبعتهم مثلا بعد وضوح البرهان والإحاطة بحقيقة الأمر إنك إذا لمن الظالمين المرتكبين الظلم الفاحش. وفي ذلك لطف

للسامعين وزيادة تحذير. واستفظاع لحال من يترك الدليل بعد إنارته ويتبع الهوى، وتهييج وإلهاب للثبات على الحق. .)[1] .

ولذلك يقول الشيخ سيد قطب : (ونقف لحظة أمام هذا الجد الصارم في هذا الخطاب الإلهي من الله سبحانه إلى نبيه الكريم الذي حدثه منذ لحظة ذلك الحديث الرفيق الودود، إن الأمر هنا يتعلق بالاستقامة على هدي الله وتوجيهه ويتعلق بقاعدة التميز والتجرد إلا من طاعة الله ونهجه.

ومن ثم يجيء الخطاب فيه بهذا الحزم والجزم، وبهذه المواجهة والتحذير.. «إِنَّكَ إِذاً لَمِنَ الظَّالِمِينَ» ..إن الطريق واضح، والصراط مستقيم.. فإما العلم الذي جاء من عند الله. وإما الهوى في كل ما عداه.

وليس للمسلم أن يتلقى إلا من الله. وليس له أن يدع العلم المستيقن إلى الهوى المتقلب. وما ليس من عند الله فهو الهوى بلا تردد.وإلى جانب هذا الإيحاء الدائم نلمح كذلك أنه كانت هناك حالة واقعة من بعض المسلمين، في غمرة الدسائس اليهودية وحملة التضليل الماكرة، تستدعي هذه الشدة في التحذير وهذا الجزم في التعبير. في هذا الأسلوب فائدة أخرى جليلة هي الإشارة إلى سلطان الألوهية القاهرة، وتحديد منزلة محمد ﷺ من هذا السلطان، وأنه ليس إلا رجلا منكم يخاطب خطابكم، فلا يتوهم متوهم أنه ﷺ على شيء من صفات الألوهية، وإنْ قرَّبه ربه أحسن تقريب، وكرمه أكمل تكريم ، وبهذا ومثله مما يحدد ويعمق صفة البشرية في رسول الله ﷺ

---

١ - الكشاف ١/ ٢٠٣ .

يضمن القرآن، ويحفظ نقاء عقيدة التوحيد، فلا يشوبها في الإسلام ما شابها في الشرائع الأخرى، حيث قال النصارى: المسيح ابن الله.

وقالت اليهود: عزير ابن الله، وشيء آخر في هذا الأسلوب هو الإشارة إلى أن التفاضل، والقرب عند الله مناطه العبادة والتقوى، فأنت يا محمد وإن كنت رسولا من أكرم الرسل، ونبيا مقدما في الأنبياء إنما مرجع ذلك لخشيتك وتقواك، وعبادتك وخلوصك في الوحدانية، فإذا كان منك غير ذلك حبط كل عمل عملته، ولهذا المعنى يذكر القرآن الأنبياء بلفظ العبد **كما في قوله**:

﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ ....﴾ [سورة الجن:١٩]

للإشارة إلى أن البشرية كلها سواء في العبودية، وإلى أن فضيلة هؤلاء إنما كانت بالعبادة.)(١).

وهناك وسائل أخرى لتقييد الفعل ، أذكر لك منها بعضها على عجل .

التقييد بالتوكيد

فالتوكيد بأدواته المتنوعة يضيف إلى الكلام بعض الدلالات غير التوكيد ومنها دفع التوهم لكل لبس مثل :دفع شبهة احتمال الكلام معنى آخر ، كما تقول : رأيته هو ، وقلت له أنا ، وسمعتك أنت، فهذه الضمائر المؤكدة تدفع شبهة احتمال الكلام معنى آخر .أو دفع توهم عدم الشمول

١ - راجع في ظلال القرآن ٢/ ٧٧٥ وخصائص التراكيب لأبي موسى ص ٣٣١.

نحو قول الله تعالى :

﴿وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ لَأٓمَنَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ كُلُّهُمۡ جَمِيعًاۚ أَفَأَنتَ تُكۡرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ ٩٩﴾ [سورة يونس:٩٩]

فلفظة " كلهم " تجمع الأفراد دون أن يتخلف أحد، ولفظة " جميعا "تفيد إيمانهم في وقت واحد .

التقييد بالبدل : للتقييد بالبدل دلالات مهمة ، منها : المدح، نحو:

﴿ ۞ جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلۡكَعۡبَةَ ٱلۡبَيۡتَ ٱلۡحَرَامَ قِيَٰمًا لِّلنَّاسِ ....﴾ [سورة المائدة:٩٧]

فالبيت الحرام " عطف بيان على الكعبة لغرض مدحها بأنها حرم آمن ومنه أيضا قولك: جاء أبو الحسن علي كرم الله وجهه.

ومنها : زيادة التقرير، إذ البدل كالتفسير بعد الإبهام، فيزداد به تقرير المقصود في ذهن السامع، **ومنه في غير المسند إليه:**

﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ٧﴾ [سورة الفاتحة:٦-٧]

ومنها : الاختصار، من خلال حروف المعاني ، مثل الواو ، والفاء وثم وغير ذلك من الحروف ، فقولك جاء محمد وعلي، أخصر من جاء محمد وجاء علي، مع إفادة التفصيل بالنسبة لقولك: جاءني رجلان، ولا يعلم منه تفصيل المسند، إذ الواو لمطلق الجمع، ولا دلالة فيه لمجيء أحدهما قبل الآخر أو بعده أو معه وقولك : جاء محمد فعلي، أو ثم علي، أو جاء القوم حتى خالد

فهذه الحروف، وإن اشتركت في تفصيل المسند ، إلا أن لكل منها دلالة ، فالأول يدل على التعقيب من غير مهلة، والثاني مع المهلة، والثالث يفيد ترتيب أجزائه من الأضعف إلى الأقوى، أو بالعكس، **نحو قول الشاعر** :

وكنت فتى من جند إبليس فارتقى　　بي الحال حتى صار إبليس من جندي

التقييد بضمير الفصل

ويكون التقييد بضمير الفصل أيضا حيث يؤتى بعد المسند إليه بضمير الفصل ليفيد التخصيص، أي: قصر المسند على المسند إليه، إذا لم يكن في الكلام ما يفيد القصر سواه نحو:

﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ.... ﴾ [سورة التوبة:١٠٤]

أو لتأكيد التخصيص إذا كان في التركيب مخصص آخر، مثل تعريف الطرفين نحو:

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ..... ﴾ [سورة الذاريات:٥٨]

ومن نماذج ذلك في القرآن الكريم قوله تعالى :

﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ ۚ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٦٢﴾﴾

[سورة آل عمران:٦٢]

وقوله :

﴿ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ ﴿١١٥﴾ ﴾

[سورة الأعراف:١١٥]

وقوله تعالى :

﴿ وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ وَيَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٦﴾ ﴾ [سورة سبأ:٦]

وعد العلماء فوائد كثيرة لضمير الفصل ، **منها** : (فصل الخبر، وتميزه عن النعت فلذا سمي فصلاً، وتأكيد النسبة والحكم الخبري ، وقيل إنه لتأكيد المحكوم عليه لمطابقته له، كما أنه قد يفيد اختصاص المسند بالمسند إليه وأثبتوا ذلك في قوله تعالى:

﴿ .... فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ .... ﴾ [سورة المائدة:١١٧]

وقد يفيد الفصل التخصيص بقصر المسند على المسند إليه **نحو قوله تعالى**:

﴿ .... أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ .... ﴾ [سورة التوبة:١٠٤]

وقد يكون لمجرّد التأكيد إذا كان التخصيص حاصلاً بدونه بأن يكون في الكلام ما يفيد قصر المسند على المسند إليه نحو : (أنّ الله هو الرزاق) أي لا رزاق إلاّ هو ، وذهب بعضهم إلى أنه رابطة، وحرف رابط) ، وقد يفيد التقييد بضمير الفصل تمييز الخبر عن الصفة، مثل : الكريم هو كثير العطاء السمح النفس فحذف ضمير الفصل يحول الخبر إلى صفة)[1] .

---

١ - انظر حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي ١/ ٢٥٠ .

والقيود في اللغة العربية لا حصر لها ، ولكل منها دلالة لا يمكن للكلام حملها بدونه فأدوات الشرط ، وأدوات النفي ، والمفاعيل ، والحال ، والتمييز والتوابع ، والنواسخ..إلخ كل هذه تمثل قيودا لها دلالات يقصدها المتكلم .

حذف المفعول

سيظل باب حذف المفعول هو الأخصب ،والأكثر ماء في كل ما يتعلق بأحوال متعلقات الفعل ، لأنك تجد فيه مساحة الكلام واسعة ، والشواهد تتكاثر عليك ، فلا تدري ما تصيد منها ، والبداية التي ينبغي أن تعلمها أن الفعل - وما في معناه كاسم الفاعل ، واسم المفعول- إذا أريد الإخبار به فقط ، فما عليك إلا أن تقول حدث قيام أو حصل قعود ، أو كان عطاء ، فتحول الفعل إلى مصدر ، وتجعله فاعلا للحدوث ، لأنك لا تريد إلا الإخبار بالحدث ، دون حاجة إلى ذكر الفاعل أو المفعول ، فإن أردت إخبار السامع بالفعل والفاعل زدت فاعلا ، فتقول : قام محمد ، فإن أردت مع الفعل والفاعل شيئا آخر زدته في الكلام ، فتقول : قام محمد من عندنا ، وقعد محمد على باب منزلة ، وأعطى محمد خالدا مالا إلخ

فالذي تقصده ، وتريد إخبار السامع به تذكره في الكلام ، والذي لا تقصده ولا تهتم بإخبار السامع به تحذفه من الكلام ، فحين تقول : (محمد يعطي) أنت لا تريد أن تخبر السامع إلا بهذا الخبر أن محمدا يعطي ، لكن يعطي من ؟ أو يعطي ماذا ؟ أو يعطي كم؟ فهذا لا تقصده ولا تريد إحاطة

السامع به علما لذلك لا تذكره في الكلام، وأوضح لك الأمر أكثر وأقول : إن للفعل علاقة بالفاعل وبالمفعول،فارتباطه بالفاعل ناشئ من أن الفعل وقع منه ، ولذلك رفعه وارتباطه بالمفعول ناشئ من أن الفعل وقع عليه ،ولذلك نصبه ، فإذا أريد الإخبار بوقوع الفعل في ذاته من غير نظر إلى ممن وقع ، وعلى من وقع ، فقل : كان ضرب ، أو وقع ضرب لتفيد حدوث الفعل مجردا من فاعل أو مفعول

ومن نماذج ذلك قوله تعالى :

﴿ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضۡحَكَ وَأَبۡكَىٰ ﴿٤٣﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحۡيَا ﴿٤٤﴾ ﴾ [سورة النجم:٤٣-٤٤]

وقوله: ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَغۡنَىٰ وَأَقۡنَىٰ ﴿٤٨﴾ ﴾ [سورة النجم:٤٨]

وقوله :

﴿ .... قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ .... ﴾ [سورة الزُّمَر:٩]

ومن ذلك قول عمرو بن معدي كرب :

ولما رأيت الخيل زورا كأنها … جداول زرع أرسلت فاسبطرت

فجاشت إلي النفس أول مرة … فردت على مكروهها فاستقرت

علام تقول الرمح يثقل عاتقي … إذا أنا لم أطعن إذا الخيل كرت

لحا الله جرما كلما ذر شارق … وجوه كلاب هارشت فازبأرت

فلم تغن جرم نهدها إذا تلاقتا ولكــن جرمــا في اللقــاء ابــذعرت

ظللــت كــأني للرمــاح دريــة أقاتــل عــن أبنــاء جــرم وفــرت

فلو أن قومي أنطقتني رمـاحهم نطقــت ولكــن الرمــاح أجــرت

يقول الشيخ : (هذه مقطوعة تصف تجربة صادقة لفارس مقدام وشاعر دافق، وعمرو هذا هو صاحب الصمصامة الذي توارثها العرب من سليمان عليه السلام مع ذي الفقار سيف رسول الله ﷺ كما تقول الروايات: قال عمرو يصف تخاذل قومه جرم في أبيات تجيش بأنغام البطولة والأسى .

أراد بالخيل الزور المنخرفة من الطعن، وجداول الزرع، أنهاره التي أرسل فيها الماء، واسبطرت أي امتد الماء وطال امتداده، وجريه في هذه الأنهار والتشبيه كما يقول المرزوقي: وقع على الماء في الأنهار لا على الأنهار، كأنه شبه امتداد الخيل في انحرافها عند الطعن بامتداد الماء في الأنهار، وهو يضطرد ملتويا ومضطربًا.

وتهارشت الكلاب تواثبت، وذر الشمس طلوعها، وازبأرت انتفشت حتى ظهر منها أصول الشعر، ويقول المرزوقي في انتصاب وجوه: إنه على الشتم والذم، والعامل فيه فعل مضمر وهو اذكر قوما يشبهون الكلاب إذا واثبت غيرها، وسأورت فانتفشت وتجمعت للوثب، وتلك الحالة من أحوالها أشنع وأنكر وهذا تحقيق للشبه، وتصوير لقباحة المنظر، ونهد قبيلة

من قضاعة كجرم وأضافها إلى جرم؛ لأنها كانت تعتمد عليها وتكتفي بها، وابذعرت أي تفرقت.

ويذكر الخطيب أن قوله: ولكن الرماح أجرت، من النوع الذي يقع فيه الفعل مطلقا كناية عنه مقيدا، **يعني أن قوله**: أجرت قصد منه إثبات الفعل للفاعل غير من نظور إلى مفعول، ولكنه وهو بهذه الحالة يقع كناية عن أجرتني أي كناية عن الفعل متعلقا بمفعول مخصوص؛ لأنه ما دام وقع منها الإجرار لزمه أن تكون أجرته أي قطعت لسانه عن الثناء عليهم، وذكر محامد تضاف إليهم.

وعبد القاهر لا يتناول الجملة هذا التناول، وإنما يقول: إن قوله: أجرت له مفعول معلوم ومقصود، وليس لهذا الفعل مفعول سواه، ولكنك تطرحه وتنساه لتوهم أن هذه الرماح وقع منها الإجرار ، وحبس الألسن عن النطق، ولو قلت: أجرتني فقد يتوهم أن ما كان منها بقطع لسانه هو فقط، وأنه لو كان شاعر غيره لما حبس لسانه عن التحدث بذكرهم، وهذا غير مراد، وإنما مراده أن تخاذلهم في اللقاء يسكت كل لسان؛ لأنه لا يجد وجها يذكرهم به، وكأن جرما حين أبذعرت سقطت كل فضائلها)[1].

ومن ذلك في القرآن الكريم قوله تعالى :

﴿.....وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾﴾ [سورة البقرة:١٧]

---

١ - خصائص التراكيب ٣٤٧.

والمفعول به في جملة (لا يبصرون) لا يلتفت إليه، لأنه لا يخطر على بال المخاطب ، لذلك حذف ،كأن الفعل (يبصرون) غير متعد .

وقريب من هذا حذف المفعول من المشيئة، واللغة تتوسع في ذلك فيقولون. لو شئت لفعلت كذا وكذا ، والقصد: لو شأت أن أفعل لفعلت .. **ومنه قوله تعالى:**

﴿.....فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخۡتِمۡ عَلَىٰ قَلۡبِكَۗ .....﴾ [سورة الشورى:٢٤]

المعنى : فإن يشأ الله أن يختم على قلبك يختم على قلبك ، **ومثله قول البحتري** :

لو شئت لم تفسد سماحة حاتم كرما ولم تهدم مآثر خالد

المعنى : لو شئت ألا تفسد لم تفسد ، ويدلك على هذا ، أن بعض الشعراء يذكر هذا المفعول لأنه يحمل معنى غريبا ، **مثل قول اسحق بن حسان الخريمي** :

قضى وطرا منك الحبيب المودع وحل الذي لا يستطاع فيدفع

ولو شئت أن أبكي دما لبكيته عليه ولكن ساحة الصبر أوسع

فلما كان البكاء دمًا كان التنصيص عليه واجبا حتى لا يفهم البكاء المعروف ، فهو غير مراد يقول الشيخ : (وكان يمكن أن يقول: ولو شئت لبكيت عليه دما، ويأتي الكلام على أسلوب الحذف ، ولكن الشاعر ترك هذا الطريق وكان لزاما عليه أن يفعل؛ لأن بكاء الدم أو مشيئة بكاء الدم من

الأمور المستغربة التي تحتاج النفس إلى شيء من التلطف حتى تألفها، وكان هذا التطلف هو ذكر هذا البكاء، والتصريح به مع المشيئة، ثم ذكره مع جواب لو فكان هذا التكرار كأنه إيناس تذهب به وحشة غرابة المعنى، وهكذا الحال في كل مفعول غريب)[1].

ومن المفعولات الغريبة قول أبي الحسن على بن أحمد :

فلو شئت أن أبكي بكيت تفكرا فلم يبق مني الشوق غير تفكري

الشاعر هنا يريد أن يبين لنا أن الذي تبقى عنده هو الفكر ، فالشوق لم يبق عنده شيئا آخر ، فإن بحثت عن أي شيء فيه لن تجد إلا الفكر ، حتى أنه لو أراد أن يبكي لبكى تفكرا ، وهذا من أعجب العجب .

ومن حذف مفعول المشيئة قول حميد بن مالك :

وما هاج هذا الشوق إلا حمامة دعت ساق حر في حمام ترنما

إذا شئت غنتني بأجزاع بيشة أو الزرق من تثليث أو بيلملما

مطوقة ورقاء تسجع كلما دنا الضيف وانجاب الربيع فأنجما

أراد : إذا شئت أن تغنيني هذه الورقاء غنتني بهذه الأماكن (أجزاع بيشة – والزرق – التثليث – يلملم) وكأنه يملك زمامها ، ويأمرها بالغناء له في أي مكان أحب ، شمالا أو جنوبا .

١ ـ السابق ٣٥٢.

ويقول عبد الله بن شبرمة يخاطب ابن هبيرة : [1]

لو شئت كنت ككرز في عبادتـه أو كابن طارق حول البيـت والحـرم

أراد لو شئت أن تكون ككرز كنت ككرز ولكنه حذف فأبهم، ثم ذكـر فأوضح فحسنت عبارته، وجاء كلامه صافيا بريئًا من الفضول.

ومن عجائب البحتري في ذلك قصيدته التي بدأها بالخيال وقال فيها :

أجدّك ما ينفـكّ يسرـي لزينبـا خيـــال إذا آب الظـــلام تأوّبـــا

سرى من أعالي الشام يجلبُه الكَرى هبوب نسـيم الـروض تجلبـه الصّـبا

ومـــا زارني إلا ولِهْـــتُ صَـــبابةً إليـــه وإلا قلـــت: أهـــلاً ومرْحبـــا

وليلتنـا بـالجَزْع بـات مسـاعفاً يرينـــي أنـاة الخطْـو ناعمـة الصِّـبا

أضرّت بضوء البدر، والبدرُ طالع وقامـــت مقـــام البـــدر لمـــا تغيّبـــا

ولو كان حقاً مـا أتـاه لأطفـأت غلـــيلاً ولافْتكّـــتْ أســـيراً مُعـــذّبا

علمْتُك إن منيّتِ منيّتِ موعِـداً جَهامـــاً وإن أبْرَقْـــتِ أبرقـــتِ خُلّبـــا

---

١ - عبد الله بنشبرمة كان شاعرا ورعا ، كثير الصلاة وكرز بن وبره الحارثي العابد ومحمد بن طارق، وكان كرز إذا كان في سفر، واتخذ الناس منزلا اتخذ هو منزلا للصلاة، وكان يختم القرآن في كل يوم ثلاث ختمات.
وقالوا في ابن طارق لو اكتفى أحد بالتراب لكفاه كف من تراب، وكان يقدر طوافه حول البيت في اليوم عشر فراسخ

وكنت أرى أن الصّدود الذي مضى   دلالاً فـــما إن كـــان إلا تجنُّبـــا

فـوا أسـفي حتّـام أسـأَلُ مانعـاً   وآمَــنُ خوّانـــاً وأعتِـــبُ مُـــذْنبا

سأثني فؤادي عنك أو أتبع الهوى   إليـك إن اسـتعفى فـؤادي أو أبـى

حتى قال :

غداة لقيت الليث والليث مخدر   يحـــدد نابـــا للقـــاء ومخلبـــا

إذا شـاء غـادى صرمـة أو غـدا على   عقائـــل سرب أو تـــنقص ربربـــا [1]

والمعنى : إذا شاء أن يغدو على عقائل سرب غدا عليها .

وفي الحذف خبايا أخرى، منها أن المتكلم يدفع بالحذف توهما غير مراد يحمله الكلام، **ومن ذلك قول البحتري** :

وكم ذدت عني من تحامل حادث   وسَـــوْرة أيـــام حَـــزَزْن إلى العظـــم

حيث حذف لفظ (اللحم) لأن في ذكره ، يتسرب معنى بعض اللحم فلما أراد دفع هذا التوهم حذف لفظ اللحم ، وهجم على العظم ، كـأن الحـز أسرع في اللحم حتى انتهى إلى العظم .

---

١ - والليث المخدر: المقيم في عرينه، وغادى صرمة، أي: باكر جماعة من الإبل أو حمر الوحش، وعقائل السرب كرائم القطيع من الظباء، وتنقص ربربا أي: أتى على قطيع من بقر الوحش، وتخطف منه وافترس.

ومن لطيف الحذف أيضا قول البحتري :

قد طلبنا فلم نجد لك في السؤ ... دد والمجـــــد والمكــــارم مِـــثْلا

المعنى: قد طلبنا لك مثلا في السؤدد والمجد والمكارم، فلـم نجـد مـثلا فحذف المثل؛ لأنه لو ذكره لتسرب إلى الوهم أن له مثلا يبحـث عنـه ، وهـذا غير صحيح ، فحذف المثل المطلوب لأنه لا مثل له .

و يقول طفيل الغنوي :

جزى الله عنا جعفرا حين أزلفـت ... بنـــا نعلنـــا في الـــواطئين فزلـــت

أبــوا أن يملونــا ولــو أن أمنــا ... تلاقــي الــذي لا قــوه منــا لملــت

هم خلطونا بـالنفوس والجئـوا ... إلى حجـــرات أدفـــأت وأظلـــت

والمراد : لملتنا ، وأدفأتنا، وأظلتنا ، لأن هذا الرهط كلفـوا بنـي جعفـر الشيء الكثير الثقيل الذي لو كلفت به الأم لملت ، وليس بعد ذلك من ثقـل ، لأن العبء الذي يجعل كل أم تمل وليدها عبء لا يتحمله بشر ، فالأمهـات مفطورات على الصبر والتحمل في سبيل الأولاد ، فإذا أصابها المـلال فـاعلم أن الثقل لا يتحمل ، ولا تطيقه نفس بشرية .

وقد يكون حذف المفعول لقصد إلى التعمـيم في المفعـول **كـما في قولـه تعالى:**

﴿ وَٱللَّهُ يَدۡعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ .... ﴾ [سورة يونس:٢٥]

أي: يدعو كل أحد ، فالدعوة عامة لـذلك حـذف المـدعو،ليقبل كـل سامع .

وقد يكون الحذف بسبب التورع عن ذكر ما يستحى منه ، وعلى ذلك قول

السيدة عائشة – رضي الله عنها – أنها قالت: "ما رأيت منه، ولا رأى مني" تعني: العورة.وقالوا قد يكون الحذف للاختصار فقط بمعنى أن الغرض للفعل نفسه ، وليس للمفعول .

ومن ذلك قوله تعالى :

﴿...أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا ﴿٤١﴾﴾ [سورة الفرقان:٤١]

أي: بعثه الله. ولكنك حين تنظر ، وتوازن بين (أهذا الذي بعث الله رسولا) و (أهذا الذي بعثه الله رسولا) لوجدت لفتة خفية ، وهي أن إنكارهم مبعثه ، جعلهم يفردون الفعل (بعث) عن الضمير الراجع إليه و وكأن في هذا الحذف إنكار ، ولكنه من نوع آخر ، هو تجريد له من البعث ، هو حذف للضمير من اللفظ حتى لا يلتصق البعث بالضمير العائد عليه ولو لفظا ، وتلك عجيبة من عجائب اللغة .

وقوله تعالى:

﴿....فَلَا تَجْعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [سورة البقرة:٢٢]

أي: وأنتم تعلمون أنه لاند له ، **وكذلك قوله تعالى :**

﴿ وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِى حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾ فَسَقَىٰ لَهُمَا ..... ﴾ [سورة القصص:٢٣-٢٤]

حيث حذف لفظ (الإبل) من جملة السقي اختصارا وكذا **في قوله تعالى:**

﴿ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ..... ﴾

[سورة الإسراء:١١٠] أي سموه الله أو الرحمن.

وقد يكون حذف المفعول راجعا إلى نظم الكلام ورعاية فواصلة ، ومن **ذلك قوله تعالى** :

﴿وَٱلضُّحَىٰ ۝١ وَٱلَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣﴾ [سورة الضُّحى:١-٣]

لأن المفعول يخرج بالنغم إلى دائرة إيقاعية أخرى، والإيقاع في القرآن الكريم رافد من روافد المعنى، ولا ينبغي إغفاله، لذلك لو قلت : (والضحى والليل إذا سجى ما ودعك ربك وما قلاك) لوجدت وحشة في أذنك ، ونفورا في طبعك . يقول الشيخ (ومن الواضح أن أسلافنا درسوا النغم، والألحان وآثارها النفسية، وفلسفتها البيانية، وبينوا كيف تعمل النغمات عملها في تحريك النفوس، وبعث العزائم نحو الأعمال الشاقة، وكيف تقوي عزماتها على ما تبذل فيه المهج، وذكروا الألحان المستحبة، وألحان الحروب وذكروا مصاحبة الغناء للألحان، ورتلوا أناشيد الحروب المصحوبة بضرب الدفوف، وذكروا أن من الأوزان والإيقاعات ما يثير الأحقاد الكامنة، ويلهب نيران الغضب، ومن الأوزان والأنغام ما يسكن سورة الغضب، ويذهب بالأحقاد ويوقع الصلح، وقالوا: النغم فضل بقي من المنطق لم يقدر اللسان على استخراجه، فاستخرجته الطبيعة بالألحان على الترجيع لا على التقطيع، فلما ظهر عشقته النفس، وحن إليه القلب، وغير ذلك كثير مما يخصب النفس، ويعمق فهمها للأساليب.

وقد أقام القرآن أسلوبه على نظام من التآلف الصوتي العجيب لوحظ ذلك في حروفه، وكلماته، وجمله، وصارت أصواته كما يقول المرحوم الرافعي: ألحانا لغوية رائعة كأنها لائتلافها وتناسبها قطعة واحدة ، قراءتها هو توقيعها.

والرماني ذكر التلاؤم في القرآن، وعده وجها من وجوه إعجازه، وهو مما نحن فيه.

والقول في هذا يطول وبسطه يحتاج إلى دراسات مستقلة، وحسبنا في سياقنا ما ذكرناه من أنه لا ضير على بلاغة القرآن من القول بأن الحذف هنا لمراعاة فواصل الآيات، مع إفادته ما يمكن أن يفيده في سياقه من أغراض أخرى[1].

ومن حذف المفعول الثاني قول الشاعر :

دعاني يزيد بعد ما ساء ظنه ... وعبس وقد كانا على حد منكب

وقد علما أن العشيرة كلها ... سوى محضري من حاضرين وغيب

فالمفعول الثاني من "علما" محذوف، وتقدير الكلام : قد علما أن العشيرة سوى محضري من حاضرين وغيب لا غناء عندهم ، أو سواء حضورهم وغيبتهم .

١ - خصائص التراكيب ٣٥٤.

وقد يعمد الشاعر إلى حذف المفعول لأنه مذكور من بعد ذلك، والرغبة في إيقاع الفعل على صريح اللفظ أولى ، **ومن ذلك قول البحتري** :

قد طلبنا فلم نجد لك في السؤ دد والمجد والمكارم مثلا

قالوا : المعنى : قد طلبنا لك مثلًا "فلم نجده" ، وهذا عندي غير وجيه لأنه لا مثل له ولو كان المعنى قد طلبنا مثلا فلم نجده ، لتوهم الذهن أن له مثلا لكنهم لم يعثروا عليه ، فالحذف يرشدنا إلى أن وجود المثل غير متوقع ، فهم طلبوا كل شيء ، لكنهم لم يجدوا له نظيرا ، وهذا أولى من تأويل الحذف أولا لوجوده .

وفي قول الله تعالى :

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ .....﴾ [سورة الحُجُرات:١]

يقول الزمخشري: وفي قوله تعالى:

{**لَا تُقَدِّمُوا۟**} من غير ذكر مفعول، وجهان : أحدهما: أن يحذف ليتناول كل ما يقع في النفس مما يُقدَّم، والثاني: ألا يقصد قصد مفعول ، ولا حذفه ويتوجه بالنهي إلى نفس التقدمة، كأنه قيل: لا تقدموا ، على التلبس بهذا الفعل ولا تجعلوه منكم بسبيل، **كقوله تعالى:**

﴿ **وَهُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ** .... ﴾ [سورة المؤمنون:٨٠]

ويجوز أن يكون من قدم بمعنى: تقدم ، وهذا يوحي بأن من يتقدم بين يدي الرسول - ﷺ - إنما هو تقدم بين يدي الله .

التقديم في المتعلقات

التقديم والتأخير باب اشتهر في أحوال المسند إليه ، وذكر عبد القاهر له مقدمة ، وفصَّل فيه الكلام حتى غطى على غيره ، لكن في أحوال متعلقات الفعل يبقى حديث آخر في التقديم والتأخير ، حديث عن مكان الفعل من الفاعل والمفعول ، والأصل في ترتيب الجملة الفعلية ، أن تبتدأ بالفعل ، فالفاعل فالمفعول ، فالتوابع الأخرى مثل الحال ، فالنعت ، فالبدل ، فالتوكيد .... إلخ .

والمرتكز الذي يدور الحديث عنه هنا هو الفعل، فإما أن تقدم الفاعل عليه كما في **قوله تعالى:**

﴿ ٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ .... ﴾ [سورة الرعد:٨]

﴿ ....وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ .... ﴾ [سورة الأحزاب:٤]

﴿ ....ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴿٤٠﴾ ﴾ [سورة آل عمران:٤٠]

أو تقدم المفعول على الفعل **كما في قوله تعالى** :

{إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ} الفاتحة ٥ الفاتحة ،

أي: نخصك بالعبادة، وبالاستعانة، **وقوله تعالى** :

﴿ ....إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١٧٢﴾ ﴾ [سورة البقرة:١٧٢]

أي : إن كنتم تخصونه وحده بالعبادة .وهذا واضح، ولا شائبة فيه لكن الذي يحتاج إلى بيان هو أن يأتي المتعلق مرة مقدما، وأخرى مؤخرا ، مثل

قوله تعالى :

﴿.....لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا .....ۗ﴾

[سورة البقرة:١٤٣]

حيث تقدمت الشهادة في أول الآية ، وتأخرت في آخرها ، وعلة ذلك أن المقصد في قوله : (لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ) الإخبار بشهادتهم على كل الناس ، لكن المقصد في : (وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا) أي خاصة وليس غيره فالاختصاص هنا أحدث هذا التغيير .

وفي قوله تعالى :

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ .....ۚ﴾ [سورة الروم:٢٧]

تقدم لفظ (أهون) على الجار والمجرور (عليه) ،**وفي قوله تعالى:** ﴿ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا ﴿٨﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا ﴿٩﴾﴾ [سورة مريم:٨-٩]

تقدم الجار والمجرور (عليَّ) وقيل : (هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ) ، وهذا عكس الموضع السابق ، لأن المقصود هنا هو الاختصاص [١].

١ - إن قلت: لم أخرت الصلة هاهنا وقد قدمت في قوله تعالى هو علي هين؟ قلت: لأن المقصود مما نحن فيه خلاف المقصد هناك، فانه اختصاص الله تعالى بالقدرة على إيلاد الهم والعاقر، وأما المقصد هنا فلا معنى للاختصاص فيه، كيف والأمر مبنى على ما يعتقدونه في الشاهد من أن الاعادة أسهل من الابتداء، فالاختصاص بغير المعنى» قال أحمد: كلام نفيس يستحق أن يكتب بذوب التبر لا بالحبر، وإنما يلقى الاختصاص من تقديم ما حقه أن يؤخر، وقد علمت مذهبه في مثل ذلك.

وفي قوله تعالى :

﴿ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ ٱلۡجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴿٣١﴾ ثُمَّ فِي سِلۡسِلَةٖ ذَرۡعُهَا سَبۡعُونَ ذِرَاعٗا فَٱسۡلُكُوهُ ﴿٣٢﴾ ﴾

[سورة الحاقة:٣٠-٣٢]

أي : لا تصلوه إلا الجحيم ، ولا تسلكوه إلا في هذه السلسلة .

تقديم المتعلقات بعضها على بعض :

التقديم بين المتعلقات تابع لغرض المتكلم ، وسياق الكلام **ففي قوله تعالى :**

﴿.....وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَوۡلَٰدَكُم مِّنۡ إِمۡلَٰقٖ نَّحۡنُ نَرۡزُقُكُمۡ وَإِيَّاهُمۡ .....﴾

[سورة الأنعام:١٥١]

وقوله في آية أخرى:

﴿ وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَوۡلَٰدَكُمۡ خَشۡيَةَ إِمۡلَٰقٖ نَّحۡنُ نَرۡزُقُهُمۡ وَإِيَّاكُمۡ .... ﴾ [سورة الإسراء:٣١]

تجده قدم ضمير الأولاد على ضمير المخاطبين في (نرزقهم وإياكم) وقدم ضمير المخاطبين على ضمير الأولاد في (نرزقكم وإياهم) وذلك تابع لحالة الفقر في السياقين لأن الخطاب في الأولى للفقراء بدليل قوله: (مِّنۡ إِمۡلَٰقٖ) وهذا يعني أن الفقر كائن موجود ، فكان انشغالهم برزقهم أولا أهم فقدم الأهم عندهم على غيره وهو الوعد برزقهم وتأخر الوعد برزق أولادهم لأنه أقل في الأهمية ، أما في قوله (نحن نرزقهم وإياكم) كانت الخشية من الإملاق والخشية تكون لشيء لم يقع ، لذلك قدم الوعد برزق أولادهم على الوعد برزقهم.

ومثله قوله تعالى:

﴿ لَقَدْ وُعِدْنَا هَٰذَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ ..... ﴾ [سورة النمل:٦٨]

وفي سورة المؤمنين:

﴿ لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا هَٰذَا مِن قَبْلُ ...... ﴾ [سورة المؤمنون:٨٣]

قال الزمخشري: (فإن قلت: قدم في هذه الآية يعني آية النمل، (هـذا) على (نحن وآباؤنا) وفي آية أخرى قدم (نحن وآباؤنـا) عـلى (هـذا) ، قلـت: التقديم دليل على أن المقدم هو الغرض المعتمد بالذكر، وأن الكلام إنما سـيق لأجله، ففي إحدى الآيتين دل على أن اتخاذ البعث هو الـذي تعمـد بـالكلام وفي الأخرى على أن اتخاذ المبعوث بذلك الصدد، أراد أن كلمة -هذا- تشير إلى البعث بعد الموت ، وفي الآية التي ينصب فيها الحديث على استبعاد البعث ، وأنه محال في نظرهم قدم ما يشير إليه أي قولهم هذا، **انظر إلى سياق الآية:** {وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا وَآبَاؤُنَا أَئِنَّـا لَمُخْرَجُـونَ، لَقَـدْ وُعِـدْنَا هَذَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ} .

تجد أن الشبهة المستحكمة هي أنهم صاروا هم وآباؤهم ترابـا، ويبعـد عندهم أن يبعثوا بعد صيرورتهم ترابا، والآية الثانية سياقها هكذا:

﴿ بَلْ قَالُوا۟ مِثْلَ مَا قَالَ ٱلْأَوَّلُونَ قَالُوٓا۟ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٨٢﴾ لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا هَٰذَا مِن قَبْلُ .... ﴾ [سورة المؤمنون:٨٣]

تجد أنها تشير إلى أصالتهم في العناد والكفر، وأن التقليد ومحكاة الآبـاء

هو الأمر المستحكم عندهم، يقولون: المقالة الموروثة مغمضين عيونهم عن الآيات ، والحجج التي تخاطب العقول، **فقد قال لهم قبل أن يقول هذه المقالة**

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٩﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ وَلَهُ ٱخْتِلَٰفُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٨٠﴾ بَلْ قَالُوا۟ مِثْلَ مَا قَالَ ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٨١﴾ قَالُوٓا۟ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا .... ﴾ [سورة المؤمنون:٨٢]

فهم لم يهتموا بالأدلة المساقة ولم يناقشوها ؛ لأن قلوبهم انطوت على مقالة الأولين فقالوا : لقد وعدنا نحن وآباؤنا هذا، وفيه من الدقة والإحساس بأخفى ما في السياق ما ترى) (١).

وقد يكون التقديم حاميا للمعنى من اللبس **كما في قوله تعالى:**

﴿ وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ .... ﴾ [سورة غافر:٢٨]

فلو قيل : وقال رجل مؤمن يكتم إيمانه من آل فرعون، لظن الظان أن الرجل من قوم موسى ، وأنه يخشى من آل فرعون فكتم إيمانه ، وهذا غير مراد .

١ ـ الكشاف ١/ ٢٦٥ وخصائص التراكيب ٣٦٥.

وقد يشير التقديم إلى أن المقدم أسبق في الفضل والثواب من المؤخر **كما في قوله تعالى:**

﴿ وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴾ [سورة الحج:٢٧]

فالذي يذهب راجلا ، أي ماشيا إلى الحج أعظم أجرا ممن يذهب طائرا في طائرة ، أو راكبا سفينة ، أو حافلة ، أو غير ذلك فالثواب على قدر المشقة وكما أن الله تعالى يقدر الليل والنهار ، كذلك يقدر الراكب والماشي ، فقدم الماشي على الراكب لأنه أرفع أجرا من غيره ، ومن هذا الباب قدم الإنس على الجن في القرآن الكريم **مثل قوله تعالى :**

﴿ ....لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ ﴿٥٦﴾ ﴾ [سورة الرحمن:٥٦]

وقوله: ﴿ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْأَلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ ﴿٣٩﴾ ﴾ [سورة الرحمن:٣٩]

وقوله: ﴿ وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن تَقُولَ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴿٥﴾ ﴾ [سورة الجن:٥]

وحين يكون السياق سياق زجر أو أمر بالامتثال يقدم الجن على الإنس **كما في قوله تعالى :**

﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ ﴾ [سورة الذاريات:٥٦]

وقوله :

﴿ يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُوا۟ ۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ ﴿٣٣﴾ ﴾ [سورة الرحمن:٣٣]

وتضاد الأسبقية في الفضل الأسبقية في الإثم ، فقد ترتب المعاني بحسب الأكثر والأشد جرما، **كما في قوله تعالى :**

﴿ وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ﴿١٠﴾ هَمَّازٍ مَّشَّآءٍ بِنَمِيمٍ ﴿١١﴾ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ عُتُلٍّ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ﴿١٣﴾ ﴾ [سورة القلم: ١٠-١٣]

فالحلاف أسوأهم لذلك وصف بأنه مهين ، ويليه في السوء الهماز المشاء بنميم ، ويلي ذلك في السوء المناع المعتد الأثيم ، فكل وصف أدمج فيه ما لا ينفك عنه ، حتى تعلم أنه لا هماز إلا وهو مشاء بنميم ، ولا مناع للخير إلا وهو معتد أثيم . وهكذا .

أما ترتيب المحبوبات فمن أمثلته قوله تعالى:

﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴿١٤﴾ ﴾ [سورة آل عمران: ١٤]

وهذه شهوات مستحبة مستلذة وليست مستقذرة ولا كريهة. والتعبير لا يدعو إلى استقذارها وكراهيتها إنما يدعو فقط إلى معرفة طبيعتها وبواعثها ووضعها في مكانها لا تتعداه، ولا تطغى على ما هو أكرم في الحياة وأعلى. والتطلع إلى آفاق أخرى بعد أخذ الضروري من تلك «الشَّهَواتِ» في غير استغراق ولا إغراق! وهنا يمتاز الإسلام بمراعاته للفطرة البشرية وقبولها بواقعها، ومحاولة تهذيبها ورفعها، لا كبتها وقمعها..[1]، وهذه الشهوات متفاوتة في درجات الحب والميل الفطري ، ولذلك قدم الأكثر حبا على ما دونه ، وجاءت النساء في المرتبة الأولى ، وهذا لا يختلف عليه أحد ، وتلي هذه

١ - في ظلال القرآن ١/ ٣٧٤.

الشهوة شهوة حب البنين ، فالمال ، وعد أنواع المال فقدم أحبهم إلى النفس وهو الذهب فالفضة فالخيل فالأنعام فالحرث ،وهكذا ترى النفس تتنزل من محبوب إلى ما هو أقل منه من حيث الشهوات .

وهناك ترتيب آخر إذا تعلق الأمر بأحوال الناس من حيث قربهم أو بعدهم عن الله تعالى ، حيث ترى الترتيب يقدم الأكثر عددا ، فالأقل عددا فالنادر عددا ، وذلك إذا كان الحديث عن الاصطفاء ، **قال تعالى** :

﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾ ﴾

[سورة فاطر:٣٢]

فالظالم لنفسه هو الأعم الأغلب، يليه المقتصد،يليه السابق بالخيرات .

ومن وجوه الترتيب ترتيب الأقارب الذين يفر الإنسان منهم يوم الكرب **وذلك في قوله تعالى** :

﴿ فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ ﴿٣٣﴾ يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾ ﴾ [سورة عبس:٣٣-٣٧]

والصاخة لفظ ذو جرس عنيف نافذ، يكاد يخرق صماخ الأذن، وهو يشق الهواء شقا، حتى يصل إلى الأذن صاخا ملحا! «وهو يمهد بهذا الجرس العنيف للمشهد الذي يليه: مشهد المرء يفر وينسلخ من ألصق الناس به:

«يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ، وَصاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ» .. أولئك الذين تربطهم به علاقات لا تنقطع أبدا ، لكن يوم القيامة وعند سماع هذا الصوت الصاخة)

عندها تنحل هذه الروابط فلكل نفس ما يشغلها «لِكُلِّ ٱمۡرِيٕٖ مِّنۡهُمۡ يَوۡمَئِذٖ شَأۡنٞ يُغۡنِيهِ» ..لكن الفرار يومئذ يبدأ من الأخ ، فيفر المرء من أخيه ، لأنه بالنسبة لمن ذكروا هو الأقل رابطة ، والأهون على النفس ، ثم يكون الفرار من الأم والأب ، ثم يكون الفرار من الزوجة ، ثم يكون الفرار أخير من الأبناء وهذا الترتيب يوضح مدى احتياج الإنسان لكل منهم ، ورغبته في الانتفاع بهم فانتفاعك بالأخ لا يكون كانتفاعك بالأبناء ، ولهذا رتبت هذه الأصناف بحسب ظن الإنسان أنه سينتفع بكل منهم .

نسأل الله تعالى السداد والرشاد ، والنجاة يوم لا ينفع مال ولا بنون والحمد لله أولا وأخرا .

أ. د . سعيد جمعة

عميد كلية الدراسات الإسلامية والعربية
مدينة السادات